

٤٥٤٢٥٨

الرسائل الديوانية في عصر هارون الرشيد

٩٨١/٥

٤١

إعداد :

٦١٣

الطالب رائد حسين حسن النباتي

إشراف :

الدكتورة عصمة غوشة
معيدة كلية الدراسات العليا

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير في

اللغة العربية وآدابها

كلية الدراسات العليا

الجامعة الأردنية

آب / ١٩٩٨

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

﴿رب اشرح لي صدري * ويسر لي أمري
* واحلل عقدة من لساني﴾

(سورة طه ٢٥ - ٢٧)

٤٩٤٨٥٨

نوقشت هذه الرسالة ، وأجيزت بتاريخ ١٩٩٨/٨/٥

أعضاء لجنة المناقشة

التوقيع

.....
.....
.....
.....

الدكتورة : عصمة غوشة (رئيسة)
الأستاذ الدكتور : محمد بركات أبو علي
الأستاذ الدكتور : صلاح جزار
الدكتور : سمير الدروبي (جامعة مؤتة)

الإهداء

إلى معلمي الأول الذي غرس فيّ العزمَ والتصميم وحب العلم ...

إلى أبي

إلى نبع الحنان التي حملتني صغيراً واحتملتني كبيراً ...

إلى أمي

إلى إخوتي وأخواتي ...

شكر وتقدير

بعد أن فرغت من إنجاز هذا العمل ، أجد من واجب الوفاء والاعتراف بالفضل الجميل أن أتوجه بعظيم الشكر ووافر الامتنان للأستاذة المشرفة التي أولتني رعايتها واهتمامها وأعطتني من جهدها ووقتها في تتبع الكثير من القضايا وتذليل الكثير من العقبات التي واجهتني في اعداد هذا البحث .

كما أتوجه بالشكر الجزيل إلى أساتذتي الأجلاء ، الأستاذ الدكتور محمد بركات أبو علي، والأستاذ الدكتور صلاح جرار ، والأستاذ الدكتور سمير الدروبي الذين تفضلوا بمناقشة هذا البحث وتقويمه بملاحظاتهم القيمة .

وأنتدم بالشكر إلى الأخوة الأفاضل في مكتبة الجامعة الأردنية وأخص منهم السيد عبد الله حسن دمدوم لدوره الفاعل في تزويدي بالمادة العلمية الخاصة بهذا البحث .

رائد النبتيتي

فهرس المحتويات

الصفحة

الموضوع

ب من آي الذكر الحكيم
ج قرار لجنة المناقشة
د الإهداء
هـ شكر وتقدير
و - ح المحتويات
ط - ي الملخص باللغة العربية
ك - س المقدمة
١ - ١٩ التمهيد
٢ ديوان الرسائل وأهميته في خلافة الرشيد
١١ مفهوم الرسالة الديوانية
١٣ أهميتها
١٥ عوامل ازدهار الكتابة الديوانية

الفصل الأول

٢٠ - ٩٠

موضوعات الرسائل الديوانية في عهد الرشيد

٢١ أولاً : الرسائل السياسية
٢١ أ- المخاطبات الاعلامية
٢١ ١- المبايعات
٢١ * المبايعات للخليفة
٢٣ * المبايعات بولاية العهد
٢٢ ٢- المنشورات
٢٦ ٣- البشارات
٢٧ ب- الصراعات والفتن الداخلية

٣٨	١- الصراع مع العلويين.....
٤٢	٢- الصراع مع الخوارج.....
٤٩	٣- فتنة خراسان.....
٥٥	ج- نكبة البرامكة.....
٦٣	د- العلاقات الخارجية.....
٦٨	ثانياً : شؤون الإدارة.....
٦٩	أ- التعيين والتولية.....
٧٠	ب- العزل.....
٧٢	ج- الاستعفاء.....
٧٢	د- العطاء.....
٧٤	هـ- القضاء.....
٧٦	و- الخراج.....
٧٨	ثالثاً : التوقيعات.....

الفصل الثاني

٩١ - ١٤٣

مشاهير كتاب الرسائل الديوانية في عهد الرشيد

٩٣	البرامكة.....
٩٤	يحيى بن خالد البرمكي.....
١١٦	جعفر بن يحيى البرمكي.....
١٣١	اسماعيل بن صبيح.....

الفصل الثالث

١٤٤ - ١٩٠

الخصائص الفنية للرسائل الديوانية في عهد الرشيد

١٤٥	مطالع الرسائل وخواتيمها.....
١٦٣	الألفاظ والعبارات.....
١٦٧	الإيجاز والإطناب.....
١٧٣	الصور البيانية.....

الصفحة	الموضوع
١٧٧	المحسنات البديعية.....
١٧٧	الطباق.....
١٨٠	المقابلة.....
١٨١	السجع.....
١٨٣	التأثر بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف.....
١٨٩	التنوع بين الشعر والنثر.....
١٩١	الخاتمة.....
١٩٣	قائمة المصادر والمراجع.....
٢٠٥	الملخص باللغة الانجليزية.....

الملخص

الرسائل الديوانية في عصر هارون الرشيد

إعداد الطالب :

رائد حسين حسن النبتي

إشراف الدكتورة :

عصمة غوشة

تناولت هذه الدراسة موضوع "الرسائل الديوانية في عصر هارون الرشيد" وقد نبعث أهمية هذه الدراسة من أهمية الرسائل نفسها ؛ فقد عبرت عن الحياة السياسية والإدارية والاجتماعية في المجتمع العباسي في عهد الرشيد ، ورسمت صورة واضحة المعالم لهذه الحياة. وكان لديوان الرسائل وغيره من الدواوين ، الدور الأكبر في إنشاء هذه الرسائل ، وقد بينت هذه الدراسة كيف كانت الكتابة جسراً يرتقي الكتاب من خلاله إلى مناصب رفيعة في الدولة، وقد يصل الأمر إلى اعتقالهم سدة الوزارة .

وقد واكبت الأحداث التاريخية التي عاشتها الدولة الإسلامية في عهد الرشيد، ومثلتها خير تمثيل ، وفي مقدمتها الصراع مع الخوارج والصراع مع العلويين ، ونكبة البرامكة . كما عبرت هذه الرسائل عن علاقة الدولة الإسلامية بدولة الروم بشقيها : السلمي والحربي.

كما ظهر في هذه الحقبة أنواع من المخاطبات الإعلامية ، - وكان على رأسها : المبايعات والمنشورات والبشارات - التي كشفت عن حرص الدولة على إدامة التواصل مع رعيها .

واستوعبت هذه الرسائل موضوعات إدارية عدة ، من أهمها : التعيين والعزل والاستعفاء والخراج والقضاء والعطاء .

وقد استظهرت هذه الدراسة ثلاثة من أعلام كتاب هذا العهد في الكتابة الديوانية ، فترجمت لحياتهم ، ووصفت أساليبهم ، وطرائقهم الفنية في التعبير عن موضوعاتهم التي عالجوها في رسائلهم .

كما تحرت عدداً من الخصائص الفنية التي امتازت بها هذه الرسائل ، فتحدثت عن مطالع الرسائل وخواتيمها ، وألفاظها وعباراتها ، وأساليبها ، وصورها البيانية ومدى إفادة الكتاب وتأثرهم بالتراث العربي الإسلامي ممثلاً بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والشعر العربي.

المقدمة

الحمد لله حمداً يكافئ عظيم منته ، ويوافي جليل نعمائه ، والصلاة والسلام على نبي الرحمة ، المبعوث إلى كافة الأمة ، وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، وبعد :

فقد كانت النهضة العلمية التي حققتها الدولة في عهد الرشيد أحد البواعث لي في البحث في الرسائل الديوانية التي صدرت عنها ؛ لأنها خير شاهد على الأوضاع السياسية والاجتماعية والفكرية التي آلت إليها الدولة الإسلامية في هذا العهد .

أضف إلى ذلك المتناقضات التي اجتمعت في شخص الرشيد ، فجعلت منه شخصيةً خلافاً ؛ فتارة تراه خليفةً يقظاً ساهراً على راحة رعيته وتارة تراه ورعاً تقياً تصوره الروايات بأنه كان يحج عاماً ويغزو عاماً ، وأخرى تراه خليفةً لاهياً لا يدع من سبل اللذة سبيلاً إلا سلكها؛ فمن غناء إلى طرب إلى شراب إلى عبث إلى استمتاع بالنساء ، وأحياناً تراه خليفةً قوياً شجاعاً يقود الجيوش ويقارع الأعداء ويخضعهم ويذلهم ، وأحياناً أخرى تراه حذراً يبتث العيون والجواسيس بين الناس حتى يعرف ما يدبر من مؤامرات ضده في جنح الظلام ؛ فيبطش بالمؤتمرين به بطشاً شديداً لم يستطع التاريخ أن ينساه ، وأحياناً يظهر في صورة العالم الأديب المشجع للعلماء والأدباء تشجيعاً أصبح فيه مثلاً يحتذى لمن جاء بعده من الخلفاء .

ويمتد عهد الرشيد من ١٧٠-١٩٣هـ ، وجاء اختياري لهذا العهد ليكون إطاراً زمنياً يحدد هذه الدراسة ؛ لأنه يمثل العصر الذهبي للخلافة العباسية بما بلغته من رفاهية وترف وقوة ومنعة ، كما أن اتساع الدولة في عهده أدى إلى إيجاد دواوين جديدة ؛ لتسهيل عملية الاتصال بين مركز الدولة في بغداد من جهة وبين الولايات من جهة أخرى ؛ فظهر عدد من الرسائل بين الولاية والدولة من ناحية ، وبين الولاية أنفسهم من ناحية أخرى ، أضف إلى ذلك أن الأمن والاستقرار بدأ يعم أرجاء الدولة في عهده ؛ فنشطت الحركة العلمية والأدبية نشاطاً واسعاً .

لكن عهده لم يخلُ من بعض الحروب ؛ ففي بعض الأحيان كانت تنشب حروب مع الروم على ثغور الدولة المتاخمة لدولة الروم ؛ فأوجد هذا عدداً من الرسائل الديوانية بين القواد ومركز الدولة في بغداد ، كما أوجد عدداً آخر من الرسائل التي صورت العلاقة السلمية والحربية بين الدولة الإسلامية والروم .

كذلك ينبغي ألا ننسى الثورات والفتن الداخلية التي كانت تثيرها بعض العناصر في هذا العهد ، والتي عمل الرشيد على إخمادها .

كل هذه الظروف شكلت روافد رفدت هذا الفن الذي مثلها خير تمثيل ، ورسم صورة صادقة لواقع الحياة في المجتمع العباسي في عهد الرشيد .

ومع ذلك فلم يحظ فن الرسائل الديوانية في هذا العهد بدراسة وافية مستقلة فيما أعلم من المصادر التي وقعت عليها يداي، وما جاء في ذلك لم يعدو أن يكون إشارات تناثرت هنا وهناك، لا تفي بالغرض، حيث جاءت هذه الإشارات في سياق السأريخ الأدبي ، ومن هذه الإشارات ما ورد في كتاب الدكتور شوقي ضيف : "العصر العباسي الأول" الذي تناول فيه جوانب الأوضاع السياسية والاجتماعية والإدارية والثقافية أثناء حديثه عن العصر العباسي بشكل عام ، وبرز دور الدواوين في ازدهار الكتابة ونشاطها في ذلك العصر ، كما تناول أبرز الكتاب النابهين في هذه الفترة ، وكان الكاتب يعرض في بعض الأحيان لبعض النواحي الأسلوبية عند هؤلاء الكتاب ، ومن هؤلاء الكتاب الذين تحدث عنهم في كتابه ، يحيى البرمكي وابنه جعفر وإسماعيل بن صبيح وعمر بن مهران وقمامة بن زيد وأنس بن أبي شيخ ومحمد بن الليث ، وغيرهم ، لكنه لم يفرد لأي من هؤلاء الكتاب ترجمة وافية خاصة بكل واحد منهم ، ونحن نلتمس له العذر لأن كتابه متخصص في تاريخ الأدب في العصر العباسي الأول .

ومن هذه الإشارات ما ورد في كتاب الدكتور محمود عبد الرحيم صالح "فنون النثر في الأدب العباسي" الذي أفرد فيه فصلاً تحدث فيه عن الكتابة الديوانية في العصر العباسي عامة ، والكتاب يتناول في بعض صفحاته التطورات الفنية التي طرأت على فن الرسائل الديوانية في العصر العباسي ، ونجد في هذا الكتاب نصوصاً لبعض الرسائل الديوانية شملت العصر العباسي بكل مراحلها ، ولكنه لم يفرد ترجمة خاصة لكتاب الرسائل الديوانية في عهد الرشيد .

ومنها ما جاء في كتاب الدكتور محمد الدروبي "الرسائل الفنية في العصر العباسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري" فقد تعرض فيه المؤلف لدراسة فن الرسائل في العصر العباسي بشكل عام حتى نهاية القرن الثالث الهجري ، مدرجاً الحديث عن الرسائل الديوانية بين ثنايا بحثه، وكان في بعض الأحيان يقف وقفات طويلة تارة وخاطفة تارة أخرى عند بعض الرسائل التي مثلت العهد الذي تناولته هذه الدراسة .

ولكن هذه الدراسات - على الرغم من الجهد المبذول فيها - لم تتطرق بشكل مفصل للرسائل الديوانية في عهد الرشيد فأردت أن أستكمل جهودهم في بحثي هذا .
ومن هنا فقد جاءت هذه الدراسة تحاول الإجابة عن تساؤلات منها :

ما أهمية الرسائل الديوانية في هذا العهد ؟

ما هي أهم موضوعات الرسائل الديوانية في هذا العهد ؟

ما هي السمات الفنية لهذه الرسائل ؟

ما هي التطورات التي لحقت بفن كتابة الرسائل الديوانية في هذا العهد ؟

من هم مشاهير كتاب الرسائل الديوانية في هذا العهد ؟

وعليه فإن البحث يهدف للخروج بصورة واضحة لفن الرسائل الديوانية في عهد هارون الرشيد وسماته الفنية .

وقد انتظم عقد هذه الدراسة في تمهيد وثلاثة فصول وخاتمة ؛ ففي التمهيد تحدثت عن ديوان الرسائل وأهميته في خلافة الرشيد ومن ثم عرضت لأهم تراثيه وكتابه الذين انتظموا للعمل فيه ، ومن ثم انتقلت للحديث عن مفهوم الرسالة الديوانية وبنيت أهميتها وعوامل ازدهارها .

أما الفصل الأول ، فقد اجتهدت فيه بتصنيف ما تجمع لدي من رسائل ديوانية حسب موضوعاتها ، وقد صنفتها في حزم متعددة جاء في مقدمتها الرسائل السياسية التي شملت موضوعات عدة أهمها المبايعات والمنشورات والبيانات ، ثم عرضت بعد ذلك إلى لون آخر من ألوان الرسائل السياسية ، وهو الرسائل التي صورت الفتن والصراعات الداخلية ، ومن ثم أخذت نفسي باستجلاء الرسائل التي عالجت نكبة البرامكة التي استأثرت بقسط وافر من الرسائل العائدة لهذه الحقبة ؛ ومن ثم عرضت للرسائل التي عبرت عن العلاقات الخارجية بين الدولة الإسلامية ودولة الروم .

ومن ثم تحريت أهم الموضوعات التي عالجتها الرسائل الإدارية ، كما تراءت من طائفة من النصوص التي وصلت إلينا ، وعلى رأسها : التعيين والعزل والاستعفاء والخراج والقضاء والعطاء .

وبعد ذلك استظهرت أهم الموضوعات التي عالجتها التوقيعات العائدة لهذه المدة ، وقد استشهدت لكل موضوع من هذه الموضوعات بما يفي بالغرض من نصوص الرسائل التي عبرت عن كل واحد منها .

أما الفصل الثاني ؛ فقد نهضت فيه للحديث عن ثلاثة من أبرز أعلام الكتابة الديوانية في هذا العهد ، وهم : يحيى البرمكي ، وابنه جعفر ، وإسماعيل بن صبيح ، مترجماً لحياتهم ، واصفاً السمات الفنية الخاصة لكل منهم في كتابة الرسائل الديوانية، ومساهمة كل منهم في كتابتها.

وأما الفصل الثالث ؛ فقد تحدثت فيه عن السمات الفنية للرسائل الديوانية من حيث المطالعُ والخواتيمُ ، والألفاظ والعبارات ، والإيجاز والإطناب ، والصور البيانية ، والمحسنات البديعية ، والتأثر بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ، مقتصرأ الحديث عن بعض القضايا التي حسبت أنها تفي بالحاجة ، وما كنت أشعر به أن هذه القضايا هي السمات الحقيقية لهذه الرسائل في هذا العهد .

أما الخاتمة ، فقد أوجزت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها من خلال تطوافي في هذه الرسائل من حيث أهميتها وأساليبها وسماتها الفنية .

وقد تنوعت مصادر الرسائل الديوانية العائدة لهذه الحقبة ، ولعل في مقدمتها تاريخ الطبري الذي ضم بين دفتيه عدداً من هذه الرسائل بنصوصها الكاملة ، كما أفدت منه كثيراً في الإحاطة بالمادة التاريخية التي كنت أتكئ عليها كثيراً في هذه الدراسة ، خاصة عند الترجمة لأعلام الكتابة الديوانية في هذا العهد .

ويأتي بعد تاريخ الطبري كتاب الوزراء والكتاب للجهشياري ، الذي بث فيه المؤلف عدداً من الأحداث التاريخية دون ترتيب ، كما ضم بين دفتيه عدداً من الرسائل والأقوال المأثورة لعدد من الكتاب الذين ترجمت لهم مما ضنت علينا به المصادر الأخرى .

ثم كتاب تاريخ بغداد للخطيب البغدادي وكتاب وفيات الأعيان لابن خلكان اللذان تضمنتا ترجمة وافية لعدد من كتاب هذا العهد .

ثم يأتي بعد هذه المصادر مصادر أخرى من أمثال الكامل في التاريخ لابن الأثير ، والعقد الفريد لابن عبد ربه ، والبيان والتبيين للجاحظ ، وغيرها من المصادر التي لا غنى للباحث عنها عند دراسة هذه الحقبة من الزمن ، مما أثبتته في قائمة المصادر والمراجع في ختام هذه الدراسة .

أما عن المنهج الذي احتديته في دراستي هذه ، فقد أفدت فيه من معطيات مناهج شتى ، حسبما تدعو إليه طبيعة البحث ؛ فقد أخذت نفسي بالمنهج التحليلي في تحليل النص وسبر أغواره ، وتعرف خصائصه الأسلوبية ومحاولة الحكم عليه وتقويمه تقويماً فنياً ، واهتديت بالمنهج الوصفي حين حاولت ترصد الظاهرة في وسطها الأدبي ، وتلمس وجودها في النصوص وبيان ثرائها وتنوعها أسلوبياً ومضموناً ؛ واستندت إلى المنهج التاريخي في سلسلة الظاهرة الأدبية زمانياً لمعرفة مدى التطور الذي لحق بها .

ولست أدعي أنني أحطت بجميع جوانب هذا الموضوع ، وأن نتائجه خالية من العثرات بريئة من الخلل ، بل إن كل ما فيه قابل للمناقشة والتمحيص ، ولكنني أمل أن أكون قد ساهمت بجهد

متواضع في خدمة الدراسات الأدبية ؛ فإن أصبت فليله المنة والفضل ثم للأسناذة المشرفة ؛ وإلا فحسبي أنني اجتهدت ، ولكل مجتهد نصيب .

وأخيراً أقول : أرجو من الله أن يكون في هذه الدراسة ما هو جديد ، وأن تتبعا دراسات تكمل ما فيها من نقص ؛ سواءً عن طريق الإضافة والاستدراك أو عن طريق التقويم والتصحيح ؛ فما نحن إلا بشر ، يصدق فينا قوله تعالى :

"وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً"

التمهيد

١- ديوان الرسائل وأهميته

٢- الرسائل الديوانية مفهومها وأهميتها وعوامل ازدهارها

بسم الله الرحمن الرحيم

بلغت صناعة الكتابة في العصر العباسي من الشرف والرفعة ما لم تبلغه في أي عصر من العصور ؛ ولذلك عُدَّت "من أشرف الصنائع وأرباحها" (١) .

وكان الخلفاء يقدمون الكتاب ويعرفون فضلهم وفضل صناعتهم ، فالكتاب "نظام الأمور ، وجمال الملك وبهاء السلطان ، وخرزان أمواله ، والأمناء على رعيته وبلاده، وهم أولى الناس بالحباء والإكرام ، وأحقهم بمحبة السلامة" (٢) .

وقد بلغ الكتاب في هذا العصر شأواً كبيراً ، وتدرجوا في مناصب رفيعة في الدولة ، وما كل هذا إلا لتقدير الخلفاء لهم ولصناعتهم .

ديوان الرسائل وأهميته في خلافة الرشيد

يعتبر ديوان الرسائل من الدواوين الهامة في الدولة لأنه يختص بالمكاتبات والرسائل الصادرة عنها ؛ وكانت تجري فيه كتابة العهود ونسخ بيعات الخلفاء ، يقول القلقشندي : "إن الأمور السلطانية من المكاتبات والولايات تبدأ عنه وتتشأ منه" (٣) .

إضافة إلى أنه كان يستقبل الرسائل القادمة على دار الخلافة من الأقاليم ومن الدول الأخرى ، ويتولى فضئها وعرضها على الخليفة للنظر فيها (٤) .

وقد بدأت عناية العباسيين بهذا الديوان أثناء الدعوة العباسية ، إذ يذكر الجهشيارى أن أبا مسلم الخراساني أنشأ ديواناً للرسائل عهد به إلى أسلم بن صبيح (٥) ، لكن هذا الديوان لم يكن

(١) القلقشندي - صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، ج١ ، ص ١٢٦ .

(٢) علي بن خلف الكاتب - مواد البيان ، ص ٤٥ ، وانظر القلقشندي - صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ٧٣ ، والنص مع اختلاف يسير في : الجهشيارى - الوزراء والكتاب ، ص ٤ .

(٣) القلقشندي - صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ١٢٤ .

(٤) الطبري - تاريخ الطبري ، ج ٣ ، ص ٢٦٠ ، وانظر الصولي - أدب الكتاب ، ص ١٢٧ .

(٥) الطبري - تاريخ الطبري ، ج ٤ ، ص ٣١٢ ، وانظر الجهشيارى - الوزراء والكتاب ، ص ٨٥ ، وانظر د . حسين الكساسبة - المؤسسات الإدارية في مركز الخلافة العباسية ، ص ١٤١ ، أسلم بن صبيح ، عمل في خدمة العباسيين منذ بدء دولتهم ، أعجب به أبو مسلم الخراساني فعينه عام ١٢٩ هـ على رسائله قبل قيام الدولة العباسية ، انظر الطبري - تاريخ الطبري ، ج ٤ ، ص ٣١٢ ، الجهشيارى - الوزراء والكتاب ، ص ٨٥ .

منظماً ، وقد انتظم أمره واستقر في عهد أبي جعفر المنصور الذي أفرد له مكاناً جعله قريباً من قصره في بغداد وعهد به إلى أبان بن صدقة^(١) .

وفي عهد المهدي دخل تطور ملحوظ على تنظيم هذا الديوان ؛ فقد أصبح باستطاعة من يتولاه أن يستخلف عليه من يريد ، وقد فصلت المراسلات الخاصة بالخليفة عن مراسلات الدولة^(٢) .

وفي عهد الرشيد زاد الاهتمام بهذا الديوان وبتنظيمه ، وقد وكل الرشيد أمره إلى البرامكة ، بحبي وولديه الفضل وجعفر الذين فوض إليهم أمر دولته ، ويذكر بعض المؤرخين أن الرشيد عندما تولى الخلافة ، قال ليحيى البرمكي :

يَا أَبَتِ ، أَنْتَ أَجْلَسْتَنِي هَذَا الْمَجْلِسَ بِبِرْكَةِ رَأْيِكَ ، وَحُسْنِ تَدْبِيرِكَ ، وَقَدْ قَلَّدْتُكَ أَمْرَ الرِّعِيَّةِ ، وَأَخْرَجْتَهُ مِنْ عُنُقِي إِلَيْكَ ؛ فَاحْكُمْ بِمَا تَرَى مِنَ الصَّوَابِ ، وَاسْتَعْمِلْ مَنْ رَأَيْتَ وَأَعَزِّلْ مَنْ رَأَيْتَ ، وَأَفْرِضْ مَنْ رَأَيْتَ ، وَأَسْقِطْ مَنْ رَأَيْتَ ؛ فَإِنِّي غَيْرُ نَاطِرٍ مَعَكَ فِي شَيْءٍ"^(٣) . ودفع إليه بخاتمه ليختم به الرسائل^(٤) .

وانطلق البرامكة يديرون دولة الرشيد ، يعينون ويفرضون من يشاؤون وقد أولى الرشيد رجال دولته من البرامكة جُلَّ عنايتهم لديوان الرسائل، فاخاروا له من الكتاب من أئقن صناعة الكتابة ، وتمرس بالبلاغة والفصاحة ؛ ذلك أنهم يعلمون أن "كتاب الرسائل تراجمة الملوك"^(٥) كما كان يسميهم الفرس. وقد قيل: "كتاب الملوك عيونهم الناظرة ، وآذانهم الواعية ، وألسنتهم الناطقة"^(٦) لذلك لم يتبوأ الكتابة في ديوان الرسائل إلا من يوثق به من الكتاب.

(١) الجهشيارى - الوزراء والكتاب ، ص ١٢٤ وانظر د. حسين الكساسبة - المؤسسات الإدارية في مركز الخلافة العباسية ، ص ١٤١ ، أبان بن صدقة : كتب لأبي أيوب المورباني وزير المنصور، وسعى عليه عند أبي جعفر المنصور ، ولما نكب أبو أيوب عينه المنصور على ديوان الرسائل ، وعندما تولى المهدي الخلافة خصه بابنه الهادي وقلده كتابته ، وفي عهد الهادي تقلد ديوان الرسائل ، توفي أبان سنة سبع وستين ومائتين وهو على رسائل الهادي بجرجان ، انظر الطبري - تاريخ الطبري ، ج ٤ ، ص ١٤٤ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ٤٦٢ ، ٥١١ ، ٥٥٥ ، ٥٦٣ ، ٥٦٦ ، ٥٨٠ ، وانظر الجهشيارى - الوزراء والكتاب ، ص ١١٥ ، ١١٦ ، ١٢٤ ، ١٤٦ ، ١٥٥ .

(٢) ابن الأثير - الكامل ، ج ٥ ، ص ٢٤٥ وانظر د. حسين الكساسبة - المؤسسات الإدارية في مركز الخلافة العباسية ، ص ١٤١ .

(٣) الجهشيارى - الوزراء والكتاب ، ص ١٧٧ ، وانظر الطبري - تاريخ الطبري ، ج ٤ ، ص ٦١٩ ، والمسعودي - مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ج ٣ ، ص ٣٤٨ ، مع اختلاف يسير عند المسعودي .

(٤) المسعودي - مروج الذهب ، ج ٣ ، ص ٣٤٨ ، وانظر الطبري - تاريخ الطبري ، ج ٤ ، ص ٦١٩ .

(٥) الجهشيارى - الوزراء والكتاب ، ص ٣ .

(٦) ابن عبد ربه - العقد الفريد ، ج ٤ ، ص ٢٦١ ، وانظر القلقشندي - صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ٧٢ .

وقد كان البرامكة يحسنون انتقاء الكتاب الذين ينتظمون في العمل في ديوان الرسائل؛ فلم يكونوا يعهدون بالعمل فيه إلا لذوي الشرف والنباهة من النقات، يدلنا على هذا قول يحيى البرمكي لولده: "لا بُدَّ لَكُمْ مِنْ كُتَابٍ وَعُمَالٍ وَأَعْوَانٍ؛ فَاسْتَعِينُوا بِالْأَشْرَافِ وَإِسَاكُمُ وَسِيفَلَةَ النَّاسِ؛ فَإِنَّ النَّعْمَةَ عَلَى الْأَشْرَافِ أَبْقَى، وَهِيَ بِهِمْ أَحْسَنُ، وَالْمَعْرُوفُ عِنْدَهُمْ أَشْهَرُ، وَالشُّكْرُ مِنْهُمْ أَكْثَرُ"^(١).

وتجدر الإشارة إلى أن البرامكة كانوا يتخذون دواوين خاصة بهم، وقد كانت دواوينهم ترفد ديوان الرسائل بخيرة الكتاب، إذ قلَّ أن نجد كاتباً عمل في ديوان الرسائل إلا تخرج من دواوينهم؛ فهذا إسماعيل بن صبيح الذي قلده الرشيد ديوان الخراج ثم ديوان الرسائل^(٢) قد كتب في دواوينهم منذ عهد الهادي^(٣). وقد ذكره ابن النديم فيمن ذكرهم من البلغاء^(٤).

ومن كتاب البرامكة أيضاً يوسف بن صبيح^(٥) الذي كتب لعبد الله بن علي عم المنصور، وكتب للمنصور^(٦) ثم قرَّبَهُ البرامكة إليهم وعمل في دواوينهم، ويروي الجهشيارى أن يحيى البرمكي أمره بالكتابة إلى الأفاق بتولية الرشيد^(٧)، ومن كتاب البرامكة البلغاء أنس بن

أبي شيخ^(٨) الذي سلكه ابن النديم في البلغاء العشرة الأولى في العصر^(٩).

(١) الجهشيارى - الوزراء والكتاب، ص ١٧٩.

(٢) الجهشيارى - الوزراء والكتاب، ص ٢٥٧.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٦٨.

(٤) ابن النديم - الفهرست، ص ١٥٨.

(٥) يوسف بن القاسم بن صبيح الكاتب، أبو القاسم، مولى بني عجل، من بيت أدب وفضل، عمل أبوه في دواوين بني أمية في أواخر أيامهم، ولما قامت الدولة العباسية كتب يوسف لعبد الله بن علي عم المنصور، ولما ثار الأخير على ابن أخيه انصرف ابن صبيح إلى أصحاب له فقرَّبوه من المنصور فاستكتبه، وقد قرَّبه البرامكة وأحسنوا إليه، وهو والد أحمد بن يوسف وزير المأمون، انظر الجهشيارى - الوزراء والكتاب، ص ١٣١، ١٧٥، والصولي - أخبار الشعراء. المحدثين، ص ١٤٦-١٦٣.

(٦) الجهشيارى - الوزراء والكتاب، ص ١٣١-١٣٢.

(٧) المصدر نفسه، ص ١٧٥.

(٨) أنس بن أبي شيخ: كتب لجعفر بن يحيى البرمكي وخصَّ به، وصفه الجاحظ بقوله: "كان ذكياً فيما، نقي الألفاظ جيد المعاني، حسن البلاغة"، قتل أنس لزندقته عام ١٨٧هـ بعد مقتل جعفر بن يحيى بقليل. انظر الجاحظ - البيان والتبيين، ج ٢، ص ٢٥٢، وج ٣، ص ١٦٣ وانظر الجهشيارى - الوزراء والكتاب، ص ٢٣٩-٢٤٠.

(٩) ابن النديم - الفهرست، ص ١٥٨.

وكتب في دواوين البرامكة ، عدد من الكتاب الذين لمع نجمهم فيما بعد ، من أمثال:
الفضل بن سهل^(١) ، وأخيه الحسن بن سهل^(٢) وسهل بن هارون^(٣) وعمرو بن مسعدة^(٤)
وغيرهم .

ولما كان لديوان الرسائل أهمية خاصة في دولة الرشيد ؛ فقد اعتنى بترتيبه وتنظيمه
وتوزيع الوظائف الكتابية والإدارية فيه ؛ والناظر في المصادر التاريخية والأدبية وكتب
التراجم، يجد إشارات إلى هذه الوظائف ، وهي على النحو التالي :

(١) الفضل بن سهل السرخسي ، أبو العباس ، وزير المأمون وصاحب تدبيره ، اتصل به في صباه ، وأسلم على يده
عام ١٩٠هـ وكان مجوسياً ، سحب المأمون قبل أن يلي الخلافة ، فلما وليها جعله وزيراً وقائداً للجيش ، ولقبه بذي
الرياستين ، عرف الفضل بذكائه وأبه وحزمه ، قُتل في سرخس عام ٢٠٢هـ ، انظر الخطيب البغدادي - تاريخ
بغداد ، ج ١٢ ، ص ٣٣٩-٣٤١ ، وابن خلكان - وفيات الأعيان ، ج ٤ ، ص ٤١-٤٤ .

(٢) الحسن بن سهل ، أبو محمد ، أخو الفضل بن سهل ، اتصل بالمأمون فاتخذه وزيراً له ، وتزوج ابنته
بوران ، فازدادت مكانته عند المأمون ، اشتهر بالحسن بالذكاء والأدب والفصاحة وحسن التوقيعات والكرم ،
توفي سنة ٢٣٦هـ في سرخس ، انظر الخطيب البغدادي - تاريخ بغداد ، ج ٧ ، ص ٣١٩-٣٢٣ ، وابن خلكان
- وفيات الأعيان ، ج ٢ ، ص ١٢٠-١٢٣ .

(٣) سهل بن هارون بن راهبون ، أبو عمرو الدستيمساني ، اتصل بالبرامكة في أول حياته ، فقربوه ووصلوه
بالرشيد ، وارتفعت مكانته عنده حتى أحله محل يحيى البرامكي صاحب دواوينه، وبعد نكبة البرامكة اتصل
بالفضل بن سهل مدير شؤون المأمون ومستشاره وكتابه ، ففر به منه وعينه على رئاسة بيت الحكمة ببغداد ،
عرف سهل بشعوبيته وميله إلى العجم ، وله كتب كثيرة منها : كتاب ثعلبة وعفراء وكتاب النمر والثعلب ،
وكتاب وامق والعذراء ، ورسائله في البخل وغيرها ، توفي سهل سنة ٢١٥هـ . انظر ابن النديم - الفهرست ،
ص ١٥١-١٥٢ .

(٤) عمرو بن مسعدة بن سعد بن صول ، أبو الفضل الصولي ، وزير المأمون وأحد الكتاب البلغاء ، كتب في
أول حياته للبرامكة ، واختص بجعفر منيم ، ثم اتصل بالمأمون فأعجب به ، وجعله وزيراً له ، كان فصيحاً ،
ذا قدرة على الإنشاء والكتابة ، توفي عام ٢١٧هـ ، انظر الخطيب البغدادي - تاريخ بغداد ، ج ١٢ ، ص ٢٠٣-
٢٠٤ ، وابن خلكان - وفيات الأعيان ، ج ٣ ، ص ٤٧٥-٤٧٨ .

١ - صاحب الديوان (١):

وهو رئيس الديوان ، ويشير قدامة بن جعفر (ت ٣٣٧هـ) إلى أنه كان يُعرف أيضاً بمتولي ديوان الرسائل (١)، وترد الإشارة نفسها عند القلقشندي في صبح الأعشى (٢) .

وكان رئيس الديوان يحظى بمكانة كبيرة عند الخليفة ، ويفترض فيه أن يكون - كما يقول قدامة - "متصرفاً في جميع المكاتبات واضعاً لما ينشئه موضعه" (٣) .

ولذلك كان الخلفاء يتحرون الدقة في اختياره ، ولعل من أبرز الصفات التي كانوا يتوخونها فيه، أن يكون فصيح الألفاظ وقوراً كتوماً للأسرار (٤) .

وكان من مهام صاحب الديوان النظر فيما يرد إلى ديوانه وما يصدر عنه ، ومراجعة ما يكتب الكتاب بالتدقيق والتمحيص قبل خروجه من الديوان ، فقد يكون هناك خطأ فيقوم هو بتصويبه ، وكل ذلك حتى تخرج الرسالة كاملة كما يريدونها دون نقص بسبب سهو أو خطأ .

ومن مهامه الإشراف على كتابة بيعات الخلفاء عند توليهم الخلافة وولايات العهد للأمرء؛ فقد ذكر الجهشيارى أن يحيى البرمكي لما توفي الهادي أمر يوسف بن القاسم بن صبيح بالكتابة إلى الآفاق بتولية الرشيد (٥) .

وربما تولى هو بنفسه كتابة البيعات والولايات ؛ إذ يذكر الجهشيارى في ترجمته لإسماعيل بن صبيح أن الرشيد أمره في سنة ثمان وثمانين ومئة بالكتابة إلى جميع العمال بما عقده بين أولاده الثلاثة : محمد وعبد الله والقاسم من العهد ، "فكتب إسماعيل في ذلك كتاباً مشهوراً قال في آخره : وكتب إسماعيل بن صبيح يوم السبت لسبع ليالٍ بقين من المحرم سنة

(١) انظر قدامة بن جعفر - الخراج وصناعة الكتابة ، ص ٣٧ ، وانظر د. حسين الحساسبة - المؤسسات الإدارية في مركز الخلافة العباسية ، ص ١٤٢ .

(٢) قدامة بن جعفر - الخراج وصناعة الكتابة ، ص ٣٧ .

(٣) القلقشندي - صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ١٣٧ .

(٤) قدامة بن جعفر - الخراج وصناعة الكتابة ، ص ٣٧ .

(٥) التتويج - الفرج بعد الشدة ، ج ١ ، ص ٣٦ وانظر د. حسين الحساسبة - المؤسسات الإدارية في مركز الخلافة العباسية ، ص ١٤٢ .

(٦) الجهشيارى - الوزراء والكتاب ، ص ١٧٥ .

ثمان وثمانين ومئة" (١) ، وكان إسماعيل بن صبيح قد تولى رئاسة ديوان الرسائل بعد نكبة البرامكة (٢).

وكان صاحب الديوان يقوم بالتوقيع على القصص التي ترد إلى ديوانه ، وهذه المهمة كانت تتطلب من الكاتب أن يكون على قدر كبير من البلاغة وسرعة البديهة والثقافة والعلم ، يقول ابن خلدون:

" اعلم أن صاحب هذه الخطة [خطة التوقيع] لا بد أن يُخَيَّرَ من أرفع طبقات الناس، وأهل المروءة والحشم منهم ، وزيادة العلم وعارضة البلاغة ؛ فإنه معرض للنظر في أصول العلم لما يعرض في مجالس الملوك ومقاصد أحكامهم من أمثال ذلك ما تدعو إليه عشرة الملوك من القيام على الأدب والتخلق بالفضائل" (٣) .

ويروى أن جعفر البرمكي كان يوقع القصص بين يدي الرشيد ويرمي بالقصة إلى صاحبها، فكانت توقيعاته يتنافس البلغاء في تحصيلها (٤) .

ومن مهام صاحب الديوان أيضاً ختم الكتب الصادرة عن الديوان بخاتم الخلافة وقد كانت هذه المهمة من الأهمية بمكان بحيث اعتبرت بمثابة وزارة أخرى؛ فلما تولى يحيى البرمكي هذه المهمة سنة ١٧١هـ قيل : اجتمعت له الوزارتان (٥) .

٢- نائب صاحب الديوان :

نظراً لكثرة المهام الموكولة لصاحب الديوان ، وكثرة ما يرد عليه ، فإنه يحتاج إلى من ينوب عنه في عمله أثناء غيابه ، أو يساعده في كثير من الأعمال التي قد لا يستطيع القيام بها أو الإشراف عليها ، من ذلك ما قام به يحيى البرمكي من تعيين نائب عنه ، هو كاتبه منصور بن زياد (٦) ، وأمره أن يكتب عنه في المهم (٧) .

(١) الجهشيارى - الوزراء والكتاب ، ص ٢٦٥ ، ولكن الطبري يذكر أن كتاب الرشيد إلى العمال بتولية أبنائه كان في سنة ١٨٦هـ ، انظر تاريخ الطبري ، ج ٤ ، ص ٦٥٦ .

(٢) الدينوري - الأخبار الطوال ، ص ٢٩٣ ، وانظر خليفة بن خياط - تاريخ خليفة بن خياط ، ص ٤٦٥ .

(٣) ابن خلدون - المقدمة ، ج ٢ ، ص ٦٨١ .

(٤) المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٦٨١ .

(٥) الطبري - تاريخ الطبري ، ج ٤ ، ص ٦٢١ .

(٦) منصور بن زياد : اتصل بالبرامكة ، فقربوه ، كان صديقاً ليحيى البرمكي ، فعينه نائباً عنه في ديوان الرسائل ، ولكنه لم يلبث أن تحول عن البرامكة ، انظر الجهشيارى - الوزراء والكتاب ، ص ١٨٧ ، ٢٢٢-٢٢٤ .

(٧) المصدر نفسه ، ص ١٨٧ .

٣- الكُتَاب :

كان ديوان الرسائل يضم عدداً من الكتاب الذين يكلفون بأعمال عديدة، وقد كانوا يُختارون ممن تتوفر فيهم صفات وشروط معينة سنأتي على ذكرها لاحقاً .

حتى أن كثيراً من هؤلاء الكتاب قد ترقوا إلى رئاسة الديوان وربما تقلدوا دواوين أخرى بما أبدوه من حذق ومهارة في فنون المكاتبات ؛ فهذا إسماعيل بن صبيح الذي كان كاتباً ليحيى البرمكي ، قد تقلد ديوان الخراج ثم ديوان الرسائل^(١)، وعندما توفي الرشيد كان على ديوان الرسائل وديوان السر^(٢) وديوان الضياع^(٣) وديوان الصوافي^(٤) (٥) .

ومن أبرز الكتاب في ديوان الرسائل :

١- كاتب الإنشاء :

ويتولى عمل مسودات الكتب والرسائل التي يطلبها منه صاحب الديوان ، ومن ثم يعرضها عليه فيقوم صاحب الديوان بفحصها وإجازتها^(٦) .

ويشترط في كاتب الإنشاء أن يحيط بفن كتابة الرسائل وأن يكون على قدر عالٍ من البلاغة حتى يخرج الرسائل التي يوكل إليه أمر كتابتها بأزهى حلّة .

(١) المصدر نفسه ، ص ٢٥٧ .

(٢) ديوان السر : يقابل ديوان الرسائل وأحياناً كان يطلق على كاتب الرسائل كاتب السر ، انظر الدينوري - الأخبار الطوال ، ص ٣٩٣ .

(٣) ديوان الضياع : كانت مهمة هذا الديوان أن ينظم شؤون الضياع التابعة للخلفاء والأمراء والوزراء والولاة وغيرهم من كبار موظفي الدولة ، انظر الجهشيارى - الوزراء والكتاب ، ص ٢٣٣ - ٢٣٤ ، وانظر د. حسين الكساسبة - المؤسسات الإدارية في مركز الخلافة العباسية ، ص ٧٨ .

(٤) ديوان الصوافي : نشأ هذا الديوان في عهد الميدي وكانت مهمته النظر في أمور أراضي الصوافي التابعة للخليفة بصفته رئيساً للمسلمين من استغلال وتأجير وإقطاع وبيع ، انظر الجهشيارى - الوزراء والكتاب ، ص ١٥٦ ، ٢٦٦ و د. حسين الكساسبة - المؤسسات الإدارية في مركز الخلافة العباسية ، ص ٧٧ .

(٥) الجهشيارى - الوزراء والكتاب ، ص ٢٧٧ .

(٦) انظر ابن وهب - البرهان في وجوه البيان ، ص ٣٥٠ و البطلوسي - الاقتضاب في شرح أدب الكتاب ، ج ١، ص ١٣٩ - ١٤٠ ، وانظر د. حسين الكساسبة - المؤسسات الإدارية في مركز الخلافة العباسية ، ص ١٤٤ .

٢- كاتب التحرير:

ومهمته نسخ أو تبييض الكتب التي تم إنشاؤها بعد أن يجيزها صاحب الديوان^(١)، وربما أملي الكتاب عليه مباشرة من الخليفة أو الأمير أو الوزير؛ فقد ورد في آخر كتاب الأمين إلى أخيه المأمون وكتابه إلى أخيه صالح بعد أن توفي الرشيد العبارة التالية:

"وَكَتَبَ بَكْرُ بْنُ الْمُعْتَمِرِ بَيْنَ يَدَيَّ وَإِمْلَانِي فِي شَوَّالِ سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَبِسْعِينَ وَمِئَةً"^(٢).

وينبغي لكاتب التحرير أن يتحلى بحسن الخط وجودته أكثر من غيره حتى يكون خطه واضحاً مقروءاً^(٣).

٤- الخازن:

ومهمته حفظ أصول كافة المكاتبات التي ترد الديوان ومعها نبذة مختصرة عما استقر عليه الرأي بشأنها، وما صدر عن الديوان في أمرها، كما ينظم الخازن الرسائل التي ترد إلى الديوان أو تصدر عنه حسب الموضوعات ويحتفظ بها في سجلات مؤرخة بتاريخ صدورها أو ورودها^(٤).

وهذه المهمات تتطلب من الخازن أن يلازم كتاب الديوان لتسلم نسخة من كل كتاب يصدر بعد نسخه^(٥).

ويحتاج من يتولى هذه المهنة أن يكون عاقلاً ذكياً فطناً أميناً يقظاً في عمله؛ لأن زمام جميع الديوان في يده، وربما احتاج أن يعمل تعاريف بما يرد إلى الخزائن وما يخرج^(٦).

(١) انظر البطليوسي - الاقتضاب في شرح أدب الكتاب، ج ١، ص ١٣٨ - ١٣٩، وابن وهب - البرهان في وجوه البيان، ص ٣١٦ - ٣١٧، ود. حسين الكساسبة - المؤسسات الإدارية في مركز الخلافة العباسية، ص ١٤٤.

(٢) الطبري - تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٢٨، ٢٩.

(٣) البطليوسي - الاقتضاب في شرح أدب الكتاب، ج ١، ص ١٣٧ - ١٣٨، وانظر ابن وهب - البرهان في وجوه البيان، ص ٣١٦.

(٤) الفلقشندي - صبح الأعشى، ج ١، ص ١٣٥، وانظر د. حسين الكساسبة - المؤسسات الإدارية في مركز الخلافة العباسية، ص ١٤٥.

(٥) د. حسين فلاح الكساسبة - المؤسسات الإدارية في مركز الخلافة العباسية "الدواوين"، ص ١٤٥.

(٦) ابن شيث القرشي - معالم الكتابة ومغانم الإصابة، ص ٢٩.

هـ - الحاجب :

هو الذي يقف بباب صاحب الديوان حتى لا يمكن أحداً من سائر الناس الدخول إليه دون إذن ، فلا يدخل إلى الديوان إلا موظفوه ، وذلك لصون الرسائل والوثائق (١) .
وبهذا نرى أن ديوان الرسائل بناء متكامل كل جزء منه يكمل الآخر .

(١) القلقشندي - صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ١٧١ ، وانظر حسين الكساسبة - المؤسسات الإدارية في مركز الخلافة العباسية ، ص ١٤٥ .

الرسالة الديوانية : مفهومها وأهميتها وعوامل ازدهارها

مفهوم الرسالة الديوانية

لقد تناول الدراسون القدامى مفهوم الرسائل الديوانية ، ومن هؤلاء ابن خلدون الذي ذهب إلى أنها تعني المخاطبات لمن بُعد عن السلطان وتنفيذ الأوامر فيمن حجب عنه (١) .

ويذهب القلقشندي مذهباً أكثر وضوحاً وتفصيلاً ؛ فهو يرى : إن المراد بكتابة الإنشاء "كل ما رجح من صناعة الكتابة إلى تأليف الكلام وترتيب المعاني من المكاتبات والولايات والمسامحات والإطلاقات والمناسير والاقطاعات والهدن والأمانات والأيمان وما في معنى ذلك" (٢) .

وعلى هذا نستطيع القول إن الرسائل الديوانية : هي الكتب الصادرة عن ديوان الرسائل وغيره من دواوين الدولة الرسمية ، متضمنة غرضاً محدداً ، معبرة عن رغبة الخليفة أو مَنْ بيده الأمر في هذا الغرض (٣) ، ويمكن أن يضاف إلى هذه الرسائل ما كان يصدر عن دواوين الولاة والوزراء والأمراء والعلماء والأدباء وغيرهم ، مما كان يرد إلى ديوان الرسائل ، من رسائل تحتاج لأن ينظر فيها الخليفة أو نائبه ويبت فيها ويعطي رأيه ، وبعبارة أخرى فإن الخليفة أو نائبه كان طرفاً في هذه الرسائل .

ويرى بعض الدارسين المحدثين تسمية هذه الرسائل بالرسائل الرسمية؛ لأنها تنطبع بنظام الدولة ورجالها ، وذلك لأن رسائل كثيرة للدولة لم تكن تصدر عن الديوان وكان يصدرها رجال الحكومة ، وهم في حروب أو فتوح ... الخ (٤) .

ولا بد من توافر مجموعة من العناصر والأركان التي لا تستغني عنها أي رسالة حتى تسمى رسالة ديوانية ، وهذه الأركان هي :

١- المرسلُ : وهو الخليفة أو مَنْ ينوب عنه من رجال دولته كالوزير أو الوالي أو نحوهما .

٢- المرسل إليه : وهو المقصود بالرسالة .

(١) ابن خلدون - المقدمة ، ج ٢ ، ص ٦٦٦ .

(٢) القلقشندي - صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ٨٤-٨٥ .

(٣) انظر عبد الحلیم اليروط - الرسائل الديوانية في مملكة غرناطة في عصر بني الأحمر ، ص ٢٥ .

(٤) د. حسني ناعسة - الكتابة الفنية في مشرق الدولة الإسلامية في القرن الثالث الهجري ، ص ٢٤٦ . وانظر

د. محمد نبيه حجاب - بلاغة الكتاب في العصر العباسي ، ص ٥٠ .

٣- تاريخ الرسالة : ويُذكر في نهاية الرسالة بعد اسم الكاتب ؛ فقد ورد في نهاية رسالة الرشيد إلى العمال بشأن ولاية عهده "وَكَتَبَ إِسْمَاعِيلُ بْنُ صَنِيعِ يَوْمَ السَّبْتِ لِسَبْعِ لَيَالٍ بَقِيْنَ مِنْ الْمُحَرَّمِ سَنَةَ سِتِّ وَثَمَانِيْنَ وَمِئَةَ" (١) .

٤- خاتم الخلافة :

لا بد من ختم الرسالة حتى تصطبغ بصبغة رسمية ، ولهذه الغاية أنشئ ديوان للخاتم ، وظيفته الاحتفاظ بنسخة من الرسائل والتوقيعات التي تتضمن أوامر الخليفة وتوقيعاته وختم النسخة الأصلية منها وإرسالها إلى الجهة المنوي إرسالها إليها (٢) .

وقد كانت الرسالة تُخْتَمُ بأن تُطَوَى وتُغَمَسُ أطرافها بالشمع أو الطين الأحمر الذي يوضع عليه وهو طري خاتم الخلافة ويُترك حتى يجف (٣) . وقد أورد الجهشيارى أن من بين واردات السواد في أيام الرشيد مئتان وأربعون رطلاً من الطين للختم (٤) .

وتأتي أهمية الخاتم في أنه يحفظ الرسالة من التزوير ؛ فإذا لُفَّت الرسالة وَخُبِمَ عليها بالطين الأحمر ، فلا سبيل إلى فتحها إلا بكسر الخاتم وبالتالي ضياع قيمتها قبل وصولها إلى مَنْ أرسلت إليه (٥) .

وقد أثر عن الرشيد أربعة أختام ، أحدها "لا إله إلا الله" (٦) والثاني : "كن من الله على حذر" (٧) والثالث "بالله يثق هارون" (٨) والرابع "العظمة والقدرة لله عز وجل" (٩) .

لم تقتصر الرسائل الديوانية على الرسائل الصادرة عن ديوان الرسائل فحسب، فقد كان هناك دواوين أخرى في الدولة والولايات والأقاليم التابعة لها مثل ديوان الجند وديوان الخراج

(١) الطبري - تاريخ الطبري ، ج ٤ ، ص ٦٥٦ .

(٢) قدامة بن جعفر - الخراج وصناعة الكتابة ، ص ٥٥ - ٥٦ ، وانظر د. حسين الكساسبة - المؤسسات الإدارية في مركز الخلافة العباسية ، ص ١٤٩ .

(٣) ابن خلدون - المقدمة ، ج ٢ ، ص ٦٨٠ .

(٤) الجهشيارى - الوزراء والكتاب ، ص ٢٨١ .

(٥) الجهشيارى - الوزراء والكتاب ، ص ٦٢ ، وانظر حسين الكساسبة - المؤسسات الإدارية في مركز الخلافة العباسية ، ص ١٤٩ .

(٦) ابن عبد ربه - العقد الفريد ، ج ٥ ، ص ٣٧٣ .

(٧) المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ٣٧٣ ، وانظر مجهول - العيون والحداثق في أخبار الحقائق ، ج ٣ ، ص ٣١٨ .

(٨) المسعودي - التنبيه والإشراف ، ص ٣٠٠ .

(٩) القرماني - أخبار الدول وآثار الأول ، ج ٢ ، ص ٨٢ .

وديوان النفقات وغيرها ، وكان يصدر عنها كتب ورسائل تُعَدُّ بمفهومها العام رسائل ديوانية باعتبارها رسائل صادرة عن ديوان رسمي ، ولكن هذه الرسائل الصادرة عن تلك الدواوين تفتقر إلى القيمة الأدبية ، إذ إن الكتابة في هذه الدواوين لا تتعدى التسجيل في الدفاتر والتعداد والإحصاء ، وضبط الجباية ، وحساب الإيراد والنفقات ، ومحاسبة الولاة ... الخ ، وليس في ذلك مجال للبحث الأدبي الذي يهتم بالأسلوب والجمال الفني للتعبير^(١).

وقد أدرك الدراسون القدامى هذه الحقيقة ، فقسموا الكتابة الرسمية إلى قسمين: كتابة الرسائل وكتابة الأموال ، وحددوا مهمات كل منهما ، وفضلوا كتابة الرسائل على كتابة الأموال^(٢).

أهمية الرسائل الديوانية

تعد الرسائل الديوانية مصادر قيمة تؤرخ للدولة ؛ فهي تمثل سجلاً تاريخياً لما يقع في عصرها من أحداث في أوقات السلم والحرب على حدٍ سواء ؛ وهي بذلك من أهم وأفضل المصادر التي يرجع إليها المؤرخون لدراسة فترة زمنية معينة لدولة ما .

فهذه الرسائل تبين السياسة الداخلية في الدولة ، فهي توضح علاقة الحاكم بالمحكوم والعلاقات الاجتماعية في الدولة ، كما أنها تعكس سياسة الدولة الخارجية من خلال علاقتها بالدول الأخرى ، كونها تمثل وثائق رسمية صادرة عن هذه الدولة.

وهذه الرسائل هي أقدم مصدر يجب العودة إليه لمعرفة الحادثة التاريخية كما حدثت في الأصل ؛ فهي بذلك تفضل غيرها من المصادر كونها شاهد عصر ينبض بالحياة ، إذ أنها تمثل مرآة صافية تعكس الأحداث السياسية والاجتماعية والاقتصادية والإدارية في الدولة في حقبة زمنية معينة .

وهي بذلك تسطر سجلاً تعمل بموجبه الأجيال القادمة ؛ وذلك من خلال التعرف على نظم الحكم والإدارة والنواحي الاقتصادية المبتوثة في تضاعيف هذه الرسائل .

تعتبر الرسائل الديوانية من الوسائل المهمة التي ساهمت في إعلان الأمور الخطيرة في الدولة مثل بيعات الخلفاء وولاة العهود وأبناء الحروب وما يحدث فيها من انتصارات وهزائم.

ونلاحظ ذلك في دولة الرشيد في بيعته بالخلافة التي كتب بها إلى الأفاق يوسف بن القاسم ابن صبيح^(٣) . كما يظهر ذلك في مسألة ولاية العهد بين الأمين والمأمون ؛ فقد أمر

(١) انظر د. محمد عبد المنعم خفاجي - تاريخ الأدب في العصر العباسي ، ص ٣١ .

(٢) القلقشندي - صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ٨٤-٨٥ .

(٣) الطبري - تاريخ الطبري ، ج ٤ ، ص ٦١٨ .

الرشيد كاتبه إسماعيل بن صبيح بإنشاء كتاب بعث به إلى جميع الولايات يخبر الولاة والناس بهذا الحدث العظيم (١) .

كما غدت الرسائل الديوانية وسيلة لجمع الكلمة ورأب الصدع ، وأداة مهمة لشرح وجهات النظر بين الدولة ومناوئها ، ويظهر لنا ذلك من الثورات التي قام بها العلويون والخوارج في دولة الرشيد ؛ فقد حاول الرشيد أن يسترضي بعضهم فبعث إليه برسائل كانت الغاية منها جمع الكلمة وتوحيد الأمة ومن هذه الرسائل تلك الرسائل المتبادلة بين الرشيد وحمزة الخارجي (٢) .

وبعبارة أخرى يمكن القول بأن الرسالة الديوانية لسان الدولة الناطق بأحوالها، وعليها تعتمد الدولة في تنظيم شؤونها وعلاقاتها مع الدول الأخرى ؛ فإذا أحسن انشاؤها كانت مصدر خير وقوة ومنعة لها ، وإذا أسئى إنشاؤها كانت وبالاً عليها ؛ فعليها تعتمد هيئة الدولة وعزتها (٣) .

ويتضح لنا ذلك من رد الرشيد على الرسالة التي بعث بها نقفور ملك الروم إليه يطلب فيها أن يعيد إليه الجزية التي سبق أن دُفعت إليه من الملكة السابقة ؛ فقد روي أن الرشيد لما قرأ هذه الرسالة استغزه الغضب ، حتى أن أحداً من حاشيته لم يستطع أن ينظر في وجهه ؛ فأمر بقلم ودواة ، وكتب على ظهر هذه الرسالة " بسم الله الرحمن الرحيم ، من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم ؛ قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة ، والجواب ما تراه دون أن تسمعته ، والسلام " (٤) ، من ذلك يبرز لنا الدور الخطير الذي كانت تلعبه الرسائل الديوانية في سياسة الدولة وعلاقاتها مع الدول الأخرى .

ولا تقتصر أهمية الرسائل الديوانية على ما ذكر بل تتعدى ذلك إلى القيمة الأدبية ؛ فقد حفلت هذه الرسائل بالمحسنات البديعية والصور البيانية لأنها كانت تعتمد التأنق في العبارة والتحليق في الأسلوب وجمال التصوير فكانت مثلاً عالياً في البلاغة والبيان .

(١) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٦٥٥-٦٥٦ .

(٢) د. فاروق عمر فوزي - الرسائل المتبادلة بين الخليفة هارون الرشيد والثائر حمزة بن عبد الله الخارجي ، المجلة التاريخية العراقية ، ١٩٧٤م ، ص ٢٦٠-٢٧٤ .

(٣) انظر عبد الحليم الهروط - الرسائل الديوانية في مملكة غرناطة في عصر بني الأحمر ، ص ٢٦ .

(٤) الطبري - تاريخ الطبري ، ج ٤ ، ص ٦٦٩ ، وانظر مجبول - العيون والحدائق ، ج ٣ ، ص ٣٠٩-٣١٠ ، وابن كثير - البداية والنهاية ، ج ٩ ، ص ٢٠٩ ، وانظر أبو الفداء - المختصر في أخبار البشر ، ج ٢ ، ص ١٧ ، وانظر السيوطي - تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة من عهد أبي بكر الصديق إلى عهد المؤلف ، ص ١٩١ ، وغيرها من المصادر التاريخية .

عوامل ازدهار الكتابة الديوانية

كان إنشاء ديوان الرسائل في مستهل العصر الأموي ^(١) إيذاناً بتطور الكتابة ورقيها ؛ فقد كان هذا الديوان مدرسة حقيقية تخرج منها عدد من كبار الكتاب وأمرء البيان الذين ملكوا ناصية اللغة ودبجوا بأقلامهم أبداع الرسائل ، مما ترك الأثر في تطور النثر العربي عامة وكتابة الرسائل خاصة . وقد بلغت الكتابة في العصر العباسي منزلة رفيعة وأخذت تتحول إلى صناعة أدبية ^(٢) ، ولقد تهيأ لها في هذا العصر من عوامل النهضة والازدهار ما بوأها المنزلة الرفيعة ، ومن هذه العوامل ما يلي :

١ - الحياة الجديدة في العصر العباسي :

ففي مطلع هذا العصر كان للخطابة دورها الفعال في بيان حق العباسيين في الخلافة ، فقد عملت الخطابة جنباً إلى جنب مع قوة السيف في تأكيد هذا الحق ، ولكن نجم الخطابة يبدأ بالأفول كلما تقدمنا في هذا العصر ؛ فما أن استقرت الأمور في الدولة حتى أخذت الكتابة الديوانية تحل محل الخطابة ؛ فقد اعتمدت عليها الدولة في تصريف شؤونها .

ولعل مما هياً لهذا النوع من الكتابة الرقي والازدهار ، ذلك الأمن والاستقرار الذي بدأ يعم أرجاء الدولة ، مما أدى إلى تعدد موضوعات الرسائل الديوانية تبعاً لتشعب أمور الحياة ، فقد تناولت هذه الرسائل تصريف أعمال الدولة من بيعات الخلفاء وعهودهم لأبنائهم وأخبار الولايات والفتوح والجهاد ومواسم الحج وعهود الأمان للخارجين على الدولة وغيرها . الأمر الذي فسح المجال أمام الكتاب لأن يدرّبوا أقلامهم ويخوضوا في كل موضوع من هذه الموضوعات المتعددة.

(١) خليفة بن خياط - تاريخ خليفة بن خياط ، ص ٢٢٨ ، وانظر الجيشاري - الوزراء والكتاب ، ص ٢٤ ، ولكن القلقشندي يرجع نشأة ديوان الرسائل إلى العصر النبوي ويحتج بأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يكتب أمراء وأصحاب سراياه من الصحابة ويكتبونه ، صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ١٢٦-١٢٧ . ولكن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن له ديوان رسائل بالمعنى الذي عُرف فيما بعد ، وأول إشارة واضحة لهذا الديوان بشكله المنظم ترجع إلى زمن معاوية بن أبي سفيان ، الجيشاري - الوزراء والكتاب ، ص ٢٤ ، وانظر حسين الكساسبة - المؤسسات الإدارية في مركز الخلافة العباسية ، ص ٤٠ .

(٢) د. عزيزة بابتي - الإطار الأدبي في مطلع العصر العباسي ، ص ١٥٦ .

٢- كثرة الدواوين وتعدد أعمالها :

اتسعت رقعة الدولة في صدر الخلافة العباسية ، وبلغت ذروة اتساعها في عهد الرشيد ، الذي يعد عهده وعهد ابنه المأمون العصر الذهبي للخلافة العباسية ، وقد أدى هذا الاتساع إلى كثرة الدواوين التي اعتمدت عليها الدولة في تصريف شؤونها وتعدد أعمالها والناظر في كتاب الخراج وصناعة الكتابة لقدماء بن جعفر البغدادي (ت ٣٣٧ هـ) يجد تفصيلاً لعدد منها ؛ فهناك ديوان الخراج وديوان الجيش وديوان الرسائل وديوان الخاتم وديوان التوقيع وديوان البريد وديوان النفقات وديوان بيت المال وديوان الشرطة وديوان الضياع وديوان الطراز وغيرها (١) ، وكان على رأس هذه الدواوين ديوان زمام الأزمة الذي كان يتولى الإشراف على دواوين الدولة كلها (٢) .

وبالإضافة إلى هذه الدواوين في مركز الخلافة في بغداد ، كانت هناك دواوين أخرى في الولايات والأقاليم التابعة للدولة لتسهيل عملية الاتصال بين مركز الخلافة في بغداد وبين هذه الأقاليم مما أدى إلى إيجاد عدد من الرسائل بين الولاة والدولة من جهة وبين الولاة أنفسهم من جهة أخرى . وهناك دواوين لأولياء العهد والأمراء والوزراء وكبار القواد اعتمدوا عليها في تدبير أموالهم ونفقاتهم وسائر شؤونهم (٣) .

وقد كان لهذه الدواوين بهذه الكثرة أثر كبير في ازدهار الكتابة وظهور عدد كبير من الكتاب ، حتى أن مَنْ لم يتخذ ديواناً من الأمراء والوزراء والقواد ، كان له كاتب يدير له شؤونه (٤) . وكذلك بعض القضاة والعلماء كانوا يتخذون كتاباً يكتبون عنهم ، وحتى نساء القصور كُنَّ يتخذن كتاباً يكتبون عنهن (٥) .

وبذلك ازدحمت أبواب الدواوين بالكتاب اللذين وفدوا إليها يحدوهم الأمل بأن يحققوا ما يصبون إليه من الجاه والسلطان . وكان لا بد لهم من اجتياز امتحان عسير تبحث فيه مهاراتهم ، وقد كانت هذه الدواوين عبارة عن مدارس يتلقى فيها الكتاب عند انضمامهم إليها تدريبات كثيرة، لكي يتقنوا الكتابة الديوانية إتقاناً تاماً (٦)؛ فمن أظهر منهم مهارته ، اختاره رؤساء

(١) انظر الخراج وصناعة الكتابة ، ص ٢١-٧٧ .

(٢) الجهشياري - الوزراء والكتاب ، ص ١٦٦ .

(٣) د. شوقي ضيف - العصر العباسي الأول ، ص ٤٦٥ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٤٦٥ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ٤٦٥ .

(٦) د. محمود عبد الرحيم صالح - فنون النثر في الأدب العباسي ، ص ٨٢ ، وانظر د. شوقي ضيف - العصر العباسي الأول ، ص ٤٤٧ .

الديوان للعمل معهم ، كلُّ على قدر مهارته وإتقانه ، فمن أظهر براعة في فنون المكاتبات عمل في ديوان الرسائل ومَنْ نبغ في الحساب عمل في الخراج وهكذا ، وربما ترقى إلى أن يصبح رئيساً للديوان الذي يعمل فيه ، وقد تقبل عليه الدنيا فيصبح وزيراً للخليفة يدبر أمور الدولة ويصرف شؤونها ، كما هو الحال مع يحيى البرمكي وولديه الفضل وجعفر وزراء الرشيد ، وربما أصبح وانياً لإقليم من الأقاليم مثل عمر بن مهران^(١) كاتب الخيزران أم الرشيد الذي ولي خراج مصر في عهد الرشيد^(٢) .

وهكذا نرى أن الكتابة في الدواوين عمل يرتفع بصاحبه إلى القمة ، ويسمو به إلى الذروة، ويفسح له في الدولة مجال الترقى إلى أعلى المناصب حتى أصبحت هذه الصناعة جسراً للوزارة وغيرها من المناصب العليا في الدولة .

٣- نظرة المجتمع العباسي إلى الكتابة :

كانت الكتابة تحظى بالاحترام والتقدير لدى عامة الناس وخاصتهم^(٣)؛ حتى أصبحت "الحرفة التي لا يليق بطالب العلم سواها" ، ولا يجوز له العدول إلى ما عداها"^(٤) و "الكتابة أشرف مراتب الدنيا بعد الخلافة ، وهي صناعة جليلة تحتاج إلى آلات كثيرة"^(٥) .

وقد كثرت الأقوال التي تشيد بالكتابة والكتاب في العصر العباسي ، ومَنْ يطالع المصادر الأدبية التي تؤرخ لهذا العصر يجد عدداً غير قليل من هذه الأقوال من ذلك قول سهل بن هارون: "الكتابة أول زينة الدنيا التي إليها يتناهى الفضل ، وعندها تقف الرغبة"^(٦) ، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على المكانة العظيمة للكتابة والكتاب في هذا العصر^(٧) .

ونظراً للمكانة التي كان الكتاب يتمتعون بها في المجتمع العباسي ؛ فقد أحسن الخلفاء بالحاجة إليهم ، فقرّبوهم ، وألقوا إليهم الأمانة في سياسة الدولة ؛ فعظم شأنهم ووصلوا إلى أرفع

(١) عمر بن مهران : من كتاب الدولة العباسية ، كتب للخيزران أم الرشيد ، كان دميم الخلق ، مشوه المنظر ، اختاره جعفر البرمكي نائباً عنه عندما ولاة الرشيد مصر فضبط أمورها وأجبر أهلها على دفع الخراج ، انظر الطبري - تاريخ الطبري ، ج ٤ ، ص ٦٣٤ ، والجيشياري - الوزراء والكتاب ، ص ٢١٨-٢٢١ .

(٢) الطبري - تاريخ الطبري ، ج ٤ ، ص ٦٣٤ .

(٣) د. محمود عبد الرحيم صالح - فنون النثر في الأدب العباسي ، ص ٨١ .

(٤) القلقشندي - صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ١٢٦ .

(٥) ابن عبد ربه - العقد الفريد ، ج ٤ ، ص ٢٧٢ .

(٦) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٢٦٢ .

(٧) القلقشندي - صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ٦٥-٧٣ .

المناصب وأشرفها ، وناقسوا فحول الشعراء على أبواب الخلفاء في عظمة الجاه وسعة النفوذ والسلطان .

وقد بلغ ذلك ذروته في عصر الرشيد على يد البرامكة : يحيى وابنيه الفضل وجعفر ؛ الذين أطلق لهم الرشيد العنان في دولته ، يتصرفون كما يشاؤون ؛ فكانوا إذا رضوا عن إنسان كان مرضياً عنه عند الرشيد وإن غضبوا غضب الرشيد عليه، حتى أن جعفر بن يحيى كان يدعى بالسلطان إشارة إلى عموم نظره وقيامه بالدولة ^(١) ؛ وكان الرشيد إذا خاطب جعفرأ قال له: يا أخي ، وكان يدخله معه في ثوبه ^(٢) . وهذه الرواية على ما فيها من مبالغة ، تدل دلالة واضحة على ما أحرزه الكتاب من شرف المكانة ورفع المنزلة لدى الخلفاء .

(١) ابن خلدون - المقدمة ، ج ٢ ، ص ٦٦٩ .
(٢) الجيشري - الوزراء والكتاب ، ص ٢٠٤ .

الفصل الأول

موضوعات الرسائل الديوانية في عهد
الرشيد

موضوعات الرسائل الديوانية في عهد الرشيد

تعددت الرسائل الديوانية في عهد الرشيد وتشعبت موضوعاتها، تبعاً لتشعب أمور الحياة ومستجداتها، وقد انصبَّ جُلُّ هذه الموضوعات على أمور سياسية وحربية وإدارية، وقد شملت جميع مناحي الحياة في تصريف أمور الدولة الداخلية وعلاقة الدولة بغيرها من الدول .

أولاً :- الرسائل السياسية:

اتسعت الموضوعات السياسية التي عالجتها الرسائل الديوانية العائدة لهذا العهد لتشمل موضوعات عدة؛ فهناك المخاطبات الإعلامية المتمثلة في المبايعات والمنشورات والبشارات، وهناك الرسائل التي عالجت الصراعات والفتن الداخلية، وهناك الرسائل التي عبرت عن العلاقات الخارجية، في حين اختصت نكبة البرامكة بعدد من الرسائل التي كان لها دور كبير في إمطة اللثام عن بعض حيثيات هذه النكبة وأسبابها وأحداثها .

أ- المخاطبات الإعلامية:

نهضت الرسائل الديوانية في هذا العهد بدور إعلامي مهم، من أجل المحافظة على قدر من التواصل بين الدولة ورعاياها المنتشرة في شتى أنحاء الدولة وولاياتها المتباعدة. وقد تباينت هذه المخاطبات في صورها وأساليبها تبعاً للقضية التي تضمنتها^(١)، ومن أهم الموضوعات التي عبرت عنها هذه المخاطبات:

١- المبايعات:

تمثل البيعة أهم المناسبات الرسمية في دار الخلافة وقد اشتهر من المبايعات نوعان:

* المبايعات للخليفة:

درج خلفاء بني العباس في العهد الأول عندما يتولى أحدهم الخلافة أن يقوم كاتب مَفْوّه في الديوان، فيلقي خطبة بين يدي الخليفة يحث الناس فيها على مبايعته؛ ويروى أن الرشيد لما تولى الخلافة قام كاتبه يوسف بن صبيح فألقى خطبة بين فيها مناقب الرشيد وحض الناس فيها

(١) انظر د. محمد الدروبي - الرسائل الفنية في العصر العباسي حتى نهاية القرن الثالث، ص ٩-١٠ .

على المبادرة إلى مبايعته بالخلافة (١).

ويذكر د. أحمد فريد الرفاعي - الذي أورد نص هذه الخطبة - أنها وُجّهت إلى الأفاق معلنة تولي الرشيد الخلافة (٢)، وتابعه د. محمد ماهر حمادة (٣)، ويبدو أن هذه الخطبة نسخت على شكل رسالة بنسختين، حفظت منها نسخة في ديوان الخلافة لتوثق بيعة الرشيد بالخلافة، في حين وُجّهت النسخة الثانية إلى الأفاق لتعلن خلافة الرشيد إلى العالم الإسلامي، فهي بالمفهوم الأول تدرج في باب المبايعات، وبالمفهوم الثاني تدرج في باب المنشورات وقد ارتأيت عرضها في باب المبايعات كونها أُلقيت قبيل بيعة الرشيد بالخلافة.

يفتتح يوسف بن القاسم كتابه بحمد الله عز وجل والثناء عليه، والصلاة على النبي - صلى الله عليه وسلم -، ويستهل بمقدمة تمهيدية تؤكد حق العباسيين في الخلافة، وأن الله عز وجل منّ بها عليهم وشرفهم بها وهياً لهم أسبابها، يقول:

"إِنَّ اللَّهَ بِمَنْهَ وَلُطْفِهِ مَنْ عَلَيكُمْ مَعَاشِرَ أَهْلِ نَبْتِ نَبِيِّهِ بَيَّنَّتِ الْخِلَافَةَ وَمَعْدِنِ الرَّسَالَةِ وَأَتَاكُمْ أَهْلَ الطَّاعَةِ مِنْ أَنْصَارِ الدَّوْلَةِ، وَأَعْوَانِ الدُّعْوَةِ، مِنْ نِعْمِهِ الَّتِي لَا تُحْصَى بِالْعَدَدِ، وَلَا تُتَّقَضَى مَدَى الْأَبْدِ وَأَيَادِيهِ النَّامَةِ، أَنْ جَمَعَ أُلْفَتَكُمْ وَأَعْلَى أَمْرِكُمْ وَشَدَّ عَضُدَكُمْ وَأَوْهَنَ عَدُوَّكُمْ وَأَظْهَرَ كَلِمَةَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ أَوْلَى بِهَا وَأَهْلَهَا..." (٤).

وهو بهذا يؤكد شرعية خلافة العباسيين، ويحشد لذلك من الأدلة والحجج ما يبين أنهم أحق الناس بها فهم الذين نصرروا دين الله ودافعوا عنه، وبهم أنقذ الله الأمة من "الظلمة أئمة الجور والنافذين عهد الله والسافكين الدّم الحرام والآكلين الفياء والمستأثرين به" (٥). ولعله يشير بذلك إلى الأمويين والخوارج الذين كانوا ينازعون العباسيين حقهم في الخلافة.

ثم نراه بعد ذلك يحثهم على شكر الله عز وجل على ما أنعم به عليهم، وشرفهم به من أمر الخلافة، ويحذرهم من أن يخالفوا سنة الله فيهم، فيستبدل بهم غيرهم (٦).

وبعد هذه المقدمة التمهيدية ينتقل إلى المحور الرئيس في رسالته وهو إعلان خلافة الرشيد، وهو في هذا المحور يعدد فضائل الرشيد ومناقبه، ويبين سياسته التي سيسوس بها الرعية، يقول:

(١) الطبري - تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٦١٨.

(٢) د. أحمد فريد الرفاعي - عصر المأمون، ج ١، ص ١١٤-١١٥.

(٣) د. محمد ماهر حمادة - الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر العباسي الأول، ص ١٨٢-١٨٣.

(٤) د. أحمد فريد الرفاعي - عصر المأمون، ج ١، ص ١١٤.

(٥) المصدر نفسه، ج ١، ص ١١٤.

(٦) المصدر نفسه، ج ١، ص ١١٤.

"... إن الله عز وجل استأنز بخلقته موسى الهادي الإمام؛ فقبضه إليه، وولى بعده رشيداً مرضياً أمير المؤمنين بكم رؤوفاً رحيماً، من محسبنكم قبولاً، وعلى مسيبتكم بالعفو عتوقاً، وهو - أمتعه الله بالنعمة وحفظ له ما استرعاه إياه من أمر الأمة، وتولاه بما تولى به أوليائه وأهل طاعته - يعذبكم من نفسه الرأفة بكم والرحمة لكم، وقسم أعطياتكم فيكم عن استحقاقكم، ويبدل لكم من الجائزة مما آفاه الله على الخلفاء مما في بيوت الأموال ما ينوب عن رزق كذا وكذا شهراً، غير مقاص لكم بذلك فيما تستقبلون من أعطياتكم، وحاملاً باقي ذلك للدفع عن حريمكم، وما لعله أن يحدث في النواحي والأقطار من العصاة المارقين إلى بيوت الأموال" (١) .

وواضح من النص السابق أن الرشيد يعد الناس بعهد من العدل والرأفة، وأن يتشدد في حفظ الأمن الداخلي وصيانة الحدود ومطاردة كل من يهدد أمن الدولة من الخارجين والعصاة حتى يعم الأمن والاستقرار أرجاء الدولة .

ثم إننا نراه يستئن سنة جديدة وهي بذل المزيد من العطاء للجند عند البيعة، وقد سبق له أن سلك هذا المسلك عندما أخذ البيعة لأخيه الهادي بالخلافة (٢) .

* المبايعة بولاية العهد:

كانت مسألة ولاية العهد من أهم الأمور التي تشغل بال الخلفاء، وذلك لأنها من أخطر الأمور بعد الخلافة، وقد كان الخليفة هارون الرشيد من أشد خلفاء بني العباس حرصاً على ولاية عهده، يروي المسعودي عن الأصمعي أنه كان مرة بحضرة الرشيد يسامره، فرآه يقعد مرة ويضطجع أخرى ويبيكي ثالثة، ثم أنشأ يقول:

فَلَدُ أُمُورٍ عِبَادَ اللَّهِ ذَا بَقَاةٍ مُوحَّدَ الرَّأْيِ لَا نَكْسَ (٣) وَلَا بَرَمَ (٤)

وَاتْرِكْ مَقَالَةَ أَقْوَامِ ذُوِي خَطَلٍ (٥) لَا يَقْهَمُونَ إِذَا مَا مَعْشَرَ فَهَمُوا

ثم لم يلبث أن دعا يحيى البرمكي - وكان يستشيريه في كل أمر خطير - فقال له: يا أبا الفضل، إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مات من غير وصية والإسلام جذع (٦)، والإيمان

(١) المصدر نفسه، ج ١، ص ١١٤-١١٥ .

(٢) الطبري - تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٥٩٣-٥٩٤ .

(٣) نكس: به ضعف وعجز، انظر ابن منظور - لسان العرب، مادة نكس .

(٤) برم: عي واضطراب، انظر المصدر نفسه، مادة برم .

(٥) الخطل: الكلام الفاسد الكثير المضطرب، انظر المصدر نفسه، مادة خطل .

(٦) جذع: جديد، انظر المصدر نفسه، مادة جذع .

جديد، وكلمة العرب مجتمعة، قد أمنها الله تعالى بعد الخوف، وأعزها بعد الذل، فما لبث أن ارتد عامة العرب على أبي بكر، وكان من خبره ما قد علمت، وإن أبا بكر صيّر الأمر إلى عمر، فسلمت الأمة له، ورضيت بخلافته، ثم صيّرهما عمر شوري، فكان بعده ما قد بلغك من الفتن حتى صارت إلى غير أهلها، وقد عُيِّنَتْ بتصحيح هذا العهد، وتصويره إلى مَنْ أَرْضَى سيرته، وأحمد طريقته، وأثق بحسن سياسته وأمن ضعفه ووهنه، وهو عبد الله "المأمون" وبنو هاشم مائلون إلى محمد "الأمين" بأهوائهم، وفيه ما فيه من الانقياد لهواه، والتصرف مع طويته، والتبذير لما حوته يده، ومشاركة النساء والإماء في رأيه، وعبد الله المرضي الطريقة الأصل الرأى، الموثوق به في الأمر العظيم، فإن مِلْتُ إلى عبد الله أسخطت بني هاشم، وإن أفردت محمداً بالأمر لم آمن تخليطه على الرعية، فأشر علي في هذا الأمر برأيك مشورة نِعْمُ فضلها ونفعها؛ فإنك بحمد الله مبارك الرأي لطيف النظر، فقال: يا أمير المؤمنين إن كل زلة مستقالة، وكل أمر يتلافى، خلا هذا العهد؛ فإن الخطأ فيه غير مأمون، والزلة فيه لا تُستدرك، وللنظر فيه مجلس غير هذا، يقول الأصمعي: فعلم الرشيد أنه يريد الخلوة، فأمرني بالتحني، فقلت وقعدت ناحية بحيث أسمع كلامهما؛ فما زال في مناجاة ومناظرة طويلة حتى مضى الليل، وافترقا على أن عقد الأمر لعبد الله المأمون بعد محمد الأمين" (١).

وقد كتب الرشيد بهذا الشأن كتابين أجهد فيهما الفقهاء والقضاة والكتاب، أحدهما على لسان الأمين يتعهد فيه بإحترام ما عقده أبوه من ولاية العهد له ولأخويه عبد الله والقاسم من بعده، والثاني على لسان المأمون يتعهد فيه بالوفاء بما عقده أبوه له ولأخويه، ومع أن الطبري الذي أورد نص هذين الكتابين، لم يصرح باسم الكاتب، إلا أنه يستبان من أسلوبهما أنهما من إنشاء اسماعيل بن صبيح.

ولم يكتف الرشيد بهذا الأمر بل إنه خرج سنة ١٨٦هـ حاجاً واصطحب معه الأمين والمأمون والوزراء وكبار الفقهاء والقضاة والكتاب والقواد وجلة بني هاشم ليشهدوا على ما عقده الخليفة لولديه وما شرطه لكل واحد منهما، واستحلفهما ببيت الله الحرام على الوفاء بشروط العهد، ثم علق الكتابين في الكعبة الشريفة، وتقدم إلى الحجة في حفظهما ومنع من أراد إخراجهما والذهاب بهما (٢).

(١) المسعودي - مروج الذهب، ج ٣، ص ٣٦٢-٣٦٣، وانظر ابن أعثم الكوفي - الفتوح، ج ٤، ص ٤١٣-٤١٥، وفيه رواية مختلفة عما نقلناه عن المسعودي.

(٢) الطبري - تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٦٥٠-٦٥٢ وانظر المسعودي - مروج الذهب، ج ٣، ص ٣٦٤ واليعقوبي - تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٤٢١، وابن الجوزي - المنتظم، ج ٩، ص ١١٠-١١٢.

ويذكر المؤرخون أن الرشيد لما بايع للأمين والمأمون أرسل إليه عبد الملك بن صالح^(١) كتاباً يحرضه فيه على البيعة للقاسم، وأن يجعله ثالثاً في ولاية العهد، يقول فيه:

يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الَّذِي لَوْ كَانَ نَجْمًا كَانَ سَعْدًا
لِلْقَاسِمِ اعْقُدْ بَيْعَةً واقْدُخْ لَهُ فِي الْمَأْكَ زِنْدًا
اللَّهُ فَرْدٌ وَأَجْدٌ فَاجْعَلْ وِلَاةَ الْعَهْدِ فَرْدًا

فبايع الرشيد للقاسم وسماه المؤتمن وولاه الجزيرة والثغور والعواصم^(٢).

يبدأ كتاب تعهد الأمين بتسمية ولي العهد وهو محمد بن هارون أمير المؤمنين، وبيان الهيئة التي كان عليها حين تمت البيعة، يقول الأمين:

"بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، هَذَا كِتَابٌ لِعَبْدِ اللَّهِ هَارُونَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ كَتَبَهُ مُحَمَّدُ بْنُ هَارُونَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِي صِحَّةٍ مِنْ عَقْلِهِ وَجَوَازٍ مِنْ أَمْرِهِ طَائِعًا غَيْرَ مَكْرَهٍ"^(٣).

ثم يشرع ببيان بنود البيعة وشروطها، من أن الخلافة للأمين بعد أمير المؤمنين الرشيد، ومن بعده للمأمون وأن أمير المؤمنين قد ولى المأمون ناحية خراسان^(٤) وما يتبعها من الثغور والكور. واستكمالاً لهذا المحور أخذ الرشيد على الأمين العهود والمواثيق بأن يفي لأخيه المأمون بما عقده له أبوه الرشيد من العهد والولاية والخلافة؛ يقول الأمين:

(١) عبد الملك بن صالح بن علي بن عبد الله بن العباس : أبو عبد الرحمن ، أمير من أمراء بني العباس ، وولاه الرشيد المدينة والصوائف ومصر فلم يذهب إليها ثم ولاه دمشق ، غضب عليه لأنه بلغه أنه يطلب الخلافة فحبسه ببغداد سنة ١٨٧هـ ولما مات الرشيد أطلقه الأمين وولاه الشام والجزيرة سنة ١٩٣هـ فأقام بالرقعة أميراً إلى أن توفي سنة ١٩٦هـ . انظر الكتبي - فوات الوفيات ، ج ٢ ، ص ٣٩٨-٤٠١ ، وابن تغري بردي - النجوم الزاهرة ، ج ٢ ، ص ١١٨-١١٩ .

(٢) مجهول - العيون والحقائق ، ج ٣ ، ص ٣٠٣-٣٠٤ ، وانظر الطبري - تاريخ الطبري ، ج ٤ ، ص ٦٥١ ، وابن كثير - البداية والنهاية ، ج ٩ ، ص ٢٠٢ ، وابن الجوزي - المنتظم ، ج ٩ ، ص ١١١ ، والإربلي - خلاصة الذهب المسبوك ، ص ١٤٠ ، وفيها جميعاً "اعقد لقاسم بيعة".

(٣) الطبري - تاريخ الطبري ، ج ٤ ، ص ٦٥٢ .

(٤) خراسان : بلاد واسعة من أشهر مدننا نيسابور وهراة ومرو وبلخ وطالقان ونسا وأبيورد وسرخس ، افتتح أكثرها عبد الله بن عامر بن كرز في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه سنة ٣١هـ ، اختارها العباسيون مهذاً لنورتهم ، شهر منها خلق كثير أشهرهم أبو مسلم الخراساني أحد أبرز قادة الدعوة العباسية ، والذي قتله المنصور سنة ١٢٧هـ ، انظر الحموي - معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٣٥٠-٣٥٤ "خراسان" وتشمل خراسان اليوم المناطق الشمالية الوسطى من إيران وأفغانستان .

"... إن أمير المؤمنين ولاني العهد من بعده، وصير البيعة لي في رقاب المسلمين جميعاً، وولى عبد الله بن هارون أمير المؤمنين العهد والخلافة وجميع أمور المسلمين بعدي برضا مني وتسلیم، طائعا غير مكره، وولاه خراسان وتغورها وكورها وحرثها وجندها وخراجها وطرانها وبريدها وبيوت أموالها وصدقاتها وعشرها وعشورها وجميع أعمالها في حياتها وبعده"^(١).

ومن شروط البيعة أن يقوم الأمين - إن أفضت الخلافة إليه بعد أبيه الرشيد - بإفاد ما عقده الرشيد للمأمون من توليته خراسان وتغورها وأجنادها، وليس له أن ينقض ما عقده أبوه للمأمون، وكذلك ليس له أن يمنع عنه قائداً أو كاتباً أو أي رجل ممن ضمهم إليه الرشيد. يقول الأمين: "وشرطت لعبد الله بن هارون أمير المؤمنين برضا مني وطيب نفس، أن لأخي عبد الله بن هارون عليّ الوفاء بما عقده هارون أمير المؤمنين من العهد والولاية والخلافة وأمور المسلمين جميعاً بعدي وتسلیم ذلك له، وما جعل له من ولاية خراسان وأعمالها كلها ومما أقطعه أمير المؤمنين من قطيعة أو جعل له من عقده أو ضيعة من ضياعه أو ابتاع من الضياع والعقد، وما أعطاه في حياته وصحته من مال أو حلي أو جوهر أو متاع أو كسوة أو منزل أو ذاب أو قليل أو كثير فهو لعبد الله بن هارون أمير المؤمنين موقراً مسلماً إليه. وقد عرفت ذلك كله شيئاً شيناً؛ فإن حدث بأمير المؤمنين حدث الموت، وأفضت الخلافة إلى محمد بن أمير المؤمنين، فعلى محمد إنفاذ ما أمره به هارون أمير المؤمنين في تولية عبد الله بن هارون أمير المؤمنين خراسان وتغورها... ليس لمحمد بن أمير المؤمنين أن يحول عنه قائداً ولا مفقوداً ولا رجلاً واحداً ممن ضم إليه من أصحابه الذين ضمهم إليه أمير المؤمنين"^(٢).

وبهذا نجد الرشيد قد قسم الدولة إلى شطرين لا يرتبط أحدهما بالآخر، وذلك عندما جعل لكل واحد من أبنائه أن يحكم المناطق التي تخضع لنفوذه حسبما يريد، دونما تدخل من الآخر، وقد كان ذلك كله في صالح المأمون و ضد الأمين الذي جرده أبوه من أية سلطة على أخيه المأمون؛ إذ لم يعطه الحق في خلع من ولاية العهد أو عزله عن ولاية خراسان وتغورها وأعمالها، أو حتى التدخل في الولايات التي تقع ضمن نطاق نفوذه.

وإن أخل الأمين بأي شرط من هذه الشروط يسقط حقه في الخلافة ويقدم المأمون عليه يقول الأمين في كتابه: "... فإن أراد محمد بن أمير المؤمنين خلع عبد الله بن أمير المؤمنين من ولاية خراسان وتغورها وأعمالها... أو صرف أحد من قواده الذين ضمهم أمير المؤمنين إليه... أو أن ينتقصه قليلاً أو كثيراً مما جعله أمير المؤمنين له بوجه من الوجوه أو بحيلة من

(١) الطبري - تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٦٥٢.

(٢) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٦٥٢-٦٥٣.

الحليل، صَغَرَتْ أَوْ كَبُرَتْ، فَلِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ هَارُونَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْخِلَافَةَ بَعْدَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَهُوَ الْمُقَدَّمُ عَلَى مُحَمَّدَ بْنِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَهُوَ وَلِيُّ الْأَمْرِ مِنْ بَعْدِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ" (١).

ويبدو لنا أن الرشيد كان يوجس في نفسه خيفة من الأمين، ولذلك نراه يوجب البيعة للمأمون بالخلافة على المسلمين جميعاً إن حاول الأمين أن يخلع المأمون أو يخل بشرط من شروط هذه البيعة، ويظهر أن الرشيد كان يحس بأن الأمين سينقض هذه البيعة ولذلك نراه يحث الأمة على قتال من خالف المأمون ويحلها من بيعة الأمين، يقول: "... وَالطَّاعَةَ مِنْ جَمِيعِ قَوَادِمِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ هَارُونَ مِنْ أَهْلِ خُرَاسَانَ وَأَهْلِ الْعَطَاءِ وَجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ فِي جَمِيعِ الْأَجْنَادِ وَالْأَمْصَارِ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْقِيَامَ مَعَهُ وَالْمُجَاهَدَةَ لِمَنْ خَالَفَهُ وَالنَّصْرَ لَهُ وَالذَّبَّ عَنْهُ مَا كَانَتْ الْحَيَاةُ فِي أَبْدَانِهِمْ، وَلَيْسَ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ جَمِيعاً مَنْ كَانُوا أَوْ حَيْثُ كَانُوا أَنْ يُخَالَفَهُ وَلَا يَعْصِيَهُ وَلَا يَخْرُجَ مِنْ طَاعَتِهِ، وَلَا يُطِيعُ مُحَمَّدًا بْنَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِي خَلْعِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ هَارُونَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَصَرْفِ الْعَهْدِ عَنْهُ مِنْ بَعْدِهِ إِلَى غَيْرِهِ أَوْ يَنْقِصَهُ شَيْئاً مِمَّا جَعَلَهُ لَهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ هَارُونَ فِي حَيَاتِهِ وَحَجَّتِهِ وَاشْتَرَطَ فِي كِتَابِهِ الَّذِي كَتَبَهُ عَلَيْهِ فِي الْبَيْتِ الْحَرَامِ، وَفِي هَذَا الْكِتَابِ: وَعَبْدُ اللَّهِ بْنِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُصَدِّقُ فِي قَوْلِهِ وَأَنْتُمْ فِي حِلٍّ مِنَ الْبَيْعَةِ الَّتِي فِي أَعْنَاقِكُمْ لِمُحَمَّدِ بْنِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ هَارُونَ إِنْ نَقَصَ شَيْئاً مِمَّا جَعَلَهُ لَهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ هَارُونَ، وَعَلَى مُحَمَّدِ بْنِ هَارُونَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَتَقَادَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَيَسَلِّمَ لَهُ الْخِلَافَةَ" (٢).

ومن شروط البيعة التي كانت في صالح المأمون، أن الرشيد لم يعط الحق للأمين في خلع أخيه القاسم من ولاية العهد، بل وكل أمره إلى المأمون؛ فإن أفضت الخلافة إليه، فله الحق في إبقائه أو عزله، وبذلك نجد الرشيد يضع ثقته في المأمون يقول:

"... فَإِذَا أَفْضَتْ الْخِلَافَةُ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، فَالْأَمْرُ إِلَيْهِ فِي إِمْنَاءِ مَا جَعَلَهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْعَهْدِ لِلْقَاسِمِ بَعْدَهُ أَوْ صَرْفِ ذَلِكَ عَنْهُ إِلَى مَنْ رَأَى مِنْ وَلَدِهِ وَإِخْوَتِهِ وَتَقْدِيمِ مَنْ أَرَادَ أَنْ يُقَدَّمَ قَبْلَهُ وَتَصْنِيفِ الْقَاسِمِ بْنِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بَعْدَ مَنْ تَقَدَّمَ قَبْلَهُ يَحْكُمُ فِي ذَلِكَ بِمَا أَحَبَّ وَرَأَى" (٣) وختاماً لهذه البيعة يأخذ الخليفة الرشيد على المبايعين من غليظ الأيمان، وجيليل الموائيق ما يضمن له صدقهم وإخلاصهم في الوفاء بالعهد الذي أخذوه على أنفسهم يقول مخاطباً المبايعين:

فَعَلَيْكُمْ مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ إِنْغَادُ مَا كَتَبَ بِهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فِي كِتَابِهِ هَذَا وَشَرْطُ عَلَيْهِمْ - أَيُّ عَلَى أَبْنَائِهِ - وَأَمْرٌ بِهِ، وَعَلَيْكُمْ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِيمَا أَلْزَمَكُمْ وَأَوْجِبَ عَلَيْكُمْ لِعَبْدِ اللَّهِ

(١) الطبري - تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٦٥٣.

(٢) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٦٥٣.

(٣) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٦٥٣.

بن أمير المؤمنين وعهد الله وذمته وذمة رسوله - - صلى الله عليه وسلم - - والعهود والمواثيق التي أخذ الله على الملائكة المقربين والنبیین والمرسلين ووكدها في أعناق المؤمنين والمسلمين لتفنن لعبد الله أمير المؤمنين بما سمى، ولمحمد وعبد الله والقاسم بني أمير المؤمنين بما سمى وكتب في كتابه هذا واشترط عليكم وأقررتكم به على أنفسكم^(١).

وكان الرشيد بذلك يسوغ هذه البيعة، ويسبغ عليها صفة القداسة، عندما يأخذ على المبايعين هذه الأيمان المؤكدة التي لا يسع من يحلف بها إلا الوفاء.

ويمضي الرشيد في تأكيد هذه البيعة؛ فيفرض على الناكث سلسلة من الإلزامات الشرعية الشاقة؛ فيلزم كل ناكث للبيعة أن يتصدق بأمواله وأملاكه التي بين يديه أو يكسبها إلى خمسين سنة على المساكين، وأن يحج إلى بيت الله الحرام بمكة خمسين حجة مشياً، وأن يعق ممالئكه من الذكور والإناث إلى خمسين سنة لوجه الله تعالى، وأن يطلق جميع نساته طلاقاً لا رجوع فيه. يقول:

" فَإِنْ أَنْتُمْ بَدَلْتُمْ مِنْ ذَلِكَ شَيْئاً، أَوْ غَيَّرْتُمْ أَوْ نَكَثْتُمْ أَوْ خَالَفْتُمْ مَا أَمَرَكُم بِهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَاشْتَرَطَ عَلَيْكُمْ فِي كِتَابِهِ هَذَا، فَبَرَأْتُمْ مِنْكُمْ ذِمَّةُ اللَّهِ وَذِمَّةُ رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ - صلى الله عليه وسلم - وَذِمَّةُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ، وَكُلُّ مَالٍ هُوَ الْيَوْمَ لِرَجُلٍ مِنْكُمْ أَوْ يَسْتَفِيدُهُ إِلَى خَمْسِينَ سَنَةً؛ فَهُوَ صَدَقَةٌ عَلَى الْمَسَاكِينِ، وَعَلَى كُلِّ رَجُلٍ مِنْكُمْ الْمَشْيُ إِلَى بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ الَّذِي بِمَكَّةَ خَمْسِينَ حِجَّةً نَذْرًا وَاجِبًا لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ إِلَّا الْوَفَاءَ بِذَلِكَ، وَكُلُّ مَمْلُوكٍ لِأَحَدٍ مِنْكُمْ أَوْ يَمْلِكُهُ فِيمَا يَسْتَقْبَلُ إِلَى خَمْسِينَ سَنَةً حُرًّا، وَكُلُّ امْرَأَةٍ لَهَا فَهِيَ طَالِقٌ ثَلَاثًا أَلْبَتَةً^(٢) طَلَاقِ الْحَرَجِ^(٣) لَا مَتَّوِيَّةً^(٤) فِيهَا

(١) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٦٥٣.

(٢) طلاق امرأته ثلاثاً بته وبنتاً وأبنة: أي قطعاً لا عود فيها ولا رجوع، اللسان: مادة، بت، انظر ابن منظور - لسان العرب، مادة بت.

(٣) طلاق الحرج: طلاق التحريم، انظر المصدر نفسه، مادة حرج.

(٤) لا متتوية: أي لا استثناء، انظر المصدر نفسه، مادة تتي.

وَاللَّهُ عَلَيْكُمْ بِذَلِكَ كَفِيلٌ وَرَاعٍ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا" (١) .

وبذلك نرى أن الرشيد قد سدَّ كل الطرق أمام كل ناكث بأخذ هذه الإلزامات التي تفوق طاقة الإنسان، على كل من تحدّته نفسه بنكث هذه البيعة؛ وكأنه ينفر الناكثين ويحذرهم في الوقت نفسه من نكثها أو الإخلال بأي شرط من شروطها .

ولا يختلف كتاب تعهد المأمون كثيراً في مطلعته عن كتاب تعهد الأمين، إذ يقول فيه:

"هَذَا كِتَابٌ لِعَبْدِ اللَّهِ هَارُونَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ كَتَبَهُ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ هَارُونَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِي صَبْحَةِ مِنْ عَقْلِهِ وَجَوَازٍ مِنْ أَمْرِهِ وَصِدْقِ نَبِيِّهِ فِيمَا كَتَبَ فِي كِتَابِهِ هَذَا وَمَعْرِفَةٍ بِمَا فِيهِ مِنَ الْفَضْلِ وَالصَّلَاحِ لَهُ وَالْأَهْلِ بَيْنِهِ وَجَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ" (٢) .

ثم يأخذ في بيان ما أعطاه الرشيد للمأمون من ولاية العهد والخلافة بعد الأمين وولاية خراسان وثغورها وكورها وجميع أعمالها في حياته وبعده، وما اشترطه على الأمين من الوفاء بما عقده للمأمون وعدم التدخل في إدارة الولايات التي تخضع لنفوذه. يقول المأمون:

"... إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ هَارُونَ وَوَلَايَةَ الْعَهْدِ وَالْخِلَافَةَ وَجَمِيعَ أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ فِي سُلْطَانِهِ بَعْدَ أَخِي مُحَمَّدِ بْنِ هَارُونَ وَوَلَايَةَ تَغُورِ خُرَّاسَانَ وَكُورَهَا وَجَمِيعَ أَعْمَالِهَا وَشَرَطَ عَلَيَّ مُحَمَّدُ بْنُ

(١) الطبري - تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٦٥٣ .

ورد نص هذه البيعة في مصادر أخرى بصورة تختلف عما أورده الطبري، فقد أوردها كلُّ من الأزرقى ت ٢٥٠هـ في أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، ج ١، ص ١٥٥-١٥٨، واليعقوبي في تاريخه، ج ٢، ص ٤١٦-٤١٩، والقلقشندي في صبح الأعشى، ج ١٤، ص ٩٨-١٠٣ الذي يذكر أنه نقلها عن الأزرقى وتتميز هذه المصادر عن تاريخ الطبري بذكر أسماء الشهود الذين وقعوا على كتاب تعهد الأمين وكتاب تعهد المأمون وهم:

سليمان بن أمير المؤمنين المنصور وعيسى بن جعفر وجعفر بن جعفر وعبيد الله بن المهدي وجعفر بن موسى أمير المؤمنين وإسحاق بن عيسى بن علي وعيسى بن موسى أمير المؤمنين وإسحاق بن موسى أمير المؤمنين وأحمد بن إسماعيل بن علي وسليمان بن جعفر بن سليمان وعيسى بن صالح بن علي وداود بن عيسى بن موسى وداود بن سليمان بن جعفر ويحيى بن موسى بن عيسى ويحيى بن خالد وخزيمة بن خازم وهرثمة بن أعين وعبد الله بن الربيع والفضل بن الربيع والعباس بن الفضل والقاسم بن الربيع ودقاقة بن عبد العزيز وسليمان بن عبد الله بن الأصم ومحمد بن عبد الرحمن قاضي مكة وعبد الكريم الحجبي وإبراهيم بن عبد الرحمن الحجبي وإبان مولى أمير المؤمنين وخالد مولى أمير المؤمنين ومحمد بن منصور وإسماعيل بن صبيح، وكتب في ذي الحجة سنة ١٨٦هـ. انظر تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٤١٩ .

والغريب أنه يغيب عن هؤلاء الشهود جعفر والفضل ابني يحيى بن خالد البرمكي، ويبدو أن اسميها قد سقطا سهواً من الناسخ إذ نجد لهما ذكراً في رواية الأزرقى، انظر أخبار مكة، ج ١، ص ١٥٨ .

(٢) تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٦٥٤ .

هارونَ الوفاءَ بما عقَدَ لي من الخِلافةِ وولايةِ أمورِ العبادِ والبلادِ بعَدَه، وولايةِ خراسانَ وجميعِ أعمالِها، ولا يعرضُ لي في شيءٍ مما أقطعتني أميرُ المؤمنينَ وابتاعَ لي من الضياعِ والعقدِ والرباعِ وابتعتُ منه من ذلكَ وما أعطاني أميرُ المؤمنينَ من الأموالِ والجواهرِ والكيساءِ، والمتاعِ والدوابِّ والرقيقِ وغيرِ ذلكَ، ولا يعرضُ لي ولا لأحدٍ من عمالي وكتابي بسببِ محاسبتِهِ، ولا يتبعُ لي في ذلكَ ولا لأحدٍ منهم أبداً، ولا يدخلُ عليَّ ولا عليَّهم ولا عليَّ من معي ممن استعنتُ به من جميعِ الناسِ مكرؤهاً في نفسٍ ولا دمٍ ولا شعرٍ ولا بشرٍ ولا مالٍ ولا صغيرٍ من الأمورِ ولا كبيرٍ" (١).

وبعد ذلك يخلص إلى بيان ما تعهد به المأمون للأمين إن أفضت الخلافة للأخير، من السمع والطاعة له والنصح والوفاء له بالبيعة والولاية، وموازرتة والوقوف إلى جانبه إذا تعرض، للعدوان ولكن هذا كله مشروط بوفاء الأمين بما عقده الرشيد للمأمون؛ يقول المأمون:

"... فشرطتُ لأميرِ المؤمنينَ وجعلتُ له على نفسي أن أسمعَ لمحمدَ وأطيعَ ولا أعصيه وأنصحه ولا أغشه وأوقى بينعته وولايته ولا أغدرُ ولا أنكثُ وأنفذُ كتبه وأموره وأحسنُ موازرتةً وجهادَ عدوه في ناحيتي، ما وقى لي بما شرطَ لأميرِ المؤمنينَ في أمري وسمي في الكتابِ الذي كتبه لأميرِ المؤمنينَ ورَضِي به أميرُ المؤمنينَ ولم يتبعني بشيءٍ من ذلكَ ولم ينقضْ أمراً من الأمورِ التي شرطها أميرُ المؤمنينَ لي عليه؛ فإن احتاجَ محمدُ بنُ أميرِ المؤمنينَ إلى جندٍ وكتبَ إليَّ يأمرني بإشخاصه إليه أو إلى ناحيته من النواحي أو إلى عدوٍ من أعدائه خالفه أو أرادَ نقضَ شيءٍ من سلطانه أو سلطاني الذي أسندهُ أميرُ المؤمنينَ إلينا وولانا إيَّاه، فعليَّ أن أنفذَ أمره ولا أخالفه ولا أقصرُ في شيءٍ كتبَ به إليَّ" (٢).

ويبدو من ذلك أن الرشيد قد جرد الأمين من كل سلاح يدافع به عن سلطانه؛ فهو قد أعطاه الخلافة دون أن يعطيه الجيش والقوة للدفاع عن خلافته، في الوقت الذي أعطى العدة والسلاح والقوة للمأمون، ويؤكد هذا رواية على لسان زبيدة أم الأمين حيث قالت للرشيد:

"ما أنصفتُ ابنكَ محمدًا حينَ وليتهُ العراقَ وأغرقتَهُ من العَدَدِ والقوَادِ وصيرتُ ذلكَ إلى عبدِ الله دونه" (٣).

وقد أتاح هذا الكتاب للأمين بعض الامتيازات؛ فقد أعطاه الحق في أن يولي العهد والخلافة أحد أولاده بعد المأمون بشرط ألا يسلب حقاً من الحقوق التي أعطاهها الرشيد لأخيه

(١) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٦٥٤.

(٢) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٦٥٤.

(٣) المسعودي - مروج الذهب، ج ٣، ص ٣٦٣.

المأمون، يقول المأمون: "... وإن أراد مُحَمَّدٌ أَنْ يُؤَلِّيَ رَجُلًا مِنْ وَلَدِهِ الْعَهْدَ وَالْخِلَافَةَ بَعْدِي فَذَلِكَ لَهُ مَا وَقَى لِي بِمَا جَعَلَهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَيَّ وَاسْتَرْطُهُ لِي عَلَيْهِ، وَشَرَطَ عَلَيَّ نَفْسِهِ فِي أَمْرِي، وَعَلَيَّ إِنْفَاقُ ذَلِكَ وَالْوَفَاءُ لَهُ بِهِ، وَلَا أَنْقُضُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أُغَيِّرُهُ وَلَا أُبَدِّلُهُ وَلَا أُقَدِّمُ قَبْلَهُ أَحَدًا وَلَا قَرِيبًا وَلَا بَعِيدًا مِنَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ إِلَّا أَنْ يُؤَلِّيَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ هَارُونَ أَحَدًا مِنْ وَلَدِهِ بَعْدِي فَيَلْزَمَنِي وَمُحَمَّدًا الْوَفَاءُ لَهُ"^(١).

ويعود المأمون فيؤكد التزامه بالعهد الذي أخذه أبوه عليه حيث يقول: "وَجَعَلْتُ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَمُحَمَّدَ عَلِيِّ الْوَفَاءَ بِمَا شَرَطْتُ وَسَمَّيْتُ فِي كِتَابِي هَذَا مَا وَقَى لِي مُحَمَّدٌ بِجَمِيعِ مَا اسْتَرْطَ لِي أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ فِي نَفْسِي، وَمَا أُعْطَانِي أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ الْمُسَمَّاةِ فِي هَذَا الْكِتَابِ الَّذِي كَتَبْتُهُ لِي"^(٢).

ولكن الرشيد يستوثق من المأمون فيأخذ عليه العهود والمواثيق والأيمان المغلظة، وهو بذلك يوصد في وجهه كل باب يستطيع النفاذ منه لينقض البيعة^(٣).

ويزداد الرشيد تشديداً على المأمون، فيعلن براءته من الله ورسوله - صلى الله عليه وسلم - ويرهقه بسلسلة من الالتزامات الشاقة، إن هو نقض ما تعهد به، يقول المأمون: "... فَإِنِ أَنَا نَقَضْتُ سَنِيًّا مِمَّا شَرَطْتُ وَسَمَّيْتُ فِي كِتَابِي هَذَا أَوْ غَيَّرْتُ أَوْ بَدَّلْتُ أَوْ نَكَّثْتُ أَوْ غَدَرْتُ، فَبَرَيْتُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَمِنْ وِلايَتِهِ وَدِينِهِ وَمُحَمَّدِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، وَلَقَيْتُ اللَّهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَافِرًا مُشْرِكًا، وَكُلُّ امْرَأَةٍ هِيَ لِي الْيَوْمَ أَوْ أَنْزَوْجُهَا إِلَى ثَلَاثِينَ سَنَةً طَالِقٌ ثَلَاثًا أَلْبَيْتَةَ طَلِاقِ الْحَرَجِ، وَكُلُّ مَمْلُوكٍ هُوَ لِي الْيَوْمَ أَوْ أَمْلِكُهُ إِلَى ثَلَاثِينَ سَنَةً حُرًّا لِيُوجِهَ اللَّهُ، وَعَلَيَّ الْمَشْنِيُّ إِلَى بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ الَّذِي بِمَكَّةَ ثَلَاثِينَ حِجَّةً نَذْرًا وَاجِبًا عَلَيَّ فِي عُنُقِي حَافِيًّا رَاجِلًا لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنِّي إِلَّا الْوَفَاءَ بِذَلِكَ، وَكُلُّ مَالٍ لِي أَوْ أَمْلِكُهُ إِلَى ثَلَاثِينَ سَنَةً هَذَا بَالِغِ الْكَعْبَةِ، وَكُلُّ مَا جَعَلْتُ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَشَرَطْتُ فِي كِتَابِي هَذَا لِأَزْمَ لِي لَا أَضْمِرُ غَيْرَهُ وَلَا أَنْوِي غَيْرَهُ، وَشَهِدَ سَلِيمَانُ بْنُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَقَلَانُ وَقَلَانُ، وَكُتِبَ فِي ذِي الْحِجَّةِ سَنَةَ سِتٍّ وَتَمَانِينَ وَمِئَةَ"^(٤).

يبدو من الرسالتين السابقتين أن المبايعة بولاية العهد تنكئ في طرق موضوعاتها على عدة محاور؛ أولها تسمية ولي العهد المبايع له صراحة، إذ يرد اسمه في المبايعة غير مرة، وقد بدا ذلك واضحاً جلياً من خلال ما تم اقتباسه من نصوص من تينك الرسالتين ولعل ذلك

(١) الطبري - تاريخ الطبري، ج٤، ص ٦٥٤.

(٢) المصدر نفسه، ج٤، ص ٦٥٤.

(٣) المصدر نفسه، ج٤، ص ٦٥٤.

(٤) المصدر نفسه، ج٤، ص ٦٥٤-٦٥٥.

يكون من باب رفع اللبس عن المبايعين^(١). وأما الثاني فيتصدى للحديث عن شروط البيعة وبنودها في حين يُعنى المحور الثالث بذكر ما يلزم المبايعين الوفاء به وواجباتهم تجاه ولي العهد^(٢) مع التأكيد في كل ذلك على إظهار شخصية الخليفة القوية التي تبدو لنا من خلال العهود والمواثيق والأيمان المغلظة التي أخذها على ولي العهد والالتزامات الشرعية الشاقة التي ألزم بها كل من تسول له نفسه نقض البيعة .

كما تعتمد هذه الرسائل على الإسهاب والتطويل والإطناب والتراكيب والعبارات الواضحة والألفاظ السهلة في سرد الشروط والبنود التي نصت عليها .

٢ - المنشورات:

المنشورات: واحدها منشور، وهو بيان عام يُوجّه باسم الخليفة إلى الرعية في شأن من الشؤون العامة التي تهمها، فيقوم الخليفة بإطلاعها عليه، عن طريق إصدار الكتب إلى من يعنيه أمر هذا المنشور من الرعية، ويكلف الولاة في مختلف الأمصار بإعلام الناس بمضمونه^(٣). ويصادفنا في هذا العهد منشوران يتعلق الأول منهما بما استجد في عاصمة الخلافة بعد وفاة الهادي ومبايعة أخيه هارون الرشيد بالخلافة، ويتضمن الثاني: إعلان الرشيد البيعة بولاية العهد لولديه الأمين والمأمون.

كان من أوائل الأعمال التي قام بها الرشيد بعد تسلمه الخلافة أن أرسل الكتب إلى الأمصار ينبئهم بمبايعة الناس له بالخلافة، وقد تولى هذه المهمة يوسف بن القاسم بن صبيح الكاتب بأمر من يحيى بن خالد البرمكي^(٤)؛ وبذلك تكون رسالته أول وثيقة رسمية تعلن بداية حكم الرشيد^(٥)، وقد سبق أن عرضنا لهذه الرسالة عندما تحدثنا عن المبايعات^(٦).

(١) انظر د. محمد الدوري - الرسائل الفنية في العصر العباسي حتى نهاية القرن الثالث، ص ٣٠ .

(٢) المصدر نفسه، ص ٣١.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٠ .

(٤) الطبري - تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٦١٨ .

(٥) أورد الطبري هذه الرسالة في تاريخه، ج ٤، ص ٦١٨، على أنها خطبة ألقاها يوسف بن القاسم بن صبيح بين يدي الرشيد لما تولى الخلافة ولكن د. أحمد فريد الرفاعي في عصر المأمون، ج ١، ص ١١٤-١١٥ يورد نصها على أنها كتاب الرشيد إلى الأفاق بتولية الخلافة دون أن يذكر المصدر الذي استند إليه في نقل هذه الرسالة، ويبدو أنها خطبة يوسف نفسها ولكنها نسخت على شكل رسالة ووجهت إلى الأفاق، انظر د. محمد ماهر حمادة - الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر العباسي الأول ص ١٨٢-١٨٣ و د. عبد الجبار الجومرد - هارون الرشيد، ج ١، ص ١٤٣-١٤٤، و د. فاروق عمر فوزي - الخليفة المجاهد: هارون الرشيد، ص ١٩-٢٠ و د. عبد العزيز الدوري - العصر العباسي الأول، ص ١٠٦ .

(٦) انظر ص ٢٢ - ٢٣ من هذا البحث .

ومن المنشورات رسالة الرشيد إلى عماله فيما عقده من ولاية العهد لولديه الأمين والمأمون وهي من إنشاء إسماعيل بن صبيح .

يبدأ إسماعيل رسالته بمقدمة يصدق عليها أن تكون مقدمة دعائية للخليفة فكأنه يدعو الله أن يتولى الخليفة أمير المؤمنين ومن ولأه، وأن يكون "الحافظ لما استترعاه وأكرمه من خلافته وسلطانيه، والصانع له فيما قدم وأخر من أموره، والمنعم عليه بالنصر والتأييد في مشارق الأرض ومغاريبها والكالي والحافظ والكافي من جميع خلقه، وهو المحمود على جميع آلائه المسؤول تمام حسن ما أمضى من قضائيه لأمر المؤمنين وعاداته الجميلة عنده وإلهام ما يرضى به ويوجب له عليه أحسن المزيدي من فضليه" (١) .

ولعله بهذه المقدمة أراد التأكيد على أن سلطان الخليفة مستمد من سلطان الله عز وجل، ولذلك نراه يلجأ إلى استخدام صيغة غير معهودة من صيغ الدعاء، وهي استعمال المشتقات بدل الفعل بأنواعه، وما هذا إلا ليدل على أن الدعوة مستجابة وأن الأمور التي سألها الله قد تحققت.

وينبه الكاتب على الصفات الحميدة التي اجتمعت في وليي العهد من حسن السيرة بين الناس، وبلوغهما "أحسن ما أملت الأمة ومدت إليه أعتاقها وقذف الله لهما في قلوب العامة من المحبة والمودة والسكون إليهما والنقة بهما" (٢) .

ويشير إلى ثمرات إقامة ولي عهد للخليفة، وما يجنيه المسلمون من هذا الأمر، لما فيه من إقامة لدينهم، وقوام أمورهم وجمع ألفتهم وصلاح ذماتهم (٣) وتدفع المخذور والمكروه من الشتات والفرقة عنهم" (٤) .

ويحاول الكاتب أن يشعرنا بمسؤولية الخليفة أمام الله في مسألة ولاية عهده، فيخبرنا بأنه أطل النظر وأجال الفكر وأعمل الرأي فيما فيه الصلاح لولي العهد وللأمة جمعاء ولجأ إلى الله تعالى يستخيره ويسأله أن يلهمه الصواب فيما فيه الخير لهما وللأمة و "الجمع للكلمة واللحم للشعث والدفع للشتات والفرقة والحسم يكيد أعداء النعم من أهل الكفر والنفاق والغيل والشقاق والقطع لآمالهم من كل فرصة يرجون إدراكها وانتهازها منهما بإنتقاص حقهما" (٥) .

وبهذا نراه يحذر من بطانة السوء التي تزرع الفرقة بين وليي العهد وتسعى بالفساد بينهما، هذه

(١) الطبري - تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٦٥٥ .

(٢) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٦٥٥ .

(٣) الدهماء : عامة الناس، انظر لسان العرب، مادة ذهم .

(٤) تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٦٥٤ .

(٥) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٦٥٤ .

البطانة التي كان لها أكبر الأثر في إيغار صدر كل منهما وإيقاع العداوة والفتنة بينهما بعد وفاة والدهما .

وبعد مناجاة طويلة لله عز وجل وطول تدبر وتفكر، هدى الله أمير المؤمنين إلى "الشُّخُوصِ بِهِمَا إِلَى بَيْتِ اللَّهِ وَأَخَذِ الْبَيْعَةَ مِنْهُمَا لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَالْإِنْفَازِ لِأَمْرِهِ وَاكْتِتَابِ الشَّرْطِ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَلَهُمَا بِأَشَدِّ الْمَوَاطِقِ وَالْعُهُودِ وَأَعْلَى الْأَيْمَانِ وَالتَّوَكُّيدِ وَالْأَخْذِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَلَى صَاحِبِهِ"^(١) .

وقد حرص الرشيد على أن تتضمن هذه العهود والمواثيق ما فيه "اجْتِمَاعُ الْفَتَاهِمَا وَمَوَدَّتُهُمَا وَتَوَاصُلُهُمَا وَمَوَازَرَتُهُمَا وَمَكَانَفَتُهُمَا عَلَى حُسْنِ النَّظَرِ لِأَنْفُسِهِمَا وَلِرَعِيَّةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الَّتِي اسْتَرْعَاهُمَا وَالْجَمَاعَةَ لِدِينِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَكِتَابِهِ وَسُنَنِ نَبِيِّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَالْجِهَادَ لِعَدُوِّ الْمُسْلِمِينَ مَنْ كَانُوا وَحَيْثُ كَانُوا، وَقَطَعَ كُلَّ عَدُوٍّ مُظْهِرٍ لِلْعَدَاوَةِ وَمَسِرٍّ لَهَا وَكُلِّ مَنَاقِقِ مَارِقٍ، وَأَهْلِ الْأَهْوَاءِ الضَّالَّةِ الْمُضِلَّةِ مِنْ فِرْقَةٍ تَكِيدُ بِكَيْدِ تَوْعِجَةِ بَيْنَهُمَا ... وَمَا يَلْتَمِسُ أَعْدَاءُ اللَّهِ وَأَعْدَاءُ النَّعَمِ وَأَعْدَاءُ دِينِهِ مِنَ الضَّرْبِ بَيْنَ الْأُمَّةِ وَالسَّغِيِّ بِالْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ وَالذُّعَاءِ إِلَى الْبِدْعِ وَالضَّلَالَةِ"^(٢) ويؤكد الكاتب أن أمير المؤمنين لم يفعل ما فعله إلا إعزازاً للدين وإصلاحاً للرعية ومناصحة لله عز وجل ولجميع المسلمين ودفاعاً عن سلطان الله الذي قدره وتوحد فيه للذي حمله إياه"^(٣) . وهذا يدعم ما أشرنا إليه من أن سلطان الخليفة مستمد من سلطان الله عز وجل.

ويأخذ الكاتب في بيان توثيق العهدين اللذين أخذهما الرشيد على ولديه في بطن الكعبة؛ فبعد أن قضى أمير المؤمنين مناسكه دعا ولديه فكتباً له بخطوط أيديهما وبحضور أهل بيته ووزرائه وقواده وقضاته وكتابه وحجبة الكعبة كتابين أشهد عليهما الحضور وأمر بتعليقهما في الكعبة وتقدم إلى الحجبة بحفظهما ومنع من أراد إخراجهما والذهاب بهما، يقول إسماعيل:

"قَلَمًا قَدِيمًا - أَي أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ - مَكَّةَ أَظْهَرَ لِمَحْمَدٍ وَعَبْدِ اللَّهِ رَأْيَهُ فِي ذَلِكَ وَمَا نَظَرَ فِيهِ لَهُمَا فَقَبِلَا كُلُّمَا دَعَاهُمَا إِلَيْهِ مِنَ التَّوَكُّيدِ عَلَى أَنْفُسِهِمَا بِقَبُولِهِ، وَكَتَبَا لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِي بَطْنِ بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ بِخَطُوطِ أَيْدِيهِمَا بِمَحْضَرٍ مَنْ شَهِدَ الْمَوْسِمَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَقَوَائِدِهِ وَصَحَابَتِهِ وَقُضَايَاهُ وَحَجَبَةِ الْكَعْبَةِ وَشَهَادَاتِهِمْ عَلَيْهِمَا كِتَابَيْنِ اسْتَوَدَعَهُمَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الْحَجَبَةَ وَأَمَرَ بِتَعْلِيْقِهِمَا فِي دَاخِلِ الْكَعْبَةِ"^(٤) .

(١) نفسه ، ج ٤ ، ص ٦٥٤ .

(٢) نفسه ، ج ٤ ، ص ٦٤٥ .

(٣) تاريخ الطبري ، ج ٤ ، ص ٦٥٤ .

(٤) تاريخ الطبري - ج ٤ ، ص ٦٥١-٦٥٢ .

وبهذا نرى أنه أراد لهذه المواثيق أن تكون محترمة لا في صياغتها فحسب بل في مكان كتابتها وتوقيعها أيضاً .

ولم يكتف الرشيد بذلك بل أراد أن يشتهر الأمر بين الناس، فأمر قضاة الذين شهدوا عليهما وحضروا كتابتهما أن يعلموا جميعاً من حضر الموسم من الحاج والعمار وفؤود الأمصار ما شهدوا عليه من شرطيهما وكتابيهما وقراءة ذلك عليهم ليفهموه ويعرفوه ويحفظوه ويؤدوه إلى إخوانهم وأهل بلدانهم وأمصارهم ففعلوا وقرأ عليهم الشرطان جميعاً في المسجد الحرام^(١) .

وبعد هذا التطواف يأتي كاتب الرسالة إلى الموضوع الأهم، فيتوجه إلى الولاة في كل الأمصار ويأمرهم بإشهار أمر هذه البيعة في أمصارهم وقراءة كتاب أمير المؤمنين الذي يتضمن نسخ العهدين، على من قبلهم من الرعية والإبانة عما أشكل فيه حتى يفهموه ويعوه، ويكلفهم بأن يثبتوه في دواوين ولاياتهم، ويطلب إليهم أن يجيبوا أمير المؤمنين بما يكون قبلهم في ذلك. يقول إسماعيل: "... وَقَدْ نَسَخَ لَكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ذِيكَ الشَّرْطَيْنِ اللَّذَيْنِ كَتَبَهُمَا لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ابْنَاهُ: مُحَمَّدٌ وَعَبْدُ اللَّهِ فِي بَطْنِ الْكَعْبَةِ فِي أَسْفَلِ كِتَابِهِ هَذَا، فَأَحْمَدُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى مَا صَنَعَ لِمُحَمَّدٍ وَعَبْدِ اللَّهِ وَلِيِّ عَهْدِ الْمُسْلِمِينَ وَعِنْدَكَ وَعِنْدَ جَمَاعَةِ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَثِيرًا. وَاقْرَأْ كِتَابَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَنْ قَبْلَكَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَأَفْهِمُهُمْ إِيَّاهُ وَقُمْ بِهِ بَيْنَهُمْ وَأَنْتَبَهُ فِي الدِّيْوَانِ قَبْلَكَ وَقَبْلَ قَوَادِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَرَعِيَّتِهِ قَبْلَكَ، وَاكْتُبْ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا يَكُونُ فِي ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ..."^(٢).

وفي ختام الكتاب يذكر الكاتب اسمه ويورخ لكتابه هذا قائلاً:

"وَكَتَبَ إِسْمَاعِيلُ بْنُ صَبِيحٍ يَوْمَ السَّبْتِ لِسَبْعِ لَيَالٍ بَعَيْنَ مِنَ الْمُحَرَّمِ سَنَةَ سِتِّ وَتَمَانِينَ وَمِائَةٍ"^(٣).

ولا يخفى من خلال هذين المنشورين الدور الفعال الذي كانت تهض به الرسائل الديوانية من إعلام الرعية بما يستجد من تطورات في عاصمة الخلافة، وما هذا إلا حرصاً من الدولة على إبقاء قدر من التواصل مع رعيّتها .

(١) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٦٥٥ .

(٢) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٦٥٥ .

(٣) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٦٥٥ .

كان للمناسبات السعيدة التي نعمت بها الدولة الإسلامية في هذا العهد صدى في أدب الرسائل الديوانية؛ فما أن تتحقق مناسبة جليلة تدخل البهجة والسرور إلى الأنفس حتى تتبري لها أقلام الكتاب تدبج فيها البشارات التي سرعان ما تنتشر في شتى الأقطار تعلن الفرحة والغبطة بهذه المناسبة السعيدة .

ولعل من أبرز المناسبات التي كانت تكتب فيها البشارات في هذا العهد سلامة الخليفة في سائر الأحوال مقرونة بسلامة ولي عهده، ومن الرسائل التي تمثل هذا المنحى رسالة محمد بن الليث التي كتبها عن الخليفة وبعث بها إلى شتى الأمصار مبشراً بسلامة الخليفة وولي عهده.

أراد الكاتب برسالته هذه أن يزف البشرى إلى الرعية في شتى أرجاء الدولة الإسلامية بسلامة الخليفة وولي عهده، وما ينعمان به من "تَظَاهَرِ نِعَمَ اللَّهِ عَلَيْهِمَا وَتَوَالِي إِحْسَانِهِ إِلَيْهِمَا، وَمَا يَتَنَاهَى إِلَيْهِمَا وَيُعَزِّزُ لَدَيْهِمَا وَمِنْ عِزِّ أَطْرَافِهِمَا وَتُعُورِ رِعْيَيْهِمَا وَجُنُودِهِمَا مِنَ الْأَمْنِ وَالسَّلَامَةِ وَالهُدُوءِ وَالِاسْتِقَامَةِ عَلَى أَحْسَنِ مَا جَرَتْ بِهِ الْعَادَةُ وَمَضَتْ بِهِ النِّعْمَةُ عَلَيْهِمَا" (١) .

وكانه يشير - ولو بطرف خفي - إلى الثمار التي تجنيها الرعية من سلامة خليفته ونائبه، فإذا سلم الخليفة ونائبه عمّ الأمن والاستقرار أنحاء الدولة واستقامت الأمور ونعم الناس بحياة سعيدة هانئة، وإذا أصابهما مكروه، انقلبت حال الدولة والرعية من سعادة وهناء إلى تعاسة وشقاء .

وبفيض الكاتب على رسالته من عبارات الشكر والثناء والحمد لله عز وجل على ما أنعمه على الخليفة وولي عهده من تضافر النعم وتواردها عليهما حتى أن الوصف ليعجز - في رأيه - أن يحيط بما أفاء الله عليهما من نعم جليلة ومين عظيمة (٢) .

ومن رسائل البشرى رسالة بعث بها قمامة بن زيد (٣) إلى الخليفة الرشيد يبشره فيها باستقامة أمر الثغور من قبله وجريان شؤون الأمن والإدارة فيها على نحو ما يرضي الخليفة

(١) طيفور: أحمد بن أبي طاهر (ت ٢٨٠هـ) - الفصول والرسائل، ورقة ١٣٩، وانظر أحمد زكي صفوت - جمهرة رسائل العرب، ج ٣، ص ١٦٠ .

(٢) أحمد زكي صفوت - جمهرة رسائل العرب، ج ٣، ص ١٦٠، وانظر د. محمد الدروبي - الرسائل الفنية في العصر العباسي، ص ٦٢ .

(٣) قمامة بن زيد، وفي الجهشيارى قمامة بن أبي يزيد مولى سليمان بن علي كتب لعبد الملك بن صالح ولأبيه صالح قبله، سعى على عبد الملك عند الرشيد حتى قتله الرشيد صبراً، عرف قمامة بفصاحته وبلاغته، وعده ابن النديم في جملة البلغاء، له مجموع رسائل لم يصلنا، انظر الجهشيارى - الوزراء والكتاب، ص ٢٦٢ - ٢٦٣، وابن النديم - الفهرست، ص ١٣٢ - ١٣٣ .

ويسعده، وفي هذه الرسالة يعلن قمامة انقياده التام وخضوعه المطلق للخليفة ويبدو ذلك في قوله:

"... وَأَنَا اِحْتَدَى فِيهِ مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَمْرَيْنِ: إِمَّا تَقْدِيمَةَ عَرَفْنِي فِيهَا رَأْيَهُ، فَأَنَا أَلْزَمَهَا وَلَا أَعْدِلُ عَنْهَا، وَإِمَّا أَثَرَ قَدْ نَهَجَهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فَأَنَا أَرْكَبُهُ وَأَتَّبَعُهُ وَلَا أَفَارِقُهُ، فَعَلَى هَذَا بِحَوْلِ اللَّهِ وَقُوَّتِهِ مُعْتَمِدِي قَدْ كَفَى اللَّهُ بِهِ فِي الْهَدَايَةِ وَأَعْطَى فِيهِ الْخَيْرَ وَالْمَنْ وَالسَّعَادَةَ" (١).

وثمة رسالة أخرى من إنشاء قمامة بن زيد بعث بها إلى الخليفة يعلمه فيها باستقامة أمر الرعية وإذعانها له وانقيادها لطاعته ويشره بما لحقها من خيرات عميمة ونعم وفيرة بفضل السياسة الحكيمة التي يقود بها دولته، يقول قمامة مخاطباً الخليفة: "كُنْتُ إِلَيْكَ وَقَدْ اسْتَقَامَ كُلُّ مَا قَبْلِي وَاعْتَدَلْتُ، وَجَمَعَ اللَّهُ أَيْدِي أَهْلِهِ وَقُلُوبِهِمْ عَلَيَّ إِمَامِهِمْ، وَأَرَاهُمْ مِنْ تَبَاشِيرِ الْخَيْرِ وَأَمَارَاتِ الْبِرِّكَةِ، مَا أَرْجُو أَنْ يُدِيمَهُ اللَّهُ وَيَتَابِعَ الْمَرْيَدَ فِيهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي قَدَفَ فِي قُلُوبِ رَعِيَّتِهِ مِنْ الْإِذْعَانِ لِحَقِّهِ وَالْبُخُوعِ (٢) بِطَاعَتِهِ، وَالْخُرُوجِ مِنْ ضَيْقٍ مَا كَانُوا فِيهِ إِلَى سَعَةٍ مِمَّا كَانُوا عَلَيْهِ ... أَحْسَنَ اللَّهُ جَزَاءَكَ عَلَيَّ مَا حُطَّتْ مِنْ هَذِهِ الدُّوَلَةِ، وَتَلَفَيْتَ مَا قَدْ رَثَ مِنْ حَتْلِبِهَا وَوَهَى مِنْ قُوَّتِهَا" (٣).

يمكن للمرء بعد مطالعة هذه الرسائل أن يستشف نوعين من رسائل البشري يسيران في اتجاهين متقابلين: الأول منهما وتمثله رسالة محمد بن الليث وهو الذي يصدر عن مقر الخلافة إلى الولاة والعمال في مختلف الأمصار والأقاليم ابتهاجاً وسروراً بمناسبة معينة حتى تعم الفرحة هذه الأقاليم .

وأما الثاني فتمثله رسالتنا قمامة بن زيد وهو الذي يوجه إلى مقر الخلافة من الولاة والعمال في مختلف الولايات التابعة للدولة يعلمون فيه الخليفة بأخبار سعيدة تتصل بولاياتهم حتى تشاركهم دار الخلافة فرحتهم وبهجتهم وسرورهم بهذه المناسبة المباركة .

ب- الصراعات والفتن الداخلية:

كانت الحوادث السياسية في خلافة الرشيد كثيرة متعاقبة، بحيث لا تكاد تمر سنة دون أن يكون فيها حادث خطير أو ثورة جامحة، ولعل هذا عائد لأسباب كثيرة منها سعة رقعة الدولة وبعدها الأقاليم عن عاصمة الخلافة وانتشار المذهب الخارجي في شتى أرجاء الدولة إضافة إلى

(١) الفصول والرسائل، ورقة ١٣٤، وانظر جمهرة رسائل العرب، ج ٣، ص ٢٨٥ .

(٢) البخوع: الخضوع، انظر لسان العرب مادة بخع .

(٣) أحمد زكي صفوت - جمهرة رسائل العرب، ج ٣، ص ٢٨٦ .

العلويين الذين كانوا يقارعون العباسيين للحصول على الخلافة والاستئثار بالحكم دونهم، هذا إلى جانب طموح الفرس الذين ساعدوا العباسيين وساندوهم في القضاء على بني أمية والوصول إلى سدة الحكم أملاً في استعادة ملك أسلافهم على أيدي بني العباس، أضف إلى ذلك النزاعات القبلية التي نشبت بين القبائل وسوء إدارة الولاة مما حدا بالكثيرين إلى الانتفاض وشق عصا الطاعة، إلى آخر ما هنالك من العوامل التي تسببت في الكثير من الثورات والفتن التي عصفت بالدولة الإسلامية في عهد الرشيد والتي كان لها صدى واسع في فن الرسائل الديوانية.

١- الصراع مع العلويين:

بدأ الرشيد أول عهده متسامحاً مع العلويين على خلاف أسلافه من الخلفاء العباسيين، فقد افتتح عهده برفع الحجز عنهم وإخلاء السجناء منهم وإرسال بعضهم إلى الحجاز موطنهم الأول، وقد أراد الرشيد بهذا أن يستميلهم إليه ويكسبهم إلى جانبه، فلما رأى إصرارهم على اعتقادهم الراسخ باستحقاق الخلافة عدل عن سياسة اللين هذه، إلى سياسة أشد مكرراً ودهاءً فبطش بهم وأودعهم السجون وتعبهم واحتال للقضاء عليهم .

وقد كثرت ثورات العلويين في هذا العهد، ولا يهمننا كثيراً التوسع في دراسة هذه الثورات إلا بالقدر الذي تلقينه نصوص الرسائل المتعلقة بها، ومن الثورات العلوية التي كان لها صدى في الرسائل العائدة لهذا العهد ثورة يحيى بن عبد الله العلوي^(١) الذي ثار على الرشيد في بلاد الديلم سنة ١٧٦هـ وفرق في البلاد من مختلف الأمصار وقوي أمره واشتدت شوكته والتف حوله الأتباع فاعتم الرشيد^(٢) وعزم على القضاء على هذه الثورة قضاءً مبرماً لأنه شعر أنها تهدد سلطانه؛ فأرسل الفضل بن يحيى في خمسين ألف رجل وولاه نواحي المشرق وأمره بقصد يحيى وأوصاه بأن يسلك طريق الصلح قبل المبادأة بالقتال، عله يفلح في استمالة هذا الثائر وكسبه إلى جانبه، وقد بدأ الفضل بممارسة ضغوطه على يحيى العلوي، فبدأ بمكاتبة

(١) يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب، أبو الحسن، من كبار شخصيات آل البيت، خرج على الرشيد في بلاد الديلم سنة ١٧٦هـ وادعى الإمامة وجمع حوله الأتباع والأعوان، فندب الرشيد إليه الفضل بن يحيى الذي استماله فأجاب يحيى إلى الصلح شريطة أن يكتب له الرشيد أماناً بخط يده وأن يشهد عليه القضاة والفقهاء وجلة بني هاشم فرضي الرشيد وكتب له الأمان على ما رسم، ولكن الرشيد لم يلبث أن نقض الأمان وانقلب عليه وحبسه وكانت خاتمته يحوطها الغموض. انظر الأصفهاني - مقاتل الطالبين، ص ٤٦٣-٤٨٣ والطبري - تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٦٢٨-٦٣٣، ٦٥٨-٦٥٩، وابن الطقطقي - الفخري، ص ١٩٤-١٩٥، واليعقوبي - تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٤٠٨.

(٢) الطبري - تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٦٢٨.

صاحب الديلم - حليف يحيى العلوي - واستمالته، وقد تم له ما أراد، ثم مضى الفضل في محاولة أخرى لإخضاع هذا الثائر، فأرسل إليه الرسالة التالية: "إني أحب أن أحدث بك عهداً وأخشى أن تنبلي بي وأنبلي بك، فكاتب صاحب الديلم فإني قد كاتبته لك لتدخل في بلاده فتمتع به" (١).

ويظهر ما في هذه الرسالة من اللين والملاطفة والترغيب؛ فقد أراد الفضل فيها أن يبسط أمل يحيى ويدخل الطمأنينة إلى قلبه حتى يستدرجه إلى قبول الصلح ويبدو أن الفضل كان على يقين بأن يحيى لن يقابل طلبه بالرفض خاصة بعد أن رأى تفرق أصحابه [عنه] وسوء رأيهم فيه وكثرة خلافهم عليه" (٢).

وإلى جانب اللين والملاطفة تتطوي الرسالة على لهجة فيها شيء من التحذير والترهيب من سوء العاقبة التي تنتظر يحيى إذا رفض الصلح.

وأخيراً تتوج مساعي الفضل بن يحيى بالنجاح، ويدعن يحيى العلوي، على أن يكتب الرشيد له ولسبعين رجلاً من أعوانه عهد أمان بخطه، ويشهد على نفسه جماعة من القضاة والفقهاء وجلة بني هاشم؛ فكتب الفضل بذلك إلى الرشيد فسرره وعظم موقعه عنده، وبادر إلى كتابة عهد الأمان على النحو الذي شرطه العلوي، ووجه به مع جوائز وصلات وهدايا؛ فأرسل الفضل كل ذلك إلى العلوي الذي بادر بدوره إلى إلقاء السلاح (٣).

ومن العلويين الذين نالهم أذى الرشيد ويطشه، موسى بن جعفر العلوي (٤) الملقب بالكاظم، كان موسى الكاظم يقيم في المدينة المنورة، وقد تناهى إلى الرشيد من بعض العلويين أنه يريد الخروج عليه، فقد جاء إليه من قال له: إن الناس يحملون إلى موسى خمس أموالهم ويعتقدون إمامته

(١) الأصفهاني - مقاتل الطالبيين ، ص ٥٦٧ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٤٦٨-٤٦٩ .

(٣) انظر الطبري - تاريخ الطبري ، ج ٤ ، ص ٦٢٩ ، وانظر د. عبد الجبار الجومرد - هارون الرشيد ، ج ١ ، ص ١٧٤ .

(٤) موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، أبو الحسن الهاشمي ، أحد الأئمة الاثني عشر في اعتقاد الشيعة الإمامية ، كان كثير العبادة والمروءة ، إذا بلغه عن أحد أنه يؤذيه أرسل إليه بالذهب والتحف ، لقب بالكاظم لأنه كان يحسن إلى من يسيء إليه ، استدعاه المهدي إلى بغداد وحبسه لوشاية بلغت عنه ثم رده إلى المدينة المنورة لئلا يراه ، فلم يزل بها إلى خلافة الرشيد ، فلما كانت سنة ١٧٩ هـ اعتصر الرشيد واصططجه معه إلى بغداد وحبسه وأطال حبسه ، توفي في السجن سنة ١٨٣ هـ وله من العمر ثمان وخمسون سنة . انظر الأصفهاني مقاتل الطالبيين ، ص ٤٩٩-٥٠٥ وابن الطقطقي - الفخري ، ص ١٩٦ ، واليعقوبي - تاريخ اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ٤١٤-٤١٨ ، وابن كثير - البداية والنهاية ، ج ٩ ، ص ١٩٨ ، وابن الجوزي - المنتظم ، ج ٩ ، ص ٨٧-٨٩ ، والياقيني - مرآة الجنان ، ج ١ ، ص ٤٠٥ .

وأنه على عزم الخروج عليك^(١). فأسرها الرشيد في نفسه وأضمر السوء لموسى، وصادف أنه اعتمر في رمضان من سنة ١٧٩هـ، وزار المدينة المنورة، فلما انتهى إلى قبر النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: السلام عليك يا رسول الله يا ابن عم، افتخراً على من حوله، وكان موسى بن جعفر وراءه فدنا من القبر وقال: السلام عليك يا رسول الله، يا أبتَ فامتعض الرشيد وتغيّر وجهه لما سمع من افتخار موسى الكاظم عليه وقال له: هذا الفخر يا أبا الحسن حقاً^(٢).
ثم سيّره معه إلى العراق وحبسه عند عيسى بن جعفر بن المنصور^(٣) واليه على البصرة، فلما مضت سنة على حبسه بعث عيسى بن جعفر يسأله أن يأخذ موسى عنه ويقول:
"خُذْهُ عَنِّي، وَسَلِّمْهُ إِلَى مَنْ شِئْتَ وَإِلَّا خَلَيْتُ سَبِيلَهُ، فَقَدْ اجْتَهَدْتُ أَنْ أَخُذَ عَلَيْهِ حُجَّةً فَمَا أَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ، حَتَّى إِنِّي لَأَسْمَعُ عَلَيْهِ إِذَا دَعَا عَلَيْهِ يَدْعُو عَلِيَّ أَوْ عَلِيَّكَ، فَمَا أَسْمَعُهُ يَدْعُو إِلَّا لِنَفْسِهِ، يَسْأَلُ اللَّهَ الرَّحْمَةَ وَالْمَغْفِرَةَ"^(٤).

(١) ابن الطقطقي - الفخري، ص ١٩٦، وانظر الأصفهاني - مقاتل الطالبين، ص ٥٠١-٥٠٢.

(٢) ابن الأثير - الكامل، ج ٥، ص ٣١٩ - ٣٢٠.

(٣) عيسى بن جعفر بن المنصور: قائد من أمراء بني العباس، وهو أخو زبيدة وابن عم الرشيد، تقلد عدداً من الولايات في عهد الرشيد، منها البصرة وخراسان وعمان، توفي سنة ١٨٨هـ، انظر ابن كثير - البداية والنهاية، ج ٩، ص ٢٢٧، خير الدين الزركلي - الأعلام، ج ٥، ص ١٠٢.

(٤) الأصفهاني - مقاتل الطالبين، ص ٥٠٢، وانظر د. محمد ماهر حمادة - الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر العباسي الأول، ص ٢٠٢.

فبعث الرشيد مَنْ حمله إلى بغداد وحبسه عند الفضل بن الربيع^(١)؛ فبقي عنده مدة ثم تسلمه الفضل بن يحيى^(٢) وانتهى به الأمر في حبس السندي ابن شاهك^(٣)،^(٤) ولما طال حبسه كتب إلى الرشيد يقول: "إِنَّهُ لَنْ يَنْقُضِيَ عَنِّي يَوْمَ مِثْنِ الْبَلَاءِ إِلَّا يَنْقُضِي عَنْكَ مَعَهُ يَوْمَ مِنَ الرَّخَاءِ، حَتَّى يَنْقُضِيَا جَمِيعًا إِلَى يَوْمٍ لَيْسَ لَهُ انْقِضَاءٌ يَخْسِرُ فِيهِ الْمُبْطِلُونَ"^(٥).

(١) الفضل بن الربيع بن يونس من أحفاد أبي فروة كيسان مولى عثمان بن عفان رضي الله عنه، أبو العباس وزير أديب حازم، كان أبوه وزيراً للمنصور العباسي، استحجبه المنصور لما ولى أباه الوزارة فلما آل الأمر إلى الرشيد واستوزر البرامكة كان من كبار خصومهم، ولي الوزارة للرشيد بعد البرامكة واستمر في الوزارة إلى أن مات الرشيد، فلما استخلف الأمين أقره في وزارته، زين للأمين خلع المأمون من ولاية العهد وتولية ابنه موسى ولما قويت شوكة المأمون استتر الفضل سنة ١٩٦هـ ثم عفا عنه المأمون ببقية حياته، توفي بطوس سنة ٢٠٨هـ وله من العمر ثمانون وستون سنة. انظر الخطيب البغدادي - تاريخ بغداد، ج ١٢، ص ٣٤٣-٣٤٤، والصفدي - الوافي بالوفيات، ج ٢٤، ص ٣٨-٤١، والجاجرمي - نكت الوزراء، ص ٣٦، والجهشياري - الوزراء والكتاب، ص ١٢٥، ٢١٦، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٩٠، ٣٠١، ٣٠٢، وابن الطقطقي - الفخري: ص ٢١١.

(٢) الأصفهاني - مقاتل الطالبين، ص ٥٠٢-٥٠٣.

(٣) السندي بن شاهك، أبو منصور، أحد رجال الرشيد الكفاة، كان يلي الجسرين ببغداد، أمره الرشيد بصلب جثه جعفر البرمكي بعد أن قُتل وحبس أبيه وأخيه الفضل، ولاة الرشيد دمشق، توفي ببغداد سنة ٢٠٤هـ، انظر: الجهشياري - الوزراء والكتاب، ص ٢٣٦-٢٣٧، والطبري - تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٦٦٣، وابن خلكان - وفيات الأعيان، ج ١، ص ٣٢٧-٣٢٨ والصفدي - الوافي بالوفيات، ج ١٥، ص ٤٨٧-٤٨٨.

(٤) اليعقوبي - تاريخ اليعقوبي، ص ٤١٤، وابن الأثير - الكامل، ج ٥، ص ٣٢٠.

(٥) ابن الأثير - الكامل، ج ٥، ص ٣٢٠، وابن الجوزي - انظر المنتظم، ج ٩، ص ٨٨، وابن كثير - البداية والنهاية، ج ٩، ص ١٩٨، مع اختلاف يسير في اللفظ.

يبدو من هذه الرسالة أن موسى الكاظم قد أيقن بهلاكه ولذلك فهو يتجرأ ويخاطب الرشيد بهذه اللهجة التي تحمل في ثناياها التحذير من سوء العاقبة التي تنتظر الرشيد - إن استمر في سياسته - يوم الحساب يوم ينتصف الله تعالى للرعية منه. وكان موسى بهذا يعلن موقفه من الرشيد ومن الخلافة العباسية نفسها خاصة عندما نقرأ قوله: " ... يخسر فيه المبطلون". وقد بقي موسى الكاظم في حبس السندي بن شاهك إلى أن توفي عام ١٨٣ هـ (١).

٢- الصراع مع الخوارج:

كان عهد الرشيد من العهود التي نشطت فيها ثورات الخوارج، حتى شملت جهات مختلفة من الدولة العباسية، ولا يهمننا كثيراً البحث في تاريخ هذه الثورات فذلك همّ يعاينيه باحث التاريخ، وأما جل اهتمامنا فيقع على دراسة ما بين أيدينا من نصوص الرسائل المتعلقة بهذا الموضوع والتي تعيننا على استجلاء طبيعة الصراع الذي دار بين الدولة العباسية والخوارج في هذا العهد.

تعد ثورة الوليد بن طريف الشاري (٢) من أشد الثورات التي قام بها الخوارج في عهد الرشيد وأعظمها خطراً، ذلك أنها أرهقت وكلفته الكثير من العناء للقضاء عليها، ولعل قيام الرشيد بأداء العمرة شكراً لله تعالى على ما منّ عليه من قتل الوليد بن طريف يدل على مدى ما اقتضته تلك الثورة من جهد للقضاء عليها (٣).

ثار الوليد بن طريف الشاري في أرض الجزيرة (٤) سنة ١٧٨ هـ والتف حوله كثير من

(١) اليعقوبي - تاريخ اليعقوبي، ص ٤١٤، وانظر ابن الأثير - الكامل، ج ٥، ص ٣١٩، وابن كثير - البداية والنهاية، ج ٩، ص ١٩٨، وابن الجوزي - المنتظم، ج ٩، ص ٨٨.

* جاء في مقاتل الطالبين في شأن وفاة موسى الكاظم أن يحيى البرمكي أمر السندي بن شاهك فلقه ببساط وقعد الفراشون النصاري على وجهه حتى مات، الأصفهاني - مقاتل الطالبين، ص ٥٠٤، في حين يذهب صاحب الفخري إلى أن الرشيد هو الذي أوعز بقتله فقتل قتلاً خفياً، ابن الطقطقي - الفخري، ص ١٩٦.

(٢) الوليد بن طريف الشاري: أحد الشجعان الطغاة الأبطال، كان رأس الخوارج، خرج على الرشيد في أرض الجزيرة سنة ١٧٨ هـ وحشد جمعاً كثيرة، فأرسل إليه الرشيد جيشاً كثيفاً بقيادة يزيد بن مزيد الشيباني فقتله سنة ١٧٩ هـ، انظر ابن خلكان - وفيات الأعيان، ج ٦، ص ٣١-٣٤. والطبري - تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٦٣٧، ٦٤١، والأزدي - تاريخ الموصل، ص ٢٨٠-٢٨٣ وخليفة بن خياط - تاريخ خليفة بن خياط، ص ٤٥٠-٤٥٣، وابن الأثير - الكامل، ج ٥، ص ٣٠٢-٣٠٣.

(٣) الطبري - تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٦٤١.

(٤) الجزيرة: تعرف بالجزيرة الفراتية لوقوعها بين دجلة والفرات في مجاورة الشام، وتشمل ديار بكر ومصر وهي صحيحة الهواء واسعة الخيرات بها مدن جليلة وحصون وقلاع كثيرة من أشهر مدنها حران والرقّة والرّها ونصيبين والموصل، انظر الحموي - معجم البلدان، ج ٢، ص ١٣٤-١٣٦ جزيرة أقورة وتقع الجزيرة الفراتية اليوم في المنطقة المحصورة بين دجلة والفرات في شمال غربي العراق وشمال شرقي سوريا.

الأتباع حتى قويت شوكته وقد أرسل الرشيد له عدة جيوش، ولكن أحداً من قواده لم يقوَ على الصمود أمامه، واستمر الوليد - بما أوتي من شدة وبأس في القتال - في صراع مستمر مع قوات الخلافة دون جدوى إلى أن استقر رأي الرشيد على أكبر قواده "يزيد بن يزيد الشيباني"^(١) وكان بينه وبين الوليد صلة قرابة فكلاهما من ربيعة بن وائل^(٢). وتذكر المصادر التاريخية أن الرشيد أرسل إلى يزيد بن يزيد - وكان غائباً عن بغداد - فحضر، فقال له الرشيد: يا يزيد، إني قد أعددتك لأمر كبير، قال يزيد: يا أمير المؤمنين إن الله عز وجل قد أعد لك مني قلباً معقوداً بنصيحتك، وبدأ مبسوطة لطاعتك، وسيفاً مشحوداً على عدوك ... فإذا شئت فقل: قال: "قد اخترتك لقتال الوليد بن طريف فتهياً له، وسر مستعجلاً، واصحب معك الجيش الذي تريد، ولا تستهن بالأمر؛ فإنه أصعب مما تتصور"^(٣).

وخرج يزيد لملاقاة خصمه، وجعل كلٌّ منهما يماكر صاحبه ويتجسس عليه ويتعرف قوته، حتى طال أمر النزال ونفذ صبر الرشيد، عندها اغتتم البرامكة - خصوم يزيد - الفرصة فأوغروا صدر الرشيد عليه " وقالوا: إنما يتجافى عنه للرحم وإلا فشوكة الوليد يسيرة"^(٤) وهوتوا في عينيه أمر الوليد بن طريف؛ فوجه الرشيد إلى يزيد رسالة شديدة اللهجة يقول فيها: "لَوْ وَجَّهْتُ أَحَدَ الْخَدَمِ لِقَامِ بِأَكْثَرِ مِمَّا تَقُومُ بِهِ، وَلَكِنَّكَ مَذَاهِنٌ مُتَعَصِّبٌ، وَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ يُقْسِمُ بِاللَّهِ لَئِنْ أَخْرَجْتَ مُنَاجِرَةَ الْوَلِيدِ لَيُوجَّهَنَّ إِلَيْكَ مَنْ يَحْمِلُ رَأْسَكَ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ"^(٥).

ولا يخفى على المرء ما في هذه الرسالة من الشدة والغلظة والعنف، فقد وجد فيها يزيد من التقريع والتوبيخ ما لم يستطع احتماله، فالخليفة ينزله منزلة أحد خدمه، ثم يصل الرشيد إلى الذروة في توبيخه وتقريعه وذلك عندما يصمُّ يزيد بالمداهن المتعصب، ثم يهدده ويتوعده ويحذره من مغبة التهاون في أداء واجبه في نزال الوليد فإن الثمن سيكون رأسه.

وهو هنا يورد تهديده في صورة شديدة التوكيد، فهو يُصَدِّرُ تهديده بقوله: "وأمرير المؤمنين" بكل ما يدخله هذا اللقب من هيبة في النفوس، ثم نراه يؤكد بالقسم والنون الثقيلة وهما

(١) يزيد بن يزيد الشيباني: أبو خالد، ابن أخي معن بن زائدة، من الأمراء المشهورين والشجعان المعروفين، كان والياً على أرمينية واذربيجان، انتدبه الرشيد لقتال الوليد بن طريف فقتله سنة ١٧٩هـ توفي يزيد سنة ١٨٥هـ، انظر ابن خلكان - وفيات الأعيان، ج ٦، ص ٣٢٦-٣٤٠.

(٢) السمعاني - الأنساب، ج ٣، ص ٤٨٢.

(٣) ابن خلكان - وفيات الأعيان، ج ٦، ص ٣٢٧، وانظر د. عبد الجبار الجومرد - هارون الرشيد، ج ٢، ص ٤٠٢-٤٠٣.

(٤) الأصفهاني - الأغاني، ج ٧، ص ٣٣٤.

(٥) ابن خلكان - وفيات الأعيان، ج ٦، ص ٣١-٣٢، والأصفهاني - الأغاني، ج ٧، ص ٣٣٤، وابن الأثير - الكامل، ج ٥، ص ٣٠٢.

من أقوى أساليب التوكيد في العربية؛ ولذا فقد كان لهذه الرسالة وقع شديد في نفس يزيد، فهب على الفور لمناجزة الوليد بن طريف، فلقبه في أول خميس من شهر رمضان سنة ١٧٩هـ، واقتتل الخصمان حتى ظهر ذلك اليوم، وسرعان ما دارت الدائرة على الوليد وقتل وحُمل رأسه إلى الرشيد في بغداد (١).

ومن أبرز ثوار الخوارج حمزة بن أترك الشاري الخارجي (٢) الذي خرج على الرشيد في سجستان (٣) سنة ١٧٩هـ (٤) وقد استمرت ثورته إلى عهد المأمون وقد كان لها صدى كبير في الرسائل الديوانية العائدة لهذا العهد. ذلك أن الرشيد لما أحسَّ باستفحالها وإعلان قائدها نفسه أميراً للمؤمنين قرر أن يسلك معه سبيلاً غير سبيل القتال، علَّه يتوب ويرجع عما عزم عليه فكتب إليه رسالة يدعوه فيها إلى التوبة والعودة إلى الجماعة وقد أجابه حمزة برسالة طويلة بين فيها دواعي ثورته وموقفه من الخلافة العباسية.

وليس بين أيدينا من المصادر التاريخية العربية ما يذكر هذه الرسائل أو يشير إليها (٥)، ونكاد نجعل الأسباب التي تكمن وراء إغفال المؤرخين لها، وربما أحجموا عن نقلها خوفاً من السلطات العباسية التي كانت تواجه كل حركة خارجية عليها بالعنف والبطش الشديدين.

وقد يقول قائل: ما مدى صحة نسبة هذه الرسائل إلى هذه الفترة، فأقول: إن الأزمة التي وقعت فيها الخلافة العباسية في عهد الرشيد بسبب ظلم الولاة وتعسفهم في الأقاليم الشرقية من الدولة

(١) ابن خلكان - وفيات الأعيان، ج ٦، ص ٣٣، ٣٢٨، وابن الأثير - الكامل، ج ٥، ص ٣٠٢-٣٠٣، والأصفهاني - الأغاني، ج ٧، ص ٣٣٤، وابن تغري بردي - النجوم الزاهرة، ج ٢، ص ١٢٤، المقدسي - البدء والتاريخ، ج ٥، ص ١٠٢.

(٢) صاحب فرقة من فرق العجاردة من الخوارج، خرج على الرشيد سنة ١٧٩هـ في سجستان وخراسان ومكران وقهستان وكرمان، وهزم الجيوش الكثيرة، وبقي الناس في فتنته إلى أن مضى صدر من أيام خلافة المأمون، دارت بينه وبين طاهر بن الحسين وقائده عبد الرحمن النيسابوري حروب انتهت بهلاك حمزة. انظر تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٦٤١، والبغدادي - الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم، ص ٥٣-٥٥، والرازي - اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، ص ٢٤.

(٣) سجستان: من أعمال خراسان، ناحية كبيرة وبلاد واسعة، تقع جنوبي هراة، بينها وبين كرمان مائة وثلاثون فرسخاً، بها كثير من الخوارج من أشهر مدنها بُست وزالق وكركوئيه، انظر الحموي - معجم البلدان، ج ٣، ص ١٩٠-١٩٢. وتقع سجستان اليوم في جنوب شرق إيران.

(٤) الطبري - تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٦٤١، وانظر د. قحطان عبد الستار الحديثي - حركات الخوارج في خراسان، مجلة كلية الآداب - جامعة البصرة، العدد السادس السنة الخامسة، ١٩٧٢م، ص ١٥٠.

(٥) د. فاروق عمر فوزي - الرسائل المتبادلة بين الخليفة هارون الرشيد والثائر حمزة الخارجي، مجلة الجمعية التاريخية العراقية، ص ١٩٧٤م، ص ٢٦٣، نقلًا عن: مؤلف مجهول، تاريخي سيستان بالفارسية، طهران، ١٣١٤هـ، ص ١٥٦ وما بعدها.

وما نجم عنها من اضطرابات وثورات أشارت إليها هذه الرسائل يعطي دليلاً إيجابياً على صحتها من الناحية التاريخية^(١) .

يدعو الرشيد في رسالته حمزة الخارجي إلى كتاب الله تعالى وسنة رسوله - صلى الله عليه وسلم - وهو بذلك يعتبره ثائراً خارجاً على الجماعة الإسلامية^(٢)، ثم يلجأ إلى استمالة فيعرض عليه الأمان والدخول في صفوف الأمة الإسلامية، ويعدّه بإعطائه وأصحابه نصيبهم من الفياء والصدقات وإحقاق الحق والعدل والصفح والعفو والتجاوز عما اقترفوه من جرائم^(٣)، وكأن الخليفة بذلك يدرك أسباب الثورة ودواعيها ويتعهد بإزالتها^(٤) .

ويتشدّد الرشيد في توكيد الأمان الذي بذله لحمزة وأتباعه، فيأخذ على نفسه من أغلظ الأيمان وأشدّ العهود والمواثيق ما يدخل الطمأنينة في نفس هذا الثائر وصحبه ويضمن الوفاء بما شرطه لهم^(٥). وتجدر الإشارة إلى أن هذه الرسالة تعبر عن سياسة انتهجها الخليفة في مواجهة الخارجين عليه، ففي حين نجده يبادئ الوليد بن طريف الشاري بالقتال، نراه يرسل إلى حمزة الخارجي يستميله ويسترضيه ويعرض عليه الأمان ويعفو عن الجرائم الفظيعة التي اجترحها هو وأتباعه، ولعل الظروف السياسية التي عاشتها الدولة العباسية في السنوات الأخيرة من حكم الرشيد، وخروجه لقمع حركة رافع بن الليث^(٦) الذي ثار عليه عام ١٩٠هـ واستفحل خطره حتى امتد إلى سائر أعمال خراسان، أقول كل ذلك دفعه إلى اللجوء إلى سياسة اللين والملاطفة مع هذا الثائر، وفي هذه الرسالة ما يشير إلى أنها حرّرت أثناء خروج الرشيد لحرب رافع، إذ يقول الكاتب مخاطباً حمزة الخارجي وعارضاً عليه أمان الخليفة: "وَقَدْ قُرِبَ مِنْ بِلَادِكَ، وَتَرَكَ بِصَدْرٍ مِنْكَ، وَلَمْ يَأْتِكَ مِنْهُ كِتَابٌ وَلَا رَسُولٌ قَبْلَ كِتَابِهِ هَذَا وَرَسُولِهِ، وَقَدْ أَمَّنَكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى ذِمَّتِكَ وَمَالِكَ..."^(٧). وقد ثار حمزة - كما أسلفنا - في سجستان وهي عمل من أعمال خراسان .

(١) وانظر المصدر نفسه ، ص ٢٧١ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٧١ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٢٧٢ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٢٦٤-٢٦٥ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ٢٦٥ .

(٦) رافع بن الليث بن نصر بن سيار : ثائر من بيت إمارة ورياسة ، كان جده عاملاً للأمويين على خراسان ، كان مقيماً فيما وراء النهر بسمرقند ، وناب فيها أيام الرشيد ، وعُزِلَ وحبس وهرب من الحبس وقتل عامل سمرقند واستولى عليها سنة ١٩٠هـ ، سار إليه عامل خراسان علي بن عيسى بن ماهان لقتاله فظفر رافع ، فتوجه إليه الرشيد بنفسه وانتدب لقتاله هرثمة بن أعين فانهزم رافع سنة ١٩٣هـ واختلف المؤرخون في مصيره، توفي سنة ١٩٥هـ . انظر الطبري - تاريخ الطبري ، ج ٤ ، ص ٦٧٦ ، ج ٥ ، ص ٤ ، ١١ ، ١٣ ، وابن الأثير - الكامل ، ج ٥ ، ص ٣٤١ ، ٣٥١ ، وابن كثير - البداية والنهاية ، ج ٩ ، ص ٢١٩ ، ٢٢٣ .

(٧) د. فاروق عمر فوزي - الرسائل المتبادلة بين الرشيد وحمزة بن عبد الله الخارجي ، ص ٢٦٥ .

كما جاء في تذييل الرسالة ما يدل دلالة قاطعة على أنها محررة في هذه الفترة فهي من إنشاء "إسماعيل بن صبيح مولى أمير المؤمنين يوم الجمعة لثمان بقين من صفر سنة ثلاث وتسعين ومئة" (١).

لم يفلح الرشيد في صد حمزة الخارجي عما هو ماضٍ في سبيله، إذ لم يلقَ عرضه من هذا الثائر آذاناً صاغية، بل صادف رفضاً وعناداً وإصراراً على مواصلة الثورة والثبات حتى النهاية.

يُعدُّ جواب الثائر حمزة وثيقة خارجية هامة؛ فهو يكشف عن ملامح الموقف المعارض الذي اتخذته الخوارج من الخلافة العباسية خاصة وموقفهم من الخلافة الإسلامية عامة، كما أنه يعبر عن عقيدتهم وآرائهم الدينية والسياسية.

ومنذ البداية يعلن حمزة نفسه أميراً للمؤمنين، كما أنه لا يورد اسم الرشيد أو لقبه في مقدمته، وهذا يعني رفض حمزة أمان الرشيد وهو في الوقت نفسه يعني استحالة الصلح بينهما. ولعل حمزة نظر إلى ما حل ببيحيى بن عبد الله العلوي الذي قبل أمان الرشيد، ووثق به، ثم ما لبث أن انقلب الرشيد عليه وحبسه حتى مات في حبسه (٢).

ويمضي حمزة فيبين رأيه في الخلافة الإسلامية والذي يمثل رأي الخوارج الذين لا يعترفون إلا بخلافة أبي بكر وعمر والسنوات الست الأولى من خلافة عثمان رضي الله عنهم (٣)، يقول حمزة: "... فَلَمْ يَزَلْ الْإِسْلَامُ وَأَهْلُهُ فِي زِيَادَةٍ مِنْ نِعْمَاءِ اللَّهِ وَمَا افْتَتَحَ لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ خِلافةَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَصَدْرًا مِنْ خِلافةِ عُثْمَانَ، حَتَّى تَعَرَّضَتْ الدُّنْيَا بِنَهْجَتِهَا، فَرَكَنَ إِلَيْهَا الرَّاكِبُونَ وَأَثَرُهَا وَمَالُهَا وَإِلَيْهَا وَخَالَفُوا كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ فَاخْتَلَفَتْ الْأُمَّةُ بَعْدَ انْتِلافِهَا وَتَفَرَّقَتْ بَعْدَ اجْتِمَاعِهَا" (٤).

وينتهي حمزة فيرد على كل ما عرضه الرشيد في رسالته السابقة، وهو في رده ينطلق من فلسفة الخوارج ومبادئهم السياسية والدينية، ونظرتهم التي تبنيها في فهمهم للمجتمع والدولة، يقول حمزة: "قَامًا كِتَابَ اللَّهِ فَإِلَيْهِ دَعْوَتِي وَبِهِ رِضَايَ وَأَسْتُ أَبْغِي بِهِ بَدَلًا، وَغَيْرَةَ حَكَمًا، فَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى مَا مَنَّ بِهِ عَلَيَّ وَعَرَّفَنِي مِنْ دِينِهِ وَبَصَّرَنِي مِنْ هُدَاهُ، وَجَعَلَنِي أَدْعُو إِلَى مُحْكَمِ

(١) المصدر نفسه، ص ٢٦٦.

(٢) انظر ابن الأثير - الكامل، ج ٥، ص ٢٩١.

(٣) الأشعري - مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، ج ٢، ص ٢٥٦.

(٤) د. فاروق عمر فوزي - الرسائل المتبادلة، ص ٢٦٧.

كِتَابِهِ وَالْوَاجِبِ مِنْ طَاعَتِهِ وَأَجَاهِدُ عَلَيْهَا مَنْ عِنْدَ عَنَّا وَخَالَفَهَا وَعَمِلَ بِغَيْرِهَا" (١) .

والذي يدقق النظر في ثنايا هذا الكلام يرى أن حمزة يعبر عن مذهب الخوارج الذين يرون أنفسهم على حق دائماً، وسواهم على باطل، ولذلك فقد كفروا سائر الأمة وأخذوا على أنفسهم عهداً بمجاهدتها حتى تعود إلى حكم الله وطاعته (٢) وهذا ما يفسر إعلان حمزة نفسه أميراً للمؤمنين في مطلع رسالته .

وبعد أن أعطى حمزة نفسه الحق في الخروج على الخليفة راح يفصح عن الأسباب التي حملته على الثورة؛ فأخذ يبرر ثورته ومحاربه لعمال الخليفة بأنها ناتجة عن ظلم هؤلاء العمال وتعسفهم وسوء سيرتهم وفسقهم، وبذلك جاءت ثورته نتيجة حتمية للظلم، وتعبيراً عن سخط العامة الذين استغلهم هؤلاء الولاة وابتزوا أموالهم وسفكوا دماءهم (٣) .

ولكن حمزة يبالغ في المثالية حين يصرح أن ثورته لم تكن منازعة للخليفة في ملكه ولا رغبة في دنيا ينالها، ولا طلباً للرفعة والذكر (٤). وهو بذلك يناقض نفسه، فإذا كانت الأطماع الدنيوية والطموحات السياسية ليست وراء ثورته فلماذا افتتح رسالته بتسمية نفسه أميراً للمؤمنين (٥).

ويعود حمزة فيؤكد رفضه لدعوة الخليفة، ويجدد عزمه على المضي في الثورة مهما كانت النتائج، إذ - كما يقول - : "لَا خَيْرَ بِخَيْرِ بَعْدَهُ النَّارُ وَلَا شَرَّ بَعْدَهُ الْجَنَّةُ" (٦) .

ويبيد حمزة سخريته من الخليفة حين يذكر الفياء والصدقات التي عرضها الخليفة عليه هو وأتباعه إذ يقول: "وَأَمَّا الْفِيءُ وَالصَّدَقَاتُ فَأَنَّى ذَلِكَ وَقَدْ قَدَّ الْمُسْلِمُونَ عَطَايَاهُمْ وَأَرْزَاقَهُمْ وَصَدَقَاتِهِمْ بَعْدَ الْخَلِيفَتَيْنِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - فَصَارَتْ تُؤْخَذُ مِنْ غَيْرِ مَوْضِعِهَا وَتُصْرَفُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهَا وَاللَّهُ حَسِينُ خَلْقِهِ" (٧) .

ويقوم هذا الثائر الحجة على الخليفة مؤكداً رفضه الأمان الذي عرضه عليه والدخول في طاعته، إذ يقول مخاطباً الخليفة: "وَأَمَّا مَا عَرَضْتَ مِنْ أَمَانِكَ وَدَعَوْتَ إِلَيْهِ مِنْ طَاعَتِكَ، فَهَلْ لِمَخْلُوقِ أَمَانِ الْأَمْرَاءِ مِنْ يَوْمِ الْفَرَزِ الْأَكْبَرِ، يَوْمَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ أَمَنَتْ مِنْ قَبْلُ،

(١) د. فاروق عمر فوزي - الرسائل المتبادلة، ص ٢٦٨ .

(٢) الأشعري - مقالات الإسلاميين، ج ٢، ص ٢٥٦-٢٥٧ .

(٣) د. فاروق عمر فوزي - الرسائل المتبادلة، ص ٢٦٨ .

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٦٨ .

(٥) المصدر نفسه، ص ٢٧٤ .

(٦) المصدر نفسه، ص ٢٦٩ .

(٧) المصدر نفسه، ص ٢٦٩ .

وَكَيْفَ يَأْمَنُ مِنْ ذَلِكَ مَنْ لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا" (١) .

وبعد هذه المجادلة يتوجه حمزة إلى الرشيد بالوعظ والإرشاد فيسدي إليه بعض النصائح التي تعكس فلسفته في الحياة، ويطلب إليه أن يعمل لما بعد الموت، وأن لا يركن إلى الدنيا حتى لا تفعل به ما فعلته بأربابها الراكنين إليها الذين شغلتهم بمتاعها الزائل، فندموا - حيث لا ينفع الندم - على ما فرطوا في جنب الله تعالى، يقول حمزة مخاطباً الرشيد:

فَانظُرْ لِمَعَادِكَ وَمَا أَنْتَ صَائِرٌ إِلَيْهِ وَبِهِ مُرْتَهَنٌ وَعَنْهُ مَسْئُولٌ وَبِهِ عَمَّا قَلِيلٍ مُحَاسَبٌ؛ فَقَدْ رَأَيْتَ مَا فَعَلَتْ الدُّنْيَا بِأَرْبَابِهَا الرَّائِكِينَ إِلَيْهَا الْمُؤَثِّرِينَ لَهَا كَيْفَ أَوْبَقَتْهُمْ وَخَذَلَتْهُمْ وَأَسْلَمَتْهُمْ فَلَنْ تُعْنِي عَنْهُمْ شَيْئًا، اعْتَدَرُوا لَهَا مِنْهُمْ، وَبَيَّتْ أَعْمَالَهُمْ قَلَائِدَ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَصَارُوا إِلَى النَّدَامَةِ وَتَلَهَّوْا حَيْثُ لَا يُعْنِي عَنْهُمْ ذَلِكَ عَلَى مَا فَرَطُوا وَقَاتَهُمْ مِنَ الْعَمَلِ فِي دُنْيَاهُمْ لِمَعَادِهِمْ وَيَوْمَ قَقْرِهِمْ وَقَاقَتِهِمْ" (٢) .

ويجدد هذا الخارجي التأثير عهده مع الله وعزمه على محاربة أعداء الله ومنهم الخليفة وعماله، غير عابئ بالنهاية التي تنتظره حتى ولو كان فيها فناء نفسه، رافعاً شعار الخوارج الخالد الذي طالما رفعوه في ثوراتهم وهو "لا حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَفْصِلُ بِالْحَقِّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ" مؤكداً موقفهم في رفض الإقرار بأية إمارة لأنها - في رأيهم - فشلت في إقرار الأمور وإصلاح الأوضاع.

يقول حمزة: "وَقَدْ بَايَعْتُ اللَّهَ وَعَاهَدْتُهُ عَلَى الْقِيَامِ بِأَمْرِهِ، وَالذُّعَاءِ إِلَى طَاعَتِهِ، وَمُجَاهَدَةِ أَعْدَائِهِ حَتَّى تَقْنَى نَفْسِي، وَأَنَا مُؤَبِّدٌ بِعَهْدِي وَمُنْجِزٌ بِمَوْعِدِي، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفِ بِعَهْدِكُمْ" (٣)، فَتَسْأَلُ اللَّهَ الْإِنْتِفَاعَ بِمَا عَلَّمَنَا مِنْ كِتَابِهِ، وَتَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ نَكُونَ مِنْ لَيْسُوا دِينَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، فَلَيْسَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَتَسْأَلُهُ الْعِصْمَةَ وَالْكَلاَةَ وَالْأَلَا يَكُنَّا إِلَى أَنْفُسِنَا، وَلَا إِلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ وَأَنْ يَتَوَلَّى مِنَّا مَا هُوَ أَهْلُ النَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفَرَةِ. رَضِينَا بِاللَّهِ رَبًّا وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا وَبِالْقُرْآنِ إِمَامًا وَحَكَمًا، رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا، هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي، وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، لَا حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَفْصِلُ بِالْحَقِّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ، وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ، وَعَلَى جَمِيعِ الْمُرْسَلِينَ" (٤) .

(١) المصدر نفسه ، ص ٢٦٩ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٦٩ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٢٦٩-٢٧٠ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٢٦٩-٢٧٠ .

وبهذا لم ينجح الرشيد في مسعاه الذي كان يرمي إليه، عندما بادر إلى مكاتبة هذا الثائر الخارج عليه، واستمر حمزة يحارب جند الخلافة إلى صدر عصر المأمون الذي بعث إليه يستدعيه إلى طاعته ولكنه لم يجب بل ازداد عتواً، فخرج له أحد قواد المأمون وهزمه وقتل الألو ف من أتباعه، وفر حمزة جريحاً ومات (١).

٣ - فتنة خراسان:

لعبت خراسان وأهلها دوراً بارزاً في تاريخ الخلافة العباسية؛ فقد كانت مهداً للثورة العباسية والمساعدة على إنجاحها، وعلى أكتاف أهلها الذين انخرطوا في جيوش العباسيين قامت الدولة العباسية، هذا إضافة إلى أنها تعتبر من أغنى الأقاليم وأعرقها حضارة وأكثرها طموحاً إلى إعادة أمجاده، كل ذلك جعلها من أخطر أقاليم الدولة على الإطلاق (٢).

ولذلك كان الخلفاء العباسيون حريصين على هذا الإقليم فلا يولون أمره إلا من يتقون به ويرضون سيرته.

وقد كانت خراسان موضع اهتمام الرشيد؛ إلا أنه أساء اختيار الولاة لها في بعض الأحيان، مما أدى إلى إثارة سخط أهلها نتيجة ظلم هؤلاء واستبدادهم فقاموا بانتفاضات عديدة ضد الخلافة، وقد أشرنا من قريب إلى ثورة حمزة الخارجي، وكنا قبلها قد نوّهنا إلى ثورة يحيى بن عبد الله العلوي.

وقد كان آخر هؤلاء الولاة الذي أساءوا إدارة خراسان وظلموا واستبدوا وتعتسّفوا علي ابن عيسى بن ماهان (٣) الذي عاث فيها فساداً وظلم أهلها وابتزّ أموالهم حتى كثرت الشكايات منه، وكانت ثورة رافع بن الليث هي التي نبهت الرشيد إلى سوء إدارة علي بن عيسى وظلمه وتعتسّفه ذلك أن علي بن عيسى لما ظهر رافع بن الليث واشتد أمره وعظمت شوكته في خراسان لم يقوَ على إخماد ثورته، فبعث إلى الرشيد يطلب المدد ويخبره بأنه أنفق كل ما معه حتى حلي نسائه في حرب رافع، ولكن الرشيد علم أن عيسى بن علي بن عيسى بن ماهان

(١) الرازي - اعتقادات فرق المسلمين والمشرّكين ، ص ٢٤ ، والبغدادي - الفرق بين الفرق، ص ٥٣ ، وانظر. الكامل ، ج ٥ ، ص ٣٥١ .

(٢) انظر د. عبد الجبار الجومرد - هارون الرشيد ، ج ٢ ، ص ٤٠٨-٤٠٩ .

(٣) علي بن عيسى بن ماهان : من مشاهير القواد في عهد الرشيد والأمين ، ولاة الرشيد خراسان فعث فيها فساداً ، وظلم أهلها حتى كثرت الشكايات منه ، فعزله الرشيد بئرثمة بن أعين ، كان البرامكة يبعثونه ، قاد جيوش الأمين ضد المأمون ، فلقبه طاهر بن الحسين فقتله سنة ١٩٥هـ . انظر الطبري - تاريخ الطبري ، ج ٤ ، ص ٦٧٣ ، ٦٧٤ ، ج ٥ ، ص ٤-١٠ ، ٤١-٥٤ ، ابن الأثير - الكامل ، ج ٥ ، ص ٣٧١-٣٧٦ ، ابن العماد - وشرّات الذهب ، ج ٢ ، ص ٤٢٨ ، والجيشياري - الوزراء والكتاب ، ص ٢٩٠-٢٩٣ .

الذي قُتِلَ في حرب رافع كان قد أخفى في بستان داره ببلخ^(١) أموالاً تُقدَّر بثلاثين ألف ألف دينار ولم يُعَلِّم أحداً بأمر هذا المال إلا جارية محظية عنده، فلما قتل باحت الجارية بسر هذا المال إلى ذوبها، وأطلعت بعض الخدم عليه فانتشر الخبر بين الناس وتحدثوا به فاجتمع علماء أهل بلخ ووجهها ودخلوا البستان وأخرجوا المال ووزعوه على العامة^(٢).

عندها أيقن الرشيد بسوء سيرة علي بن عيسى وطغيانه وظلمه، فقرر عزله وترتيب هرثمة بن أعين^(٣) مكانه، وقد وجه الرشيد هرثمة إلى خراسان ورسم له خطة يعمل وفقها أراد منها أن يضرب هدفين بسهم واحد، أراد أن يقضي على ثورة رافع وفي الوقت نفسه أراد معاقبة واليه ومحاسبته .

وقد فصل الرشيد هذه الخطة التي اختطها لمولاه هرثمة في عهده إليه بولاية خراسان وهو العهد الذي سنبحثه في حديثنا عن رسائل التعيين والتولية^(٤)، وفيه مجموعة من الإجراءات التأديبية التي تتعلق بعلي بن عيسى وصحبه، وتنتهي بإشخاصهم إلى بغداد^(٥).

وقد عمل هرثمة على توخي السريّة التامة في عمله مدركاً خطورة المهمة الملقاة على عاتقه، وبعد أن فرغ من مهمته وجه برسالة إلى الرشيد، هي عبارة عن تقرير مفصل لما قام به لضبط إقليم خراسان^(٦).

(١) بلخ : من أجل مدن خراسان وأكثرها خيراً وأوسعها غلة افتتحها الأحنف بن قيس في عهد عثمان بن عفان، قيل : كانت تسمى الإسكندرية قديماً نسبة إلى الإسكندر الذي بناها ، بينها وبين ترمذ اثنا عشر فرسخاً ، ينسب إليها خلق كثير منهم الحافظ الحسن بن شجاع البلخي المتوفى سنة ٢٤٤هـ انظر الحموي - معجم البلدان، ج ١ ، ص ٤٧٩ - ٤٨٠ "بلخ" . وتعد بلخ اليوم من أشهر مدن أفغانستان.

(٢) الطبري - تاريخ الطبري ، ج ٥ ، ص ٤ .

(٣) هرثمة بن أعين : أبو حاتم ، أمير من القادة الشجعان ، كان الرشيد يثق به كثيراً فيوجه به إلى أماكن الثورات ، كانت له عناية بالعمران ، بنى القصر المعروف بالمنستير في القيروان وبنى سور طرابلس الغرب ، ساند المأمون ضد أخيه الأمين ، وكانت له قيادة الجيش ، نqm عليه المأمون وحيسه ، وكان الفضل بن سهل وزير المأمون يبغضه ، ففس إليه من قتله في الحبس سرأ بمرور سنة ٢٠٠هـ ، انظر ابن الأثير - الكامل ، ج ٥ ، ص ٤٢٤-٤٢٥ وابن تغري بردي - النجوم الزاهرة ، ج ٢ ، ص ١١٥-١١٧ والجيشياري - الوزراء والكتاب، ص ٣١٦-٣١٨ وانظر أبو العرب - طبقات علماء افریقیة وتونس ، ص ٥٢ ، ١٣٦ .

(٤) انظر ص ٦٩ - ٧٠ من هذا البحث .

(٥) الطبري - تاريخ الطبري ، ج ٥ ، ص ٥-٦ .

(٦) المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ٨-٩ .

وأول ما قام به عندما أصبح على مشارف خراسان مكاتبة أهل الشاش^(١) وفرغانة^(٢) وتخليد لهم عن الخائن، ثم بعث بكتب إلى أهل بلخ يحثهم فيها على لزوم الطاعة. ولما وصل إلى نيسابور^(٣) دعا جماعة من ثقات أصحابه من ذوي السن والتجربة والخبرة والكفاية والأمانة، وخلا بكل رجل منهم سراً وولى كل واحد منهم كورة وأخذ عليه أيمان البيعة والعهود والمواثيق ودفع إليه عهده بولايته وأمره بالمسير إليها .

يقول هرثمة: " ... وَلَمْ أزلْ - أَعزَّ اللهُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - مَدُّ فَصَلْتُ عَنْ مُعَسِّكَرِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مُمْتَبِلاً مَا أَمَرْتَنِي بِهِ فِيمَا أَنْهَضْتَنِي لَهُ، لَا أَجَاوِزُ ذَلِكَ وَلَا أَعْدَاهُ، وَلَا أَتَعَرَّفُ النِّمْنَ وَالْبِرْكَةَ إِلَّا فِي امْتِنَالِهِ، إِلَى أَنْ حَلَلْتُ أَوَائِلَ خُرَاسَانَ، صَائِناً لِلأَمْرِ الَّذِي أَمَرْتَنِي أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِصِيَانَتِهِ وَسِتْرِهِ، لَا أَفْضِي ذَلِكَ إِلَى خَاصِّي وَلَا إِلَى عَامِّي، وَبَدَّرْتُ فِي مُكَاتَبَةِ أَهْلِ الشَّاشِ وَفَرَّغَانَةَ، وَخَزَلَيْهِمَا^(٤) عَنْ الخَائِنِ، وَقَطَعُ طَمَعِهِ وَطَمَعِ مَنْ قَبْلِهِ عَنْهُمَا، وَمَكَاتَبَةٍ مَنْ يَبْلُغُ بِمَا كُنْتُ كَتَبْتُ بِهِ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَقَسَّرْتُ لَهُ، فَلَمَّا نَزَلْتُ نَيْسَابُورَ عَمِلْتُ فِي أَمْرِ الكُورِ الَّتِي اجْتَرَزْتُ عَلَيْهَا بِتَوَلِيَّةٍ مِنْ وَلِيَّتْ عَلَيْهَا، قَبْلَ مُجَاوِزَتِي إِيَّاهَا ... وَلَمْ أَلِ الاِحْتِيَاطَ فِي ذَلِكَ وَإِخْتِيَارَ الكِفَاةِ وَأَهْلِ الأَمَانَةِ وَالصَّحَّةِ مِنْ ثَقَاتِ أَصْحَابِي، وَتَقَدَّمْتُ إِلَيْهِمْ فِي سِتْرِ الأَمْرِ وَكَيْمَانِيهِ، وَأَخَذْتُ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ أَيْمَانَ البَيْعَةِ، وَتَفَعْتُ إِلَى كُلِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ عَيْدَهُ بِوَلَايَتِهِ، وَأَمَرْتُهُمْ بِالمَسِيرِ إِلَى كُورِ أَعْمَالِهِمْ عَلَى أَخْفَى الحَالَاتِ وَأَسْتَرَهَا^(٥) .

فلما صار على مرحلة من مرو^(٦) بدأ بعلي بن عيسى، فدعا عدداً من رؤساء جنده

(١) الشاش : كورة متاخمة لبلاد الترك مما وراء نهر سيحون شديدة البرودة شتاء معتدلة صيفاً، غلب على أهلها المذهب الشافعي، شهر منها خلق كثير منهم الفقيه الحافظ أبو بكر محمد بن علي بن إسماعيل القفال الشاشي "ت ٣٦٦هـ" انظر الحموي - معجم البلدان، ج ٣، ص ٣٠٨-٣٠٩. "شاش" وهي اليوم تعرف بطشقند وهي عاصمة جمهورية أوزبكستان .

(٢) فرغانة : مدينة واسعة بما وراء النهر متاخمة لبلاد تركستان كثيرة الجبال والقرى . وفيرة الخيرات، "انظر الحموي - معجم البلدان، ج ٤، ص ٢٥٣، فرغانة" وتقع فرغانة اليوم على الحدود بين الصين والاتحاد السوفياتي .

(٣) نيسابور : مدينة عظيمة ذات فضائل كثيرة، وفيرة الخيرات والفواكه، فتحت صلحاً في أيام عثمان بن عفان رضي الله عنه سنة ٣١هـ، وقيل فتحت في أيام عمر رضي الله عنه على يد الأحنف بن قيس وإنما انتقضت في أيام عثمان، فأرسل إليها عبد الله بن عامر، ففتحها ثانية شهر منها خلق كثير منهم الإمام الحافظ أبو علي الحسين بن علي بن زيد بن داود بن يزيد النيسابوري ت ٣٣٧هـ، انظر الحموي - معجم البلدان، "نيسابور" وهي اليوم إحدى مدن شمال شرق إيران .

(٤) خزله : قطعه، انظر ابن منظور - لسان العرب، مادة خزل .

(٥) الطبري - تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٨ .

(٦) مرو : من أشهر مدن خراسان، قيل إن أهلها اشتهروا بالبخل، شهر منها خلق كثير من أجلة العلماء منهم الإمام أحمد بن حنبل، وسفيان بن سعيد الثوري، انظر الحموي - معجم البلدان، ج ٥، ص ١١٢-١١٤ مرو الشاهجان . ومرو اليوم إحدى مدن جمهورية تركمانستان .

وكتب لهم أسماء أولاد علي وأهل بيته وعماله وكتابه في رفاع، ودفع إلى كل منهم رقعة باسم من وكله بحفظه، وعندما اقترب من مدينة مرو تلقاه علي بن عيسى في ولده وأهل بيته وقواده بحفاوة بالغة، وحتى لا يداخل الشك نفس علي بن عيسى كان هرثمة يواتره برسائله مما بعث في نفسه الطمأنينة للأمر الذي جاء به هرثمة (١)، يقول هرثمة: "ولما صيرت من مدينة مرو على منزل اخترت عدة من ثقات أصحابي وكتبت بسميية ولد علي بن عيسى وكتابه وأهل بيته وغيرهم رفاعاً ودفعت إلى كل رجل منهم رقعة باسم من وكلته بحفظه في دخولي، ولم آمن، لو وعدت في ذلك وأخرته، أن يصيروا عند ظهور الخبر وانتشاره إلى التغيب والانتشار، فعملوا بذلك، ورحلت عن موضعي نحو مدينة مرو، فلما صيرت منها على مئتين تلقاني علي ابن عيسى في ولده وأهل بيته وقواده فلقيناه بأحسن لقاء وأنسنته وبلغت من توقيره وتعظيمه والتماس النزول إليه أول ما بصرت به ما ازداد به أنساً وثقة إلى ما كان إليه قبل ذلك مما كان يأتيه من كتبي؛ فإنها لم تنقطع عنه بالتعظيم والإجلال مني له والالتماس لأنفي سوء الظن عنه لئلا يسبق إلى قلبه أمر ينتقض به ما دبر أمير المؤمنين في أمره وأمرني به في ذلك..." (٢).

وسار الاثنان إلى بيت علي بن عيسى وتناولوا طعام الغداء وكان علي قد أعد قصراً لهرثمة، فلما فرغا من الطعام سأله المصير إليه فأخبره هرثمة بأن معه أموراً لا تحتمل التأخير، وجاء وقت الحساب فدفع إليه رجااء الخادم كتاب الرشيد بعزله وتولية هرثمة مكانه. وألقي القبض عليه وعلى أولاده وأعوانه وترك الجميع في دار الإمارة ثم انطلق هرثمة إلى المسجد الجامع، فخطب في الناس وبسط أمالهم وأخبرهم بأن أمير المؤمنين قد ولاه ثغورهم لما انتهى إليه من سوء سيرة ابن ماهان وأطلعهم على ما أمره فيه وفي عماله وأعوانه من الانتصاف منهم وأخذ الحقوق التي اغتصبوها من الرعية، ثم أمر بقراءة العهد بالولاية له، وأعلمهم أنه سيمتثل كل ما جاء فيه من أوامره، وسيسير على النهج الذي رسمه له أمير المؤمنين فيه، وقد كان لذلك وقع كبير في نفوس أهل خراسان، ففرحوا واستبشروا وعلت أصواتهم بالتكبير والتهليل والدعاء لأمير المؤمنين بالبقاء وحسن الجزاء لما كانوا يقاسونه تحت وطأة حكم ابن ماهان الجائر.

يقول هرثمة: "... وكان الله تبارك وتعالى، هو المنفرد بكفاية أمير المؤمنين الأمر فيه إلى أن ضممني وإياه مجلسه، وصيرت إلى الأكل معه، فلما فرغنا من ذلك بداني يسألني المصير إلى منزل كان ارتاده لي؛ فأعلمته ما معي من الأمور التي لا تحتمل تأخير المناظرة فيها، ثم دفع إليه رجااء الخادم كتاب أمير المؤمنين وأبلغه رسالته، فعلم عند ذلك أن قد حل به الأمر الذي

(١) الطبري - تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٩.

(٢) المصدر نفسه، ج ٥، ص ٨-٩.

جَنَاهُ عَلَى نَفْسِهِ، وَكَسَبَتْهُ يَدَاهُ، مِنْ سَخَطِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَتَغْيِيرِ رَأْيِهِ بِخِلَافِهِ أَمْرَهُ وَتَعَدِّيهِ سَيْرَتَهُ. ثُمَّ صَرَّتْ إِلَى التَّوَكُّلِ بِهِ وَمَضَيْتْ إِلَى الْمَسْجِدِ الْجَامِعِ، فَتَسَطَّتْ أَمَالَ النَّاسِ مِمَّنْ حَضَرَ وَأَفْتَتَحَتْ الْقَوْلَ بِمَا حَمَلْتِي أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَيْهِمْ، وَأَعَلَّمْتُهُمْ إِعْظَامَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مَا أَنَاهُ وَوَضَحَ عِنْدَهُ مِنْ سُوءِ سَيْرَةِ عَلِيٍّ، وَمَا أَمْرِي بِهِ فِيهِ وَفِي عَمَالِهِ وَأَعْوَانِهِ ... وَأَمَرْتُ بِقِرَاءَةِ عَهْدِي عَلَيْهِمْ وَأَعَلَّمْتُهُمْ أَنَّ ذَلِكَ مِثَالِي وَإِمَامِي ... فَأَظْهَرُوا السُّرُورَ بِذَلِكَ وَالِاسْتِشَارَ، وَعَلَّتْ بِالتَّكْبِيرِ وَالتَّهْلِيلِ أَصْوَاتَهُمْ، وَكَثُرَ دَعَاؤُهُمْ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْبَقَاءِ وَحُسْنِ الْجَزَاءِ" (١).

وبعد أن أدخل هرثمة السرور إلى قلوب أهل خراسان عاد إلى دار الإمارة لمحاسبة علي ابن عيسى وأعوانه، فأمر بتقييدهم والاستيثار منهم جميعاً، يقول هرثمة: " وَأَمَرْتُهُمْ بِالْخُرُوجِ إِلَيَّ مِنَ الْأَمْوَالِ الَّتِي احْتَجَنُوهَا" (٢) مِنْ أَمْوَالِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَفِي الْمُسْلِمِينَ، وَإِعْقَابِي مِنَ الْإِقْدَامِ عَلَيْهِمْ بِالْمَكْرُوهِ وَالضَّرْبِ، وَنَادَيْتُ فِي أَصْحَابِ وَدَائِعِهِمْ بِإِخْرَاجِ مَا كَانَ عِنْدَهُمْ، فَحَمَلُوا إِلَيَّ إِلَى أَنْ كَتَبْتُ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ صَدْرًا صَالِحًا مِنَ الْوَرِقِ (٣) وَالْعَيْنِ، وَأَرْجُو أَنْ يُعِينَ اللَّهُ عَلَى اسْتِيفَاءِ مَا قَبِلْتُمْ وَاسْتِظَافِ مَا وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ" (٤).

وبعد هذه الطائفة من الإجراءات الصارمة ينتقل هرثمة لبيان الجانب الإجرائي الآخر المتعلق برافع بن الليث، فيخبر خليفته بأنه قد بعث له الرسائل تلو الرسائل يستميله ومن معه ويعددهم بعفو أمير المؤمنين عنهم إن ألقوا السلاح ولزموا الطاعة، وأنه سيعمل على حسب إجابة رافع على الكتب التي أرسلها إليه وسيكتب إلى الخليفة بذلك، يقول هرثمة: " وَلَمْ أَدْعُ عِنْدَ قُدُومِي مَرَوْ التَّقَدَّمَ فِي تَوْجِيهِ الرُّسُلِ، وَإِنْفَازِ الْكُتُبِ الْبَالِغَةِ فِي الْإِعْدَارِ وَالْإِنْدَارِ، وَالْتَّبْصِيرِ وَالْإِرْشَادِ، إِلَى رَافِعٍ وَمَنْ قَبْلَهُ مِنْ أَهْلِ سَمَرْقَنْدِ" (٥)، وَإِلَى مَنْ يَبْلُغُ، عَلَى حُسْنِ ظَنِّي بِهِمْ فِي الْإِجَابَةِ، وَلِزُومِ الطَّاعَةِ وَالِاسْتِيفَاءَةِ، وَمَهْمَا تَنَصَّرَفُ بِهِ رُسُلِي إِلَيَّ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَخْبَارِ الْقَوْمِ فِي إِجَابَتِهِمْ وَامْتِنَاعِهِمْ، أَعْمَلُ عَلَى حَسْبِهِ مِنْ أَمْرِهِمْ، وَأَكْتُبُ بِذَلِكَ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى حَقِّهِ وَصِدْقِهِ. وَأَرْجُو أَنْ يُعَرِّفَ اللَّهُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فِي ذَلِكَ مِنْ جَمِيلِ صُنْعِهِ وَلَطِيفِ كِفَايَتِهِ، مَا لَمْ تَزَلْ عَادَتُهُ جَارِيَةً بِهِ عِنْدَهُ، بِمَنْهٍ وَطَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ وَالسَّلَامُ" (٦).

(١) المصدر نفسه، ج ٥، ص ٨-٩.

(٢) احتجن المال: ضمته واحتواه، انظر ابن منظور - لسان العرب، مادة حجن.

(٣) الورق: الدراهم المضروبة، انظر المصدر نفسه، مادة ورق.

(٤) الطبري - تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٩.

(٥) سمرقند: مدينة مشهورة قيل إن ذا القرنين هو الذي بناها، فتحها قتيبة بن مسلم ٨٧هـ، الحموي - معجم

البلدان، ج ٢، ص ٢٤٦-٢٥٠، مادة "سمرقند"، وهي اليوم إحدى مدن جمهورية أوزبكستان.

(٦) الطبري - تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٩.

بهذا ينتهي التقرير الذي رفعه هرثمة إلى الرشيد والمتضمن الخطة التي رسمها الرشيد لهرثمة لمحاسبة علي بن عيسى بن ماهان وأعوانه والقضاء على ثورة رافع بن الليث، ولعل الحكمة كانت تقتضي من الرشيد أن يبادر إلى إمداد علي بن عيسى بالرجال والسلاح حتى يتسنى له القضاء على ثورة رافع أولاً ثم يتفرغ بعدها لمحاسبته؛ ولكن الرشيد ربما نظر إلى الأمر من زاوية أخرى مؤداها أن رافع بن الليث ومن معه قد ثاروا على الظلم الذي ساءمهم إياه علي بن عيسى^(١)؛ فإذا عُرِلَ هذا الوالي الظالم الجائر؛ زالت أسباب الثورة ولم يَبْقَ عذرٌ لثائر، ولكن رافعا وأتباعه لم يرجعوا عما عزموا عليه وأصرروا على التمرد والعصيان .

ورداً على التقرير الذي رفعه هرثمة إلى خليفته، بعث إليه الرشيد رسالة يشكر له صنيعه وحسن تدبيره فيما وُكِّلَ إليه من مهام جليلة، ويأمره فيها بطائفة من الأوامر والتوجيهات التي من شأنها ضبط الإقليم الذي ولاه عليه^(٢). والناظر في هذه الرسالة يستطيع أن يدرك حرص الرشيد على اقتلاع الفتنة من جذورها؛ ولذلك نراه يأمر مولاه بأن يزداد جدًّا واجتهاداً في "تَبْعِ أَمْوَالِ الْخَائِنِ عَلِيِّ بْنِ عَيْسَى وَوَلَدِهِ وَكُتَّابِهِ وَعَمَّالِهِ وَوُكَلَائِهِ وَجَهَابِذِيهِ"^(٣) وَالنَّظَرَ فِيمَا اخْتَانُوا بِهِ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فِي أَمْوَالِهِ وَظَلَمُوا بِهِ الرَّعِيَّةَ فِي أَمْوَالِهِمْ وَتَبَّعَ ذَلِكَ وَاسْتَخْرَجَهُ مِنْ مَطَانِنِهِ وَمَوَاضِعِهِ الَّتِي صَارَتْ إِلَيْهِ وَمِنْ أَيْدِي أُنْحَابِ الْوَدَائِعِ الَّتِي اسْتَوْدَعُوهَا إِيَّاهُمْ"^(٤) حتى إذا تسنى له رد الحقوق إلى أصحابها، ولم تَبْقَ لذي حق مسألة؛ فإنه يأمره بإشخاص ابن ماهان "الْخَائِنِ وَوَلَدِهِ وَأَهْلَ بَيْتِهِ وَعَمَّالِهِ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِي وَثَاقٍ وَعَلَى الْحَالِ الَّتِي اسْتَحَقُّوهَا مِنَ التَّغْيِيرِ وَالتَّكْيِيلِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيهِمْ"^(٥) .

وبعد أن ينتهي هرثمة من محاسبة علي بن عيسى وصحبه وإشخاصهم إلى بغداد؛ يطلب إليه الرشيد أن ينصرف إلى معالجة أمر رافع وأتباعه، فيأمره بمكاتبتهم ودعوتهم إلى الرجوع إلى الطاعة، وإعطائهم عهد أمير المؤمنين بالعفو عنهم وبذل الأمان لهم جميعاً إن رجعوا إلى الطاعة "إِذْ كَانُوا رَعِيَّةً وَهُوَ الْوَاجِبُ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ لَهُمْ إِذْ أَجَابَهُمْ إِلَى طَلْبَتِهِمْ وَأَمَّنَ رَوْعَهُمْ وَكَفَاهُمْ وِلَايَةَ مَنْ كَرِهُوا وَوَلَايَةَ وَأَمَرَ بِأَنْصَافِهِمْ فِي حُقُوقِهِمْ وَظُلَامَاتِهِمْ"^(٦) وإن أصرروا على ما هم ماضون فيه فإنه يحذرهم عاقبة البغي والعدوان والتمادي في الثورة على الخليفة .

(١) المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ٦ .

(٢) المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ٩-١٠ .

(٣) جهايزة : جمع جهبذ وهو النقاد الخبير بغوامض الأمور ، انظر ابن منظور - لسان العرب، مادة جهبذ .

(٤) الطبري - تاريخ الطبري ، ج ٥ ، ص ١٠ .

(٥) المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ١٠ .

(٦) المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ١٠ .

ولكن رافعاً وصحبه لم يلقوا السلاح واستمروا في التمرد والعصيان والمكابرة، فزحف إليهم هرثمة بجيشه وقتلهم، وقد وصلت أخبار ذلك إلى الرشيد فغضب غضباً شديداً وقرر أن يزحف بنفسه ويلحق بهرثمة لتأديب العصاة، ولكن المرض لم يمهلها إذ وافاه الأجل وهو في الطريق وقد بقيت ثورة رافع حتى سنة ١٩٥هـ، وقد استطاع المأمون بسياسته الحكيمة في استرضاء أهل خراسان أن يفرق أتباع رافع ويكسبهم إلى جانبه مما أدى إلى استسلام رافع وذوبان ثورته^(١).

ج- نكبة البرامكة:

لقد خلفت الفاجعة التي ألمت بالبرامكة والتي حاك الرشيد خيوطها تبراغعة عدداً من الرسائل التي تعيننا على استجلائها ووضع تصور لمقدماتها وبعض أسبابها وآثارها، ولدى مطالعتي للمصادر التاريخية والأدبية التي وقعت عليها يداي، فإني وجدت هذه الرسائل تصب في ثلاثة محاور:

١. الرسائل المتعلقة بأسباب النكبة ومقدماتها وبعض دوافعها:

عالجت هذه الرسائل طرفاً من مقدمات النكبة وبعض أسبابها ودوافعها، من ذلك رسالة بعث بها يحيى البرمكي إلى ابنه جعفر ينهيه فيها عن الإيغال في منادمة الرشيد، ويحذره من سوء العاقبة التي تنتظره وأهله إن استمر في فعله هذا، ويقول: "إني إنما أهملتك لئلا تغتر بك الزمان عثرة تعرف بها أمرك، وإن كنت لأخشى أن تكون التي لا شوى لها"^(٢).

ولكن جعفر لم يكن يستمع لنصائح أبيه الذي بدأ يشعر بقرب النهاية، ولذلك نراه بعد أن ضاق ذرعاً بابنه يتوجه إلى الرشيد قائلاً: "يا أمير المؤمنين أنا والله أكره مداخلة جعفر معك، ولست آمن أن ترجع العاقبة في ذلك عليّ منك؛ فلو أعفيتني واقتصرنت به عليّ ما يتولاه من جسيم أعمالك كان ذلك واقعاً بموافقتي وآمن لك عليّ"^(٣).

ويبدو يحيى من خلال هذه الرسالة في مظهر الشيخ الحكيم المجرب الذي خبر الدهر وتقلباته، فقد أدرك أن حال ابنه مع الرشيد واتصاله به وطول عثرته ومجالسته له سيورده موارد الهلاك، ويروي إسماعيل بن صبيح أنه كان يوماً بين يدي يحيى بن خالد فدخل عليه

(١) ابن الأثير - الكامل، ج ٥، ص ٣٦٤.

(٢) لا شوى لها: لا بُرء لها ولا إبقاء، انظر ابن منظور - لسان العرب، مادة شوى.

(٣) الطبري - تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٦٦٠.

(٤) الجهشباري - الوزراء والكتاب، ص ٢٢٥، وانظر الطبري - تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٦٦٠.

جعفر فلما رآه أشاح بوجهه عنه وتكره رؤيته؛ فلما انصرف قال له: "أطالَ اللهُ بقاءَكَ تَفَعَلْ هَذَا بِابْنِكَ وَحَالَهُ عِنْدَ الرَّشِيدِ حَالَهُ، لَا يُقَدِّمُ عَلَيْهِ وَوَلَدًا وَلَا وَلِيًّا؟" فَقَالَ: إِلَيْكَ عَنِّي أَيُّهَا الرَّجُلُ؛ فَوَاللَّهِ لَا يَكُونُ هَلَاكُ أَهْلِ هَذَا الْبَيْتِ إِلَّا بِسَبَبِهِ" (١).

وفعلاً فقد استغل خصوم البرامكة هذه العلاقة الوطيدة بين الرشيد ووزيره جعفر اليرمكي وأخذوا يحيكون ضدهم المؤامرات في الظلام، ويسعون بهم عند الرشيد، ويذكرون له استبدادهم بالملك عن طريق بعض الرسائل التي أوغرت صدره عليهم كما حدث أن رفعوا إليه رسالة شعرية دون توقيع جاء فيها: (٢)

قُلْ لَأَمِينِ اللّهِ فِيهِ أَرْضِيهِ	وَمَنْ إِلَيْهِ الخَلُّ والعُقْدُ
هَذَا ابْنُ يحيى قَدْ غَدَا مالِكاً	مِثْلَكَ مَا بَيْنَكُمْ خَاخِئُ
أَمْرَكَ مَرْدُودٌ إِلَيَّ أَمْرِهِ	وَأَمْرُهُ لَيْسَ لَكَ رَدُّ
وَنَحْنُ نَخْشَى أَنَّهُ وَارِثُ	مُلْكِكَ إِنْ غَيَّبَكَ اللُّخْدُ
وَلَنْ يُبَاهِيَ العَيْدُ أَرْبَابَهُ	إِلَّا إِذَا مَا بَطَرَ العَيْدُ

وقد استطاع هؤلاء الوشاة، وعلى رأسهم الفضل بن الربيع - خصم البرامكة وعدوهم اللدود - أن يدقوا على وتر حساس هيَّج الرشيد وأثار حفيظته، كما ظهر في هذه الرسالة التي تحذره من نفوذ البرامكة وسطوتهم وخطرهم الذي بات يهدد عرشه، وتحرضه على اتخاذ إجراء حاسم معهم خاصة أنهم يحاولون الوثوب عليه واغتصاب الخلافة منه .

وكان محمد بن الليث الذي عرف بميله عن البرامكة قد رفع إلى الرشيد رسالة يعظه فيها ويذكره بواجباته، ويبين خطأه في تفويض الأمور إلى يحيى بن خالد، وينصحه بوضع حد لسلطان البرامكة، ويقول: "إِنَّ يَحْيَى بْنَ خَالِدٍ لَا يُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللّهِ شَيْئاً، وَقَدْ جَعَلْتَهُ فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللّهِ، فَكَيْفَ أَنْتَ إِذَا وَقَفْتَ بَيْنَ يَدَيْهِ فَسَأَلَكَ عَمَّا عَمِلْتَ فِي عِبَادِهِ وَبِلَادِهِ، فَقُلْتَ: يَا

(١) الجهشياري - الوزراء والكتاب ، ص ٢٤٨-٢٤٩ .

(٢) ابن خلكان - فيات الأعيان ، ج ١ ، ص ٣٣٥-٣٣٦ ، وانظر الياضي - مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان ، ج ١ ، ص ٤١٩ ، وانظر ابن العماد - شذرات الذهب ، ج ٢ ، ص ٣٩٢-٣٩٣ ، وانظر القرمائي - أخبار الدول وأثار الأول في التاريخ ، ج ٢ ، ص ٨٧ ، وانظر الميلوي - أحسن المسالك ، ورقة ٩٠ .

رَبِّ، اسْتَكْفَيْتُ يَحْيَى أُمُورَ عِبَادِكَ! أَتُرَاكَ تَحْتَجُّ بِحُجَّةٍ يَرْضَى بِهَا" (١) .

لم يطمئن الرشيد لما جاء في هذه الرسالة، فدعا يحيى بن خالد وأعلمه بخبرها، وسأله عن محمد بن الليث، فأجابته بأنه متهم على الإسلام، فأمر الرشيد بسجنه وثبث في سجنه زمناً طويلاً، فلما تنكَّر الرشيد للبرامكة أطلقه وأنعم عليه وأجزل له في العطاء وقال له: انتقم الله ممن ظلمك وأخذ لك بحقك ممن بعثني عليك" (٢)، ويقصد به يحيى الذي كان السبب في حبسه.

ومن الرسائل السابقتين يتبين لنا أن الوشاة عرفوا كيف يدخلون إلى قلب الرشيد، ويؤلبونه على البرامكة، من خلال تحذيره من ازدياد نفوذهم الذي لم يبق له أي نفوذ معه، مما ترك في نفسه أثراً عظيماً حتى أنه لما رأى المواكب تغدو وتروح على باب يحيى بن خالد قال: "اسْتَبَدَّ يَحْيَى بِالْأُمُورِ دُونِي؛ فَالْخِلَافَةُ عَلَى الْحَقِيقَةِ لَهُ، وَلَيْسَ لِي مِنْهَا إِلَّا اسْمُهَا" (٣). مما يدل على أن هذه الوشائيات قد فعلت فعلها في نفس الرشيد؛ فانفجر بركان غضبه وعزم على التخلص منهم، ووضع حد لنفوذهم؛ لأنه خشي أن يفلت زمام الأمور من يده .

وهذه الرسائل تدل دلالة واضحة على أن وراء هذه النكبة أسباباً، وقد سبقتها مقدمات، ولم تكن غضبة سريعة من غضبات الرشيد، وإنما كان يدبر لها ويخطط قبل سنين من حدوثها.

٢. الرسائل المتعلقة بأحداث النكبة:

لما أزيقت ساعة النهاية، حزم الرشيد أمره وأرسل كتاباً إلى السندي بن شاهك يأمره بالقدوم عليه، يقول الرشيد بعد البسملة: " يَا سِنْدِيُّ، إِذَا نَظَرْتُ فِي كِتَابِي هَذَا فَإِنَّ كُنْتَ قَاعِداً فَقُمْ، وَإِنْ كُنْتَ قَائِماً فَلَا تَقْعُدْ حَتَّى تَصِيرَ إِلَيَّ" (٤) .

وقد شعر السندي بخطورة الأمر الذي سنيدبه الرشيد له، فوثب على قدميه وركب خيله مسرعاً إليه (٥) .

ويذكر ابن خلكان (٦) عن السندي بن شاهك أنه بينما كان نائماً، إذ أفاق من نومه فزعاً على صدى حلم مفزع، رأى فيه جعفر بن يحيى وعليه ثوب مصبوغ بالعصفر، وقد أنشده

(١) الطبري - تاريخ الطبري ، ج ٤ ، ص ٦٥٧ ، وانظر ابن الجوزي - المنتظم ، ج ٩ ، ص ١٢٧ .

(٢) الطبري - تاريخ الطبري ، ج ٤ ، ص ٦٥٧ .

(٣) ابن الطقطقي - الفخري ، ص ٢٠٨ .

(٤) الطبري - تاريخ الطبري ، ج ٤ ، ص ٦٦٢-٦٦٣ .

(٥) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٦٦٣ .

(٦) وفيات الأعيان ، ج ١ ، ص ٣٢٧ .

شعراً أفزعه، فقَصَّه على بعض خواصه فقالوا له بأنه أضغاث أحلام، وليس كل ما يراه الإنسان يجب أن يُفسَّر؛ فلم يُلقِ السندي له بالأوعاود النوم، ولكنه أفاق هذه المرة على كتاب الرشيد يأمره بالقبض على البرامكة وتنفيذ خطته فيهم.

ويظهر من هذا الكتاب أن الرشيد قد أحكم خطته في القبض على البرامكة، وأعد للأمر عدته، واحتاط له أتم الاحتياط، مخافة وقوع أمر لم يكن في الحسبان، ويكاد المرء يلحظ ذلك من أول كلمة في خطاب الرشيد هذا، إذ افتتحه بعبارات توحى بأن الأمر الذي يتضمنه أمر جليل لا يستدعي التأخير، يقول الرشيد مخاطباً قائده: " يَا سِنْدِيُّ، هَذَا كِتَابُنَا بِحَطْنَا مَخْتَوِّمٌ بِالْخَاتَمِ الَّذِي فِي يَدِنَا، وَمَوْصِلُهُ سَلَامُ الْأَبْرَشِ ^(١)؛ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَقَبِّلْ أَنْ تَضَعَهُ مِنْ يَدِكَ فَاْمَضْ إِلَى دَارِ يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ - لَا حَاطَةَ اللَّهُ - وَسَلَامٌ مَعَكَ حَتَّى تَقْبِضَ عَلَيْهِ وَتُوقِرَهُ ^(٢) حَذِيدًا وَتَحْمِلَهُ إِلَى الْحَبْسِ فِي مَدِينَةِ الْمَنْصُورِ الْمَعْرُوفِ بِحَبْسِ الزَّنَادِقَةِ" ^(٣).

ولا تنتهي مهمة السندي بالقبض على يحيى البرمكي شيخ البرامكة ورئيسهم، بل يكلفه الرشيد أثناء مسيره إلى يحيى بأن يُسَيِّرَ أحد جنوده الذين يثق بهم إلى الفضل بن يحيى، ويحمله إلى سجن الزنادقة، ويأمره بأن يتوخى السرية التامة في عمله حتى لا ينتشر الخبر بين الناس فيفسد ما دبره الخليفة .

وإذا تمكن السندي من القبض على يحيى وابنه الفضل، وكل أصحابه في القبض على أولاد يحيى وأولاد إخوته وقراباته" ^(٤).

ومما يستحق التنويه أن ما ورد في هذا الكتاب يخالف ما جاء في بعض المصادر التاريخية؛ إذ تذكر هذه المصادر أن الرشيد أمر بأن يبقى يحيى بن خالد سجيناً في بيته غير مُرَوَّعٍ وأن يساق الفضل ومن معه من البرامكة دون قيد إلى معتقل بجانب منازل الرشيد في حراسة شديدة، ويكبَّل باقي الأعوان والخدم بالأغلال ^(٥)، ولم يرد في أي من هذه المصادر أن الرشيد أمر السندي بن شاهك بالقبض على يحيى وولده الفضل وزجهما في حبس الزنادقة، بل

(١) سلام الأبرش: من أشهر سجاني بلاط الرشيد، مدير سجن المطبق، خدم المنصور والمهدي والهادي والرشيد، سخط عليه الرشيد في بداية عهده لأنه تولى سجنه عندما اختلف مع أخيه الهادي في ولاية العيد ثم أطلق سراحه وجعله سجاناً في المطبق، انظر الطبري - تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٦١٩.

(٢) توقرة: تنقله، انظر ابن منظور - لسان العرب، مادة وقر.

(٣) ابن خلكان - وفيات الأعيان، ج ١، ص ٣٢٧.

(٤) المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٢٧-٣٢٨.

(٥) انظر الطبري - تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٦٦٢-٦٦٣ وابن الأثير - الكامل، ج ٥، ص ٣٢٩، وابن كثير - البداية والنهاية، ج ٩، ص ٢٠٥، والجيشياري - الوزراء والكتاب، ص ٢٣٦-٢٣٧، ٢٤٠.

على العكس من ذلك يذكر الجهشيارى أن الرشيد بعد أن قبض على البرامكة خيّر يحيى في أن يقيم حيث أحب، وكان قد تقدم إليه بالأبى بمسه بسوء "وَلَا يَنَالُهُ بِمَكْرُوهٍ فِي نَفْسِهِ، وَلَا فِي شَيْءٍ مِنْ مَالِهِ وَخَالِهِ، وَأَشْهَدُ بِذَلِكَ عَلَى نَفْسِهِ جَمِيعَ أَهْلِهِ وَوَجُوهَ قَوَادِمِهِ وَأَصْحَابِهِ"^(١). ولكن يحيى اختار الإقامة في السجن مع أولاده الفضل ومحمد وموسى^(٢).

وقد أثارت نكبة البرامكة كوامن الأسى في نفوس الكثيرين، فراحوا يعزون يحيى بفقد ولده وما آل إليه حال أهله، وقد كتب إليه بعض أصحابه يعزيه، فكتب إليه يحيى: "أَنَا بِقَضَاءِ اللَّهِ رَاضٍ وَبِالْخَيْرِ مِنْهُ عَالِمٌ، وَلَا يُؤَاخِذُ اللَّهُ الْعِبَادَ إِلَّا بِذُنُوبِهِمْ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ، وَمَا يَعْفُو اللَّهُ أَكْثَرَ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ"^(٣).

والذي يعنى النظر في هذا الجواب على وجازته - يرى الإيمان المتجذر في قلب يحيى، فهو يعتبر أن ما حل بهم من قضاء الله وقدره، ولعله يتراءى للناظر توظيف يحيى لمعاني القرآن الكريم التي أضفت على هذا الجواب مسحة إيمانية تؤكد عاطفة صادقة اعتصرت قلبه لما حلَّ به وبأهله من مصائب.

٣. الرسائل التي دارت بين الرشيد ويحيى بعد النكبة:

كان يحيى البرمكي حتى الساعة الأخير يأمل بعفو الرشيد عنه وإعادته وأهله إلى سابق عهدهم ولذلك وقعت منه محاولات عديدة للتأثير على الرشيد ليعفو عنهم ويطلقهم من سجنهم ولكن الرشيد - وقد فعل بهم ما فعل - لم يكن ليقدم على هذا العفو دون أن يفكر فيما قد يعقبه من نتائج ربما تكون وبالاً عليه.

وقد روى الجهشيارى عن الرشيد أنه قد ندم على ما كان منه في أمر البرامكة، وخاطب جماعة من خواصه بأنه لو وثق بصفاء النية منهم لأعادهم إلى حالهم^(٤).

ومن أوائل محاولات يحيى الرسالة التي بعث بها إلى الرشيد من السجن يقول فيها: "إِنَّ كَانَ الذَّنْبُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ خَاصًّا فَلَا تَعْمُ بِالْعُقُوبَةِ؛ فَإِنَّ لِي سَلَامَةَ الْبِرِّ وَمَوَدَّةَ الْوَالِي"^(٥)، ولكن الرشيد لم يستجب لطلب يحيى ورجائه بالعفو، وما كان منه إلا أن وقع في حاشية هذه

(١) الجهشيارى - الوزراء والكتاب، ص ٢٤٠.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٤٠.

(٣) الطبري - تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٦٦٤ وانظر ابن كثير - البداية والنهاية، ج ٩، ص ٢٠٦.

(٤) الجهشيارى - الوزراء والكتاب، ص ٢٥٨.

(٥) المصدر نفسه، ص ٢٥٣.

الرسالة "قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ" (١) (٢) .

والذي يدقق النظر في ثنايا رسالة يحيى يرى أنه يطلب إلى الرشيد أن يكفني بمقتل جعفر،
وَألا يأخذ بقية العائلة بجرائره، فهو المنذب وقد نال جزاءه، ولا دخل لسائر أهله فيما اقترفته يداه.
ولما لم تجد الرسالة السابقة نفعاً، حاول يحيى استمالة الرشيد عن طريق ابنه الأمين -
ولي عهده ورضيع جعفر بن يحيى - فبعث إليه بقصيدة يلتمس فيها عونه، ويستجزه وعداً له
بأن يسأل أمه أن تستوهب البرامكة من أبيه؛ فكتب إليه بهذه الأبيات:

يَسَا مَلَاذِي وَعِصْمَتِي وَعِمَادِي	وَمُجِيرِي مِمَّنِ الْخَطُوبِ الشَّدَادِ
بِكَ قَامَ الرَّجَاءُ فِي كُلِّ قَلْبٍ	زَادَ فِيهِ الْبَلَاءُ كُلُّ مَزَادِ
إِنَّمَا أَنْتَ نِعْمَةٌ أُعِقِبْتَهَا	نِعْمَ نَفْعُهَا لِكُلِّ الْعِبَادِ
وَعَدَ مَوْلَاكَ أْتَمُّنُهُ فَأَنْهَى الدُّ	رُ مَا زِيدَ حُسْنُهُ بِأَنْعِقَادِ
مَا أَطَّلْتُ سَحَابُ الْيَأْسِ إِلَّا	كَانَ فِي كَشْفِهَا عَلَيْكَ اعْتِمَادِي
إِنْ تَرَأَيْتَ يَدَاكَ عَنِّي فُورَا (٣)	أَكْتَتِي الْأَيَّامُ أَكْسَلَ الْجِرَادِ (٤)

ويذكر ابن عبد ربه أن الأمين قد بعث بها إلى أمه التي قدمتها بدورها إلى الرشيد في وقت
لذته، فما كان منه إلا أن وقع في أسفلها "عِظْمُ ذَنْبِكَ أَمَاتَ خَوَاطِرَ الْعَفْوِ عَنكَ" ورمى بها إليها (٥) .

(١) من الآية ٤١ من سورة يوسف عليه السلام .

(٢) الجهشياري - الوزراء والكتاب ، ص ٢٥٣ .

(٣) الفوراق : ما بين الحلبتين من الوقت ، انظر ابن منظور - لسان العرب ، مادة فُورُق .

(٤) ابن عبد ربه - العقد الفريد ، ج ٥ ، ص ٢٢٤ ، وانظر ابن قتيبة - الإمامة والسياسة ، ج ١ ، ص ٢٠٥ .
وقيل بأن هذه الأبيات لسليمان الأعمى أخي مسلم بن الوليد وكان منقطعاً إلى البرامكة ، انظر ابن عبد ربه -
العقد الفريد ، ج ٥ ، ص ٣٢٤ .

(٥) ابن عبد ربه - العقد الفريد ، ج ٥ ، ص ٣٢٧ ، وانظر الوطواط - غرر الخصائص الواضحة وعرر
النقائص الفاضحة، ص ٤٠٩ ، وانظر الميلوي - أحسن المسالك ورقة ١٠٢ أ، وانظر الإتيدي - إعلام الناس
بما وقع للبرامكة مع بني العباس، ص ٢٥٧، مع اختلاف يسير في اللفظ .

ويروي صاحب غرر الخصائص الواضحة أن الرشيد رد على يحيى بكتاب جاء فيه : "إن أمير المؤمنين لم يأت
على ولدك اللعين ، ومن رأيه ترك الباقيين ، ولم يسأمر بحبسك ، وهو يريد بقاء نفسك ، وإنما أخرج وإياهم
لتعالج البؤس بعد النعيم ، ثم تصير إلى العذاب الأليم ، فأبشر أيها المخادع الزنديق ، والمخالف القسبيق ، بما
أعد لك أمير المؤمنين من تبيد شملك وحمول ذكرك، وإطفاء أمرك فتوقعه صباحاً ومساءً". غرر الخصائص
الواضحة، ص ٤٠٩ ، وإنما ذكرنا ذلك في الحاشية لأن الوطواط قد انفرد بهذه الرواية وهو بعيد عهد بالرشيد
ودولته، مما يجعلنا نشك في صحته خاصة إذا ما علمنا أن أحداً من المؤرخين الذين تقدموا لم ينقلوا لنا هذا
الرد.

ولم يستسلم يحيى لهذه النتيجة، فوجه إلى الرشيد قطعة رائعة من أدب الاعتذار وطلب العفو، تمس أوتار الوجدان، بعث بها إلى الرشيد علّه يرق لحاله ويلين قلبه له فيعفو عنه ويطلق سراحه، وهي صادرة عن نفس ملتاعة تترشح تحت وطأة القيد وتئن بين جدران السجن بعد تفرق الأصحاب، يقول يحيى بعد أن بث أشجانه وأحزانه للرشيد محاولاً أن يستدرّ عطفه وعفوه: "... وَأَمَّا مَا أُصِيبْتُ بِهِ مِنْ وَدِي فَبِذَنْبِي، وَلَا أَخْشَى عَلَيْكَ الْخَطَأَ فِي أَمْرِي، وَلَا أَنْ تَكُونَ تَجَاوَزْتَ بِهِ فَوْقَ حَدِّهِ، تَفَكَّرْتُ فِي أَمْرِي - جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ - وَلَيْمَلْ هَوَاكَ بِالْعَفْوِ عَنْ ذَنْبِي إِنْ كَانَ؛ فَمِنْ مِثْلِي الزَّلُّ وَمِنْ مِثْلِكَ الْإِقَالَةُ، وَإِنَّمَا أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ بِإِقْرَارِ مَا يَجِبُ بِهِ الْإِقْرَارُ حَتَّى تَرْضَى عَنِّي؛ فَإِذَا رَضِيتَ، رَجَوْتُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَنْبِيئَكَ لَكَ مِنْ أَمْرِي وَتَبْرَاءَةَ سَاحَتِي مَا لَا يَتَعَاظَمُكَ بَعْدَهُ ذَنْبٌ أَنْ تَغْفِرَهُ، مَدَّ اللَّهُ لِي فِي عُمْرِكَ، وَجَعَلَ يَوْمِي قَبْلَ يَوْمِكَ" (١).

ويذيل يحيى رسالته بأبيات شعرية تحرك العواطف وتلين الحديد، ولكن الرشيد لا يعطف ولا يلين، بل يرد على ظهر رسالة يحيى قائلاً: "إِنَّمَا مَثَلُكَ يَا يَحْيَى مَا قَالَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ -: "وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ، فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِيَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ" (٢) (٣).

ويرد الرشيد توقيعها بالأبيات التالية معارضاً بها أبيات يحيى إذ يقول: (٤)

يَا أَلْ تَرَمَكْ إِنْكُمُ	كُنْتُمْ مُلُوكًا عَاتِيَةً
فَعَصَيْتُمْ وَطَعْنَيْتُمْ	وَكَفَرْتُمْ نِعْمَائِيهِ
أَجْرِي الْقَضَاءِ عَلَيْكُمْ	مَا خُنْتُمْ وَهُوَ عَلَائِيهِ
مَنْ تَرَكْ نَصَحَ إِمَامِكُمْ	عِنْدَ الْأُمُورِ الْبَادِيهِ
هَذَا عُقُوبَةٌ مَنْ عَصَى	مَنْ فَوَّقَهُ وَعَصَائِيهِ

ويذكر المؤرخون أن الرشيد لم يزل يعامل البرامكة باللين ويتفرق بهم في السجن حتى غضب على عبد الملك بن صالح وحبسه لما بلغه عنه من أنه يطلب الخلافة ويطمع فيها لنفسه،

(١) ابن عبد ربه - العقد الفريد، ج ٥، ص ٣٢٧.

(٢) الآية ١١٢ من سورة النحل.

(٣) اليعقوبي - تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٤٢٣، وانظر الدواداري - كنز الدرر وجامع الغرر، ج ٥،

الدرة السنية في أخبار الدولة العباسية، ص ١٤٦.

(٤) القرطبي، أبو الحسن علي بن الحسن - روضة الأزهار وبهجة الأسمار ونزهة الأبصار الجامعة لفنون

الأدب وسحر الألباب، ورقة ١٣٠ وانظر الإتيدي - إعلام الناس، ص ٢٥٨، وقد ذكر ابن عبد ربه الأندلسي

في العقد الفريد، أن يحيى لم يكن له جواب من الرشيد، ج ٥، ص ٣٢٨.

وأنه وجد في البرامكة عوناً له في تحقيق مسعاه، فجدد الرشيد لهم التهمة وضيق عليهم^(١).

وظن الرشيد أن يحيى بن خالد عنده علم بخبر عبد الملك فأرسل إليه يستوضح منه الأمر، ويشترط عليه إن اعترف على عبد الملك أعاده إلى سابق عهده^(٢). ولكن يحيى يجيب الرشيد قائلاً: "والله يا أمير المؤمنين ما أطلعت من عبد الملك على شيء من هذا، ولو أطلعت عليه لكنت صاحبه دوتك، لأن ملكك كان ملكي، وسلطانك كان سلطاني، والخير والشر كان فيه عليّ ولي، فكيف يجوز لعبد الملك أن يطمع في ذلك مني! وهل كان إذا فعلت ذلك به يفعل بي أكثر من فعلك! أعيدك بالله أن تظن بي هذا الظن، ولكنه كان رجلاً محتماً يسرني أن يكون في أهلك مثلاً"^(٣).

ولما وصل هذا الجواب للرشيد أرسل إلى يحيى يهدده بقتل ابنه الفضل إن لم يقرّ على عبد الملك^(٤). ولعل الرشيد أراد بذلك أن يضغط على يحيى لمكانة الفضل من نفسه، ولكن يحيى لم يستسلم لضغوط الرشيد، وأرسل إليه مع الرسول يقول: "أنت مسلط علينا فافعل ما أردت؛ على أنه إن كان من هذا الأمر شيء، فالذنب فيه لي؛ فبم تدخل الفضل في ذلك"^(٥).

ويستبد الحزن والأسى بيحيى فيعتل في سجنه، ويحس بدنو أجله، فيدعو برقعة كتب في عنوانها: يُنفذ أمير المؤمنين - أبقاه الله - عهد مولاه يحيى بن خالد، وفيها مكتوب بعد البسملة:
قَدْ تَقَدَّمَ الْخَصْمُ إِلَى مَوْقِفِ الْفَضْلِ، وَأَنْتَ عَلَى الْأَثْرِ وَاللَّهُ حَكَمٌ عَدْلٌ وَسَتَقَدَّمُ فَتَعْلَمُ^(٦).

(١) ابن الأثير - الكامل، ج ٥، ص ٣٢٩-٣٣٠، وانظر ابن كثير - البداية والنهاية، ج ٩، ص ٢٠٩.
(٢) الطبري - تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٦٦٧، وانظر ابن الأثير - الكامل، ج ٥، ص ٣٢٢، والميلوي - أحسن المسالك، ورقة ١٦٣.
(٣) الطبري - تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٦٦٧، وابن الأثير - الكامل، ج ٥، ص ٣٢٢-٣٢٣.
(٤) الطبري - تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٦٦٧، وابن الأثير - الكامل، ج ٥، ص ٣٢٣.
(٥) الطبري - تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٦٦٧، ويقتصر ابن الأثير في الكامل، ج ٥، ص ٣٢٣ على عبارة "أنت مسلط علينا فافعل ما أردت".

(٦) ابن عبد ربه - العقد الفريد، ج ٥، ص ٣٢٨، وانظر ابن قتيبة - الإمامة والسياسة، ج ١، ص ٢٠٥، والحشيارى - الوزراء والكتاب، ص ٢٦١ مع اختلاف يسير في اللفظ. وفي رواية أن يحيى أرفق قوله بهذه الأبيات:

سَتَعْلَمُ فِي الْحِسَابِ إِذَا تَقَيَّنَا	غَدَا يَوْمَ الْحِسَابِ مَنْ الظُّلُومُ
تَتَامُ وَكَلِمَ تَنْسَمُ عَنْكَ الْمَنَائِمَا	تَتَبَّسَّهَ لِلْمَنَائِمَةِ يَا نَسُومُ
تُرُومُ الْخُلُودِ فِي دَارِ الْمَنَائِمَا	وَكَمْ قَدَرَامَ غَيْرِكَ مَا تُرُومُ
إِلَى ذِيانِ يَوْمِ الدِّينِ نَمِضِي	وَعَيْنُكَ اللَّهُ تَجْتَمِعُ الْخُصُومُ

انظر الائدي - إعلام الناس، ص ٢٦٠ والقرطبي، أبو الحسن علي بن الحسن - روضة الأزهار، ورقة ١٣١.

فلما اشتد به المرض قال للسجان: هذا عهدي توصله إلى أمير المؤمنين، فإنه ولي نعمتي وأحق من نَفَذَ وصيَّتي، ويموت يحيى، فيوصل السجان وصيته إلى الرشيد ويوقع فيه: "الحكم الذي رضيت به في الآخرة هو أعدى الخصوم عليك وهو من لا يُنْقَضُ حكمه ولا يُردُّ قضاؤه"^(١).

وأخيراً فليس بوسع المرء إزاء هذا الكم من الرسائل التي عالجت هذه النكبة من جوانبها المختلفة، إلا أن يسلم بالأثر الكبير الذي خلفته هذه المأساة في فن الرسائل الديوانية في هذا العهد؛ فقد وضعت هذه الرسائل بين أيدينا بعض الأسباب التي حدثت بالرشيد لأن يقدم على الإيقاع بهم، كما نقلتنا إلى البرامكة في سجونهم، وقدمت لنا صورة صادقة عما كانوا يتجرعون من كؤوس الذل ومرارة السَّجْنِ .

د - العلاقات الخارجية:

لم تكن دولة الرشيد بمعزل عن العالم الخارجي الذي كان يحيط بها، فقد أدرك الرشيد أهمية التواصل مع هذا العالم، ولذلك نشط في إيجاد شبكة من العلاقات مع الدول التي تتاخم دولته كدولة الروم والفرنج والهنود وغيرها من الدول التي كانت تشكل آنذاك أهم الأنظمة السياسية المعروفة في العالم، وليس يهمننا من هذه العلاقات إلا ما خلدهته الرسائل الديوانية العائدة لهذا العهد.

ولعل مما يستحق التتويه قلة الرسائل التي تصور العلاقات الخارجية في هذا العهد واقتصرها على علاقة دولة الرشيد بدولة الروم، ولعل ذلك عائد - فيما أرى - إلى قرب هذه الدولة من عاصمة الخلافة في بغداد، وإلى العداء المتجذر الذي تراكم على مر السنين بين الروم والمسلمين بحكم مباينة عقيدة هؤلاء لعقيدة المسلمين، ويمكن أن يضاف إلى ذلك أطماع الروم في التوسع على حساب بلاد المسلمين، وهذا ما يفسر مهاجمتهم الثغور الإسلامية المتاخمة لبلادهم.

على أن ما وصل إلينا من الرسائل التي تصور هذه العلاقة يعد قليلاً إزاء ما كان متوقفاً منها، ويمكن أن تعزى هذه القلة إلى ضياع الكثير من الرسائل الواقعة في هذا الباب، وإلى عزوف المؤرخين المسلمين عن نقل هذه الرسائل في مؤلفاتهم^(٢)؛ وعلى الرغم من قلة الرسائل فإن المرء لدى مطالعته لما وصلنا منها يستطيع الخروج بصورة واضحة عن طبيعة العلاقة بين دولة الرشيد والروم .

(١) ابن عبد ربه - العقد الفريد ، ج ٥ ، ص ٣٢٨ وابن قتيبة - الإمامة والسياسة ، ج ١ ، ص ٢٠٥-٢٠٦

وانظر القرطبي ، أبو الحسن علي بن الحسن - روضة الأزهار ، ورقة ١٣١ .

(٢) انظر د. محمد الدروبي - الرسائل الفنية في العصر العباسي ، ص ١٨٧ .

لم تجر هذه العلاقة على وتيرة واحدة، وقد انعكس ذلك في الرسائل التي عبرت عنها؛ إذ أنها لم تكن تلزم سمياً واحداً، فهناك رسائل التهديد والوعيد التي تكون في مقدمة مواجهة عسكرية محتملة^(١)، وفي المقابل كان هناك رسائل تصور المنحى السلمي من هذه العلاقة .

تعتبر رسالة نقفور ملك الروم إلى الرشيد من أبرز الرسائل التي تمثل جانب التهديد والوعيد، ويمكن أن نتلمس من خلالها طبيعة الصراع الضاري بين الرشيد والروم، فقد ملأها الملك الرومي بالوعيد والتهديد والإنذار، وعمد إلى شحنها - شكلاً ومضموناً - بشتى الصيغ والمعاني الدالة على الترهيب والتخويف.

تعد هذه الرسالة مثلاً سافراً على المبادأة بالعداوة، فقد تجاوز فيها الملك الرومي كل الحدود؛ فهو أولاً يطلب إلى الرشيد أن يرد ما كانت تدفعه الملكة السابقة من الجزية له، ولم يكف بذلك بل يطالبه بأن يفندي نفسه، وإن لم يفعل ذلك فإن عساكر الروم ستعمل على إخضاعه بحد السيف، إضافة إلى ذلك فإنه - أي نقفور - ينتقد موقف الملكة السابقة وخضوعها للرشيد بدفع الجزية، ويرى أن ذلك من منطلق كونها امرأة ضعيفة لا تحسن التدبير^(٢).

وتجري هذه الرسائل على هذا النسق: "من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب، أما بعد؛ فإن الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرُخ^(٣) وأقامت نفسها مقام البيدق^(٤)، فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أمثاليها لها؛ لكن ذلك ضغف النساء وحمقهن، فإذا قرأت كتابي فارذ ما حصل قبلك من أموالها واقتد نفسك بما يقع به المصادرة لك وإلا فالسيف بيننا وبينك"^(٥).

كانت هذه الرسالة بمثابة إعلان للحرب على الرشيد وإشهار للسيف في وجهه، وقد وجد فيها من إهانته والانتقاص من كرامته ما لا يطيق، فقد استهله الملك الرومي بتقديم نفسه على الرشيد، ثم نراه ينعته الرشيد بـ "ملك العرب" وهو بهذا يضيق نطاق حكم الرشيد ويقصره على العرب، مع أنه يعلم أن حكم الرشيد يتعدى البلاد العربية إلى بلاد يقطنها أقوام غير العرب، وفي هذا الأمر من الإهانة ما فيه، وترتفع وتيرة الإهانة عندما يصور الرشيد بقطعة من الشطرنج، وتبلغ الإهانة أوجها عندما يأمره بدفع الفدية عن نفسه^(٦).

(١) وانظر المصدر نفسه، ص ١٨٨ .

(٢) وانظر المصدر نفسه، ص ١٨٩ .

(٣) الرُخ: من أحجار الشطرنج يسمى في الوقت الحاضر، القلعة، انظر ابن أبي حجلة - نموذج القتال في نقل العوال، ص ١٤٧-١٤٩ .

(٤) البيدق: من أحجار الشطرنج يسمى في الوقت الحاضر جندي المشاة، انظر المصدر نفسه، ص ١٥٠-١٥٣ .

(٥) الطبري - تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٦٦٨، وانظر ابن الأثير - الكامل، ج ٥، ص ٣٣٣، وابن الجوزي - المنتظم، ج ٩، ص ١٣٨ .

(٦) وانظر د. محمد الدروبي - الرسائل الفنية في العصر العباسي، ص ١٨٩-١٩٠ .

لم يجد الرشيد - إزاء هذه الطائفة من الإهانات - بدأ من الرد العنيف الذي يرد له كرامته؛ إذ يذكر الطبري أن الرشيد عندما قرأ هذه الرسالة استشاط غضباً، و "استفزه الغضب حتى لم يمكن أحداً أن ينظر إليه دون أن يخاطبه، وتفرق جلساؤه خوفاً من زيادة قول أو فعل يكون منهم واستعجم الرأي على الوزير من أن يشير عليه أو يتركه يستبذ برأيه دونه" (١).

ولعلنا نلمس من شعور الرشيد مدى الإهانة التي لحقته ولذلك نراه يؤثر الانتصار لنفسه بنفسه، ويأبى أن يكون الرد صادراً عن أحد غيره، فيكتب على ظهر الرسالة السابقة: "بسم الله الرحمن الرحيم، من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم، قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة والجواب ما تراه دون أن تسمعه، والسلام" (٢).

قصد الرشيد بهذا الجواب أن يرد لنقفور الإهانة مضاعفة، ولذلك تجده ينعته بـ كلب الروم وبابن الكافرة، وهو فوق ذلك أراد أن يلحق هذا الملك الرومي الطاغية درساً لن ينساه، كما يظهر من العبارة الأخيرة في هذه الرسالة؛ فلم يكتب الرشيد بهذا الرد الكلامي بل شخص من يومه في جيش كثيف وسار إلى بلاد الروم، ففتح وغنم، واصطفى وأفاد، وخرّب وحرق (٣). واضطر نقفور أمام هذه الحشود الهائلة إلى طلب الهدنة فأجابه الرشيد إلى طلبه على أن يدفع له الجزية صاغراً (٤).

ونمضي بعد دراسة الجانب الحربي من علاقة الرشيد بالروم، إلى تناول الوجه الآخر من هذه العلاقة، وهو الجانب السلمي، وتستوقفنا في هذا الصدد رسالتان تعبران عن ملمحين مختلفين من ملامح هذا المنحى .

أولاهما رسالة بعث بها نقفور ملك الروم للرشيد يطلب إليه بلبين وملاطفة أن يهب له جارية من جواري هرقله (٥) كان قد خطبها لابنه وكان الرشيد قد سبها - فيمن سبى - عندما

(١) الطبري، تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٦٦٨ .

(٢) الطبري - تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٦٦٩، وانظر ابن الأثير - الكامل، ج ٥، ص ٣٣٣، وابن الجوزي - المنتظم، ج ٩، ص ١٣٨، ومجبول - العيون والحدائق، ج ٣، ص ٣٠٩-٣١٠، وابن كثير - البداية والنهاية، ج ٩، ص ٢٠٩، وأبو الفداء - المختصر في أخبار البشر، ج ٢، ص ١٧، والسيوطي - تاريخ الخلفاء، ص ١٩١، والقفقندي - صبح الأعشى، ج ١، ص ٢٢٢، ج ٦، ص ٤٤٦، مع اختلاف يسير في النص .

(٣) الطبري - تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٦٦٩ .

(٤) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٦٦٩، وابن الأثير - الكامل، ج ٥، ص ٣٣٤، وانظر د. محمد الدروبي - الرسائل الفنية في العصر العباسي، ص ١٩١ .

(٥) هرقله: من أشهر مدن الروم، غزاها الرشيد وافتتحها عنوة بعد حصار طويل ورمي بالنار والنفط حتى غلب أهلها وقد كان لفتحها صدى كبير في الشعر آنذاك، انظر الحموي - معجم البلدان، ج ٥، ص ٣٩٧-٣٩٨ "هرقله" وهي اليوم من مدن تركيا .

غزا هرقله سنة ١٩٠ هـ (١) .

والثانية رسالة محمد بن الليث على لسان الرشيد إلى قسطنطين السادس ملك الروم لعهدده يدعوها إلى الإسلام (٢) .

كانت صورة رسالة نقفور إلى الرشيد التي بعث بها مع بطريقين من عظماء بطارقة مملكته، كما رواها لنا الطبري: "لِعَبْدِ اللَّهِ هَارُونَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ نَقْفُورِ مَلِكِ الرُّومِ، سَلَامٌ عَلَيْكُمْ، أَمَا بَعْدُ أَيُّهَا الْمَلِكُ؛ فَإِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً لَا تَضُرُّكَ فِي دِينِكَ وَلَا دُنْيَاكَ، هَيْئَةً يَسِيرَةً أَنْ تَهَبَ لَابْنِي جَارِيَةً مِنْ بَنَاتِ أَهْلِ هِرَقْلَةَ، كُنْتُ قَدْ خَطَبْتُهَا عَلَى ابْنِي؛ فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تُسْعِفَنِي بِحَاجَتِي فَعَلْتُ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ" (٣) .

وواضح ما في هذه الرسالة من منطق اللين والمصانعة الذي اعتمد عليه نقفور في الوصول إلى بغيته، ومن يدقق النظر في ثناياها يرى أن نقفور قد تخلى عن نبرة التهديد الوعيد التي دوت في رسالته السالفة من مبدئها إلى منتهاها؛ فهو هنا يبدأ بذكر لقب هارون الرشيد "أمير المؤمنين" بعد أن نعتة في الرسالة الأولى بملك العرب، وهو لقب أوسع نطاقاً من الأول، ثم إننا نراه يخالف ما كان جرى عليه في رسالته الأولى من تقديم نفسه على الرشيد، إضافة إلى تصديرها بالسلم وختمها بتحية الإسلام كاملة (٤) .

وقد أجاب الرشيد نقفور إلى طلبه "فَأَمَرَ بِطَلَبِ الْجَارِيَةِ، فَأُخْضِرَتْ وَزَيَّنَتْ وَأُجْلِسَتْ عَلَى سَرِيرٍ فِي مَضْرِبِهِ الَّذِي كَانَ نَازِلًا فِيهِ، وَسَلَّمَتْ الْجَارِيَةَ وَالْمَضْرِبُ بِمَا فِيهِ مِنَ الْإِيَّةِ وَالْمَتَاعِ إِلَى رَسُولِ نَقْفُورٍ..." (٥) .

ونمضي بعد هذا الحديث إلى رسالة أبي الربيع محمد بن الليث التي تقف بنا على لون آخر من ألوان العلاقة السلمية بين الرشيد والروم .

قصد الرشيد في هذه الرسالة إلى مجادلة الروم بالتّي هي أحسن، ودعوتهم إلى الدخول

(١) الطبري - تاريخ الطبري ، ج ٤ ، ص ٦٧٧ .

(٢) طيفور - الفصول والرسائل ، ورقة ٥٠-٧٢ وانظر أحمد زكي صفوت - جبهة رسائل العرب ، ج ٣ ، ص ٢١٧-٢٧٤ وأحمد فريد الرفاعي - عصر العأمون ، ج ٢ ، ص ١٨٨-٢٣٦ وانظر محمد ماهر حمادة - الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر العباسي الأول ، ص ٢٠٤-٢٥٧ . وأسعد لطفي حسن - رسالة أبي الربيع محمد بن الليث إلى قسطنطين ملك الروم ، ص ١٩-١١٠ .

(٣) الطبري - تاريخ الطبري ، ج ٤ ، ص ٦٧٧ ، وانظر محمد ماهر حمادة - الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر العباسي الأول ، ص ٢٠٤ .

(٤) وانظر د. محمد الدروبي - الرسائل الفنية في العصر العباسي ، ص ٢٠٥ .

(٥) الطبري - تاريخ الطبري ، ج ٤ ، ص ٦٧٧ .

في الإسلام، ونبذ عقائدهم المنحرفة؛ ولذا فقد اختار لهذه المهمة فعلاً من فحول الكتاب هو الخطيب الفقيه أبو الربيع محمد بن الليث .

تمتد رسالة ابن الليث زهاء ستين صفحة من القطع المتوسط، عمد فيها إلى شرح مبادئ الإسلام وتعاليمه السمحة^(١)، ونراه في هذا المبحث يسهب في إثبات وحدانية الله تعالى بالأدلة المنقولة مقرونة بالأدلة المادية الملموسة مما لا يملك المرء إزاءه إلا أن يقر بأن الذي خلق هذا الكون وأبدعه على هذا النظام المتناسق إله واحد .

كما أفاض في الحديث عن دلائل صدق رسالة النبي - صلى الله عليه وسلم - مؤكداً صدق نبوته بالأدلة العقلية والنقلية من القرآن والتوراة والإنجيل^(٢) .

وتطول الوقفة بعد ذلك عند عقائد النصارى^(٣)، وهو في كل هذا يحاول نقض ما يردده الرهبان النصارى من أن عيسى - عليه السلام - ابن الله، وما يتناقلونه بينهم من نظرية الثالوث "الأب والابن والروح القدس" مؤكداً على بشرية المسيح - عليه السلام - ونبوته.

وتبدو لنا براعة الكاتب واضحة جلية في هذا المقام في استناده على نصوص من التوراة والإنجيل مما يعتقد النصارى صحته، مقيماً بذلك الحجة عليهم، تمهيداً لدعوتهم للدخول في الإسلام، وترك ما هم عليه من عقائد منحرفة^(٤).

ويختتم ابن الليث رسالته بدعوة النصارى دعوة صريحة إلى الدخول في الإسلام أو دفع الجزية، حتى يسود السلم بين الروم والمسلمين، يقول مخاطباً ملك الروم:

"... وإن أمير المؤمنين قد أحب أن ينصح لك، في أولي داريك بك، وأهم شأنيك لك، فدعاك إلى الإسلام، وأمرتك بالإيمان الذي به تدخل الجنة، وتتجو من النار، فإن قبلت، فحظك أصبت، ونفسك أحرزت، ولك ما للمسلمين وعليك ما عليهم، وإن رددت نصيحة أمير المؤمنين فيما فيه الحظ في آخرتك؛ فإن أمير المؤمنين ينصح لك فيما فيه الصلاح في عاجلتك: من إعطاء الجزية التي يحقن الله بها دماءكم ويحرم بها سبائككم، ويجعلها قواماً لمعاشيكم

(١) أحمد زكي صفوت - جمهرة رسائل العرب، ج ٣، ص ٢٢٢ - ٢٣١ .

(٢) أحمد زكي صفوت - جمهرة رسائل العرب، ج ٢، ص ٢٣١-٢٥٧، وانظر د. محمد الدروبي - الرسائل الفنية في العصر العباسي، ص ٢٠٦ .

(٣) أحمد زكي صفوت - جمهرة رسائل العرب، ج ٢، ص ٢٥٧-٢٦٨، وانظر د. محمد الدروبي - الرسائل الفنية في العصر العباسي، ص ٢٠٦ .

(٤) أحمد زكي صفوت - جمهرة رسائل العرب، ج ٣، ص ٢٦٨، وانظر د. محمد الدروبي - الرسائل الفنية في العصر العباسي، ص ٢٠٦-٢٠٧ .

وَصَرَحًا لِبِلَادِكُمْ وَتَوْفِيرًا لِأَمْوَالِكُمْ وَأَمْنَا لِجَنَابِكُمْ، وَسَعَةً لِسُرْبِكُمْ^(١)، وَبِرَكَّةٍ عَلَى فَقَرَائِكُمْ وَعَنْيَ لِأَهْلِ الْحَاجَةِ وَالْفَاقَةِ وَالْمَسْكِنَةِ مِنْكُمْ^(٢).

ثم يفرض في المكاسب التي سيحققها الروم جراء إعطاء المسلمين الجزية، وأن أمير المؤمنين لم يطلبها لحاجته إليها، وينهي ابن الليث رسالته قائلاً: "... أَمَا الْيَوْمَ إِذِ اسْتَبَانَ لَهُ غَدْرُكُمْ وَتَقْضُكُمْ وَنَكَتُكُمْ وَاسْتَحْقَافُكُمْ بِدِينِكُمْ وَجُرْأَتِكُمْ عَلَى رَبِّكُمْ، فَلَيْسَ بَيْنَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَبَيْنَكُمْ إِلَّا الْإِسْلَامُ أَوْ الْحَرْبُ الْمُجَلِّيَّةُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَلَا حَوْلَ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ وَبِهِ يَتَّقُ وَإِيَّاهُ يَسْتَعِينُ، وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهَدَى"^(٣).

وتبقى الرسالة بمضامينها المتعددة سجلاً حياً لمعارف المسلمين الدينية حول الأديان السماوية الأخرى وبخاصة الديانة النصرانية، وهي تمثل دفاعاً عن الإسلام وشريعته في مواجهة ما يثيره أهل الديانات الأخرى وأعداء الإسلام من شبه حوله^(٤).

وهي من الأهمية بمكان لأنها تميط اللثام عن مظهر من مظاهر العلاقات السلمية والثقافية بين المسلمين والروم، وهي بذلك مفخرة تضاف إلى جملة المفاخر التي حفل بها عصر الرشيد.

وبعد، أليس بمقدورنا - من خلال ما تم عرضه من رسائل - أن نتلمس سطوة الإسلام وعزّه، وعظمة الدولة في عهد الرشيد، ومنزلتها بين الأنظمة السياسية التي كانت تحكم العالم في ذلك الزمان؛ فقد كشفت لنا هذه الرسائل النقاب عن هيبة الإسلام والمسلمين ومنزلتهم في نظر أعدائهم وأصدقائهم وفي شتى الظروف والأحوال الحربية والسلمية.

ثانياً : شؤون الإدارة

نهضت الرسائل الديوانية في هذا العهد بدور فعال، إذ اعتمدت الدولة عليها في تصريف شؤون الأقاليم والولايات البعيدة عن مركز الخلافة في بغداد، والتي لا يتسنى للخليفة قصدها دائماً لتنفيذ السياسات الإدارية فيها، ومن هنا فقد تعددت الرسائل الإدارية بتعدد الموضوعات التي عالجتها. ومن الجدير بالذكر أن ما وصل إلينا من الرسائل الإدارية يعد قليلاً إزاء ما هو متوقع منها، ويبدو أن الكم الأكبر من هذه الرسائل قد ضاع وطوته يد النسيان، وربما أحجم المؤرخون عن تدوينه.

(١) الشرب : الطريق ، انظر ابن منظور - لسان العرب ، مادة شرب .

(٢) أحمد زكي صفوت - جمهرة رسائل العرب ، ج ٣ ، ص ٢٦٨ .

(٣) المصدر نفسه، ج ٣ ، ص ٢٧٤ .

(٤) د. شوقي ضيف - العصر العباسي الأول ، ص ٤٧٨ .

ولعل من أهم الموضوعات الإدارية التي عالجها فن الرسائل الديوانية في هذا العهد ما يلي:

أ- التعيين والتولية:

كان من مقتضيات الإدارة أن يحرر عهد لكل من وقع الاختيار عليه لتولي منصب من المناصب العليا في الدولة، كالوزارة ورئاسة الدواوين وولاية الأمصار والقضاء وغيرها .

ومن عهود التولية والتعيين عهد الرشيد لقائده هرثمة بن أعين حين ولاه خراسان، وقد كتبه الرشيد بخط يده كما يظهر في ختام هذا العهد^(١) .

تنقسم رسالة الرشيد إلى هرثمة إلى ثلاثة محاور، يذكر في المحور الأول اسم العاهد وهو الخليفة هارون الرشيد واسم المعهود إليه وهو هرثمة بن أعين ثم يشير إلى اسم البلد المخصوص بالولاية، يقول الرشيد: "هَذَا مَا عَهَدَ هَارُونُ الرَّشِيدُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى هَرْتَمَةَ بْنِ أَعِينٍ حِينَ وَّلاَهُ تُغَرَ خَرَّاسَانَ وَأَعْمَالَهُ وَخَرَّاجَةَ"^(٢) .

أما المحور الثاني فيمثل جوهر الرسالة، وفيه يضع الرشيد أوامره ووصاياها بين يدي واليه الجديد، ويرسم له السياسة التي يسير عليها في منصبه الذي اختاره له. فيوصيه بتقوى الله وطاعته، وأن يستشعر مخافة الله في سائر أمره، ويمتثل القرآن الكريم ويتخذه إماماً في جميع ما هو بسبيله؛ فيعمل بما أمر الله به وينتهي عما نهى عنه .

ولا يغفل الرشيد دور العلماء والفقهاء، فيأمر واليه بأن يعود إليهم ويستتير برأيهم فيما أشكل عليه من متشابه كتاب الله؛ فإن لم يسعفه بما سألهم عنه فإنه يأمره أن يبعث به إليه لينظر فيه، يقول الرشيد: "... أَمْرَهُ بِتَقْوَى اللَّهِ وَطَاعَتِهِ وَرِعَايَةِ أَمْرِ اللَّهِ وَمُرَاقَبَتِهِ، وَأَنْ يَجْعَلَ كِتَابَ اللَّهِ إِمَاماً فِي جَمِيعِ مَا هُوَ بِسَبِيلِهِ، فَيَجْلُ حَلَالَهُ وَيُحَرِّمُ حَرَامَهُ وَيَقِفُ عِنْدَ مُتَشَابِهِهِ وَيَسْأَلُ عَنْهُ أَوْلِي النَّقَةِ فِي دِينِ اللَّهِ وَأَوْلِي الْعِلْمِ بِكِتَابِ اللَّهِ، أَوْ يَرُدُّهُ إِلَى إِمَامِهِ لِيَرِيَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ رَأْيَهُ وَيَعَزِّمُ لَهُ عَلَى رُشْدِهِ"^(٣) .

وينتقل الرشيد إلى صلب الرسالة، ويركز على المهمة التكليفية التي أوفد هرثمة من أجلها؛ فيطلب إليه بادئ ذي بدء أن يستوثق من واليه الخائن علي بن عيسى بن ماهان ومن "وَلَدِهِ وَعُمَالِهِ وَكُتَابِهِ، وَأَنْ يَمُدَّ عَلَيْهِمْ وَطْأَتَهُ وَيَحْلُ بِهَمْ سَطْوَتَهُ"^(٤)، ثم يتوجه إليه بأن يُخْلِصَ

(١) الطبري - تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٦ .

(٢) المصدر نفسه، ج ٥، ص ٥ .

(٣) المصدر نفسه، ج ٥، ص ٥ .

(٤) الطبري - تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٥ .

مِنْهُمْ مَا اغْتَصَبُوهُ " مِنْ خَرَّاجِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَقِيءِ الْمُسْلِمِينَ" ^(١)، فإذا تسنى له أن يقبض على ما نهيه ابن ماهان وصحبه "نَظَرَ فِي حُقُوقِ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُعَاهِدِينَ" ^(٢)؛ فإن أنكروا هذه الحقوق فإنه يسوغ لهرثمة أن يسومهم سوء العذاب حتى يعيد الحقوق إلى أصحابها رغماً عن ابن ماهان وحاشيته؛ فإذا ما استوفى هرثمة هذه الحقوق فإنه يأمره أن يشخصهم إلى بغداد "كَمَا تُشْخَصُ الْعَصَاةُ مِنْ خُسُونَةِ الْوِطَاءِ وَخُسُونَةِ الْمَطْعَمِ وَالْمَشْرَبِ وَغِلْظِ الْمَلْبَسِ" ^(٣) . ^(٤)

ويوجه الرشيد واليه الجديد إلى عمال الكور الخاضعة لولايته، فيوصيه بأن يهذئ من روعهم ويؤمّن فرعهم ويتسّط من آمالهم ^(٥) .

وتنتهي الرسالة بالمحور الثالث الذي يؤكد ما جاء في المحور الثاني من توجيهات مشدداً على وجوب الأخذ بها واحتدائها، ويبدو ذلك من قول الرشيد في نهاية عهده: "قَاعَمَلْ - أَبَا حَاتِمٍ - بِمَا عَهَدْتُ إِلَيْكَ، فَإِنِّي أَتَرْتُ اللَّهَ وَدَيْنِي عَلَى هَوَايَ وَإِرَادَتِي، فَكَذَلِكَ فَلْيَكُنْ عَمَلُكَ وَعَلَيْهِ فَلْيَكُنْ أَمْرُكَ" ^(٦) . ثم يختم العهد بأخذ الموائيق على الوالي بأن يحسن القيام بما ولاه وأن يكون عند حسن ظن خليفته به ^(٧) .

ب- العزل:

إذا كان التعيين يقتضي تثبيت الموظف في وظيفته فإن العزل يقف في الواجهة المقابلة، ويتضمن تنحيته وإقصاءه عن منصبه، وهذا يعني أن كل رسالة تعيين تقابلها رسالة عزل؛ لأن عزل أحد الولاة يستوجب تعيين والٍ آخر مكانه .

ولكن ليس بين أدينا من رسائل العزل التي يتصل خبرها بهذا العهد إلا رسالتان: رسالة الرشيد إلى عامله على خراسان علي بن عيسى بن ماهان التي يعزله فيها ويولي هرثمة بن أعين مكانه ^(٨)، ورسالة يحيى بن خالد إلى ابنه الفضل التي يطلب إليه فيها أن ينقل الخاتم إلى أخيه

(١) المصدر نفسه، ج ٥، ص ٥ .

(٢) المصدر نفسه، ج ٥، ص ٥ .

(٣) المصدر نفسه، ج ٥، ص ٦ .

(٤) وانظر د. محمد الدوري، ص ١٢٦ .

(٥) الطبري - تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٦ .

(٦) المصدر نفسه، ج ٥، ص ٦ .

(٧) المصدر نفسه، ج ٥، ص ٦ .

(٨) الطبري - تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٥، وأحمد زكي صفوت - انظر جمهرة رسائل العرب، ج ٣،

ص ٢٧٧ ومحمد ماهر حمادة - الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر العباسي الأول، ص ٢٦٠-٢٦١ .

بدأ الرشيد رسالته إلى عامله على خراسان بلهجة توبيخية تقريرية تظهر سخط الخليفة على عامله الذي ظلم الرعية وعاث في الأرض فساداً حتى كثرت الشكايات منه، ومما يدل على غضب الرشيد أنه استهل هذه الرسالة بالشم والسباب متجاهلاً ديباجة الرسالة التقليدية (١)، يقول الرشيد مخاطباً عامله بعد البسملة: "يَا ابْنَ الزَّانِيَةِ! رَفَعْتَ مِنْ قَدْرِكَ وَنَوَّهْتَ بِاسْمِكَ، وَأَوْطَأْتَ سَادَةَ الْعَرَبِ عَيْبِكَ، وَجَعَلْتَ أَبْنَاءَ مَلُوكِ الْعَجَمِ خَوْلَكَ (٢) وَأَتْبَاعَكَ، فَكَانَ جَزَائِي أَنْ خَالَفْتَ عَهْدِي، وَتَبَدَّدْتَ وَرَاءَ ظَهْرِكَ أَمْرِي حَتَّى عَثْتُ فِي الْأَرْضِ وَظَلَمْتَ الرِّعِيَّةَ وَأَسْخَطْتَ اللَّهَ وَخَلِيفَتَهُ بِسُوءِ سَيْرَتِكَ وَرَدَاءَةِ طُعْمَتِكَ (٤) وَظَاهِرِ خِيَانَتِكَ" (٥).

ويتابع الرشيد لهجته العنيفة، فيعلن تنصيب مولاه هرثمة بن أعين مكان ابن ماهان، ويفوضه بالقبض على ابن ماهان وأعوانه ومصادرة أملاكهم، وقد مر بنا من قريب كيف أمر الرشيد مولاه هرثمة أن يصب عليه صنوف العذاب الأليم إذا رفض إعادة الحقوق إلى أصحابها، ونراه يكرر هذا الأمر هنا حيث يقول مخاطباً ابن ماهان: "... فَإِنْ أَبَيْتَ ذَلِكَ وَأَبَاهُ وَذَلِكَ وَعَمَّا لَكَ فَلَهُ أَنْ يَنْسُطَ عَلَيْكُمْ الْعَذَابَ وَيَصُبَّ عَلَيْكُمْ السَّيَاطَ وَيَحُلَّ بِكُمْ مَا يَجُلُّ بِمَنْ نَكَثَ وَعَیَّرَ وَيَدَلَّ وَخَالَفَ وَظَلَمَ وَتَعَدَّى وَغَشَمَ انْتِقَاماً لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بَادِيًا، وَلِخَلِيفَتِهِ ثَانِيًا، وَلِلْمُسْلِمِينَ وَالْمُعَاهِدِينَ ثَالِثًا" (٦).

وعلى العكس من رسالة الرشيد إلى عامله على خراسان نجد رسالة يحيى البرمكي إلى ابنه الفضل تتبض بالرفقة واللين دون إظهار لسخط العازل وغضبه على المعزول، حتى أنه لا يذكر لفظ العزل حرصاً على مشاعر ولده وكرامته، يقول يحيى في كتابه: "قَدْ أَمَرَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ - أَعْلَى اللَّهِ أَمْرًا - أَنْ تَحُولَ الْخَاتَمُ مِنْ يَمِينِكَ إِلَى شِمَالِكَ" (٧) ويعلن الفضل رضاه وإذعانه لما أمر به الخليفة فيجيب أباه قائلاً: "قَدْ سَمِعْتُ لِمَا أَمَرَ بِهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فِي أَخِي، وَمَا

(١) الحصري - زهر الآداب، ج ٢، ص ٤١٩، وانظر ابن الطقطقي - الفخري، ص ٢٠٥، والجاجرني - نكت

الوزراء، ص ٣٣، والجهشياري - الوزراء والكتاب، ص ٢٠٧، والبيهقي - المحاسن والمساوي، ص ٤٤٣.

(٢) د. محمد الدروبي - الرسائل الفنية في العصر العباسي الأول حتى نهاية القرن الثالث الهجري، ص ١٢٢.

(٣) خولك: أنني حاشيتك، انظر ابن منظور - لسان العرب، مادة خول.

(٤) طعمتك: أي وجه مكسبك، انظر المصدر نفسه، مادة طعم.

(٥) الطبري - تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٥.

(٦) الطبري - تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٥.

(٧) الحصري - زهر الآداب، ج ٢، ص ٤١٩، وانظر ابن الطقطقي - الفخري، ص ٢٠٥.

انْقَلَبَتْ عَنِّي نِعْمَةٌ صَارَتْ إِلَيْهِ وَلَا غَرَبْتُ عَنِّي رُتْبَةٌ طَلَعَتْ عَلَيْهِ" (١) .

نستطيع من خلال الرسالتين السابقتين أن نتبين نبرتين تعامل بهما العازل مع المعزول، النبرة الأولى تبدت لنا في رسالة الرشيد التي عزل بها عامله على خراسان، وهي نبرة مشحونة بعبارات العنف والشدّة، والنبرة الثانية انعكست في رسالة يحيى إلى ولده الفضل وهي نبرة تفيض بعبارات اللطف واللين .

ج الاستغفاء:

وهو طلب الإغفاء من عمل ما، ويختلف عن العزل في أنه يكون بطلب من المستعفي وعن طيب نفس منه في حين يكون العزل بأمر من العازل وهو الخليفة أو من ينوب منابه، ولم أعثر فيما وقع بين يدي من المصادر إلا على رسالة واحدة تعالج هذا الموضوع وهي رسالة بعث بها جعفر بن محمد بن الأشعث (٢) إلى يحيى البرمكي يستعفيه من عمل أسنده إليه .

ويحاول ابن الأشعث أن يدمج الشكر بالطلب، فيتطلف ويطلب إلى يحيى أن يعفيه من هذا العمل معللاً ذلك بقوله: "... فَأَمَّا عُذْرِي فِي تَطْوِيلِ الْكِتَابِ إِلَيْكَ فَلَمْ يَذْهَبْ، عَلَى أَنْ وُجُوهَ الْحَوَائِجِ قَدْ يَكْتَرُ الْكَلَامُ فِيهَا وَتَسْتَدُّ قِرَاءَتُهَا وَإِنَّ مِنَ الْحَقِّ عَلَى الرَّأْغِبِ الْإِكْتِفَاءَ بِبَعْضِ مَا بَلَغَ، وَإِنَّ نَفْسِي جَاشَتْ بِعَظِيمِ حَاجَتِهَا" (٣) .

ويبدو لنا في النص السابق عزة نفس ابن الأشعث وقناعته بما لديه وترفعه عن هذا العمل الذي أسنده إليه يحيى البرمكي .

د - العطاء:

حفظت لنا مصادر التراث رسالة واحدة بعث بها الرشيد إلى عمال الأمصار في شأن عطاء طوائف من المتعلمين، وتتبع أهمية هذا الرسالة من كونها تدلنا على مدى عناية الرشيد

(١) ابن الطقطقي - الفخري، ص ٢٠٥، وانظر الحصري - زهر الآداب، ج ٢، ص ٤١٩، مع اختلاف يسير في اللفظ .

(٢) جعفر بن محمد بن الأشعث: من الرجال الكفاة، ولاء الرشيد ديوان الخاتم ثم ولاء خراسان ولم يلبث أن صرفه عنها سنة ١٧٣هـ، ليوليه الحريس، جعل الرشيد ابنه الأمين في حجره، كان صديقاً للبرامكة ثم تحولوا عنه وجأهروا بعداوتة . انظر الحيشياري - الوزراء والكتاب، ص ١٧٩، ١٩٣، وابن تغري بردي - النجوم الزاهرة، ج ٢، ص ٩١، والأصفهاني - مقاتل الطالبين، ص ٥٠١ وخليفة بن خياط - تاريخ خليفة بن خياط، ص ٤٦٥ .

(٣) العسكري - الصنائع، ص ٣٣٨ .

بالإنفاق على أهل العلم، كما يمدنا بمقادير عطائهم في زمنه كل بحسب منزلته التي بلغها.

وقد تدرج الرشيد في تحديد نصيب كل طائفة من هذه الطوائف معتمداً على التمايز العلمي بينها^(١)، وتقسّم الرسالة هذه الطوائف إلى ثلاث فئات:

تبدأ الرسالة بتحديد عطاء الفئة الأولى وهم المؤذنون، حيث يجعل الرشيد عطاء الواحد منهم ألف دينار، أما الفئة الثانية التي تحدد الرسالة مقدار أعطياتها فهم من حفظ القرآن، وواظب على حضور مجالس العلم، ويفرض الرشيد لكل واحد منهم ألفي دينار من العطاء .

أما الفئة الثالثة فهم العلماء الذين بلغوا أعلى مراتب العلم وتعمقوا في علوم القرآن والحديث وتبحروا فيها، وتقف هذه الطائفة على قمة هرم العطاء، إذ يأمر الرشيد لكل فرد منهم بأربعة آلاف دينار، يقول الرشيد في رسالته إلى عماله: "أَمَّا بَعْدُ: فَانظُرُوا مَنْ التَّرَمَّ الْأَذَانِ عِنْدَكُمْ فَاكْتُبُوهُ فِي أَلْفٍ مِنَ الْعَطَاءِ، وَمَنْ جَمَعَ الْقُرْآنَ وَأَقْبَلَ عَلَى طَلْبِ الْعِلْمِ وَعَمَرَ مَجَالِسَ الْعِلْمِ وَمَقَاعِدَ الْأَدَبِ فَاكْتُبُوهُ فِي أَلْفِي دِينَارٍ مِنَ الْعَطَاءِ، وَمَنْ جَمَعَ الْقُرْآنَ وَرَوَى الْحَدِيثَ وَتَفَقَّهَ فِي الْعِلْمِ وَاسْتَبْحَرَ فَاكْتُبُوهُ فِي أَرْبَعَةِ أَلْفٍ دِينَارٍ مِنَ الْعَطَاءِ ..."^(٢) .

ويبدو من هذه الرسالة أن الرشيد كان يجل العلماء ويحترمهم ويعرف لهم قدرهم وحقهم؛ إذ يأمر عماله بالأخذ بأرائهم في امتحان الطوائف الثلاث التي عينت الرسالة نصيب كل واحدة منها لأنهم - في رأيه - أقدر على تبيين مراتب أهل كل طائفة من الطوائف الأنفة حتى تنضبط أمور العطاء، وتأخذ كل طائفة ما تستحق^(٣).

ويشدد الرشيد على وجوب الأخذ برأي العلماء مؤكداً أن طاعتهم من طاعة الله عز وجل ورسوله - صلى الله عليه وسلم -، كما قررت الآية الكريمة في قوله تعالى: "وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ"^(٤)، يقول الرشيد: "... وَلَيَكُنْ ذَلِكَ بِامْتِحَانِ الرِّجَالِ السَّابِقِينَ لِهَذَا الْأَمْرِ مِنَ الْمُعْرُوفِينَ بِهِ مِنْ عُلَمَاءِ عَصْرِكُمْ، وَفَضْلَاءِ ذَهْرِكُمْ، فَاسْمَعُوا قَوْلَهُمْ وَأَطِيعُوا أَمْرَهُمْ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: "وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ"، وَهُمْ أَهْلُ الْعِلْمِ"^(٥) .

(١) وانظر د. محمد الدروبي - الرسائل الفنية في العصر العباسي، ص ١٠٤ .

(٢) ابن قتيبة - الإمامة والسياسة، ج ١، ص ١٨٨، وانظر محمد ماهر حمادة - الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر العباسي الأول، ص ٢٥٨-٢٥٩ .

(٣) انظر د. محمد الدروبي - الرسائل الفنية في العصر العباسي، ص ١٠٤ .

(٤) من الآية ٥٩ من سورة النساء .

(٥) ابن قتيبة - الإمامة والسياسة، ج ١، ص ١٨٨ .

وقد نص الرشيد صراحة في ختام رسالته على أن المقصود بـ "أولي الأمر" أهل العلم وليسوا الحكام كما قد يتبادر إلى الذهن، وهي نظرة لها أهميتها وتدل على بُعد نظر كان يتحلى به الرشيد.

هـ- القضاء:

ثمة رسالة وجهها الرشيد إلى قاضيه على اليمن هشام بن يوسف الأنباوي^(١) يكلفه فيها ببعض الإجراءات التي تتعلق بأهل الذمة من اليهود والنصارى وغيرهم من الطوائف الدينية التي تعيش بين ظهراني المسلمين قبله، والتي من شأنها إظهار الصبغة الإسلامية في صنعاء.

ويبدو أنه نظراً لتسامح الإسلام تجاه هؤلاء، علا شأنهم ودخلوا في صفوف المجتمع الإسلامي واختلطوا بأفراده، فأراد الرشيد أن يضبط أمرهم حتى لا يستفحل كثيراً، فبعث إلى قاضيه في صنعاء بهذه الرسالة التي تحمل في طياتها سلسلة من الضوابط الشكلية التي تميز أهل الذمة بوصفهم طبقة مميزة من طبقات المجتمع، كما تضم في ثناياها العقاب الرادع لأصحاب الملاهي من المغنين والمغنيات الذين استشرى خطرهم، فأفسدوا الناس وصرفوهم عن ذكر الله عز وجل.

يستهل الكاتب رسالته بمقدمة موطئة يحاول من خلالها الولوج في الغرض الذي أنشئت من أجله؛ فنراه منذ البداية يقدم بالحديث عن دور أمير المؤمنين وواجبه تجاه الإسلام وأهله من "تَعَهُدِهِمْ، وَتَقَدُّدِ أُمُورِهِمْ وَتَبَصُّرِهِمْ وَرَشْدِهِمْ وَسَعَادَتِهِمْ وَخُطُوطِهِمْ وَحَمَلِهِ إِيَّاهُمْ عَلَى طَاعَةِ رَبِّهِمْ وَمَا يَرْضِيهِ عَنْهُمْ، وَتَأْدِيَةِ حَقِّ اللَّهِ عَلَيْهِمْ فِيهِمْ، وَالنَّظَرِ فِيمَا يُصْلِحُ اللَّهُ بِهِ حَالَهُمْ وَيُبَيِّمُ بِهِ النِّعْمَةَ عَلَيْهِمْ وَيَدْفَعُ بِهِ الْمَكْرُوهَ عَنْهُمْ"^(٢). ويلح الكاتب على التميز الذي يظهر به أهل الإسلام على أهل الكفر، ومن هذا المنطلق "فَلَيْسَ لِأَهْلِ الْكُفْرِ بِاللَّهِ وَالشَّرْكَ بِهِ أَنْ يَزَيَّنُوا بِزِينَةِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ وَلَا يَنْسَبُوا بِهِمْ فِي مَلَابِسِهِمْ. وَمَرَآكِبِهِمْ وَلَا يُجَامِعُوهُمْ فِي الْأُمُورِ الَّتِي فَرَّقَ اللَّهُ فِيهَا بَيْنَهُمْ"^(٣).

ثم يؤكد الكاتب حرص الخليفة على الحقيقة الفاتنة، فيعرض طائفة من الإجراءات التي من شأنها إبراز فضل المسلمين على غيرهم من أهل الأديان المخالفة للإسلام، ويستغرق هذا

(١) هشام بن يوسف بن النعمان بن فيروزويه، قاضي صنعاء، ولاء حماد البربري والي الرشيد على اليمن قضاء صنعاء، توفي ١٩٧هـ. انظر الهمداني - صفة جزيرة العرب، ص ٨٣، وانظر د. محمد ماهر حمادة - الوثائق السياسية والإدارية العائدة للجزيرة العربية خلال العصور الإسلامية المتتابعة، ص ٢١٤.

(٢) محمد ماهر حمادة - الوثائق السياسية والإدارية العائدة للجزيرة العربية، ص ٢١٤-٢١٥.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢١٥.

الأمر منه الشطر الأكبر من الرسالة.

وتقتصر هذه الإجراءات على ثلاث طوائف من أهل الذمة: النصارى واليهود والمجوس، وفيما يتعلق بالنصارى، يأمر الرشيد قاضيه أن يمنعهم من لبس الأقبية ويحملهم على جز النواصي والتمنطق بالزنانير الخاصة، وينهاهم عن امتطاء مراكبهم على الصورة التي يركب عليها أهل الإسلام .

وأما اليهود والمجوس، فيطلب الرشيد إلى قاضيه حملهم على عقد العمائر وأن تتزيا كل طائفة دينية منهما بزيتها الخاص بها؛ يقول الرشيد في رسالته: " وَلَمْ يَزَلْ أُمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ حَرِيصًا عَلَى تَمَيُّزِ ذَلِكَ وَتَفْضِيلِ مَا فَضَّلَ اللَّهُ مِنْهُمْ حَتَّى يُعْرَفَ الْمُسْلِمُونَ بِسَيِّمَاتِهِمْ وَالْمُشْرِكُونَ بِزِيَّتِهِمْ، مُتَابِعًا الْكُتُبَ إِلَى عَمَّالِهِ فِي أَمْرِهِمْ أَلَّا يُدِيمُوا نَصْرَانِيًّا يَنْشَبُهُ بِالْمُسْلِمِينَ فِي زِيَّتِهِمْ وَلَا يَرْكَبُوا عَلَى سُرُوجِهِمْ، وَأَنْ يَمْنَعُوهُمْ مِنْ لُبْسِ الْأَقْبِيَةِ وَيَأْخُذُوهُمْ بِجَزِّ النَّوَاصِي وَعَقْدِ الزَّنَانِيرِ، وَأَنْ يَحْمِلُوا الْيَهُودَ عَلَى عَقْدِ الْعَمَائِرِ وَأَهْلَ كُلِّ دِينٍ عَلَى زِيَّتِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِ [فَد] إِنَّهُ مَنْ قَبِلَكَ مِنْ أَهْلِ الْأَدْيَانِ الْمُخَالَفَةِ لِلْإِسْلَامِ عَنِ الشَّبْهِ بِالْمُسْلِمِينَ وَزِيَّتِهِمْ وَخَذَهُمْ فِي ذَلِكَ أَشَدَّ الْأَخْذِ حَتَّى يَلْبَسَ كُلُّ قَوْمٍ لِبَاسَهُمْ وَيَتَزَيَّوْا بِزِيَّتِهِمْ وَيَعْقِدَ أَهْلُ الْعَلَانِيَةِ الزَّنَانِيرَ وَيَجْزُوا النَّوَاصِي وَلَا يَرْكَبُوا بِمِثْلِ سُورُجِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ، وَيَعْقِدَ أَهْلُ الْمَجُوسِيَّةِ الْعَمَائِرَ وَيَلْبَسُوا لِبَاسَهُمْ" (١).

ويبدو أن الرشيد لم يكن يقصد بهذه الإجراءات التضييق على أهل الذمة وتقييد حركتهم واضطهادهم، وبالتالي حملهم على الدخول في الإسلام رغماً عنهم، وإنما كان يرمي إلى إظهار السمات الإسلامي في صنعاء، وإسباغ شيء من التنظيم على الناس الذين يحيون على أرضها (٢).

وهناك جانب إجرائي آخر تضمنته الرسالة يتعلق بالمغنين والمغنيات واصحاب الملاهي، إذ يأمر قاضيه أولاً بأخذهم بالشدّة وزجرهم وتخويفهم وترهيبهم وتأنيبهم ثم يأمره بتبرغيهم وإرشادهم بالحسنى وذلك ببيان حقوق الله - عز وجل - وخليفته عليهم (٣). وقد جاء هذا الإجراء التأديبي بحق هؤلاء "لإفسادهم الناسَ وَمَنْعِهِمْ إِيَّاهُمْ بِمَلَاهِينِهِمْ وَتَنْبِيْطِهِمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَا فِيهِ صَلَاحُهُمْ وَبَقَاءُ نِعَمِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ" (٤).

ويظهر من هذه الرسالة أن المغنين والمغنيات كانوا يؤلفون طبقة لها أثرها في المجتمع؛

(١) المصدر نفسه، ص ٢١٥-٢١٦.

(٢) وانظر د. محمد الدروبي - الرسائل الفنية في العصر العباسي، ص ٢٠.

(٣) محمد ماهر حمادة - الوثائق السياسية والإدارية العائدة للجزيرة العربية، ص ٢١٥-٢١٦.

(٤) المصدر نفسه، ص ٢١٥.

فقد شغلوا الناس بغنائهم حتى ألهمهم عن ذكر الله عز وجل، وهذا ما حدا بالرشيد إلى اتخاذ ما من شأنه ردع هؤلاء والرجوع بهم إلى جادة الصواب .

ويشدد الرشيد في ختام الرسالة على تنفيذ ما جاء فيها من تعليمات والتأكد من امتثال المعنيين بها لها، ويلوح بالعقوبة لكل من تسول له نفسه العودة لشيء مما نهى عنه أمير المؤمنين .

وفي النهاية يحذر الرشيد قاضيه من التعصب الديني الأعمى أو التهاون في تطبيق التعليمات السالفة، وهذا يؤكد ما ذهبت إليه آنفاً من أن الرشيد لم يقصد بهذه الإجراءات التصييق على أهل الذمة أو تقييد حركتهم، وإنما كانت الغاية تنظيمية بحثية، يقول الرشيد مخاطباً قاضيه: "... وَإِيَّاكَ أَنْ يَبْلُغَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فِي ذَلِكَ تَعَصُّبٌ أَوْ مُرَاهَنَةٌ أَوْ تَرْخِيصٌ لِأَحَدٍ فِي شَيْءٍ مِمَّا نَهَضَ عَنْهُ، وَكُنْ فِيهِ عِنْدَ أَحْسَنِ مَا ظَنَّ بِكَ، وَرَجَا مِنْ كِفَايَتِكَ وَمُبَالَغَتِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ" (١) .

و- الخراج:

يعد الخراج من أهم موارد بيت المال، وقد أدرك الرشيد هذه الحقيقة، فقام بمحاولات جادة لإصلاح طرق جبايته، فكتب إلى قاضي قضائه أبي يوسف (٢) رسالة ضمنها أسئلة وطلب منه أن يجيب عليها، فقام أبو يوسف بالإجابة عليها في رسالة عظيمة الشأن سميت بكتاب الخراج.

وقد أراد الرشيد لهذا الكتاب أن يكون مرجعاً لكل الولاة والعمال في عهده والعهود التالية حتى تنتظم جباية الخراج وغيره من موارد بيت المال. وفعلاً نجح الرشيد في ذلك، ففاضت الأموال من شتى الولايات والأمصار لتملأ بيت المال في بغداد، ويروى عن الرشيد أنه رأى يوماً سحابة تمشي فقال لها: "أذهبي حيث شئت يأتيني خراجك" (٣) .

(١) المصدر نفسه ، ص ٢١٦ .

(٢) يعقوب بن إبراهيم بن حبيب بن سعد الأنصاري الكوفي ، صاحب الإمام أبي حنيفة وتلميذه وأول من نشر مذهبه ، ولي القضاء ببغداد أيام المهدي والهادي والرشيد ، وهو أول من دُعي قاضي القضاء ، كان عالماً بالتفسير والمغازي وأيام العرب ، له تصانيف كثيرة أشهرها كتاب الخراج ، توفي سنة ١٨٢ هـ . انظر وكيع - أخبار القضاء ، ج ٣ ، ص ٢٥٤-٢٦٤ ، وابن كثير - البداية والنهاية ، ج ٩ ، ص ١٩٤-١٩٦ ، وابن العماد - شذرات الذهب ، ج ٢ ، ص ٣٦٧-٣٧١ .

(٣) القلقشندي - صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٢٧١ .

وقد احتفظ لنا الجهشياري بقائمة قدمها صاحب ديوان الأزيمة في عهد الرشيد إلى يحيى البرمكي الوزير يصف فيها ما حُمِلَ في إحدى السنين إلى بيت المال من نقد وعروض (١).

وعلى الرغم من سعي الرشيد وعمله الجاد لضبط جباية الخراج فقد كان هناك من اعتاد المماطلة في دفع ما استحق عليه من خراج، فكان الولاة ينتهجون سياسة الحزم والإجبار تجاه هؤلاء، لدفع ما يلزمهم دفعه، وقد حدث أن بعض المصريين درج على مظل الخراج فما كان من الوالي عمر بن مهران إلا أن دعاهم جميعاً وطالب أحدهم وأمره بأداء ما عليه من خراج، فاعتذر، فألح عليه بالدفع، فماطل وسوّف وقصّر عن الدفع؛ فأقسم عمر الا يؤدي هذا الرجل خراجه إلا في بيت المال في بغداد؛ فأراد الرجل أن يدفع ما عليه في مصر؛ فأبى عمر وقال له: لا أحنث بيمينتي، وأشخصه مع رجلين من جنده إلى بغداد، وكتب معهما رسالة إلى الرشيد يخبره بالأمر ويقول: "إني دَعَوْتُ بفلان بن فلان وطالبته بما عليّ من الخراج فلواتني (١) واستنظرتني (٢) فأنظرتُهُ ثُمَّ دَعَوْتُهُ، فدافعَ ومالَ إلى الإلطاط (٤)، فألّيتُ ألا يؤدّيته إلا في بيتِ المالِ بِمَدِينَةِ السّلامِ، وَجَمَلْتُهُ مَا عَلَيْهِ كَذَا وَكَذَا، وَقَدْ أَنْفَذْتُهُ مَعَ فُلانِ بْنِ فُلانِ وَفُلانِ بْنِ فُلانِ مِنْ جُنْدِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ قِيَادَةِ فُلانِ بْنِ فُلانِ؛ فَإِنْ رَأَى أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَكْتُبَ إِلَيَّ بِوُصُولِهِ فَعَلَّ أَنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى" (٥).

وإزاء هذا الإجراء التأديبي لم يجرو أحد من المصريين على مظل الخراج وكسره؛ فقد عرف عمر بن مهران كيف يجبرهم على دفع ما عليهم من الخراج ويبدو من أحاديث المؤرخين أن الخراج المصري كان يشكل معضلة في كل سنة (٦)، إذ يذكر بعضهم أن الناس لما رأوا ما فعله عمر بصاحبهم سارعوا لأداء ما عليهم من الخراج في مواعيده، يقول الجهشياري واصفاً حال المصريين عندما رأوا ما فعله عمر بأخيهم: "فخاف الناس جميعاً منه مثل ذلك وسارعوا إلى الأداء، فلم ينكسر له ولا تخلف دبرهم واحداً" (٧).

وأغلق عمر خراج مصر كاملاً فقيل: لم يقدر أحد من الولاة على غلق مال مصر كاملاً غيره (٨).

(١) الجهشياري - الوزراء والكتاب، ص ٢٨١-٢٨٨.

(٢) لوى: ماطل في أداء ما عليه، انظر ابن منظور - لسان العرب، مادة "لوي".

(٣) استنظرتني: أي طلب تأخير ما عليه، انظر المصدر نفسه، مادة "نظر".

(٤) الإلطاط: الجحد، انظر المصدر نفسه، مادة "لظط".

(٥) الطبري - تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٦٣٤.

(٦) وانظر د. محمد الدروبي - الرسائل الفنية في العصر العباسي، ص ١١٠-١١١.

(٧) الجهشياري - الوزراء والكتاب، ص ٢٢٠.

(٨) الطبري - تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٦٣٤-٦٣٥.

ثالثاً : التوقيعات:

ينطوي التوقيع في اللغة على عدة معانٍ (١)، جلُّها يمت إلى المعنى الاصطلاحي بصلة فمن معانيه اللغوية خفة التأثير، يقال: جنب هذه الناقة مَوْع، أي أن فيها تأثيراً خفيفاً من الحبال التي تُشدُّ عليها، ومن معانيه: الإصابة تقول: وَقَعَ الرامي إذا رمى من قريب فلم يحظى تريد أنه أصاب من أقرب الطرق، وقالت العرب: وَقَعَ الصَّيْقَلُ السيفَ إذا أُقبل عليه بميقته يجلوه، ووقع الأمر إذا لزم وَحَقَّ ووجب .

وواضح ما بين هذه المعاني اللغوية والمعنى الاصطلاحي للتوقيع من صلة وثيقة؛ فالتوقيع في أسفل الرسالة تأثير خفيف إلى جانب ما كُتِبَ فيها من عبارات، وهو إلى جانب ذلك يترك أثراً يتفاوت في طبيعته عند صاحب الرسالة الموقع عليها، إضافة إلى أن الموقع يتوخى الإصابة وسداد الرأي في توقيعه على ما يُرفع إليه من رسائل من أقرب الطرق، كما أن التوقيع على الرسالة يجلو ما فيها من لبس بالإرشاد إلى ما يُعتمد منها كما أنه يجعلها نافذة ما فيه .

وأما التوقيع في الاصطلاح فيخرج إلى معانٍ متباينة (٢)، يهمنها منها ما يعلّق به الرؤساء- على اختلاف مراتبهم - في أسفل الكتب الواردة إليهم أو على ظهرها، بإبداء رأيهم فيما يُرفعُ إليهم من شكوى أو يقدّم لهم من رجاء (٣). وقد يكون التوقيع شعراً أو نثراً أو مثلاً سائراً أو حكمة بليغة أو آية كريمة أو حديثاً شريفاً .

ومع أن مفهوم الرسالة الديوانية لا ينطبق على التوقيع إلا أنني ارتأيت عرض التوقيعات العائدة لهذا العهد والحديث عن موضوعاتها لاتصالها بالدواوين وباعتبارها نوعاً من الكتابة الديوانية ، فوجدت أن لا مفر من الحديث عنها وإلحاقها بموضوعات الرسائل لأنها كانت تؤدي مهمات شبيهة بتلك التي كانت تؤديها الرسالة المطولة ، أضف إلى ذلك أن بعض

(١) انظر ابن منظور - لسان العرب ، مادة وقع ، والبطلوسى - الاقتضاب في شرح أدب الكتاب ، ج ١ ، ص ١٩٥-١٩٦ .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ، مادة توقيع ، ج ٦ ، ص ٢٥-٢٦ ، وانظر د. ناجي معروف - التوقيعات التدريسية ، ص ٤-٧ .

(٣) الفلقشندي - صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ١٤٥ ، وابن خلدون - المقدمة ، ج ٢ ، ص ٦٨١ ، والبطلوسى - الاقتضاب في شرح آداب الكتاب ، ج ١ ، ص ١٩٥ ، وانظر د. محمد نبيه حجاب - بلاغة الكتاب في العصر العباسي ، ص ٩٥ ، و د. عزيزة بابتي - الإطار الأدبي في مطلع العصر العباسي ، ص ١٧٥ ، و د. محمود عبد الرحيم صالح - فنون النثر في الأدب العباسي ، ص ٩٢ ، ص ٤٠ و د. محمد الدروبي - الرسائل الفنية في العصر العباسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري، ص ٦٧ .

وقد كان الخلفاء والرؤساء الأولون قبل هذا العهد يتولون التوقيع بأنفسهم على ما يرفع إليهم من قصص وظلمات، ولكن هذه المهمة أصبحت في هذا العهد تناط بالكتاب، ولعل ذلك راجع إلى كثرة طلاب الحاجات واصحاب الظلمات الذين غصت بهم أبواب الخليفة ووزرائه، يروى عن عمرو بن مسعدة أنه قال: "كُنْتُ أَوْقَعُ بَيْنَ يَدَيِ جَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى الْبِرْمَكِيِّ، فَرَفَعَ إِلَيْهِ غِلْمَانَهُ وَرَقَةً يَسْتَرِيدُونَهُ رَوَابِيَهُمْ، فَرَمَى بِهَا إِلَيَّ وَقَالَ: أَحِبُّ عَنْهَا، فَكَتَبْتُ: "قَلِيلٌ دَائِمٌ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ مُنْقَطِعٌ" فَضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى ظَهْرِي وَقَالَ: أَيُّ وَرِيرٍ فِي جِلْدِكَ" (١)، وقد أسلفنا في غير هذا الموضع أن التوقيع كان من أهم المهام التي توكل لصاحب ديوان الرسائل، وقد انعكس أثر ذلك في التوقيعات نفسها، فتعددت موضوعاتها وتباينت أغراضها واتسعت مادتها، يقول الجهشيارى: "... وَلَمْ تَزَلْ كُتِبَ الْمُلُوكُ وَالرُّؤَسَاءُ تَجْرِي فِي التَّوْقِيعَاتِ عَلَى أَنْ يُوقَعَ الرَّئِيسُ فِي الْقِصَّةِ بِمَا يَجِبُ فِيهَا، وَيَذَكَّرُ الْمَعَانِي الَّتِي يَأْمُرُ بِهَا، وَلَمْ يَكُنْ لِلْكِتَابِ فِي ذَلِكَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يَكْتُبُوا بِتِلْكَ الْجُمْلَةِ مِنَ التَّوْقِيعِ، أَلْفَاظًا تَشْرَحُهَا، وَيَقْرُبُ مِنَ الْعَامَّةِ فَهْمُهَا، وَلَا تُخْرِجُهَا عَنْ مَعْنَى قَصْدِ الرَّئِيسِ إِلَى أَيَّامِ الرَّشِيدِ، فَإِنَّ الْمُتَظَلِّمِينَ كَثُرُوا عَلَى بَابِ جَعْفَرٍ، وَتَأَخَّرَ جُلُوسُهُ أَيَّامًا ثُمَّ جَلَسَ، وَكَانَتْ الْقِصَصُ قَدْ كَثُرَتْ ... فَوَقَعَ عَلَى ظَهْرِهَا: يُعْمَلُ فِي ذَلِكَ بِمَا يُعْمَلُ فِي مِثْلِهِ عَلَى سَنَنِ الْحَقِّ وَقَصْدِهِ، وَجِهَةَ الْإِنْصَافِ وَسَبِيلِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، فَوَرَدَ عَلَى الْكِتَابِ مِنْ ذَلِكَ مَا لَمْ يَرِدْ مِثْلَهُ وَامْتَلَأَهُ، ثُمَّ صَارَ ذَلِكَ رَسْمًا لِلرُّؤَسَاءِ" (٢) .

ومن أشهر من وقع في هذا العصر الخليفة الرشيد ووزراؤه البرامكة يحيى وولده الفضل وجعفر، إلا أن توقيعات يحيى والفضل لا ترقى كثرة إلى توقيعات الرشيد وجعفر (٣) الذي نبغ في توقيعاته وبرع، وقد كان البلغاء يتنافسون في تحصيل توقيعاته "للقوف فيها على أساليب البلاغة وفنونها، حتى قيل إنها كانت تباع كل قصة منها بدينار" (٤). ويروى أنه وقع مرة بين يدي الرشيد زيادة على ألف توقيع، فعرضت توقيعاته على العمال والقضاة والكتاب، فما وجد فيها شيء مكرر أو خارج عن موجب الفقه (٥).

- (١) أحمد زكي صفوت - جميرة رسائل العرب ، ج ٤ ، ص ٣٩٧ ، وهذا التوقيع في خاص الخاص منسوب لأنس بن أبي شيخ الذي وقع به بين يدي يحيى البرمكي، انظر الثعالبي - خاص الخاص ، ص ٩١ .
- (٢) الجهشيارى - الوزراء والكتاب ، ص ٢١٠-٢١١ .
- (٣) ابن عبد ربه - العقد الفريد ، ج ٤ ، ص ٢٩٦-٢٩٨ ، ص ٣٠٢-٣٠٣ ، وانظر أحمد زكي صفوت - جميرة رسائل العرب ، ج ٤ ، ص ٢٧٤-٢٧٧ ، ص ٢٨٣-٢٨٧ .
- (٤) ابن خلدون - المقدمة ، ج ٢ ، ص ٦٨١ ، وانظر الثعالبي - تحفة الوزراء ، ص ١٣٩ .
- (٥) الجهشيارى - الوزراء والكتاب ، ص ٢٠٤ ، وابن خلكان - فيات الأعيان ، ج ١ ، ص ٣٢٨-٣٢٩ .

وتجدر الإشارة إلى أنه يصعب علينا حصر الموضوعات والأغراض التي عالجتها التوقيعات العائدة لهذا العهد في هذه الدراسة المتواضعة، ونكمن الصعوبة في كثرة الموضوعات من جهة وجزارة توقيعات التي عالجتها من جهة أخرى. وقد اجتهدت في تصنيف ما أمكنني جمعه من هذه التوقيعات في الموضوعات التالية:

١- التوجيهات الإدارية وشؤون الإدارة:

كثيراً ما كان يصدر عن الخليفة أو أحد كبار رجال دولته توقيع يتضمن توجيهاً إدارياً لأحد العمال، الهدف منه تنظيم شأن من شؤون الولاية التي يتولاها، ويتسع هذا الباب من التوقيعات ليشمل كل التوجيهات الإدارية التي كان يقدمها الخليفة وغيره من كبار رجال الدولة إلى عمال الولايات.

ومن هذه التوقيعات توقيع الرشيد إلى عامله على خراسان "ذَاوِ جُرْحَاكَ لَا يَتَسَبَّحُ"^(١) وواضح ما يغلب على هذا التوقيع من طابع الحكمة الذي يتفق مع فن التوقيع، فكلاهما يقوم على الإيجاز في اللفظ، ولعل الوجازة في اللفظ، وغلبة طابع الحكمة على كثير من التوقيعات هو الذي دعا إلى حفظها ورسوخها في الوجدان^(٢).

ومن أمثلة هذا النوع من التوقيعات توضيح الرشيد إلى عامل مصر: "أَحْذَرُ أَنْ تُخْرَبَ خَزَائِنِي وَخَزَائِنَةَ أَخِي يُوسُفَ، فَيَأْتِيكَ مِنِّي مَا لَا يَقِيلُ لَكَ بِهِ، وَمِنْ اللَّهِ أَكْثَرُ مِنْهُ"^(٣). وتوقيعه إلى صاحب خراجها: "يَا مَحْفُوظُ"^(٤)، اجْعَلْ خَرْجَ مِصْرَ خَرْجًا وَاجِدًا وَأَنْتَ أَنْتَ"^(٥).

ويبدو من خلال هذين التوقيعين، ما كانت تسببه ولاية مصر للدولة من قلق ناشئ عن سوء إدارة الولاية وتأخر جباية الخراج بسبب ميل أهلها إلى المماطلة في دفع الخراج ومحاولة

(١) ابن عبد ربه - العقد الفرید ، ج ٤ ، ص ٢٩٦ ، وانظر أحمد زكي صفوت - جمهرة رسائل العرب ، ج ٤ ، ص ٣٧٤ .

(٢) انظر د. محمد الدروبي - الرسائل الفنية في العصر العباسي ، ص ٨٦ .

(٣) ابن عبد ربه - العقد الفرید ، ج ٤ ، ص ٢٩٦ ، وانظر أحمد زكي صفوت - جمهرة رسائل العرب ، ج ٤ ، ص ٣٧٤ .

(٤) محفوظ بن سليمان : ولاة الرشيد خراج مصر ، وذلك بعد أن ضمن له جباية خراجها بلا سوط ولا عصاة عندما رفض أهلها دفعه، انظر الكندي - الولاية والقضاة ، ١٦٦-١٦٧ ، وابن تغري بردي - النجوم الزاهرة ، ج ٢ ، ص ١٤٥ ، والدوادري - كنز الدرر ، ج ٥ ، ص ١٢٨ ، ١٣٥ .

(٥) ابن عبد ربه - العقد الفرید ، ج ٤ ، ص ٢٩٧ .

كسره وعدم دفعه كاملاً^(١) .

وكما اتسعت التوقيعات لأمثال هذه التوجيهات كانت في بعض الأحيان تتضمن إشادة بكل مَنْ يثبت كفايته وإخلاصه من رجال الدول في المهام الموكولة إليه.

وقد يردف التوقيع بعطاء جزيل، ومن أمثلة هذه التوقيعات توقيع الرشيد إلى عامله على المدينة، وقد كتب إليه يخبره بسر من أسرار الطالبين: "جَزَى اللَّهُ الْفَضْلَ^(٢) خَيْرَ الْجَزَاءِ فِي اخْتِيَارِهِ إِيَّاكَ، وَقَدْ أَتَاكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مَائَةَ أَلْفٍ بِحُسْنِ نِيَّتِكَ"^(٣) .

ولا يخفى على المرء ما لهذه التوقيعات - التي تصدر عن السلطة العليا في الدولة - من وقع عظيم واثر جليل في نفس العامل، إذ أنها ما أن تلامس سمعة حتى تقذف فيه النشاط والحيوية لعمل ما هو أفضل حتى يرضى عنه المسؤول.

ومثلما كان يكافأ مَنْ يثبت الكفاية والإخلاص من رجال الدولة، كان يُعاقب من يقصر في الواجبات الموكولة إليه، وتتفاوت هذه العقوبة من اللوم على التقصير إلى الشتم والتعريف وقد تصل إلى التهديد وقد يرقى الأمر إلى عزل هذا المقصر والاستغناء عنه .

ومن التوقيعات التي تتحو المنحى الأول توقيع الرشيد إلى سليمان بن أبي جعفر المنصور^(٤)، وقد بلغه تخاذله وهروبه عندما وثب عليه أهل دمشق: "اسْتَحْيَيْتُ لِشَيْخٍ وَاوَدَهُ الْمَنْصُورُ، أَنْ يَهْرُبَ عَمَّنْ وَاوَدَهُ كِنْدَةُ وَطِيءٌ، فَهَلَا قَابَلْتَهُمْ بِوَجْهِكَ، وَأَبْدَيْتَ لَهُمْ صَفْحَتَكَ^(٥)، وَبَدَلْتَ لَهُمْ مِئْتَتَكَ، وَكُنْتَ كَمَرْوَانَ^(٦) ابْنَ عَمِّكَ، إِذْ خَرَجَ مُصَلِّتاً سَيْفَهُ^(٧)، مُنْمَثلاً بِبَيْتِ الْجَحَافِ بْنِ حَكِيمٍ:

(١) انظر ص ٧٦ - ٧٧ من هذا البحث .

(٢) يعني الفضل بن يحيى البرمكي .

(٣) ابن عبد ربه - العقد الفريد ، ج ٤ ، ص ٢٩٧ ، وانظر أحمد زكي صفوت - جمهرة رسائل العرب ، ج ٤ ، ص ٣٧٦ .

(٤) سليمان بن أبي جعفر المنصور : أمير من أمراء بني العباس ، وهو ابن أبي جعفر المنصور وأخو الخليفة المهدي وعم الرشيد تزوج الرشيد ابنته العباسة ، ولي البصر والجزيرة للرشيد وتولى إمارة الحج ١٧٦هـ ، انظر الطبري - تاريخ الطبري ، ج ٤ ، ص ٦٣٥ ، ج ٥ ، ص ١٦ ، وخليفة بن خياط - تاريخ خليفة بن خياط ، ص ٤٦١-٤٦٢ ، والصفدي - الوافي بالوفيات ، ج ١٦ ، ص ٦٧٠ .

(٥) أبديت لهم صفحتك : جاهرتهم بعداوتك ، انظر ابن منظور - لسان العرب ، مادة صفح .

(٦) هو مروان بن محمد بن مروان بن الحكم ، آخر خلفاء بني أمية .

(٧) أصلت السيف : سلّه وجرده "انظر ابن منظور - لسان العرب ، مادة صلت" .

مُتَقَلِّدِينَ صَفَاحًا (١) هِنْدِيَّةً (٢)
يَتَرُكْنَ مَنْ ضَرَبُوا كَمَنْ لَمْ يُؤَادِ
فَجَالَدَ بِهِ حَتَّى قُتِلَ، لِلَّهِ أُمَّ وَلَدَتُهُ وَأَبُّ أَنْهَضَهُ (٣).

وتبدو نبرة اللين واضحة جلية في التوقيع السابق، ولعل صلة القرابة التي بين الرشيد والمخاطب هي التي دفعته إلى اتباع مثل هذا الأسلوب، حالت دون اتخاذ إجراء رادع بحق هذا العامل المقصر.

ومن بين التوقيعات التي تمثل المنحى الثاني الذي يقوم على الشتم والتعنيف توقيع الرشيد إلى أحد قادته وقد أعمل السيف في قوم أبرياء: "لا أُمَّ لَكَ، تَقْتُلُ بِالذَّنْبِ مَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ" (٤) وواضح ما بين التوقيع الأول والثاني من بون شاسع في أسلوب الخطاب، فبينما يخاطب الرشيد عامله في التوقيع الأول بلين ولطف، نجده يعبر عن غضبه في التوقيع الثاني فيخاطب قائده بنبرة يعلوها الشتم والتعنيف.

وقد تتصاعد وتيرة الغضب فيكون التوقيع في مقدمة شخوص الخليفة إلى المقصر لتأديبه بنفسه كما هو الحال في توقيع الرشيد إلى عامله على فارس (٥) في أمر لم يتصرف فيه تصرف العادل: "كُنْ مَنِي عَلَى مِثْلِ لَيْلَةِ الْبَيَّاتِ" (٦) ومع أن المصادر التي أُثِرَ فيها هذا التوقيع لم تُصوِّر لنا هذا الأمر الذي دفع الرشيد لمثل هذا القول، فإن بإمكاننا أن نتصوَّر جسامته، وإلا فما الذي يدعو الرشيد إلى الخروج بنفسه لتأديب هذا العامل المقصر لولا أن يكون ما قام به يستدعي ذلك؟!

وقد يرفق ولي الأمر بصاحب المنصب، فيعطيه فرصة يقوم بها اعوجاجه ولكنه يلوح

- (١) الصفائح: السيوف العريضة، انظر المصدر نفسه، مادة صفح.
- (٢) الهندية - السيوف الهندية المصنوعة في الهند، انظر المصدر نفسه، مادة هند.
- (٣) ابن عبد ربه - العقد الفريد، ج ٤، ص ٢٩٧، وأحمد زكي صفوت - انظر جمهرة رسائل العرب، ج ٤، ص ٣٧٧-٣٧٦.
- (٤) ابن عبد ربه - العقد الفريد، ج ٤، ص ٢٩٦، وانظر أحمد زكي صفوت - جمهرة رسائل العرب، ج ٤، ص ٣٧٥.
- (٥) فارس: ولاية واسعة وإقليم فسيح، من أشهر مدنها اصطخر وسابور وشيراز، أول حدودها من جهة العراق، أَرَجَان، ومن جهة كرمان السِيرْجَان، ومن جهة ساحل بحر الهند سيراف، ومن جهة السند مكران، فتح أكثرها في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأتم فتحها في عهد عثمان رضي الله عنه كثيرة القلاع والحصون وفيرة المياه، انظر معجم البلدان، ج ٤، ص ٢٢٦-٢٢٨ "فارس" وتمثل فارس اليوم الأجزاء الجنوبية والوسطى من إيران.
- (٦) ابن عبد ربه - العقد الفريد، ج ٤، ص ٢٩٦، وانظر أحمد زكي صفوت - جمهرة رسائل العرب، ج ٤، ص ٣٧٥.

له بالعزل عن عمله، إن لم يحسن استغلال هذه الفرصة، ويعدل عن سيرته، ومن بين التوقيعات التي تمثل هذا الاتجاه ما وقع به يحيى بن خالد البرمكي إلى عامل واسط (١) وقد اشتكى منه رجل غير مرة: "أَكْفَيْني أَمْرُهُ وَإِلَّا كَفَيْتُهُ أَمْرَكَ" (٢). ومن ذلك ما وقع به جعفر البرمكي إلى بعض عماله: "قَدْ كَثُرَ شَاكُوكُ، وَقَلَّ شَاكِرُوكُ؛ فَبِمَا اعْتَدَلْتُ وَإِمَّا اعْتَزَلْتُ" (٣).

وهذه التوقيعات - على وجازتها - تحمل في طياتها سياسة الحزم التي كان ينتهجها ولي الأمر - سواء أكان خليفة أم وزيراً في الدولة - وهي سياسة تقوم على متابعة موظفي الدولة - كباراً وصغاراً - وإدامة مراقبتهم، لضمان تنفيذهم سياسة العدل وإنصاف الرعية .

٢ - إنصاف المتظلمين وإزالة شكاياتهم ورفع الضرر عنهم:

وهذا الغرض ليس بأقل من الأول شيوعاً في توقيعات هذا العهد؛ ولعل ذلك نابع من كثرة الرقاع وقصص الظلمات التي كانت تُرفع إلى ديوان الخلافة يرجو فيها رافعوها إزالة ظلم لحق بهم، وإنصافهم وأخذ الحق لهم ممن ظلمهم.

ومن جملة التوقيعات التي تنتظم في هذا الاتجاه توقيع الرشيد في قصة متظلم " لا يُجَاوِزُ بِكَ الْعَدْلُ وَلَا يَقْصُرُ بِكَ دُونَ الْإِنْصَافِ" (٤) ومثله توقيع جعفر البرمكي في قصة قوم شكوا سوء جوار بعض قرابته: "يَرْحَلُ عَنْكُمْ" (٥).

وما من ريب أن صدور أمثال هذه التوقيعات عن السلطات العليا في الدولة مما يؤكد سياسة العدل التي أخذت الدولة نفسها بها؛ فأناس جميعاً متساوون أمام القانون، والذي يذنب يستحق العقاب على فعلته مهما كانت منزلته، لا فرق في ذلك بين غني وفقير وبين شريف ووضيع.

(١) واسط : عرفت بهذا الاسم لأنها تتوسط بين البصرة والكوفة ، من أشهر مدن العراق بناها الحجاج بن يوسف الثقفي سنة ٨٦ هـ ، انظر الحموي - معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ٣٤٧-٣٤٩ ، و واسط اليوم من أشهر مدن الجمهورية العراقية .

(٢) الثعالبي - تحفة الوزراء ، ص ١٤٥ ويروى التوقيع في الثعالبي - خاص الخاص ، ص ٨٧-٨٨ .

(٣) ابن عبد ربه - العقد الفريد ، ج ٤ ، ص ٣٠٢ ، وأحمد زكي صفوت - جمهرة رسائل العرب ، ج ٤ ، ص ٣٨٤ ، ويرد التوقيع منسوباً إلى المنصور في الثعالبي - خاص الخاص ، ص ٨٨ ، ويرد غير منسوب في الثعالبي - تحفة الوزراء ، ص ١٤٧ .

(٤) ابن عبد ربه - العقد الفريد ، ج ٤ ، ص ٢٩٦ ، وانظر أحمد زكي صفوت - جمهرة رسائل العرب ، ج ٤ ، ص ٣٧٥ .

(٥) ابن عبد ربه - العقد الفريد ، ج ٤ ، ص ٣٠٢ ، وأحمد زكي صفوت - جمهرة رسائل العرب ، ج ٤ ، ص ٣٨٥ .

وفي اتجاه مقابل كانت تصدر التوقيعات برد الشكايات ورفض الشفاعة، وأحياناً كانت أمثال هذه التوقيعات تتضمن ما يقتضيه المقام من التوبيخ والتقريع وإلزام الطرف الآخر بالحجة الدامغة^(١)؛ ولا أدل على هذا الاتجاه من التوقيعات التي صدرت عن الرشيد في نكبة البرامكة والتي عرضنا لطرف منها عند حديثنا عن نكبة البرامكة، كما ظهرت في الرسائل العائدة لهذا العهد^(٢). وتوقيعه في قصة رجل من البرامكة: "أَنْبَتَتْهُ الطَّاعَةُ وَخَصَّدَتْهُ المَعْصِيَةُ"^(٣).

وواضح ما في هذه التوقيعات وأمثالها من وقع كبير في نفس من تصدر بحقه؛ فبينما يكتب هذا الرجل رقعة أملاً في تفرج كربته، وينتظر الرد على أحر من الجمر، يأتي الجواب فيهدم ما انبنى في نفسه من آمال، فيظل يعالج اليأس ويعاني ذل السجن، ويبث شكواه بين جدران السجن ولكن لا من مجيب يفك قيده ويفرج عنه.

وتطبيقاً لسياسة العدل بين الرعية، كانت التوقيعات تصدر متضمنة دعوة المسؤولين إلى أخذ الرعية بمبادئ العدل والإنصاف، ورد الحقوق إلى أصحابها، والقبض على أيدي البغاة وإلزامهم بتعاليم الدين الحنيف^(٤) ومن جملة التوقيعات التي كتبت في هذا المنحى توقيع يحيى البرمكي في رقعة منظم شكاً أحد العمال، وقد بعث به مع الرجل وأمره أن يعرضه على من شكاه، يقول يحيى مخاطباً هذا العامل: "أَنْصِيفَ مَنْ وُلِّيتَ أَمْرَهُ وَإِلَّا أَنْصَفَهُ مِنْكَ مَنْ يَلِي أَمْرَكَ"^(٥). ويطلبنا هذا الاتجاه أيضاً في توقيعه الأنف الذكر إلى أحد العمال يأمره أن ينصف أحد أفراد الرعية^(٦). وفي توقيعه في تهديد من شكى إليه ظلمه: "بِئْسَ الزَّادُ إِلَى المَعَادِ ظَلْمُ العِبَادِ"^(٧).

(١) وانظر د. محمد الدروبي - الرسائل الفنية في العصر العباسي، ص ٧٥.

(٢) انظر ص ٥٥-٦٣ من هذا البحث.

(٣) ابن عبد ربه - العقد الفريد، ج ٤، ص ٢٩٦، وأحمد زكي صفوت - جمهرة رسائل العرب، ج ٤، ص ٣٧٤.

(٤) انظر د. محمد الدروبي - الرسائل الفنية في العصر العباسي، ص ٧٦.

(٥) الثعالبي - خاص الخاص، ص ٩٠-٩١، وأحمد زكي صفوت - جمهرة رسائل العرب، ج ٤، ص ٣٨٣.

(٦) انظر ص ٨٣ من هذا البحث.

(٧) الثعالبي - خاص الخاص، ص ١٤٥.

١٥٨٤٩٤٤

ومن توقيعات ابنه جعفر: "الخَرَّاجُ عَمُودِ الْمَلِكِ، وَمَا اسْتَعْزَرَ" (١) بِمِثْلِ الْعَدْلِ وَمَا اسْتَعْزَرَ (٢) بِمِثْلِ الْجَوْرِ" (٣) .

فهذه التوقيعات وأمثالها تؤكد حرص الدولة على ترسيخ العدل بين الرعية وتوثيق عراه بحيث يَعْمُ الأمان وتسود الطمأنينة بينهم فيتجهون إلى البناء والإنتاج والتعمير (٤)، وإذا وُجِدَ هناك من يُخَلُّ بهذه السياسة كان ولي الأمر يسعى إلى الاستغناء عنه وترتيب آخر مكانه، ويبدو ذلك ظاهراً في توقيع الرشيد إلى رجل جليل الشأن ظلمه أحد العمال: "قَدْ وَلَّيْنَاكَ مَوْضِعَةً فَتَنَكَّبُ" (٥) سِيرَتَهُ" (٦) .

وتبدو في هذا التوقيع صورة من صور التولية والتعيين لم نعهدها سابقاً؛ ففي حين كانت تتسع عهدود التولية والتعيين إلى جملة من الوصايا والأوامر والتوجيهات للوالي الجديد، نجد الرشيد في توقيعه هذا يتوجه إلى واليه الجديد بأمر واحد وهو العدول عن سيرة سلفه.

ويبدو للمتأمل حرص الدولة على لزوم سياسة العدل في التوقيعات التي تبين حكماً شرعياً في الجرائم والجنايات التي نصَّ الشرع الحنيف على عقوبة مرتكبها (٧)، ومنها توقيع يحيى البرمكي في أمر رجل استحق القتل: "وَلَكُمُ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ" (٨) (٩) .

وقد تصدر بعض التوقيعات لتؤكد حكماً شرعياً في غير الجنايات من ذلك توقيع جعفر البرمكي في قصة رجل شكَا عزوبة: "الصَّوْمُ لَكَ وَجَاءَ" (١٠) .

ولا شك أن صدور هذه التوقيعات عن أمثال هؤلاء يدل على تعمقهم في العلوم الدينية وأحكام الشرع التي ترسخت في أذهانهم، فطبّقوها وظهرت آثارها في كتاباتهم.

٣- العفو عن المذنبين:

- (١) اسْتَعْزَرَ : كثر ، انظر ابن منظور -لسان العرب ، مادة غزر .
- (٢) اسْتَعْزَرَ : قُلٌّ ، انظر المصدر نفسه ، مادة نزر .
- (٣) الثعالبي - خاص الخاص ، ص ٩٠ ، وانظر الطرطوشي - سراج الملوك ، ج ٢ ، ص ٤٩٦ . وانظر أحمد زكي صفوت - جمهرة رسائل العرب ، ج ٤ ، ص ٢٨٦ ، والتوقيع في الثعالبي - الإعجاز والإيجاز ، ص ٩٩ "الخَرَّاجُ عَمُودِ الْمَلِكِ، وَمَا اسْتَعْزَرَ بِمِثْلِ الْعَدْلِ وَمَا اسْتَعْزَرَ بِمِثْلِ الْجَوْرِ" .
- (٤) وانظر د. محمد الدروبي - الرسائل الفنية في العصر العباسي ، ص ٧٧ .
- (٥) تنكب سيرته : عدل عنها ، انظر ابن منظور - لسان العرب ، مادة تَنَكَّبُ .
- (٦) ابن عبد ربه - العقد الفريد ، ج ٤ ، ص ٢٩٧ ، وانظر أحمد زكي صفوت - جمهرة رسائل العرب ، ج ٤ ، ص ٣٧٥ .
- (٧) انظر د. محمد الدروبي - الرسائل الفنية في العصر العباسي ، ص ٧٧ .
- (٨) من الآية ٣٣ من سورة المائدة.
- (٩) الثعالبي - خاص الخاص ، ص ١٣٥ .
- (١٠) ابن عبد ربه - العقد الفريد ، ج ٤ ، ص ٣٠٢ ، وانظر أحمد زكي صفوت - جمهرة رسائل العرب ، ج ٤ ، ص ٣٨٥ .

ولا ينأى هذا الموضوع كثيراً عن سابقه، إذ كثيراً ما كانت تصدر عن الخليفة أو وزرائه توقيعات في العفو عن السجناء وإطلاق سراحهم، من ذلك توقيع الرشيد في قصة محبوس: "مَنْ لَجَأَ إِلَى اللَّهِ نَجَا" (١) ومثله توقيع جعفر البرمكي في رقعة سجين: "الْعُدْوَانُ أَوْتَقَهُ وَالتَّوْبَةُ تَطْلِقُهُ" (٢) ولا يختلف عنه كثيراً توقيعهم: "الْعَدْلُ يُوبِقُهُ وَالتَّوْبَةُ تَطْلِقُهُ" (٣) ومن جهة أخرى كانت تخرج التوقيعات متضمنة ردّ رفاع هؤلاء المساجين، ورفضها (٤)، ومن هذه التوقيعات توقيع جعفر البرمكي في قصة محبوس التمس الإطلاق "لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ" (٥) (٦).

ولا يخفى على المرء ما كانت تؤديه التوقيعات من دور عظيم، ففي حين كانت تحمل البشارة بالعفو عن طائفة من أهل الحبوس، كانت في الوقت نفسه تزيد من معاناة طائفة أخرى وتبدد آمالها بالعفو والصفح .

وفي إطار متصل بالموضوع كانت التوقيعات تعبر عن إقالة ولي الأمر للمذنب بعد اعترافه بذنبه وإقراره به واعتذاره عنه، ومن التوقيعات التي تنحو هذا المنحى توقيع جعفر البرمكي في رقعة معتذر من ذنب: "قَدْ قَدَمْتَ طَاعَتَكَ، وَسَبَقَتْ نَصِيحَتُكَ، فَإِنْ بَدَرْتَ مِنْكَ هَفْوَةً، فَلَنْ تَغْلِبَ سَيِّئَةَ حَسَنَتَيْنِ" (٧) .

وفي المقابل كان من يُصرُّ على خطئه ولا يقرُّ بذنبه، يُواجه بالحزم والشدة من ذلك توقيع جعفر البرمكي إلى متصل من ذنب: "حُكْمُ الْفَلَتَاتِ خِلَافُ حُكْمِ الْإِصْرَارِ" (٨) .

ففي حين اتسم رد جعفر في التوقيع الأول باللين واللفظ إزاء اعتذار المذنب عن ذنبه، حتى أن ذنب الرجل هان عنده فصوره بالهفوة؛ نجده في التوقيع الثاني يعنف هذا المذنب الذي

-
- (١) ابن عبد ربه - العقد الفريد، ج٤، ص ٢٩٦، وانظر أحمد زكي صفوت - جمهرة رسائل العرب، ج٤، ص ٣٧٥ .
 (٢) الجبشيارى - الوزراء والكتاب، ص ٢٠٥، وانظر ابن عبد ربه - العقد الفريد، ج٤، ص ٣٠٢، وأحمد زكي صفوت - جمهرة رسائل العرب، ج٤، ص ٣٨٤ .
 (٣) ابن عبد ربه - العقد الفريد، ج٤، ص ٣٠٢، وانظر أحمد زكي صفوت - جمهرة رسائل العرب، ج٤، ص ٣٨٤ .
 (٤) انظر د. محمد الدروبي - الرسائل الفنية في العصر العباسي، ص ٨١ .
 (٥) من الآية ٣٨ من سورة الرعد .
 (٦) ابن عبد ربه - العقد الفريد، ج٤، ص ٣٠١، وانظر أحمد زكي صفوت - جمهرة رسائل العرب، ج٤، ص ٣٨٤، ويرد التوقيع في خاص الخاص، ص ٩٠ منسوباً إلى أبيه يحيى .
 (٧) الثعالبي - خاص الخاص، ص ٩٠، وانظر أحمد زكي صفوت - جمهرة رسائل العرب، ج٤، ص ٣٨٦، ويرد التوقيع في الحصري - زهر الآداب، ج٢، ص ٤٢٠، مع اختلاف يسير في اللفظ .
 (٨) ابن عبد ربه - العقد الفريد، ج٤، ص ٣٠٣، وانظر أحمد زكي صفوت - جمهرة رسائل العرب، ج٤، ص ٣٨٦ .

تتصل من ذنبه وانكره.

٤ - توزيع العطايا على مستحقيها:

ويعتبر هذا الغرض من الأغراض البارزة في توقعات هذا العهد، ويستطيع المرء أن يدرك هذه الحقيقة من مطالعته لطائفة من التوقعات التي عبرت عنه. من ذلك توقيع يحيى البرمكي إلى رجل سأله: "أحسنُ الناسِ حالاً في النعمة من ارتبطَ مقيمها بالشكرِ واسترجعَ ماضيها بالصبر" (١)، ومنه توقيع ابنه جعفر في رقعة رجل قصده: "هَذَا يَمْتُ بِحُرْمَةِ الْأَمَلِ، وَهِيَ أَقْرَبُ الْوَسَائِلِ وَأَثْبَتُ الْوَصَائِلِ، فَلْيُعْجَلْ لَهُ مِنْ ثَمَرَةِ ذَلِكَ عَشْرُونَ أَلْفَ دِرْهَمٍ، وَلْيُمْتَحَنَ بِنِغْضِ الْكِفَايَةِ، فَإِنْ وَجِدْتَ عِنْدَهُ، فَقَدْ ضَمَّ إِلَى حَقِّهِ حَقًّا، وَإِلَى حُرْمَتِهِ حُرْمَةً، وَإِنْ قَصَرَ عَنِ ذَلِكَ فَعَلَيْنَا مَعَوْلُهُ وَإِلَيْنَا مَوْتَلُهُ، وَفِي مَالِنَا سَعَةٌ لَهُ" (٢).

وكثيراً ما كانت التوقعات تُمنى المستمحين والسائلين بالصبر، ويبدو هذا الملمح واضحاً في التوقعين السالفين .

وإذا كان المستمحي نهماً جشعاً، كان يُضرب برجائه عرض الحائط، ولا يُلتفت إليه (٣). كما يظهر في توقيع جعفر البرمكي في قصة مستمنح كان قد وصله مراراً "ذع الضرغ يدرُّ لغيرك كما درَّ لك" (٤) .

ويبدو لنا من التوقعات السابقة جانباً يسيراً من الكرم البرمكي الذي تميز به يحيى وأولاده، كما تقف بنا هذه التوقعات على طرف من حياة طبقة من طبقات المجتمع العباسي وهي طبقة كبار موظفي كبار الدولة ممن كانوا يحيون حياة الثراء والبذخ ويغدقون العطايا على مستحقيها.

(١) ابن وهب - البرهان في وجوه البيان ، ص ٢٠٣ .

(٢) الجيشباري - الوزراء والكتاب ، ص ٢٠٥ .

(٣) انظر د. محمد الدروبي - الرسائل الفنية في العصر العباسي ، ص ٨٢ .

(٤) ابن عبد ربه - العقد الفريد ، ج ٤ ، ص ٣٠٢ ، وانظر أحمد زكي صفوت - جمهرة رسائل العرب ، ج ٤ ، ص ٣٨٥ ، ويعزى هذا التوقيع في خاص الخاص ، ص ٩١ إلى أبيه يحيى .

٥- تنظيم علاقة السلطان بأفراد الرعية:

وقد صوّرت التوقيعات جانباً من هذه العلاقة، من ذلك ما كان يصدر من توقيعات في السماح لفرد من الأفراد يستأذن في القيام بأمر ما أو ردّ طلبه وعدم السماح به (١).

ومن التوقيعات التي تمثّل المنحى الأول توقيع جعفر اليرمكي في رقعة رجل استأذنه في الحج "مَنْ سَافَرَ إِلَى اللَّهِ أَنْجَحَ" (٢). ومن التوقيعات التي تقف شاهداً على المنحى الثاني توقيعه في رقعة رجل سأل ولاية: "لَا أَوْلِي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا" (٣). وتوقيعه في قصة رجل سأل أن يُقفلَ ابنه بعد طول غياب: "غَيْبَةُ يُوسُفَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَانَتْ أَطْوَلَ" (٤).

وواضح من فيض هذه التوقيعات أن السلطان العليا في الدولة لم تكن توصلد أبوابها في وجه من يسأل حاجة من الرعية، وهذا يدل على بُعد نظر وحسن تدبير عند هذه السلطات التي كانت تستمع لمطالب الناس على اختلاف طبقاتهم ودون تمييز.

٦- الدعوة إلى محاربة الخارجين على أمر الخليفة:

كثرت التوقيعات التي دعت إلى محاربة الخارجين على الخلافة، وهي كثرة نابعة من كثرة الثورات التي عرضنا طرفاً منها أثناء حديثنا عن الصراعات الداخلية والثورات التي قلما خلت منها سنة من سنوات حكم الرشيد (٥).

وقد كان الرشيد إزاء هذه الثورات يصدر توجيهاته إلى العمال، إمّا على شكل رسائل كما رأينا، أو على شكل توقيعات موجزة إلى هؤلاء العمال ليعملوا بمقتضاها، من ذلك ما وقع به إلى صاحب السند (٦)، وقد كتب إليه بظهور العصبية في بلاده: "مَنْ أَظْهَرَ الْعَصَبِيَّةَ فَعَاجِلْهُ"

(١) وانظر د. محمد الدروبي - الرسائل الغنية في العصر العباسي، ص ٨٤-٨٥.

(٢) أنجح: أصاب نجاحاً، انظر ابن منظور - لسان العرب، مادة نجح.

(٣) انظر ابن عبد ربه - العقد الفريد، ج ٤، ص ٣٠٢، وأحمد زكي صفوت - جمهرة رسائل العرب، ج ٤، ص ٣٨٥.

(٤) ابن عبد ربه - العقد الفريد، ج ٤، ص ٣٠٢، وانظر أحمد زكي صفوت - جمهرة رسائل العرب، ج ٤، ص ٣٨٥.

(٥) ابن عبد ربه - العقد الفريد، ج ٤، ص ٣٠٢.

(٦) انظر ص ٣٧-٥٥ من هذا البحث.

(٧) السند: بلاد بين بلاد الهند وكرمان وسجستان، فتحت في أيام الحجاج بن يوسف الثقفي، ومذهب أهلها الغالب عليها مذهب أبي حنيفة نسب إليها خلق كثير منهم الفقيه المتكلم فتح بن عبد الله السندي، "انظر ياقوت الحموي - معجم البلدان، ج ٢، ص ٢٦٧ "السند"، وتمثّل السند اليوم الأجزاء الجنوبية من أفغانستان والأجزاء الشمالية من باكستان والأجزاء الشرقية من كشمير.

بِالْمَنِيَّةِ" (١) ومثله توقيعه إلى عامل خراسان وقد قامت ثورة في ولايته: "كُلُّ مَنْ رَفَعَ رَأْسَهُ فَازِلُهُ عَن بَدَنِهِ" (٢) .

ويبدو هذا الملمح واضحاً بجلاء من أوامر الرشيد التي أسداها إلى عامله على المدينة في صيغة توقيع يأمره فيها بتشديد قبضته على هذا الجزء من الدولة الذي طالما أقض مضجعه، فكتب إليه: "ضَع رِجْلَيْكَ عَلَى رِقَابِ أَهْلِ هَذَا الْبَطْنِ، فَإِنَّهُمْ قَدْ أَطَالُوا لَيْلِي بِالسُّهَادِ وَتَفَّوْا عَن عَيْنِي لِذِيذِ الرَّقَادِ" (٣) .

ولعل قلق الرشيد المتزايد من هذه البقعة من الدولة عائد لكثرة ثورات العلويين الذين يعارضون السياسة العباسية، وكانوا كلما رأوا الفرصة سانحة قاموا بثورات بضدها .

وأحياناً كانت تصدر توقيعات باستمالة بعض الخارجين من قطاع الطرق الذين أعلنوا العصيان، ممن تجد الدولة نفسها غير قادرة على إخضاعهم، لبعدهم عن نطاق سلطانها، من ذلك ما وقَّع به جعفر البرمكي في كتاب بعث به أحد العمال يخبره فيه أن صاحب الطريق قد اشتط فيما يطلب من الأموال، فكتب جعفر: "هَذَا رَجُلٌ مُنْقَطِعٌ عَن السُّلْطَانِ وَبَيْنَ ذُوْبَانٍ (٤) الْعَرَبِ، بِحَيْثُ الْعَدَدُ وَالْعُدَّةُ وَالْقُلُوبُ الْقَاسِيَةُ وَالْأَنْوْفُ الْحَمِيَّةُ، فَلْيَمْدَدْ مِنَ الْمَالِ بِمَا يَسْتَصْلِحُ بِهِ مِنْ مَعَهُ، لِيَدْفَعَ بِهِ عَدُوَّهُ؛ فَإِنَّ نَفَقَاتِ الْحُرُوبِ يُسْتَظْهَرُ لَهَا وَلَا يُسْتَظْهَرُ عَلَيْهَا" (٥) .

ويبدو أن جعفر البرمكي رأى أن حرب هذا المتمرّد معركة خاسرة؛ لأنه يعيش في عز من قومه وعشيرته وأصحابه فأثر استمالاته وكسبه إلى جانبه .

٧- علاقة الرشيد بدولة الروم:

ويجد المطالع لهذه التوقيعات التي عبرت عن هذه العلاقة أنها ركزت على العلاقة الحربية بين الرشيد والروم، وأغفلت العلاقات السلمية التي بحثنا أمرها من قريب .

ومن هذه التوقيعات التي صورت العلاقة الحربية بين الرشيد والروم توقيع الرشيد إلى

(١) ابن عبد ربه - العقد الفريد، ج٤، ص ٢٩٧، وانظر أحمد زكي باشا - جمهرة رسائل العرب، ج٤، ص ٣٧٥، ويروى التوقيع برواية أخرى: "كل من دعا إلى الجاهلية فعاجله بالمنية" انظر الثعالبي - خاص الخاص، ص ٨٨، وأحمد زكي صفوت - جمهرة رسائل العرب، ج٤، ص ٣٧٥ .

(٢) ابن عبد ربه - العقد الفريد، ج٤، ص ٢٩٧، وأحمد زكي صفوت، ج٤، ص ٣٧٥ .

(٣) ابن عبد ربه - العقد الفريد، ج٤، ص ٢٩٧، وأحمد زكي صفوت، ج٤، ص ٣٧٦ .

(٤) ذوبان العرب: لنصوصهم وصعاليكهم، انظر ابن منظور - لسان العرب، مادة ذاب .

(٥) المعبرد - الكامل، ج١، ص ٣٠١، وأحمد زكي صفوت - جمهرة رسائل العرب، ج٤، ص ٣٨٦ .

نقفور ملك الروم الذي كتب إليه يتهدده، فكتب الرشيد إليه: "الجواب ما تراه لا ما تقرؤه" (١). وتوقيع إلى صاحب النصرانية بالروم: "إننا بالأنثى وعلى الله الظفر" (٢) ومثلها توقيع إلى مملك الروم الذي كتب إليه: "إني متوجه نحوك بكل صليب في مملكتي، وكل بطل في جندي" فوق الرشيد في كتابه: "ستعلم الكافر لمن عبي الدار" (٣) (٤).

وهذه التوقيعات بما تحمله من معان عميقة تتبنا بحقيقة الصراع الذي كان قائماً بين الرشيد والروم وهو صراع ديني، فكل توقيع من التوقيعات السابقة فيه إشارة إلى حقيقة هذا الصراع.

-
- (١) الثعالبي - خاص الخاص ، ص ٨٨ ، وانظر أحمد زكي صفوت - جمهرة رسائل العرب ، ج ٤ ، ص ٣٧٧ .
- (٢) الثعالبي - خاص الخاص ، ص ٨٨ ، وانظر أحمد زكي صفوت - جمهرة رسائل العرب ، ج ٤ ، ص ٣٧٧ .
- (٣) من الآية ٤٢ من سورة الرعد .
- (٤) انظر الثعالبي - العقد الفريد ، ج ٤ ، ص ٢٩٧ ، والقرطبي ، أبو الحسن علي بن الحسن - روضة الأزهار ، ورقة ١٢٧-١٢٨ ، وأحمد زكي صفوت - جمهرة رسائل العرب ، ج ٤ ، ص ٣٧٧ .

الفصل الثاني

مشاهير كتاب الرسائل الديوانية في عهد
الرشيد

مشاهير كتاب الرسائل الديوانية في عهد الرشيد

نبغ في عهد الرشيد جملة من الأعلام المجيدين الذين لا يستطيع المرء تجاوزهم عند الحديث عن فن الرسائل الديوانية في هذه الحقبة من الزمن، وقد استطاع هؤلاء الكتاب بما أوتوا من مهارة في هذا الفن أن يتقدموا به خطوات واسعة إلى الأمام؛ سواء في شكل الرسالة أم في مضمونها.

ولولا ضياع قسم كبير من الرسائل الديوانية العائدة لهذا العهد، لتسنى لنا الوقوف على عدد كبير من هؤلاء الكتاب، أضف إلى ذلك أن بعض هؤلاء الكتاب لم تسعفنا المصادر بترجمة وافية له، مما شكل صعوبة بالغة في التعرف على حياته وثقافته، ولم يبق بين أيدينا إلا رسائله التي تناقلتها المصادر الأدبية والتاريخية التي أرخت لهذه الفترة. ومن هؤلاء الكتاب الذين استحال علينا الاهتداء إلى ترجمة وافية له من خلال المصادر المتوفرة بين أيدينا عمر بن مهران وقمامة ابن زيد، إضافة إلى عدد من الكتاب الذين برزوا في الكتابة الديوانية، ولكنني لم أعثر لهم على رسائل ديوانية فيما وقع بين يدي من مصادر، مما يدل على ضياع هذه الرسائل، ومن هؤلاء أنس بن أبي شيخ الذي لم يؤثر عنه سوى تحميد يتيم تجلت فيه بلاغته وبراعته في هذا الفن^(١).

وبعد الوقوف على مجمل ما تجمع لدي من رسائل ديوانية في هذا العهد، اخترت الحديث عن ثلاثة من أعلام الكتابة الديوانية، نظراً لكثرة رسائلهم الديوانية، ودورانها في المصادر الأدبية والتاريخية، للوقوف على مدى التطور الذي لحق بهذا الفن في هذا العهد. وهم: يحيى البرمكي وابنه جعفر، وإسماعيل بن صبيح، وقد اخترت البرامكة؛ لأنهم يمثلون مدرسة لا يمكن تجاوزها عند الحديث عن الكتابة الديوانية في عهد الرشيد، وليس هذا فحسب؛ بل عند الحديث عن تطور هذا الفن بشكل عام؛ ذلك أنهم خطوا به خطوات واسعة إلى الأمام، وعملوا على تطويره وإكسابه عدداً من السمات والخصائص الأسلوبية، والأشكال المضامين مما تحدثنا عنه في الفصل السابق، أو سنتحدث عنه في الفصل اللاحق إن شاء الله تعالى.

وأما إسماعيل بن صبيح؛ فلأنه تتلمذ على أيدي البرامكة وعمل في دواوينهم وحمل لواء الكتابة الديوانية بعدهم، وكان له أسلوب مميز في هذا الفن.

(١) انظر هذا التحميد في مخطوطة طيفور - الفصول والرسائل ورقة ٨٩ وأحمد زكي صفوت - جمهرة رسائل العرب، ج ٢، ص ١٦٥.

لا يزال موضوع أصل أسرة البرامكة ونسبها يكتنفه شيء من الغموض، رغم جهودات المؤرخين القدامى والمحدثين في الكشف عن هذا الغموض؛ ذلك أنه لم يكن لهم شأن يُذكر قبل أن يسطع نجمهم في الدولة العباسية.

وقد ذُكرَ عن هذه الأسرة أنها من بيوتات بلخ وأنها كانت تدين بالمجوسية، أي عبادة النار وأن جدّهم برمك كان سادن معبد النوبهار في مدينة بلخ، وليست لفظة برمك باسم لشخص، وإنما هي لفظة تدل على رتبة وراثية خاصة بكبير سدنة هذا المعبد^(١)؛ وقد أكسبهم هذه الرتبة شرفاً وجاهاً عظيماً.

ويرجع بعض المؤرخين نسب هذه الأسرة إلى ملوك الفرس القدماء^(٢). ولم يجز لآل برمك ذكر في الدولة الأموية، وإنما سطع نجمهم ولمع في بدايات الدولة العباسية حتى شكلوا أول الوزراء الفرس في الخلافة العباسية، وقد كانت تربطهم بالخلفاء العباسيين روابط متينة عن طريق الرضاع الأمر الذي مكن لهم في هذه الدولة الناشئة وفتح لهم باباً واسعاً من المجد، إلى أن نكبوا في هذا العصر الذي نحن بصدد دراسته على يد الخليفة هارون الرشيد.

وليس يهمننا البحث في تاريخ البرامكة بقدر ما يهمننا البحث في إسهامهم في رفعة شأن الكتابة والكتاب في هذا العهد؛ وقد نبغ منهم في الكتابة الديوانية اثنان كانت لهما إسهامات لا يستطيع المرء تجاهلها عند الحديث عن الكتابة الديوانية في هذا العهد، وهما يحيى البرمكي وابنه جعفر.

(١) انظر ابن خلكان - وفيات الأعيان ج ٦، ص ٢١٩ وانظر المقدسي - البدء والتاريخ ج ٥، ص ١٠٤ والحموي - معجم البلدان ج ٥، ص ٣٠٧-٣٠٨. مادة نوبهار والإثيدي - إعلام الناس، ص ٢٣٧.

(٢) الميلوي - أحسن المسالك، ورقة ٦ب وانظر هوتسما ورفاقه - دائرة المعارف الإسلامية ج ٥، ص ١٢٩٥-١٢٩٦ مادة برامكة وقويدر بشار - دور أسرة البرامكة في الخلافة العباسية، ص ٤٧ وانظر د. حربي أمين سليمان، المؤرخ الإيراني الكبير غياث الدين خواندمير كما يبدو في كتابه دستور الوزراء، ص ١٦١ وللمزيد عن أصل هذه الأسرة انظر د. هولوغودت فرج - البرامكة سلبياتهم وإيجابياتهم، ص ٩-١٥.

يحيى بن خالد البرمكي:

يحيى بن خالد بن برمك أبو الفضل البرمكي^(١)، ولد يحيى في سنة ١٢٠هـ أو قبلها بأربع سنوات^(٢).

يذكر الرواة أن والده خالد بن برمك أول من اتصل بالعباسيين من البرامكة، وقد لعب دوراً بارزاً في الدعوة العباسية ضد الأمويين منذ مراحلها الأولى^(٣)، وبعد قيام الدولة أسندت إليه مناصب فيها إلى أن ارتقى إلى الوزارة؛ إذ وُزر للسفاح^(٤) ولأخيه المنصور من بعده^(٥) واستمر في خدمة الدولة العباسية إلى أن توفي في خلافة المهدي عام ١٦٣هـ^(٦).

كان خالد بن برمك ذكياً فطناً فصيحاً^(٧) فاضلاً جليلاً كريماً حازماً يقظاً^(٨)، يقول عنه المسعودي^(٩) :

لم يبلغ مبلغ خالد بن برمك أحد من ولده في جودة رأيه وبأسه وجميع خلاله، لا يحيى في جودة رأيه ووفور عقله وبأسه، ولا الفضل بن يحيى في جودة رأيه وبراعته، ولا جعفر بن يحيى في كتابته وفصاحته، ولا محمد بن يحيى في سروره وبُعد همته، ولا موسى بن يحيى في شجاعته وبأسه".

وقد كان لخالد البرمكي الأثر الكبير في حياة ولده يحيى السياسية، وحظوته عند الخلفاء ويظهر أنه رباه فأحسن تربيته، وتوخى فيه أن يكون رجل زمانه في الدولة العباسية الفتية،

(١) انظر ابن خلكان - وفيات الأعيان ج٦، ص ٢١٩ والحموي - معجم الأدباء، ج٦، ص ٢٨٠٩، ويكنى أبا علي، انظر ابن الجوزي - المنتظم، ج ٩، ص ١٨٨، وابن كثير - البداية والنهاية، ج ٩، ص ٢٢٠ والخطيب البغدادي - تاريخ بغداد ج ٤، ص ١٢٨، والذهبي - سير أعلام النبلاء، ج ٩، ص ٥٩ والذهبي - تاريخ الإسلام ج ١٢، ص ٤٤٨ ويكنى أبا جعفر انظر اليماني - غربال الزمان، ص ١٧٦.

(٢) انظر ابن خلكان - وفيات الأعيان ج ٦، ص ٢٢٨ الذي يذكر أنه توفي في سنة تسعين ومائة وهو ابن سبعين سنة وقيل أربع وسبعين وانظر محمد الخضري - محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية "الدولة العباسية"، ص ١١١ وانظر د. عيسى العاكوب - تأثير الحكم الفارسية، ص ٣٠٠.

(٣) الجهشياري - الوزراء والكتاب، ص ٨٧ وابن خلكان - وفيات الأعيان، ج ٦، ص ٢١٩-٢٢٠ والميلوي - أحسن المسالك، ورقة ٥ أ.

(٤) ابن الطقطقي - الفخري، ص ١٥٦-١٥٧ وابن خلكان - وفيات الأعيان ج ٦، ص ٢١٩-٢٢٠.

(٥) الإربلي - خلاصة الذهب المسبوك، ص ٦١.

(٦) الجهشياري - الوزراء والكتاب، ص ١٥١.

(٧) المصدر نفسه، ص ٨٩.

(٨) ابن الطقطقي - الفخري، ص ١٥٦.

(٩) مروج الذهب، ج ٣، ص ٣٧٧.

وقد كان يحيى عضد أبيه وساعده الأيمن في المهمات الجسام، وقد أبدى براعةً وحنكةً وفطنةً وذكاءً، فكان واحد الدنيا علماً وأدباً ونبلاً وفضلاً وجوداً وحكمةً وحسن تدبير، يقول فيه ابن خلكان: "وأما يحيى؛ فإنه كان من النبل والعقل وجميع الخلال على أكمل وجه" (١)

ويقول ياقوت واصفاً يحيى: "... الوزير السري الجواد، سيد بني برمك وأفضلهم جوداً وحملاً ورأياً، وكان من أكمل أهل زمانه أدباً وفصاحةً وبلاغةً وأخباره في الكرم وشرف الخلال مشهورة" (٢).

ويقول صاحب الفخري فيه:

"... كان كاتباً بليغاً لبيباً أديباً سديداً صائب الآراء حسن التدبير، ضابطاً لما تحت يده، قوياً على الأمور جواداً يباري الريح كرمًا وجوداً، ممدحاً بكل لسان، حليماً عفيفاً وقوراً مهيباً" (٣).

بدأ نجم يحيى بالبريق في الدولة العباسية في خلافة أبي جعفر المنصور أثناء ولاية أبيه على طبرستان (٤) والري (٥) وما حولهما، إذ يذكر المؤرخون أنه أقام بالري نائباً عن أبيه (٦).

وقد أبدى يحيى من الكفاية في الإدارة والسياسة ما حاز على إعجاب المنصور، الذي كثيراً ما كان يقول إعجاباً بيحيى وكفايته:

ولد الناس ابناً، وولد يحيى اباً (٧).

ولذلك لما وجه المنصور ابنه المهدي إلى الري أوصاه بأن يستعين بخبرة يحيى، ويتلقى عنه بعض التوجيهات في أساليب الإدارة وفنون الحكم (٨) وقد ابتسم الحظ ليحيى في هذه الفترة من

(١) ابن خلكان - وفيات الأعيان، ج ٦، ص ٢٢١.

(٢) الحموي - معجم الأدباء ج ٦، ص ٢٨٠٩.

(٣) ابن الطقطقي - الفخري، ص ١٩٨.

(٤) طبرستان: بفتح أوله وثانيه وكسر الراء بلاد واسعة، من أشهر مدنها دهستان وجرجان واستراباد وآمل، ذات طبيعة جبلية، غزيرة المياه، كثيرة الفواكه، فتحت على مراحل في أيام عثمان بن عفان رضي الله عنه، انظر الحموي - معجم البلدان ج ٤، ص ١٣-١٦ "طبرستان" وتعرف طبرستان اليوم بجبال ألبرز أو بلاد مازندران الممتدة بمحاذاة الساحل الجنوبي لبحر قزوين. انظر لسترنج كي - بلدان الخلافة الشرقية، ص ٤٠٩.

(٥) الري: من أكبر مدن فارس، افتتحها المسلمون في خلافة عمر بن الخطاب سنة ٢٠هـ، وكانت مشهورة بفاكيتها وخيراتها وطبيعتها الجميلة، نبغ منها خلق كثير، أشهرهم الطبيب الحاذق أبو بكر الرازي المتوفى ٣١١هـ انظر الحموي - معجم البلدان، ج ٣، ص ١١٢-١١٦ "الري" والري اليوم من مدن إيران المعروفة.

(٦) الجهشيارى - الوزراء والكتاب، ١٣٦.

(٧) الطبري-تاريخ الطبري ج ٤، ص ٥١٤، وانظر الميلوي - أحسن المسالك، ورقة ١١ ب.

(٨) الجهشيارى - الوزراء والكتاب، ص ١٣٦.

الزمن حين توطدت العلاقة بين البرامكة والخليفة المهدي وذلك حين أرضعت زوجة يحيى البرمكي ابن المهدي هارون، في حين أرضعت الخيزران زوجة المهدي الفضل ابن يحيى البرمكي (١).

وزاد هذا من توثيق الصلة بين البرامكة والخيزران زوجة المهدي التي كانت تقف إلى جانبهم دائماً، وسنرى كيف استغل يحيى هذه العلاقة وعرف كيف يستثمرها لصالح البيت البرمكي.

ولعل هذه الرابطة زادت من اطمئنان المنصور ليحيى البرمكي، إذ يقول الجهشيارى بعد إيراد الحادثة السابقة: "... فتأكدت حرمة يحيى، واتصل سببه" (٢). ولذلك نراه يولي يحيى إقليم أذربيجان (٣) أحد الثغور الشرقية الهامة في الدولة، وعندما توجه يحيى إلى ولايته الجديدة؛ خرج المنصور بنفسه مشيعاً له في موكب ملكي بهيج تشريفاً له. واستمر يحيى في منصبه إلى وفاة المنصور ١٥٨ هـ (٤).

وعندما تولى المهدي الخلافة نال يحيى من الحظوة في عهده الشيء الكثير؛ فقد عينه كاتباً لرسائله (٥). ثم نراه في عام ١٦١ هـ يخصه بابنه هارون ويعهد إليه بتربيته وتأديبه بحكم رابطة الأبوة من الرضاع التي كانت تربط يحيى بالأمير الشاب هارون (٦). وقد حفظ هارون ليحيى هذه المكانة وعرف له حقه فكان لا يخاطبه إلا بـ يا أبي (٧).

وعندما أغزى المهدي ابنه الشاب هارون الصائفة عام ١٦٣ هـ؛ قلد يحيى بن خالد

(١) المصدر نفسه، ص ١٣٦، وانظر الطبري - تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٦١٧ وابن الأثير - الكامل ج ٥، ص ٢٧٧ وابن الطقطقي - الفخري، ص ٢٠١ وابن خلكان - وفيات الأعيان، ج ٤، ص ٢٧ وابن كثير - البداية والنهاية، ج ٩، ص ٢٢٧، والصفدي - الوافي بالوفيات، ج ٢٤، ص ٦٧ والخطيب البغدادي - تاريخ بغداد ج ١٢، ص ٣٣٤ والميلوي - أحسن المسالك ورقة ٤٤ أ، ب.

(٢) الجهشيارى: الوزراء والكتاب، ١٣٦.

(٣) أذربيجان: بالفتح ثم السكون وفتح الراء وكسر الباء وياء ساكنة، بلاد واسعة من اشير مدنها تبريز وسلماس ومزند، ذات خيرات وفيرة وقلاع كثيرة وفواكة جمّة، فتحت على مراحل أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، انظر الحموي - معجم البلدان، ج ١، ص ١٢٨-١٢٩. أذربيجان وتقوم في هذه البلاد اليوم دولة أذربيجان المعروفة.

(٤) انظر الطبري - تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٥١٤.

(٥) ابن تغري بردي - النجوم الزاهرة، ج ٢، ص ٥٧.

(٦) الطبري - تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٥٦٣.

(٧) الجهشيارى - الوزراء والكتاب، ص ١٧٧ وانظر المسعودي - مروج الذهب ج ٣، ص ٣٤٨ وابن كثير - البداية والنهاية ج ٩، ص ٢٢٠ والذهبي - سير أعلام النبلاء، ج ٩، ص ٦٠، الذهبي - تاريخ الإسلام، ج ١٢، ص ٤٥٠ والجاجرمي - نكت الوزراء، ص ٢٦ وابن الجوزي - المنتظم، ج ٩، ص ١٨٨ والياضي - مرآة الجنان، ج ٣، ص ٤٣٢ والإربلي - خلاصة الذهب المسبوك، ص ١٦١.

كتابته ونفقاته وتدبير أمر عسكريه (١).

وبعد النصر الذي حققه الجيش الذي أسندت قيادته إلى هارون، ارتفعت منزلة يحيى عند الخليفة المهدي، فعينه مشرفاً رسمياً على إدارة الدواوين الخاضعة للأقاليم التي عين ابنه أميراً عليها (٢).

وإذا ما علمنا أن هارون في تلك الفترة لم يكن قد تجاوز العشرين من عمره وأنه قد تولى المغرب كله وأذربيجان وأرمينية (٣)، أو على (٤) رواية الجهشيارى (٥): من الأنبار (٦) إلى إفريقية (٧)، استطعنا أن ندرك مدى السلطة التي كان يتمتع بها يحيى البرمكي على هذا الفتى الشاب الذي راح يهتم بتحقيق انتصاراته في حروبه مع الروم في حين نراه منشغلاً عن إدارة شؤون الأقاليم التي تقع في نطاق نفوذه تاركاً هذه المهمة ليحيى البرمكي (٨).

ويموت المهدي في ظروف غامضة ليتولى ابنه الهادي الخلافة من بعده، ويبدأ الفصل المرير الأول والمحنة الأولى في حياة يحيى.

لما تولى الهادي أقره على ما كان عليه في عهد أبيه المهدي، ولكن الصراع يبدأ بين الهادي ويحيى البرمكي حول ولاية العهد لابنه من الرضاع هارون؛ وقد لعب يحيى دوراً بالغ الأهمية في تثبيت هارون على ولاية العهد؛ ذلك أن الهادي لما عزم على خلع أخيه هارون من ولاية العهد والمبايعة لابنه جعفر لتبقى الخلافة في عقبه، طلب من أخيه أول الأمر أن يتنازل

(١) الجهشيارى - الوزراء والكتاب، ص ١٥٠.

(٢) الطبري - تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٥٦٨.

(٣) أرمينية: بلاد واسعة تقع إلى شمال الشام والعراق، وتضم أجزاء من شرق تركيا، وتتاخم من الشمال بلاد الخزر، كانت أرمينية بيد الروم حتى افتتحها المسلمون فأصبحت إحدى ولايات الدولة الإسلامية (انظر الحموي - معجم البلدان ج ١، ص ١٥٩-١٦١ أرمينية)، وتقوم في هذه البلاد دولة أرمينية المستقلة عن جمهوريات الاتحاد السوفياتي سابقاً.

(٤) الطبري - تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٥٦٨.

(٥) الجهشيارى - الوزراء والكتاب، ص ١٥٠.

(٦) الأنبار: مدينة على الفرات غربي بغداد بيئها عشرة فراسخ، أول من عمرها سابور بن هرمز ذي الأكتاف، ثم أعاد بناءها أبو العباس السفاح، انظر الحموي - معجم البلدان، ج ١، ص ٢٥٨ "الأنبار" وهي اليوم من مدن الجمهورية العراقية.

(٧) تشمل إفريقيا في ذلك الزمان تونس وأجزاء من البلاد المجاورة لها، انظر، الحموي - معجم البلدان، ج ١، ص ٢٢٨-٢٣١ "إفريقية".

(٨) الطبري - تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٥٦٨.

عنها طائعاً، وبذل له عطاءً جزيلاً ووعدته بخير كثير (١).

وكاد الرشيد يستسلم لضغوط أخيه الهادي، ولكن يحيى البرمكي، منعه وشجعه على التمسك بحقه، ونصحه قائلاً: إنها الخلافة، ولعل ما تقدر أنه يبقى لك لا يبقى " ولم ينزل به حتى ثبته (٢).

ولما تناهى إلى الهادي أن يحيى هو الذي يحرض الرشيد على الرفض، دعاه الهادي، وحاول أن يصطنعه ويقربه، وبذل له الأموال، ولكن يحيى أصر على موقفه فما كان من الهادي إلا أن ضيق عليه وقد لعب خصوم يحيى عند الهادي دوراً بالغاً في التأثير على موقفه من يحيى، فأخبروه بأنه ليس عليك من هارون خلاف وإنما يفسده عليك يحيى، فابعدت إليه وتهدده بالقتل، وارمه بالكفر؛ فأغضب ذلك الخليفة على يحيى (٣).

وقد بلغت وشايات خصوم يحيى من الهادي كل مبلغ؛ إذ يذكر المؤرخون أن الهادي بعث إلى يحيى ليلة "قأيس" من نفسه وودع أهله، وتحنط وجدد ثيابه، ولم يشك أنه يقتله، فلما أدخل عليه قال: يا يحيى مالي ولك؟ قال: أنا عبدك يا أمير المؤمنين، فما يكون من العبد إلى مولاه إلا طاعته، قال: فلم تدخل بيني وبين أخي وتفسده علي، قال: يا أمير المؤمنين، من أنا حتى أدخل بينكما؟ إنما صيرني المهدي معه، وأمرني بالقيام بأمره، ففقت بما أمرني به، ثم أمرتني بذلك فانتهيت إلى أمرك قال: فما الذي صنع هارون؟ قال: ما صنع شيئاً، ولا ذلك فيه ولا عنده قال: فسكن غضبه" (٤)، ورضي عنه.

وقد دعاه مرة وناظره في خلع الرشيد وتحتيته عن ولاية العهد وإحلال ابنه جعفر مكانه، فقال له يحيى: "يا أمير المؤمنين، إنك إن حملت الناس على نكث الأيمان هانت عليهم أيمانهم، وجرأتهم على حل العقود التي تعقد عليهم، ولو تركت الأمر في بيعة أخيك بحاله، وبويع لجعفر من بعده كان ذلك أوكد لبيعته، فقال: "صدقت ونصحت وأنا أنظر في هذا" (٥).

(١) تذكر الروايات أن الهادي في سبيل موافقة هارون على التنازل عن ولاية العبد لابنه بذل له الهنيء والمريء وهما نيران بإزاء الرقة احتقرهما هشام بن عبد الملك وأقام عليهما واسطة الرقة، انظر الحموي - معجم البلدان، ج٥، ص ٤١٩ الهنيء. وانظر الجهشيارى - الوزراء والكتاب، ص ١٦٩.

(٢) الجهشيارى - الوزراء والكتاب، ص ١٧٠.

(٣) الطبري - تاريخ الطبري، ج٤، ص ٦٠٥.

(٤) المصدر نفسه، ج٤، ص ٦٠٥-٦٠٦.

(٥) الجهشيارى - الوزراء والكتاب، ص ١٧٠. وانظر الطبري، ج٤، ص ٦٠٦ مع تغيير طفيف في النص.

وعدل عن رأيه ووافق يحيى غير أنه لم يلبث أن غضب عليه وحبسه، وعزم على قتله (١). فبعث إليه يحيى رقعة يتلطف فيها ويقول: "إن عندي نصيحة، فأجابه الهادي إلى طلبه، فلما أخلى المكان قال يحيى: يا أمير المؤمنين أرأيت إن كان الأمر - أسأل الله ألا تبلغه وأن يقدمنا قبله - (ويعني موت الهادي) أظن أن الناس يسلمون الخلافة لجعفر، وهو لم يبلغ الحلم، ويرضون به لصلاتهم وحجهم وغزاهم! قال: والله ما أظن ذلك، قال: يا أمير المؤمنين، أفتأمن أن يسمو إليها أهلك وجلتكم مثل فلان وفلان، ويطمع فيها غيرهم، فتخرج من ولد أبيك؟ فقال له: نيهتني يا يحيى... فقال يحيى: لو أن هذا الأمر لم يُعقد لأخيك، أما كان ينبغي أن تعقده له، فكيف بأن تحله عنه، وقد عقده المهدي له! ولكن أرى أن تقر هذا الأمر يا أمير المؤمنين على حاله، فإذا بلغ جعفر وبلغ الله به، أتيت به بالرشيد فخلع نفسه، وكان أول من يبايعه ويعطيه صفة يده" فقبل الهادي رأيه وأمر بإطلاقه (٢).

ثم استؤنفت الدسائس من جديد، وعاد الهادي يلح على هارون بخلع نفسه، وضيق عليه، وكاد الهادي يوفق في مسعاه لولا نصيحة يحيى للرشيد بالخروج إلى الصيد، وعمل الرشيد بنصيحة يحيى وخرج للصيد، وغاب أربعين يوماً، فبعث الهادي إليه بأمره، بالعودة، ولكن الرشيد كان يتعلل عليه، ويخلق الأعذار عملاً بنصيحة يحيى؛ فاعتم الهادي لذلك وأظهر شتمه وبسط مواليه وقواده ألسنتهم فيه (٣) حتى خشيت أمه الخيزران عليه؛ فبعثت إحدى جواربها إلى يحيى تقول له: الله الله في ابني لا تقتله، ودعه يجيب أخاه إلى ما يسأله ويريده منه، فبقاؤه أحب إلي من الدنيا بجمع ما فيها، فغضب يحيى وقال لها: وما أنت وهذا، إن يكن ما تقولين فإني وولدي وأهلي سنقتل قبله، فإن اتهمت عليه فلست بمتهم على نفسي ولا عليهم (٤).

وإزاء إصرار يحيى الواضح على عدم خلع هارون لم يجد الهادي بداً من حبسه، وكان عازماً على قتله في تلك الليلة، ولكن الأقدار شاءت أن يتوفي الهادي في الليلة نفسها التي عزم فيها على قتل يحيى.

ويروى عن يحيى البرمكي أنه قال: حبسني موسى الهادي بسبب الرشيد وترببتي إياه ومكاني معه... فقال: بلغني أنك ترضى هارون للخلافة ونفسك للوزارة، والله لأتئن على

(١) اليعقوبي - تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص ٤٠٦.

(٢) الطبري - تاريخ الطبري، ج٤، ص ٦٠٦. وانظر الجهشيارى - الوزراء والكتاب، ص ١٧٠. والمسعودي - مروج الذهب، ج٢، ص ٣٤٢-٣٤٣ مع تغيير طفيف في النص.

(٣) الطبري - تاريخ الطبري، ج٤، ص ٦٠٧. وانظر المسعودي - مروج الذهب، ج٢، ص ٣٤٣.

(٤) الطبري - تاريخ الطبري، ج٤، ص ٦٠٧.

نفسه ونفسك قبل ذلك! وحبسني في بيت ضيق لا أقدر أن أمد رجلي فيه" (١).

وبعد وفاة الهادي؛ أطلقت الخيزران سراح يحيى، فذهب إلى الرشيد، وعزاه بوفاء أخيه وهناه بالخلافة، وبتولية الرشيد الخلافة يتألق نجم يحيى بن خالد وتبسم له الحياة من جديد.

لم يتسَّ الرشيد أفضل أبيه يحيى عليه، وما تعرض له على يد أخيه الهادي من السجن والتعذيب والتهديد بالقتل، في سبيل تولي الرشيد الخلافة، والواقع إن الرشيد مدين ليحيى البرمكي باعتلائه عرش الخلافة، كما أن يحيى كان مدفوعاً بتطلعاته السياسية وطموحاته التي لم تكن تقف دونها حدود، والتي كانت ستزورها الرياح لو نجح الهادي في تحقيق مسعاه في خلع هارون.

وقد عرف الرشيد ليحيى فضله وحفظ له حقه، فكان من أوائل أعماله بعد توليه عرش الخلافة أن قلد يحيى وزارته في حفل بهيج خلد فيه الشعر اسم يحيى (٢)، وهي وزارة لم يسبق لها مثيل في تاريخ بني العباس، فقد منحه الرشيد بهذه الوزارة سلطة مطلقة وأطلق يده في تصريف شؤون دولته يتضح لنا هذا من قول الرشيد ليحيى عندما تولى الخلافة: "يا أبت، أنت أجلسنتي هذا المجلس ببركة رأيك وحسن تدبيرك، وقد قلدتك أمر الرعية وأخرجته من عنقي إليك، فأحكم بما ترى، واستعمل من شئت، واعزل من رأيت، وافرض من رأيت، وأسقط من رأيت، فأني غير ناظر معك في شيء" (٣).

(١) اليعقوبي - تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص ٤٠٦.

(٢) يروي المؤرخون أن الرشيد لما قلد يحيى البرمكي وزارته، قام إبراهيم الموصللي وأنشد مهنئاً الرشيد بالخلافة ويحيى بالوزارة:

ألم ترَ أن الشمس كانت سقيمة فلما ولي هارون أشرق نورها
بيمن أمين الله هارون ذي الندى فهارون واليهما ويحيى وزيرها

انظر ابن خلكان - وفيات الأعيان، ج٦، ص ٢٢٠. واليماني - غريبال الزمان، ص ١٧٦. والطبري - تاريخ الطبري، ج٤، ص ٦١٩. وابن الأثير - الكامل، ج٥، ص ٢٧٨. والمسعودي - مروج الذهب، ج٣، ص ٣٤٨. والياضي - مرآة الجنان، ج١، ص ٤٣٢، وقد أورد صاحب الأغاني هذين البيتين برواية أخرى على هذا النسق:

ألم ترَ أن الشمس كانت مريضة فلما ولي هارون أشرق نورها
فألبيت الدنيا جمالا بوجهه فهارون واليهما ويحيى وزيرها

الأصفهاني - الأغاني، ج٥، ص ١٦١.

(٣) انظر الجهشباري - الوزراء والكتاب، ص ١٧٧. والطبري - تاريخ الطبري، ج٤، ص ٦١٩. والمسعودي - مروج الذهب، ج٣، ص ٣٤٨ مع اختلاف يسير في بعض الألفاظ.

وبهذا يكون الرشيد قد فوض يحيى تفويضاً مطلقاً في دولته، وجرّد نفسه من كافة صلاحياته، وجعل إصدار الأمور وإيرادها إلى يحيى^(١). فأصبح بذلك صاحب الأمر والنهي في دولة الرشيد.

وقد نهض يحيى بأعباء الدولة نهوضاً كاملاً، ويخبرنا الجهشيارى، أن يحيى كان يجلس هو وابناه جعفر والفضل جلوساً عاماً إلى الناس يقضون حوائجهم وينظرون في شكاياتهم لا يُحجّب عنهم أحد ولا يلقي لهم ستر^(٢).

وبالإضافة إلى مهام الوزارة؛ فقد أسندت إلى يحيى جميع الدواوين عدا ديوان الخاتم الذي لم يلبث أن أسند إليه عام ١٧١هـ، وبذلك اجتمعت له الوزارتان^(٣). وكانت الكتب التي تنفذ من ديوان الخراج تُورخ بإسم يحيى بن خالد، ولم تكن تنفذ من قبل إلا عن الخليفة^(٤).

ويروي المؤرخون أن يحيى البرمكي قد حاز لقباً آخر إضافة إلى لقبه الرسمي - الوزير - حين صار يدعى بالأمير، وهو لقب شرفي لم ينله أحد من أعوان الخلفاء من قبله^(٥). ويبدو من أحاديث المؤرخين أن الخيزران كانت تشاطر يحيى السلطة على ولدها، إذ يذكر هؤلاء أن يحيى البرمكي كان يعرض الأمور عليها ويورد ويصدر عن أمرها، فلم يكن يقطع أمراً دون مشورتها^(٦). واستمر ذلك إلى وفاتها عام ١٧٣هـ.

وبذلك أصبح يحيى يتمتع بسلطات مطلقة، وكان الرشيد لا يقطع أمراً دون مشورته، وقد أسلفنا قصته مع يحيى في ولاية العهد^(٧)، وهناك حوادث أخرى تؤكد هذه الحقيقة^(٨).

وقد بلغ من منزلة يحيى عند الرشيد، أنه سمح له بالدخول عليه دون وساطة حاجب أو موعد سابق، كما أمر الغلمان والخدم بالوقوف له إكباراً وإجلالاً^(٩). ولم تقتصر الخطوة عند الرشيد على يحيى البرمكي، فقد شملت أبناءه وسائر أفراد أسرته، حتى أمسك البرامكة بزمام الأمور، وأحكموا قبضتهم على دولة الرشيد، وشكلوا ما أطلق عليه صاحب الفخري بـ دولة

(١) الخطيب البغدادي - تاريخ بغداد، ج٤، ص ١٤٩. وانظر ابن خلكان - وفيات الأعيان، ج٦، ص ٢٢١. والياقي - مرآة الجنان، ج١، ص ٤٣٢.

(٢) الجهشيارى - الوزراء والكتاب، ص ١٧٧.

(٣) انظر الجهشيارى - الوزراء والكتاب، ص ١٧٧. وانظر الطبري - تاريخ الطبري، ج٤، ص ٦٢١.

(٤) الجهشيارى - الوزراء والكتاب، ص ١٧٨.

(٥) الجهشيارى - الوزراء والكتاب، ص ١٧٧.

(٦) الطبري - تاريخ الطبري، ج٤، ص ٦٢٠.

(٧) انظر ص ٢٣ - ٢٤ من هذا البحث.

(٨) انظر السيوطي - تاريخ الخلفاء، ص ١٨٩ وفيه أن الرشيد أراد أن يوصل ما بين بحر الروم "البحر المتوسط" وبحر القلزم "البحر الأحمر" ولكن يحيى أشار عليه ألا يفعل، فأخذ برأيه وعدل عن ذلك.

(٩) الطبري - تاريخ الطبري، ج٤، ص ٦٥٧-٦٥٨.

البرامكة وهي التي يقول فيها :

"اعلم أن هذه الدولة كانت غرة في جبهة الدهر، وتاجاً على مفرق العصر، ضُربت بمكارمها الأمثال، وشدت إليها الرحال، ونيطت بها الآمال، وبذلت لها الدنيا أفلاذ أكبادها، ومنحتها أوفر إسعادها، فكان يحيى وبنوه كالنجوم زاهرة، والبحور زاخرة، والسيول دافعة، والغيوث مطرة، واسواق الآداب عندهم نافقة، ومراتب ذوي الحرمات عندهم عالية، والدنيا في أيامهم عامرة، وابهة المملكة ظاهرة، وهم ملجأ اللهب ومعتصم الطريد" (١).

وقد استمر يحيى وبنوه على هذه الحال من الحظوة عند الرشيد، إلى أن نكبهم النكبة المشهورة التي أتت عليهم جميعاً وقضت على سلطانهم، فقتل جعفر بن يحيى وسجن يحيى وسائر أفراد أسرته، وعمهم بنقمة وكان ذلك عام ١٨٧هـ (٢).

ولم يزل يحيى محبوساً إلى أن مات في حبسه في الرقة في الثالث من المحرم سنة تسعين ومائة وله من العمر سبعون سنة وقد صلى عليه ابنه الفضل ودفن بالرافقة (٣) على شاطئ الفرات (٤).

ويعلم الرشيد بوفاة يحيى ويحزن لذلك أشد الحزن، ويقول: "اليوم مات أعقل الناس وأكملهم" (٥)، ويذكر المؤرخون أن الرشيد لما بلغه موت يحيى، لم يزل يبكي يومه كله، وبقي

(١) ابن الطقطقي - الفخري، ص ١٩٧.

(٢) انظر الطبري - تاريخ الطبري، ج٤، ص ٦٥٧-٦٥٨، وابن الأثير - الكامل، ج٥، ص ٣٢٧. وابن الجوزي - المنتظم، ج٩، ص ١٢٦. وابن خلدون - العبر، ج٣، ص ٤٧٤. وابن كثير - البداية والنهاية، ج٩، ص ٢٠٤. والمسعودي - مروج الذهب، ج٣، ص ٣٧٧. ومجهول - العيون والحدائق، ج٣، ص ٣٠٥.

(٣) الرافقة : بلد متصل البناء بالرقة، من أعمال الجزيرة الفراتية، مدينة كبيرة كثيرة الخير، بناها المنصور، عام ١٥٥هـ على بناء مدينة بغداد ورتب لها المهدي وهو ولي عهد جنداً من خراسان، ثم بنى الرشيد قصورها، انظر الحموي - معجم البلدان، ج٣، ص ٤٠ (الرافقة) وهي اليوم تقع في شمال شرق سوريا.

(٤) الجهشياري - الوزراء والكتاب، ص ٢٦١. وابن كثير - البداية والنهاية، ج٩، ص ٢٢٢. والخطيب البغدادي - تاريخ بغداد، ج١٤، ص ١٣٢. والياقعي - مرآة الجنان، ج١، ص ٤٣١، ٤٣٥. والإربلي - خلاصة الذهب المسبوك، ص ١٦٣. وابن الجوزي - المنتظم، ج٩، ص ١٩٢. والذهبي - العبر في خبر من غير، ج١، ص ٢٣٨. والذهبي - تاريخ الإسلام، ج١٢، ص ٤٥١. والذهبي - سير أعلام النبلاء، ج٩، ص ٦١. وابن خلكان - وفيات الأعيان، ج٦، ص ٢٢٨. وابن العماد - شذرات الذهب، ج٢، ص ٤١٩. والحموي - معجم الأبياء، ج٦، ص ٢٨١٢. واليماني - غربال الزمان، ص ١٧٦. وابن خلدون - العبر، ج٣، ص ٤٧٦. والمسعودي - مروج الذهب وفيه أنه توفي في سنة ١٨٩هـ. انظر مروج الذهب، ج٣، ص ٣٥٤.

(٥) الاثليدي - إعلام الناس، ص ٢٦٠.

أياماً يتبين الأسى في وجهه (١).

كان يحيى ثروة إنسانية، بأخلاقه وعلمه وأدبه وسياسته وحسن تدبيره، فقد كان رجلاً فاضلاً حليماً حكيماً كئيباً سيوساً حسيباً، ساعد على ذلك ما عرف عنه من التعقل والطموح وسداد الرأي وحسن التصرف، وقد كان لأبيه خالد البرمكي الأثر الأكبر في اتصافه بهذه الصفات، هذا فضلاً عن الكرم والفصاحة والفقهاء، ولذلك فقد كان يحيى جديراً بأن تسند إليه عظام الأمور.

وكثيراً ما توقف الرواة لبرووا لنا قصصاً تدل على كرم أخلاقه ونبله ؛ ففي حلمه وتواضعه تضرب الأمثال، من ذلك، أنه كان يتحدث يوماً وجماعة من خدمة حوله يعبثون ويترامون بالبطيخ فجاءت بطيخة وأصابته وجهه، فما تحرك ولا غضب، فقال له أحد ضيوفه: أصلحك الله ! لو نهى هؤلاء وأخيفوا حتى لا يجترئوا على مثل هذا فقال : اللهم غفراً! نحن نحب أن نؤمن من بعدنا، فكيف نخيف من كان على بساطنا (٢). وفي يحيى يقول عبدالصمد ابن علي (٣): "ما رأيت أكرم من يحيى نفساً، ولا أحلم منه، جعل على نفسه ألا يكافئ أحداً بسوء فوفى" (٤). وكان يحيى يقول : "من حقوق المروءة وإمارة النبيل، أن تتواضع لمن هو دونك، وتتصرف من هو مثلك، وتستولي على من هو فوقك" (٥).

ويحكي أن أصحاب الحوائج كانوا يكثرون القعود على دكان علي باب يحيى بن خالد، وكان يحيى إذا رآهم وقف عليهم، ولقيهم ببشر وطلاقة وأنه خرج يوماً مبكراً فلم يرَ منهم أحداً، فانشد متمثلاً:

وليسَ أخو الحاجاتِ منَ باتِ نائماً
ولكنَ أخوها منَ نبيئتِ عليٍّ وجَلِّ (٦)
وكان يقول : "ما وقع غبارٌ موكبي على لحيته رجلٍ قطُّ، إلا أوجبتُ له على نفسي حِفْظَهُ، وألزمتُها حقَّهُ" (٧).

أما عن حكمة يحيى ؛ فقد كان حكيماً في قوله وفعله، فأقواله حكم خالدة على مر الزمان، لعمق

(١) ابن خلكان - وفيات الأعيان، ج٦، ص ٢٢٨.

(٢) الجهشيارى - الوزراء والكتاب، ص ١٨٧.

(٣) عبد الصمد بن علي بن عبد الله بن عباس عم السفاح والمنصور، ولد سنة أربع ومائة، وكان ضخماً الجثة جداً، ذهب بصره في آخر حياته، ومات ولم يبدل أسنانه، وكانت أصولها صفيحة واحدة، توفي سنة ١٨٥ هـ بالجدري، وصلى عليه الرشيد ليلاً، ودفن في باب البردان، وله إحدى وثمانون سنة. انظر ابن كثير - البداية والنهاية، ج٩، ص ٢٠١. وابن الجوزي - المنتظم، ج٩، ص ١٠٤-١٠٨.

(٤) الجهشيارى - الوزراء والكتاب، ص ٢٠٣.

(٥) الجاجرمي - نكت الوزراء، ص ٢٧.

(٦) الجهشيارى - الوزراء والكتاب، ص ١٧٨.

(٧) المصدر نفسه، ص ٢٠٢.

معناها، ونفاسة محتواها، ومن ذلك قوله: "الدُّنْيَا دُولٌ وَالْمَالُ عَارِيَّةٌ، وَلَنَا بِمَنْ قَبَّلْنَا أَسْوَةً، وَفِينَا لِمَنْ بَعَدْنَا عَيْبَةٌ" (١)، ومنها قوله: "الدَّالَّةُ تُفْسِدُ الْحُرْمَةَ الْقَدِيمَةَ، وَتَضُرُّ بِالْمَحَبَّةِ الْمُتَأَكَّدَةَ" (٢) وقوله: "لَسْتُ تَرَى أَحَدًا تَكْبَّرَ فِي إِمَارَةٍ إِلَّا وَقَدْ دَلَّ عَلَى أَنَّ الَّذِي نَالَ فَوْقَ قَدْرِهِ، وَلَسْتُ تَرَى أَحَدًا تَوَاضَعَ فِي إِمَارَةٍ إِلَّا وَهُوَ فِي نَفْسِهِ أَكْبَرُ مِمَّا نَالَ فِي سُلْطَانِهِ" (٣)، وهي كما ترى تتم عن دهاء وخبرة بالحياة ومعرفة بشؤونها، وغير هذه الحكم كثير نجده متناثراً في بطون الكتب التي ترجمت له.

وفي حسن سياسته وتدييره مواقف كثيرة، تثبت أن الرجل كان يتمتع بمؤهلات عظيمة، تؤهله لأن يكون عالماً من أعلام السياسة في عصره، من ذلك ما يروى أن الخيزران أمرت أن يُقتل كل مَنْ سارع إلى مبايعة جعفر بن الهادي، وخلص الرشيد؛ فقال لها يحيى أو خيرُ من ذلك؟ قالت: وما هو؟ قال: يُرمى بهم في نحور الأعداء؛ فإن دفعوا عن أنفسهم كان لهم في الدفع عنها شغل، وإن أصابهم العدو كُنتِ قد استرحت منهم فأذنت له في الك، فتخلص من القوم جميعاً (٤).

ومن المواقف التي تشهد بلباقته وسرعة بديهته، ما روي عنه أنه ركب يوماً مع الرشيد، فرأى الرشيد في طريقه أحمالاً، فسأل عنها فقيل له: هذه هدايا خراسان بعث بها علي بن عيسى بن ماهان - وكان ابن ماهان وليها بعد الفضل بن يحيى - فقال الرشيد ليحيى: أين كانت هذه الأحمال في ولاية ابنك؟ فقال يحيى: كانت في بيوت أصحابها، فأفحم الرشيد وسكت (٥). وكان يحيى كريماً جواداً يباري الريح كرمًا وجوداً (٦)، فكان بذلك سيد بني برمك وأفضلهم جوداً ورأياً (٧).

وفي كرم يحيى وأبنائه - الذين تربوا في كنفه - تضرب الأمثال، وكتب التاريخ والأدب زاخرة بالأخبار والروايات التي تدل على كرمهم والتي يصل بعضها إلى ما يشبه الأساطير.

- (١) الجهشيارى - الوزراء والكتاب، ص ٢٠٣. وانظر الحموي - معجم الأدباء، ج٦، ص ٢٨١٢.
- والخطيب البغدادي - تاريخ بغداد، ج١٤، ص ١٢٩. والذهبي - تاريخ الإسلام، ج١٢، ص ٤٥٠. وابن خلكان - وفيات الأعيان، ج٦، ص ٢٢١. والميلوي - أحسن المسالك، ورقة ١١٩.
- (٢) الجهشيارى - الوزراء والكتاب، ص ٢٠٢.
- (٣) المصدر نفسه، ص ٢٠١. وانظر ابن قتيبة - عيون الأخبار، ج١، ص ٣٠٨.
- (٤) الجهشيارى - الوزراء والكتاب، ص ١٧٨.
- (٥) الحموي - معجم الأدباء، ج٦، ص ٢٨١١.
- (٦) ابن الطقطقي - الفخري، ص ١٩٨.
- (٧) الحموي - معجم الأدباء، ج٦، ص ٢٨٠٩.

يروى عن يحيى أنه كان مفرط العطاء، إلى درجة أنه إذا ركب أعطى كل من تعرض له مائتي درهم، فركب ذات يوم فتعرض له أديب شاعر فقال له :

يا سَمِيَّ الحَصَوْرِ (١) يَحْيَى أُتِيحَتْ لَكَ مِنْ فَضْلِ رَبِّنَا جَنَّتَانِ
كُلُّ مَنْ مَرَّ فِي الطَّرِيقِ عَلَيَّكُمْ فَلَهُ مِنْ نَوَالِكُمْ مَائَتَانِ
مَائَتَا دِرْهَمٍ لِمِثْلِي فَلَيْسَ هِيَ مِنْكُمْ لِلْقَابِسِ العَجَلَانِ

قال يحيى صدقت، وأمر بحمله إلى داره فلما رجع من دار الخليفة سأله عن حاله، فذكر أنه تزوج وقد أخذ بواحدة من ثلاث : إما أن يؤدي المهر وهو أربعة آلاف، وإما أن يطلق، وإما أن يقيم جارياً للمرأة يكفيها إلى أن يتيها له نقلها، فأمر له يحيى بأربعة آلاف للمهر وبأربعة آلاف لثمن المنزل، وبأربعة آلاف لما يحتاج إليه المنزل وبأربعة آلاف للبنية وبأربعة آلاف يستظهر بها، فأخذ عشرين ألفاً وانصرف (٢).

وكثيراً ما توقف الرواة عند كرم يحيى وعطاياه التي انهلت كنبع الماء الرقراق لتصل إلى مستحقيها من ذوي الحاجات والشعراء والأدباء والعلماء، وفي يحيى يقول القائل : (٣)

سَأَلْتُ النَّدَى هَلْ أَنْتَ حُرٌّ فَقَالَ لَا وَلَكِنِّي عَبْدٌ لِيَحْيَى بْنِ خَالِدٍ
فَقُلْتُ شِرَاءٌ قَالَ لَا بَلْ وَرِائِةٌ تَوَارَثَنِي عَنْ وَالِدٍ بَعْدَ وَالِدٍ

وليس أدل على كرم يحيى وريادته في السخاء من نعي الرشيد - حين علم بوفاة يحيى - للجوذ والكرم بقوله: "مات والله يحيى، مات الجود والكرم والسخاء" (٤).

كان يحيى البرمكي ورعاً تقياً، وتروى في ذلك قصص كثيرة تدل على ورعه وتقواه، منها ما روي عنه أنه تعلق بأستار الكعبة مرة وردد الدعاء التالي : "اللَّهُمَّ إِنَّ ذُنُوبِي جَمَةٌ عَظِيمَةٌ، لَا يُحْصِيهَا غَيْرُكَ، وَلَا يَعْرِفُهَا سِوَاكَ، اللَّهُمَّ إِنَّ كُنْتُ مُعَاقِبِي فَاجْعَلْ عُقُوبَتِي فِي هَذِهِ

(١) الحصور : هو الذي لا يأتي النساء، ابن منظور - لسان العرب، مادة حصر ويقصد به هنا يحيى بن زكريا عليهما السلام.

(٢) ابن خلكان - وفيات الأعيان، ج٦، ص ٢٢٣.

(٣) ابن حجة الحموي - ثمرات الأوراق في المحاضرات، ص ٣٥٥. وانظر الإبيهي - المستطرف في كل فن مستظرف، ج١، ص ٢٧٠-٢٧١.

(٤) الاتليدي - إعلام الناس، ص ٢٦٠.

الدُّنْيَا، وَإِنْ أَحَاطَ ذَلِكَ بِسَمْعِي وَبَصَرِي وَمَالِي وَوَالِدِي حَتَّى تَبْلُغَ مِنِّي رِضَاكَ" (١).

وتقافة يحيى ثقافة شاملة واسعة مترامية الأطراف متعددة المصادر، والذي يظهر أنه نهل من ثقافات الأمم القديمة من هندية ويونانية بالإضافة إلى ثقافة قومه الفرس، ثم نراه يصيب سهماً وافرأ من الثقافة العربية، حتى أصبح علماً من أعلام الكتابة كما كان علماً من أعلام السياسة.

ويروى عن إسماعيل بن صبيح أن يحيى البرمكي كان أعلم الناس بالنجوم (٢) وقد تنبأ يحيى بقرب زوال أمرهم عن طريق حساب النجوم، يروى عن أحدهم أنه دخل على يحيى يريد عيادته من علة أصابته، فرأى بغلاً مسرجاً ووجد يحيى مفكراً مهموماً متشاغلاً بحساب النجوم، فقال له: إني لما رأيت البغل مسرجاً سرتني، لأنني قدرت انصراف العلة، وأن عزمك الركوب، فقد غمني ما أراه من همك، فقال يحيى: لهذا البغل قصة، وذلك أني رايت البارحة في النوم كأنني راكبه، حتى وافيت رأس الجسر من الجانب الشرقي، فوفقت، فسمعت من يقول:

كَأَنَّ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْحَجُونَ (٣) إِلَى الصَّفَا أُنَيْسٌ وَلَمْ يَسْمُرْ بِمَكَّةَ سَامِرُ

فقلت:

بَلَى نَحْنُ كُنَّا أَهْلَهَا فَأَبَادَنَا صُرُوفُ اللَّيَالِي وَالْجُدُودُ (٤) الْعَوَائِرُ (٥)

فلجأ يحيى لأخذ الطالع، فوقف على أنه لا بد من انقضاء مدتهم وزوال أمرهم، فلم يكذب يفرغ من كلامه حتى دخل عليهما من يحمل رأس جعفر ويقول: يقول لك أمير المؤمنين كيف رأيت نعمة الله من الفاجر، فقال له يحيى: قل له: يا أمير المؤمنين أرى أنك أفسدت عليه دنياه، وأفسد عليك دينك" (٦).

ونظراً لما تمتع به يحيى من ثقافة واسعة، عربية وأجنبية، فقد كان يُعقد تحت إشرافه مجالس علمية وأدبية يشارك فيها أغلب مثقفي ذلك العصر، في لون من ألوان المعرفة،

(١) الجهشيارى - الوزراء والكتاب، ص ٢٢٢. وانظر الطبري - تاريخ الطبري، ج٤، ص ٦٦٠.

(٢) الجهشيارى - الوزراء والكتاب، ص ٢٤٩.

(٣) والحجون: جبل بأعلى مكة فيه مدافن أهلها: انظر الحموي - معجم البلدان، ج٢، ص ٢٢٥. حجون.

(٤) الجدود: جمع جد وهو البخت والسخط، انظر ابن منظور - لسان العرب، مادة "جذذ".

(٥) هذان البيتان لعمر بن الحرث بن فضاض بن عمرو، قالهما يتأسف على البيت العتيق بمكة وقيل هما للحرث الجرهمي، انظر ابن منظور - لسان العرب، مادة حجن.

(٦) الجهشيارى - الوزراء والكتاب، ص ٢٥٣-٢٥٤.

فهناك مجلس لعلماء الكلام وهناك مجالس لعلماء اللغة والأدب، ولم يقتصر دور يحيى في هذه المجالس، على التنظيم والإشراف بل كان كثيراً ما يشارك فيها ويدلي بدلوه؛ فقد كان له آراء يدافع عنها ويعرضها كلما سنحت الفرصة بذلك^(١). وقد سلك ابن النديم يحيى البرمكي في الفلاسفة الذين تكلموا في الصنعة^(٢). وبذلك نراه يساهم مساهمة فعالة في الحركة الفكرية في عهد الرشيد.

إن شخصية عبقرية مثل شخصية يحيى، جمعت بين العلم والأدب والسياسة، حرية بأن يلتف حولها الكتاب، ينهلون منها، ويتدربون على يديها، فقد تنلذ على يدي يحيى عدد من الكتاب الذين ساهموا في نهضة الكتابة في أواخر القرن الثاني الهجري إلى منتصف القرن الثالث الهجري، ومن هؤلاء إسماعيل بن صبيح ويوسف بن صبيح ومحمد بن الليث وغيرهم من الكتاب^(٣).

أما عن بلاغة يحيى وفصاحته، فالمصادر الأدبية والتاريخية لا تتي تكيل له الثناء، إعجاباً ببلاغته وفصاحته وأدبه، والحقيقة إن ما تناثر في هذه المصادر من آثاره وإبداعاته، لهُو خير شاهد على تمكنه وبراعته في الكتابة، وقد أشاد به كبار الكتاب من معاصريه، فهذا سهل ابن هارون يصف بلاغته وبلاغته ابنه جعفر قائلاً: "والله إن كان سَجَّاعُو الخُطْبِ، ومُحَبَّرُو القَرِيضِ لَعِيَالاً عَلَيَّ يَحْيَى بنُ خَالِدِ بنِ بَرْمَكٍ وَجَعْفَرِ بنِ يَحْيَى، وَلَوْ كَانَ كَلَامٌ يَنْصَوْرُ دُرّاً وَيَحْيِيَةُ المَنْطِقِ السَّرِيِّ جَوْهَرًا، لَكَانَ كَلَامَهُمَا، وَالْمُنْتَقَى مِنْ لَفْظِهِمَا... وَلَقَدْ عَمَّرْتُ مَعَهُمْ، وَأَذْرَكْتُ طَبَقَةَ المُنْكَلَمِينَ فِي أَيَّامِهِمْ، وَهُمْ يَرَوْنَ أَنَّ البَلَاغَةَ لَمْ تُسَنَكَمَلْ إِلَّا فِيهِمْ، وَلَمْ تَكُنْ مَقْصُورَةً إِلَّا عَلَيْهِمْ، وَلَا انْقَادَتْ إِلَّا لَهُمْ، وَأَنْهَمُ مَحْضُ الأَنَامِ وَلِبَابِ الكِرَامِ وَمَلْخُ الأَيَّامِ، عِتْقَ مَنْظَرٍ وَجُودَةَ مَخْبَرٍ وَجَزَالَةَ مَنْطِقٍ وَسُهُولَةَ لَفْظٍ وَنَزَاهَةَ أَنْفُسٍ وَكَيْمَالَ خِصَالٍ"^(٤)، وابن النديم ينظمه مع الكتاب المترسلين ممن رويت رسائلهم^(٥).

ويقول فيه ياقوت: ".. كَانَ مِنْ أَكْمَلِ زَمَانِهِ أَدَبًا وَفَصَاحَةً وَبَلَاغَةً... وَإِنَّمَا دَخَلَ فِي شَرْطِ كِتَابِنَا مِنْ جِهَةِ بَلَاغَتِهِ وَتَقَدُّمِهِ عَلَى أَهْلِ عَصْرِهِ فِي الإِنشَاءِ وَالكِتَابَةِ وَمَا صَدَرَ عَنْهُ مِنْ الحُكْمِ وَالأَقْوَالِ الَّتِي تَدَاوَلَهَا الرِّوَاةُ وَمُلِئَتْ بِهَا الدَّفَائِرُ"^(٦).

وعلى الرغم من ذلك فلم يصلنا إلا النزر اليسير من أدب يحيى مما نجده متناثراً في

(١) المسعودي - مروج الذهب، ج٣، ص ٣٧٩-٣٨١.

(٢) ابن النديم - الفهرست، ص ٤٣٣.

(٣) انظر الجهشيارى - الوزراء والكتاب، ص ١٧٨.

(٤) ابن عبد ربه - العقد الفريد، ج٥، ص ٣١٧. وانظر ابن قتيبة - الإمامة والسياسة، ج١، ص ١٩٩.

(٥) ابن النديم - الفهرست، ص ١٥٣.

(٦) الحموي - معجم الأدباء، ج٦، ص ٢٨٠٩.

بطون كتب التراث مما لا يتناسب مع ثقافته الواسعة كما لا يتناسب مع إشادة الأدياء به ؛ ولعل هذا راجع إلى النكبة التي تعرض لها يحيى وأسرته على يدي الرشيد، فزال آثارهم بزوالهم خاصة وأنهم بنوا حياتهم على العصبية لبني جلدتهم من الموالي، فكانوا من رؤوس الشعبوية، ولذلك فمن الطبيعي أن يهمل الرواة رسائلهم بعد أن نكبهم الدهر، وعفا عليهم الزمن^(١).

خلف يحيى البرمكي وراءه أدباً جماً - ما بين رسائل وأقوال مأثورة وحكم ونصائح - ينم عن ملكة فطرية، وفريحة وقادة، وموهبة عظيمة، وحس رقيق، وثقافة واسعة، وخبرة بالحياة وتجاربها، وإن نظرة فاحصة لما خلفه يحيى من أدب ديواني ربما أسعفتنا في تلمس طريفته في الكتابة وما يميز أسلوبه في رسائله الديوانية.

لم يأت يحيى البرمكي بجديد في بناء الرسالة الديوانية، بل حافظ على بنائها كما كان عليه عند أسلافه من الكتاب، ولكنه ينسب إليه إحداث تطور في تصدير الرسائل ؛ إذ يذكر الجهشيارى أن يحيى البرمكي أول من زاد في الكتب : (وأسأله أن يصلي على محمد عبده ورسوله) بعد (فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو)^(٢)؛ ذلك أن الرسائل الديوانية قبل هذا العهد كانت تصدر بالحمد لله - عز وجل - دون الصلاة على النبي - صلى الله عليه وسلم^(٣).

استعمل يحيى البرمكي في لغته الكتابية أسلوبين متباينين، اعتمد في أحدهما على الإطناب، ولكنه لم يكن إطناباً مفراطاً، يجعل الملل يتسرب إلى نفس القارئ، ولعل طبيعة الموضوع الذي يطرقه هي التي كانت تفرض عليه أن يستعمل هذا الأسلوب أو ذاك ؛ وقع يحيى إلى صديق ظن به تغيراً : "يَبْغِي أَنْ تَكُونَ عَلَيَّ يَقِينٌ أَنِّي بِكَ ضَنِينٌ، أُرِيدُكَ مَا أُرَدُّنِي، إِنْ نَبَوْتُ عَنِّي، مَا كَانَ ذَلِكَ بِي وَبِكَ جَمِيلًا، فَإِنْ وَقَعْتَ الْمَقَادِيرُ بِخِلَافِ ذَلِكَ، لَمْ أَعُدْ مَا يَجِبُ... وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي مَا تَبَدَّلْتُ وَلَا حُلْتُ عَنْ عَهْدِي، جَمَعْنَا اللَّهُ وَإِيَّاكَ عَلَيَّ طَاعَتِهِ، وَمَحَبَّةَ خَلِيقَتِهِ، بِجُودِهِ وَقُدْرَتِهِ"^(٤).

فإذا أضفنا إلى هذه القطعة قطعة أخرى من توقيع يحيى ليوسف بن القاسم بن صبيح - أحد كتاب البرامكة - الذي زوج ابنه أحمد، فكتب إلى يحيى يطلب إليه السماح بتسليفه شهرين من مرتبه مقدماً حتى يسدد مهر ولده فوقع إليه يحيى :

"هَذِهِ فَضِيلَةٌ فِي أَوْلِيَانِنَا وَحُقُوقٍ فِي ضِيَافَتِنَا، فَحَنُّ بِالْقِيَامِ مِنْهَا دُونَكَ حَرِيُونٌ، وَبِحَظِّ نَقْلِهَا مِنْ

(١) د. محمد بنيه حجاب - مظاهر الشعبوية في، ص ٢٧٦. وانظر د. عيسى العاكوب - تأثير الحكم الفارسية، ص ٣٠١. وأحمد أمين - ضحى الاسلام، ج١، ص ١٩٣.

(٢) الجهشيارى - الوزراء والكتاب، ص ١٧٧.

(٣) الصولي - أدب الكتاب، ص ٢٩-٣٠.

(٤) الجهشيارى - الوزراء والكتاب، ص ٢٠٢.

مَالِكِ جَدِيرُونَ، وَقَدْ أَمَرْتُ لأَحْمَدَ بِمَا سَأَلْتَ مِنَ الْمَالِ بِمَسْأَلَتِكَ فِيهِ وَزِيَادَةَ الضَّعْفِ، اسْتَظْهَرْتُ
مِني لَهُ وَمُؤَكَّدًا وَأَمَرْتُ بِاسْتِحْقَاقِكَ لِشَهْرَيْنِ مِنْ مَالِ السُّلْطَانِ - أَعَزَّهُ اللَّهُ - وَمِثْلَهُ صِلَةً مِنْ
مَالِي، وَأَنْفَذْتُ إِلَيْكَ بِذَلِكَ كُلَّهُ رِفَاعًا بِخَطِّي إِلَى مَنْ يَقْبِضُ ذَلِكَ مِنْهُ، فَأَمَّا السُّلْفُ مِنْ مَالِ
السُّلْطَانِ فَلَا سَبِيلَ إِلَيْهِ، وَلَا أَعْرِفُ جَعْفَرًا بِتَارِكِ أَحْمَدَ إِلَيْكَ وَلَا إِلَيْنَا، كَمَا لَمْ يَتْرِكِ الْفَضْلُ
قَاسِمًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ^(١).

يتضح من القطعتين السابقتين أن يحيى البرمكي يمتلك قدرة كبيرة على الإطناب في
إطار من اللفظ الجميل والأسلوب الرشيق، ومع أن التوقيع يقتضي الإيجاز، فإن يحيى في
هذين التوقيعين قد عدل عن الإيجاز إلى الإطناب ليؤكد حقيقة مفادها أن تيار الإطناب بدأ
بتسرب إلى التوقيعات منذ عهد الرشيد.

وهذا التطور الذي طرأ على فن التوقيعات لم يأت إلا بفضل البرامكة وكتابتهم الذين تزعموا
الكتابة الديوانية في النصف الثاني من القرن الثاني والثالث الأول من القرن الثالث الهجريين.

أما الأسلوب الثاني الذي شاع في كتابات يحيى البرمكي فهو الأسلوب الموجز، وكما
كان يحيى بليغاً في إطلاته، فقد كان أيضاً بليغاً في إيجازه، ويُعد هذا الأسلوب أكثر شيوعاً في
كتابات من الأول، ونحس ونحن نقرأ أقواله أنه يمتلك ناصية اللغة، وقد غدت ألفاظها طيبة
تجري في مداد قلمه بسهولة ويسر، فيصل إلى معانيه بعبارة سهلة قصيرة، وهذه طائفة من
أقواله تؤكد ما ذهب إليه :

كان يقول : "إِذَا أَقْبَلْتَ الدُّنْيَا فَاَنْفُوقْ فَإِنَّهَا لَا تَنْقَى وَإِذَا أَدْبَرْتَ فَاَنْفُوقْ فَإِنَّهَا لَا تَبْقَى"^(٢)، وكان
يقول: "لَا أَرْحَامَ بَيْنَ الْمُلُوكِ وَبَيْنَ أَحَدٍ"^(٣) ومن عباراته الموجزة : "النَّاسُ يَكْتُبُونَ أَحْسَنَ مَا
يَسْمَعُونَ، وَيَحْفَظُونَ أَحْسَنَ مَا يَكْتُبُونَ وَيَتَحَدَّثُونَ بِأَحْسَنِ مَا يَحْفَظُونَ"^(٤). ومن أقواله السديدة:
"الْبَلَاغَةُ أَنْ تَكَلَّمَ كُلُّ قَوْمٍ بِمَا يَفْهَمُونَ"^(٥) ومن كلماته الرائعة : "مَنْ وُلِّيَ وِلَايَةً فَتَاءَ فِيهَا فَقَبْرُهُ
دُونَهَا"^(٦) وكان يقول: "أَنَا مُخَيَّرٌ فِي الْإِحْسَانِ إِلَى مَنْ أَحْسِنُ إِلَيْهِ، وَمُرْتَهَنٌ بِالْإِحْسَانِ إِلَى مَنْ

(١) الصولي - أخبار الشعراء المحدثين من كتاب الأوراق، ص ١٥٧.

(٢) انظر الخطيب البغدادي - تاريخ بغداد، ج٤، ص ١٤١. وابن الجوزي، ت ٥٩٧هـ - الشفاء في
مواظ الملوك والخلفاء، ص ٨١.

(٣) الجهشيارى - الوزراء والكتاب، ص ٢٠١.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٧٩.

(٥) المصدر نفسه، ص ٢٠٠. وانظر ابن قتيبة - عيون الأخبار، ج١، ص ٥٢٨ و الخطيب البغدادي -
تاريخ بغداد، ج٤، ص ١٢٩ مع اختلاف طفيف.

(٦) الجهشيارى - الوزراء والكتاب، ص ٢٠١.

أَحْسَنْتُ إِلَيْهِ ؛ لِأَنِّي إِنِ وَصَلْتُهُ فَقَدْ أْتَمَمْتُهُ وَإِنْ قَطَعْتُهُ فَقَدْ أَهْدَرْتُهُ" (١) هذا إضافة إلى رسائله الموجزة التي مرت بنا في الفصل الأول من هذه الدراسة والتي يغلب عليها الإيجاز، ومنها رسالته إلى ابنه جعفر ينهيه عن الإيغال في منادمة الرشيد (٢) ورسالته إلى ابنه الفضل يأمره بتحويل الخاتم إلى أخيه جعفر (٣).

تبدو سمة الإيجاز واضحة في الأقوال السابقة، والإيجاز ضرب من ضروب البلاغة، ولعل السبب في غلبة الإيجاز على كتابات يحيى وأقواله هو انشغاله بأعباء الوزارة ومهامها فوقته لم يكن يسمح بالإطالة، وهذا ما يفسر استعانته بالعديد من الكتاب للعمل في ديوان الرسائل الذي كان يتولى مهمة الإشراف عليه على النحو الذي بيناه في الصفحات الأولى من هذه الدراسة (٤).

ويتمتع يحيى بأسلوب شيق ممتع محبوب للنفس، مؤثر في السامع، فهو يكتب بأسلوب مسجوع غير متكلف ولا منفر، فلا يلتزم حرفاً واحداً حين يعقد سجعاته في تراكيبه، فإذا أحس أن طول السجعة قد يؤدي إلى الملل، عمد إلى استبدال ذلك الحرف بحرف آخر ليعقد سجعة أخرى في الفقرة ذاتها، يقول في رسالته التي بعثها إلى الرشيد من السجن يستعطفه ليطلق سراحه وسراح أسرته: "لأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَخَلِيفَةَ الْمَهْدِيِّينَ، وَإِمَامِ الْمُسْلِمِينَ وَخَلِيفَةَ رَبِّ الْعَالَمِينَ، مِنْ عَبْدِ اسْتَلَمَتْهُ ذُنُوبُهُ وَأُوتِقَتْهُ عُيُوبُهُ، وَخَذَلَهُ شَقِيقُهُ، وَرَقَضَهُ صَدِيقُهُ، وَمَالَ بِهِ الزَّمَانُ، وَنَزَلَ بِهِ الْخِذْلَانُ، فَحَلَّ فِي الضِّيْقِ بَعْدَ السَّعَةِ، وَعَالَجَ الْبُؤْسَ بَعْدَ الدَّاعَةِ، وَافْتَرَشَ السُّخْطَ بَعْدَ الرِّضَا وَاکْتَحَلَ الشَّهَادَ بَعْدَ الْهُجُودِ، سَاعَتُهُ شَهْرٌ، وَلَيْلَتُهُ ذَهْرٌ، قَدْ عَايَنَ الْمَوْتَ وَشَارَفَ الْقَوْتَ... (٥)".

فقد بنى سجعته في مستهل هذه القطعة على حرف النون ثم انحرف إلى حرف الهاء ثم عاد إلى النون ثم تحول إلى حرف الهاء [من ناحية اللفظ] من جديد، وهو بذلك لم يأت بالفاظ وتراكيب مقحمة على السياق حتى يستقيم له السجع، وإنما جاء سجعه عفو الخاطر دون تكلف، وما هذا التنويع في السجع إلا ليستدر عطف الرشيد فيعفو عنه ويطلق سراحه.

وظاهرة أخرى في أسلوب يحيى وهي الموازنة بين الجمل، وتأتي هذه الظاهرة مقرونة بالأسلوب المسجوع أحياناً، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على قدرة يحيى وبراعته في حيك عبارته وصوغها صوغاً فنياً رائعاً، وتبدو هذه الظاهرة واضحة جلية في القطعة السابقة إضافة إلى قوله :

(١) الحموي - معجم الأديباء، ج٦، ص ٢٨١٠.

(٢) انظر ص ٥٥ من هذا البحث.

(٣) انظر ص ٧١ من هذا البحث.

(٤) د. محمد نبيه حجاب - مظاهر الشعبوية، ص ٣٧٦، وانظر ص ٢-١٠ من هذا البحث.

(٥) ابن عبد ربه - العقد الفريد، ج٥، ص ٣٢٦-٣٢٧.

"الكَرِيمُ إِذَا تَقَرَّأَ (١) تَوَاضَعَ، وَاللَّيْنِمُ إِذَا تَقَرَّأَ تَكَبَّرَ وَالْحَسِيْسُ إِذَا أُسْرَ تَجَبَّرَ" (٢) وقوله: "التَّعْزِيَةُ بَعْدَ ثَلَاثِ تَجْدِيدٍ لِلْمُصِيبَةِ وَالتَّهْنِئَةُ بَعْدَ ثَلَاثِ اسْتِخْفَافٍ بِالْمَوْدَةِ" (٣).

وقد يستغني يحيى عن السجع فيأتي أسلوبه مرسلًا عاطلاً من السجع؛ فإذا ما احتاج إلى بيان أمر، أو تبرير موقف بحاجة إلى التوضيح؛ فإنه يلجأ إلى الأسلوب المرسل، فتأتي معانيه واضحة جلية لا لبس فيها ولا تحتمل التأويل، يقول: "أَحْسَنُ جِيلَةَ الْوِلَاةِ إِصَابَةُ السِّيَاسَةِ، وَرَأْسُ إِصَابَةِ السِّيَاسَةِ الْعَمَلُ لِبَطَاعَةِ اللَّهِ وَفَتْحُ بَابَيْنِ لِلرَّعِيَّةِ أَحَدُهُمَا رَأْفَةٌ وَرَحْمَةٌ وَالْآخَرُ غِلْظَةٌ وَمُبَاعَدَةٌ وَإِمْسَاكٌ وَمَنْعٌ" (٤).

ويقول في رسالته إلى ابنه الفضل الذي ولاه الرشيد خراسان، فبلغه أنه متشاغل باللهو والصيد عن مزاوله مهام الحكم، فطلب من يحيى أن يكفيه أمر ابنه، فكتب إليه يحيى ينصحه ويقول: "حَفِظَكَ اللَّهُ يَا بَنِيَّ وَأَمْتَعَكَ بِكَ، قَدْ انْتَهَى إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ مِنَ التَّشَاغُلِ بِالصَّيْدِ وَمُدَاوِمَةِ اللَّذَاتِ عَنِ النَّظَرِ فِي أُمُورِ الرَّعِيَّةِ مَا أَنْكَرَهُ، فَعَاوِذُ مَا هُوَ أَزِينُ بِكَ فَإِنَّهُ مَنْ عَادَ إِلَى مَا يَزِينُهُ أَوْ يُشِينُهُ لَمْ يَعْرِفْهُ أَهْلُ ذَهْرِهِ إِلَّا بِهِ، وَالسَّلَامُ..." (٥).

وقد يراوح بين الأسلوبين في الرسالة الواحدة، فهذا هو في رسالته إلى الرشيد يبدأ بالأسلوب المسجوع، ولكنه لا يلبث أن ينحرف عنه إلى الأسلوب المرسل، حين يؤكد براءته مما اقترفه ابنه جعفر: "... قَدْ عَائِنَ الْمَوْتَ، وَشَارَفَ الْفَوْتَ جَزَعًا لِمَوْجِدِيكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَأَسْفًا عَلَى مَا فَاتَ مِنْ قُرْبِكَ لَا عَلَى شَيْءٍ مِنَ الْمَوَاطِبِ؛ لِأَنَّ الْأَهْلَ وَالْمَالَ إِنَّمَا كَانَا لَكَ وَبِكَ، وَكَانَا فِي يَدَيَّ عَارِيَّةً، وَالْعَارِيَّةُ مَرْدُودَةٌ وَأَمَّا مَا أَصِيبْتُ بِهِ مِنْ وَادِي فَبِدَنْبِهِ، وَلَا أَخْشَى عَلَيْكَ الْخَطَأَ مِنْ أَمْرِهِ وَلَا أَنْ تَكُونَ تَجَاوَزْتَ بِهِ فَوْقَ حُدُودِهِ. تَفَكَّرْ فِي أَمْرِي - جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ - وَلَيْمَلْ هَوَاكَ بِالْعَفْوِ عَنِ ذَنْبِ إِنْ كَانَ، فَمِنْ مِثْلِي الزَّلُّ، وَمِنْ مِثْلِكَ الْإِقَالَةُ، وَإِنَّمَا أَعْتَدْتُ إِلَيْكَ بِإِقْرَارِ مَا يَجِبُ بِهِ الْإِقْرَارُ حَتَّى تَرْضَى، فَإِنْ رَضِيتَ رَجَوْتُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَتَبَيَّنَ لَكَ مِنْ أَمْرِي وَبَرَاءَةِ سَاحَتِي مَا لَا يَنْعَاطُكَ بَعْدَهُ ذَنْبٌ أَنْ تَغْفِرَهُ، مَدَّ اللَّهُ فِي عُمْرِكَ وَجَعَلَ يَوْمِي قَبْلَ يَوْمِكَ" (٦).

(١) تقرأ: تتسك: انظر ابن منظور - لسان العرب، مادة قرأ.

(٢) الجيشاري - الوزراء والكتاب، ص ٣٠٠.

(٣) الجيشاري - الوزراء والكتاب، ص ٢٠٠.

(٤) الحموي - معجم الأدباء، ج٦، ص ٢٨١٠-٢٨١١.

(٥) المسعودي - مروج الذهب، ج٣، ص ٣٧٧-٣٧٨. وانظر ابن خلكان - وفيات الأعيان، ج٤،

ص ٢٨-٢٩. والحموي - معجم الأدباء، ج٦، ص ٢٨١١.

(٦) ابن عبد ربه - العقد الفريد، ج٥، ص ٣٢٧.

وأما صورته التي يسوقها في أقواله ورسائله فإنها تتميز بخصوصية الخيال ودقة التصوير، والمتأمل في هذه الصور يلحظ ميله إلى التشخيص، قيل له: مَا الْكَرَمُ؟ فَقَالَ: مَلِكٌ فِي زِيٍّ مِسْكِينٍ، وَقِيلَ لَهُ: فَمَا اللُّومُ؟ قَالَ: مِسْكِينٌ فِي بَطْشِ عَفْرَيْتٍ، وَقِيلَ لَهُ: فَمَا الْجُودُ؟ قَالَ: عَفْوٌ بَعْدَ قُنْزَةٍ^(١) ومن بديع أقواله التي تجلت فيها بلاغته: "الْخَطُّ صُورَةٌ رُوحَهَا النَّبِيَانُ وَيَذْهَبُ السَّرْعَةُ، وَقَدَمُهَا التَّسْوِيَةُ، وَجَوَارِحُهَا مَعْرِفَةُ الْفُصُولِ"^(٢).

وثمة ظاهرة تسترعي الانتباه في أسلوب يحيى وهي غلبة الشعر في ختام بعض رسائله، فها هو في الرسالة التي وجهها إلى الرشيد من السجن يختمها بهذه المقطوعة الرائعة التي حاول من خلالها أن يستدر عطف الرشيد وعفوه، يقول:

قُلْ لِلْخَلِيقَةِ ذِي الصَّنِيعِ	عَاقِبَةُ الْعَطَائِرِ الْفَاشِيَةِ
وَابْنِ الْخَلَائِفِ مِنْ قَرِيْبِ	شِ وَالْمُلُوكِ الْعَالِيَةِ
إِنَّ الْبَرَامِكَةَ الذِّيْ	نَ رُمُوا أَذْيُكَ بَدَاهِيَةِ
صِفْرُ الْوَجْهِ وَهُ عَلَيْهِمْ	خَلْبَعُ الْمَذَابِيَةِ بَادِيَةِ
فَكَأَنَّهُمْ مِمَّا بِهِمْ	أَعْجَازُ نَخْلِ خَاوِيَةِ
عَمَّتْهُمْ لَيْسَ لَكَ سَخَطَةٌ	لَمْ تَبْقَ مِنْهُمْ بَاقِيَةٌ
بَعْدَ الْإِمَارَةِ وَالسُّورَا	رَةِ وَالْأُمُورِ السَّامِيَةِ
وَمَنْ أَزَلَ كَأَنَّكَ لَهُمْ	فَسَوْقَ الْمَنْ أَزَلَ عَالِيَةِ
أَضْحَكُوا وَجُلُّ مَنْ أَاهُمْ	مِنْكَ الرُّضَا وَالْعَافِيَةِ
يَا مَنْ يَوَدُّ لِي الرِّدَى	يَكْفِيكَ مِنْكَ مَا بَيْنَهُ
يَكْفِيكَ مَا أَبْصَرْتَ مِنْ	ذَلِّي وَذَلِّ مَكَانِيَتِهِ
وَبُكَاءِ فَاطِمَةَ ^(٣) الْكَيْنِ	بَيْتِ وَالْمَذَامِمْ جَارِيَةِ
وَمَقَالَتِهِ بِتَوْجُومِ	يَا سَنُوَائِي وَشَقَائِيَةِ

(١) الحموي - معجم الأدباء، ج٦، ص ٢٨١٠.

(٢) المصدر نفسه، ج٦، ص ٢٨١١.

(٣) هي فاطمة بنت محمد بن الحسن قحطبة زوج يحيى، وأم ابنه جعفر، أرضعت الرشيد مع ابنها جعفر، وكان الرشيد يجلها ويشاورها مظهرًا لإكرامها والتبرك برأيها. انظر ابن عبد ربه - العقد الفريد، ج٥، ص ٣٢١.

مَنْ لِي وَقَدْ غَضِبَ الزَّمَا
نُ عَلَي جَمِينِمْ رَجَالِيَه
يَا لَهْفَا نَفْسِي لَهْفَهَا
مَا لِلزَّمَانِ وَمَالِيَه
يَا عَطْفَةَ الْمَلِكِ الرُّضَا
عُودِي عَلَيْنَا ثَارِيَه (١)

وإذا أضفنا إلى هذه القطعة الشعرية قطعه التي ذيل بها رسالته إلى ابنه الفضل والتي يقول فيها: (٢):

انصبت نهاراً في طلاب العُلا
واصبرُ على ققد لِقَاءِ الحَيِّبِ
حَتَّى إِذَا اللَّيْلُ بَدَا مُقْبِلاً
وَاسْتَقَرَّتْ فِيهِ وَجُوهُ العُيُوبِ (٣)
فَكَابِدِ اللَّيْلِ بِمَا تَشْتَهِي
فَإِنَّمَا اللَّيْلُ نَهَارُ الأَرِيْبِ
كَمْ مِنْ فَتَى تَحْسِبُهُ نَاسِكَاً
يَسْتَقْبِلُ اللَّيْلَ بِأَمْرِ عَجِيبِ
أَلْقَى عَلَيْهِ اللَّيْلُ أَسْتَارَهُ
فَبَاتَ فِي لَهْوٍ وَعَيْشٍ خَصِيبِ (٤)
وَلَذَّةِ الأَحْمَقِ مَكْشُوفَةً
يَسْتَعِي بِهَا كُلُّ عَدُوِّ رَقِيبِ

وقطعته التي ذيل بها توقيعه ليوسف بن القاسم بن صبيح والتي يقول فيها:

عِنْدِي لِمِثْلِكَ إِحْسَانٌ وَتَكْرِمَةٌ
فَقِيقُ بِذَلِكَ مِنِّي وَابْسُطِ الأَمَلَا
أَعْمَلُ عَلَي ثِقَةٍ إِنِّي أَنَا رَجُلٌ
لَا أَمْتَعُ المَرَّةَ مَوْجُودَاً إِذَا سَأَلَا
وَإِنَّ عِنْدِي لَكَ الحُسْنَى وَنَاقِلَةٌ
بُنُصْحِ غَيْبِكَ إِذْ لَمْ تَبْغِ بِي بَدَلَا (٥)

فإنه يتشكل عندنا تصور، وهو أن يحيى كان ميالاً إلى تذييل رسائله بالشعر الذي كان ينظمه خصيصاً لهذه الغاية.

ونلمح في كتابات يحيى تأثراً بأداب الفرس وطرائقهم الكتابية والتعبيرية التي تبدو في حكمهم

(١) انظر ابن عبد ربه - العقد الفريد - ج٥، ص ٣٢٧-٣٢٨.

(٢) انظر المسعودي - مروج الذهب، ج٣، ص ٢٧٨ وابن خلكان - وفيات الأعيان، ج٤، ص ٢٨ والحموي، ج٦، ص ٢٨١٢.

(٣) في معجم الأدباء "وغياب فيه عنك وجه الرقيب" وفي وفيات الأعيان "أتى" مكان "بدا".

(٤) في وفيات الأعيان، "غطى" مكان "ألقي".

(٥) الصولي - أخبار الشعراء المحدثين من كتاب الأوراق، ص ١٥٦.

ووصاياهم، وأول ملامح الأثر الفارسي التي تظهر في شخصية يحيى البرمكي طريقته ومنهجه في نهي الخلفاء؛ فقد كان يحيى إذا رأى من الرشيد شيئاً ينكره لم يستقبله بالإنكار، وإنما يضرب له الأمثال ويحكي له قصصاً عن الملوك والخلفاء، ما يوجب مفارقة ما أنكره ويقول: "في النهي إغراء وهو من الخلفاء أحرى، فإنك إن لم تقصد إغراءه إذا نهيتة أغريته" (١).

وهذه الطريقة تشبه ما نقله ابن المقفع في الأدب الكبير عن ملوك الفرس في شروط صحبة السلطان، حيث يقول: "فإن كنت حافظاً إن بلوك جلدأ إن قرئوك، أميناً إن ائتموك، تعلمهم وأنت تربيهم أنك تتعلم منهم، وتؤدبهم وكأنهم يؤدبونك، تشكرهم ولا تكلفهم الشكر، بصيراً بأهوائهم، مؤثراً لِمَنافِعِهِمْ، ذليلاً إن ظلموك، راضياً إن أسخطوك؛ وإلا فالبعث منهم كل البعث، والحدز منهم كل الحدز" (٢).

وأثر آخر من آثار الثقافة الفارسية في كتابات يحيى وأقواله وهي التعليل المنطقي للأفكار، فقد كان يحيى في كثير من الأحيان لا يرسل كلامه إرسالاً دون تعليل أو بيان للأسباب؛ وإنما كان يلدلي برأيه معللاً لما يقول ويعتقد (٣)، ويظهر هذا الأثر بجلاء في قوله: "مطلبك الكريم أحسن من مطلبك الكريم، لأن الكريم لا يستيف إلا من فضل والكريم لا يطلب إلا من جهد" (٤).

ولم يقف الأمر بيحيى عند هذا الحد بل راح يستوحي أقوال ملوك الفرس القدماء وحكمائهم في وصاياهم ومواعظهم التي كانوا يسدون بها إلى رجالهم وقوادهم وأبنائهم، يبدو ذلك في قوله: "أحسن جبلة الولاء إصابة السياسة، ورأس إصابة السياسة العمل لطاعة الله، وفتح بابين للرعية، أحدهما رافة ورحمة وتذل وتحنن، والآخر غلظة ومباعدة وإمساك ومنع" (٥).

وهناك قول مشهور لأردشير بن بابك يشبه قول يحيى وهو: "واعلموا أنه لا سبيل إلى أن يعظم الولي إلا بإصابة السياسة، ورأس إصابة السياسة أن يفتح الولي من قبله للرعية بابين: أحدهما باب رفة ورحمة ورأفة وتضرع وتذل وتحنن والطف ومواساة ومؤانسة، وبشر وتهلل وعفو وانسباط وانشراح، والآخر: باب غلظة وخشنة وتصعب وتشديد وجفاء وإمساك

(١) المصدر نفسه، ص ٢٠٣.

(٢) محمد كرد علي - رسائل البلغاء، ص ٧٠، وانظر د. عيسى العاكوب - تأثير الحكم الفارسية، ص ٣٠٣.

(٣) وانظر د. عيسى العاكوب - تأثير الحكم الفارسية، ص ٢٦٦.

(٤) الجهشيارى - الوزراء والكتاب، ص ٢٠٠.

(٥) الحموي - معجم الأدياء، ج ٦، ص ٢٨١٠ - ٢٨١١.

ومباعدة وإقصاء ومخالفة ومنع...^(١).

كما يبدو أثر الثقافة الفارسية في خبرة يحيى في معايشة الخلفاء ومعرفته بطباعهم، يظهر هذا في قوله: "مسألة الملوك عن خاليها من سجيبة النوكى"^(٢)، فإذا أرنت أن تقول: كيف أصبح الأمير، فقل: صبح الله الأمير بالنعمة والكرامة، وإذا كان عليلاً، فأرنت أن تسأله عن خاليه، فقل: أنزل الله على الأمير الشفاء والرحمة؛ فإن الملوك لا تسأل ولا تسمت، ولا تكيف، وأنشد:

إنَّ الملوك لا يُخاطَبونَ ولا إذا ملُّوا يُعَاتَبونَ
وفي المقال لا يَنازَعونَ وفي العُطاس لا يُشَمَتونَ
وفي الخطاب لا يُكَيَّفونَ يُتَنى عليهم ويَجَلونَ

وافهم وصاتي لا تكن مجنوناً^(٣)

وواضح من النص السابق أنه صدى لحكم الفرس وآدابهم ووصاياهم، وربما يكون يحيى قد استفاده من ترجمات ابن المقفع وغيره من آداب الفرس في صحبة السلطان^(٤).

وثمة أثر فارسي آخر في أسلوب يحيى، وهو طريقته في عرض أقواله وآرائه؛ فقد عمد يحيى إلى طريقة جديدة في عرض أفكاره استمدتها من حكماء الفرس وملوكهم، وهي طريقة السؤال والجواب^(٥)، فكان يحيى كثيراً ما يسأل عن رأيه في مسألة ما فيجيب السائل في إطار الحكمة والموعظة، وهذا الأسلوب أنجع من الأسلوب الوعظي التقريري، نلمح هذه الطريقة في إجابته لمن سأله عن الكرم واللؤم والجود^(٦).

ويبقى يحيى البرمكي مدرسة في الكتابة ومدرسة في السياسة، فقد جمع الحكمة في قوله وفعله وجمع البلاغة والفصاحة في قلمه ولسانه، وقد كان لهذه الميزات التي امتاز بها يحيى آثار واضحة في شخصية ابنه وأسلوبه في الكتابة.

(١) أردشير بن بابك - عهد أردشير، ص ٥٨-٥٩، وانظر د. عيسى العاكوب - تأثير الحكم الفارسية، ص ٣٠٣-٣٠٤.

(٢) النوكى: الحمقى، انظر ابن منظور - لسان العرب، مادة نوك.

(٣) ابن عبد ربه - العقد الفريد، ج ٢، ص ٥٥، والحموي - معجم الأدباء، ج ٦، ص ٢٨١٠.

(٤) انظر د. عيسى العاكوب - تأثير الحكم الفارسية، ص ٣٠٤.

(٥) وانظر المصدر نفسه، ص ٣٠٣.

(٦) انظر الحموي - معجم الأدباء، ج ٦، ص ٢٨١٠، وانظر ص ١١٢ من هذا البحث.

جعفر بن يحيى

هو جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك أبو الفضل البرمكي ^(١)، وكان أبوه مَنْ عرفنا فيما سبق عالماً وأديباً ونبلاً وسياسة ودهاء وعلو منزلة وجلال قدر عند الخليفة الرشيد، مما كان له الأثر الكبير في ثقافته المعرفية من ناحية، وفي حياته السياسية وحظوته عند الخليفة من ناحية أخرى.

ولد جعفر سنة ١٥٠ هـ في بغداد، ونشأ فيها في كنف والده الذي أحسن تربيته، وكان حريصاً على تنقيفه ثقافة واسعة؛ فمنذ نعومة أظفاره ألحقه بأبي يوسف القاضي الحنفي فعلمه وفقهه ^(٢). وكان يقول له: "يَا بَنِيَّ انْتَقِ مِنْ كُلِّ عِلْمٍ شَيْئًا؛ فَإِنَّهُ مَنْ جَهَلَ شَيْئًا عَادَاهُ، وَأَنَا أَكْرَهُ أَنْ تَكُونَ عَدُوًّا لَشَيْءٍ مِنَ الْأَدَبِ" ^(٣)، وكان يقول له: "يَا بَنِيَّ مَا دَامَ قَلَمُكَ يُرْعِدُ فَاْمُطِرُهُ مَعْرُوفًا" ^(٤) وقد كان جعفر عند حسن ظن أبيه، فراح ينهل من كل علم حتى فاق أقرانه وصار نادرة زمنه عالماً وأديباً.

كان جعفر بن يحيى سمح الأخلاق طلق الوجه ظاهر البشر ^(٥)، وكان يجمع إلى ذلك الفصاحة والذكاء والفطنة والكرم، ولعل هذه الصفات هي التي قربته من الرشيد وجعلته يأنس به ويقرب به منه أكثر من أخيه الفضل الذي كان حاد الطباع شرس الأخلاق شديد العجب والكبر ^(٦) حتى قيل إن الرشيد لم يكن له صبر عنه ^(٧)، ويروى أن الرشيد كان يقول ليحيى بن خالد: أنت للفضل وأنا لجعفر ^(٨)، وقد قال له يوماً: يا أباي: ما بال الناس يسمون الفضل الوزير الصغير ولا يسمون جعفرًا بذلك، فقال يحيى: لأن الفضل يخلفني، قال: فضم إلى

(١) ابن كثير - البداية والنهاية، ج٩، ص ٢٠٩ ويضيف ابن خلكان في وفيات الأعيان، ج١، ص ٣٢٨ بعد ابن برمك بن جاماس بن يشناسف وفي الصفدي - الوافي بالوفيات، ج١١، ص ١٥٦. ابن جاماس بن يشناسف وفي ابن الجوزي - المنتظم، ج٩، ص ١٤٠. جعفر بن يحيى بن خالد أبو الفضل البرمكي وفي الإربلي - خلاصة الذهب المسبوك، ص ١٤٩. جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي أبو الفضل، ولعل الزيادة أو النقصان في اسم جعفر راجع إلى الاختصار.

(٢) الخطيب البغدادي - تاريخ بغداد، ج٧، ص ١٥٢. وانظر ابن خلكان - وفيات الأعيان، ج١، ص ٣٢٩ وابن الجوزي - المنتظم، ج٩، ص ١٤٠ والإربلي - خلاصة الذهب المسبوك، ص ١٤٩ والصفدي - الوافي بالوفيات، ج١١، ص ١٥٦.

(٣) الجهشياري - الوزراء والكتاب، ص ٢٠٢-٢٠٣.

(٤) القرماني - أخبار الدول، ج٢، ص ٨٦. وانظر الأبهسي - المستطرف، ج١، ص ٢٧٢.

(٥) الخطيب البغدادي - تاريخ بغداد، ج٧، ص ١٥٢. وانظر ابن خلكان - وفيات الأعيان، ج١، ص ٣٢٨.

(٦) ابن الطقطقي - الفخري، ص ٢٠٥ والجهشياري - الوزراء والكتاب، ص ١٩٧.

(٧) ابن خلكان - وفيات الأعيان، ج١، ص ٣٢٢. وانظر ابن الطقطقي - الفخري، ص ٢٠٩.

(٨) الجهشياري - الوزراء والكتاب، ص ١٨٩.

جعفر أعمالاً كأعمال الفضل فقال يحيى : "إن خدمتك ومنادمك يشغلانه عن ذلك"، فجعل إليه أمر دار الرشيد فسمي بالوزير الصغير أيضاً^(١). ثم لم يلبث أن أسند إليه وزارة التقويض محتفظاً لأبيه وأخيه بمكانتهما اللائق بهما عنده^(٢). وغلب جعفر على الرشيد غلبة شديدة حتى صار لا يقدم عليه أحداً، وأنزله بالخلد بالقرب من قصره، وكثيراً ما كان الفضل يغبط أخاه جعفرأ ويحسده على منزلته عند الرشيد ومكانه منه^(٣).

وبذلك فقد كان جعفر متمكناً من الرشيد واصلأ منه، وبلغ من علو المرتبة وجلال القدر عنده ما لم يبلغه سواه^(٤) من أسرته، حتى أنه ليقال إن الرشيد قد اتخذ ثوباً له زيقان فكان يلبسه هو وجعفر جملة^(٥)، وكان يسميه أخي^(٦).

وقد قال ابن مناذر^(٧) يصف علاقة الرشيد بجعفر البرمكي وحصول الألفة بينهما :

قَدْ يَقَطَعُ اللَّهُ الرَّجْمَ الْقَرِيبَ وَتُكْفَرُ الْـ
نُعْمَى وَلَا كَتَقَّارُبِ الْقَلْبَيْنِ
يُدْنِي الْهَوَى هَذَا وَيُدْنِي ذَا الْهَوَى
فَإِذَا هُمَا نَفْسٌ تُسْرَى نَفْسَيْنِ^(٨)

ومن الواضح أن جعفرأ البرمكي بحكم موقعه من الرشيد، كان يوحى له بانتهاج سياسات معينة، ذلك أنه كان نديمه الأول وجليسه الأول ومستشاره الأول أيضاً، وهو الرجل الذي يلازمه أطول فترة ممكنة في الليل والنهار ولم يفارقه إلا في رحلة قصيرة إلى الشام عندما هاجت العصبية فيها كما سنرى.

(١) ابن الطقطقي - الفخري، ص ٢٠٥.

(٢) د. عبد الجبار الجومرد - هارون الرشيد، ج٢، ص ٤٢٣.

(٣) الجهشاري - الوزراء والكتاب، ص ١٨٩.

(٤) ابن خلكان - وفيات الأعيان، ج١، ص ٣٣٢.

(٥) المصدر نفسه، ج١، ص ٣٣٢. وانظر اليافعي - مرآة الجنان، ج١، ص ٤١٦. والجهشاري -

الوزراء والكتاب، ص ٢٠٤. والصفدي - الوافي بالوفيات، ج١١، ص ١٥٩. والمقدسي - البدء والتاريخ،

ج٥، ص ١٠٤. وهذه الرواية ظاهرة المبالغة لأن هذا الأمر لا يمكن أن يقع من خليفة كالرشيد له رأي وعقل.

(٦) الجهشاري - الوزراء والكتاب، ص ٢٠٤. وانظر القرماني - أخبار الدول، ج٢، ص ٨٦.

(٧) ابن مناذر : هو محمد بن مناذر مولى بني حُبَيْر بن يربوع، يكنى أبا جعفر وقيل أبا عبد الله، وقيل : أبا

ذريح، شاعر فصيح مقدم في العلم باللغة وإمام فيها، كان في أول حياته زاهداً متديناً، ثم عدل عن ذلك فهجا

الناس وتهتك وقذف أعراض أهل البصرة، فوجب عليه الحد، فهرب إلى مكة وبقي بها حتى مات عام

١٩٨هـ، انظر الأصفهاني، ج١٨، ص ١٧٣-٢١٨.

(٨) الأصفهاني - الأغاني، ج١٨، ص ٢١٠.

ونظراً لأن الرشيد كان يؤثر جعفرأ على أخيه الفضل، فقد نقل إليه الإشراف على ديوان الخاتم بعد أن كان الفضل يقوم بهذه المهمة، وطلب الرشيد من يحيى أن يكتب إلى ابنه الفضل بذلك (١).

وفي سنة ١٧٦هـ ولاء الرشيد مصر، فولاه من قبله عمر بن مهران (٢)، وفي السنة نفسها ولاء المغرب كله من الأنبار إلى إفريقية (٣). وفي سنة ١٨٠هـ هاجت العصية بالشام واستفحل خطرهما فاغتم الرشيد لذلك، فعقد لجعفر على الشام، وأمدّه بالقواد والعساكر والسلاح والأموال، فسكن الفتنة فيها وأصلح بين أهلها وأعاد الأمن إلى ربوعها (٤). ولما عاد جعفر من هذه المهمة ازداد الرشيد إكراماً له (٥). وخطب جعفر بين يديه خطبة بليغة استشفع فيها لأهل الشام واستعطف قلب الرشيد عليهم (٦). وفي هذه السنة - أي ١٨٠هـ - ولاء الرشيد خراسان وسجستان، ولكنه لم يباشر عمله بنفسه بل استعمل عليهما نائباً عنه ثم لم يلبث الرشيد أن عزله عنهما بعد عشرين ليلة من ولايته إياهما، ووكّل إليه مهمة الإشراف على الحرس (٧).

وفي سنة ١٨٢هـ عهد الرشيد إليه بالإشراف على تربية ابنه المأمون بعد أن أخذت البيعة له بولاية العهد بعد أخيه الأمين (٨). ويروي الجهشيارى أن جعفر هو الذي أشار على الرشيد ببيعة المأمون بعد الأمين وقام بالأمر حتى تمت له البيعة وشخص به معه من الرقة إلى بغداد لتأكيد البيعة له وأخذ الأيمان على بني هاشم، وكاتب العمال في جميع النواحي بذلك (٩).

وقد قلده الرشيد بريد الآفاق ودور الضرب والطرز في جميع الكور (١٠). وكانت توليته على دور الضرب بدعة جديدة وامتيازاً خاصاً ذلك أن الرشيد هو أول خليفة ترفع عن مباشرة العيار بنفسه موكلاً ذلك لجعفر بن يحيى وكان الخلفاء من قبل يتولون النظر في عيار الدراهم والدنانير

(١) انظر ص ٧١ من هذا البحث.

(٢) الطبري - تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٦٣٤. وابن الأثير - الكامل، ج ٥، ص ٢٩١.

(٣) الجهشيارى - الوزراء والكتاب، ص ١٩٠. والميلوي - أحسن المسالك ورقة ٨١.

(٤) الطبري - تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٦٤٢-٦٤٣. والجهشيارى - الوزراء والكتاب، ص ٢٠٨-٢٠٩.

وابن الأثير - الكامل، ج ٥، ص ٣١٠. وابن كثير - البداية والنهاية، ج ٩، ص ٢٠٩-٢١٠.

(٥) الطبري، ج ٤، ص ٦٤٣.

(٦) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٦٤٣-٦٤٤ والجهشيارى - الوزراء والكتاب، ص ٢٠٨-٢٠٩.

(٧) الطبري، ج ٤، ص ٦٤٤. وابن الأثير - الكامل، ج ٥، ص ٣١٠.

(٨) الطبري - تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٦٤٦. وابن الأثير - الكامل، ج ٥، ص ٣١٧.

(٩) الجهشيارى - الوزراء والكتاب، ص ٢١١.

(١٠) المصدر نفسه، ص ٢٠٤.

بأنفسهم، وقد أدى ذلك إلى ارتفاع منزلة جعفر إذ أنه لم يتشرف بهذا النظر أحد قبله، كما أن الرشيد أمر بنقش اسم جعفر على الدراهم والدنانير^(١) ثم أطلق عليه لقب السلطان لعموم ولايته وإطلاقها^(٢). ويروى أنه وجد بعد مقتل جعفر في بركة داره أربعة آلاف دينار وزن كل دينار مئة دينار ودينار، وعلى كل دينار من أحد جانبيه :

وَأَصْفَرَ مِنْ ضَرْبِ دَارِ الْمُلُوكِ يُلُوحُ عَلَيَّ وَجْهِهِ جَعْفَرُ

ومن الجانب الآخر :

يَزِيدُ عَلَيَّ مِئَةَ وَاحِدًا إِذَا نَالَهُ مُعْسِرٌ يُبْسِرُ^(٣)

وقد ازداد نفوذ جعفر عندما أشركه الرشيد في النظر في المظالم^(٤)، وهو شيء لم يتشرف به أحد قبله، إذ لم يسبق ل خليفة أن سمح لأحد أن يشاركه في أكثر حقوقه قدسية وهو النظر في المظالم^(٥).

ويذكر المؤرخون أن جعفر البرمكي قد فصل في يوم واحد في ألف قصة ونيق، وبعد عرضها على العمال والقضاة والكتاب، تبين أن أيأ منها لم يتكرر كما أنه لم يوجد فيها ما يخالف العدالة^(٦).

وقد بلغ نفوذ جعفر عند الرشيد مبلغاً عظيماً، يدل على ذلك قصة عبد الملك بن صالح العباسي الذي كان يترفع عن شرب النبيذ، ويروى أنه زار جعفر البرمكي في داره ليخاطبه في حوائج له، فوجده في مجلس لهو وشرب، فلما دخل عبد الملك، تغير وجه جعفر حياءً منه، ولكن عبد الملك سلم وقال : افعلوا بنا ما فعلتم بأنفسكم، وشرب النبيذ معهم وقيل أن يغادر قال له جعفر : سل حاجتك ؛ فقال عبد الملك : إن في قلب أمير المؤمنين علي هنة فنسأله الرضا

(١) انظر د. عبد العزيز الدوري - العصر العباسي الأول، ص ١٢٦ و د. إبراهيم الكروي - نظام الوزارة، ص ١٠٢.

(٢) ابن خلدون - المقدمة، ج ٢، ص ٦٦٩. والقلقشندي - صبح الأعشى، ج ٩، ص ٤٢٣.

(٣) الجهشياري - الوزراء والكتاب، ص ٢٤١، وانظر الذهبي - تاريخ الإسلام، ج ١٢، ص ١٠٢. والخطيب البغدادي - تاريخ بغداد، ج ٧، ص ١٥٦، والإربلي - خلاصة الذهب المسبوك، ص ١٥٠.

(٤) الجهشياري - الوزراء والكتاب، ص ٢٠٤.

(٥) د. توفيق اليوزبكي - الوزارة، ص ٥٩ و د. إبراهيم الكروي - نظام الوزارة، ص ١٠٢.

(٦) الخطيب البغدادي - تاريخ بغداد، ج ٧، ص ١٥٢. وانظر ابن خلكان - وفيات الأعيان، ج ١، ص ٣٢٨-٣٢٩. وانظر الجهشياري - الوزراء والكتاب، ص ٢٠٤.

عني؛ فقال جعفر : قد رضي عنك أمير المؤمنين، فقال : وعلي أربعة آلاف ألف درهم تقضى عني. قال : إنها لعندي حاضرة، ولكن أجعلها من مال أمير المؤمنين، فإنها أنبل لك وأحب إليك؛ قال : وإبراهيم ابني أحب أن أشد ظهره بصهر من أولاد الخلافة، قال: قد زوجه أمير المؤمنين الغالية، قال : وأحب أن يخفق لواء علي رأسه قال: قد لاه مصر. فلما كان من الغد حضر جعفر عند الرشيد وعرفه ما جرى وأمضى الرشيد ما تعهد به جعفر لعبد الملك (١).

يتضح لنا من هذه الرواية وغيرها ما كان يتمتع به جعفر البرمكي من نفوذ عند الرشيد، حتى تدخل في أخص خصوصياته وتولية عماله وتدبيره السياسي الذي لا يرد.

ولعل هذه العلاقة التي تربط جعفر بالخليفة، هي التي أثارت حفيظة يحيى على ابنه، فنصحه بالإقلاع عن الدخول في مجالس الرشيد ولكن دون جدوى (٢) من أجل ذلك كانت علاقته مع الرشيد موضع حقد الحاقدين وحسد الحاسدين، خاصة ممن حال جعفر - بإيثار الرشيد له واستئثاره بقلبه - بينهم وبين أن ينالوا أرفع المناصب في الدولة من أمثال الفضل بن الربيع وغيره.

ومن ثم فقد كان جعفر أكثر من صب عليهم الرشيد جام غضبه من أسرته، وقد تنبأ يحيى بذلك حين قال لإسماعيل بن صبيح : "والله لا يكون هلاك هذا البيت إلا بسببه" (٣).

(١) انظر الجهشيارى - الوزراء والكتاب، ص ٢١٢-٢١٣، وابن خلكان - وفيات الأعيان، ج١، ص ٢٣٠-٢٣١. وابن عبد ربه - العقد الفريد، ج٥، ص ٣٣١-٣٣٢ وابن الطقطقي - الفخري، ص ٢٠٥-٢٠٦ والياضي - مرآة الجنان، ج١، ص ٤١٤-٤١٦ والوافي بالوفيات، ج١١، ص ١٥٧-١٥٨.

(٢) انظر ص ٥٥ من هذا البحث وانظر الطبري - تاريخ الطبري، ج٤، ص ٦٦٠ والجهشيارى - الوزراء والكتاب، ص ٢٤٨-٢٤٩.

(٣) الجهشيارى - الوزراء والكتاب، ص ٢٤٩.

و فعلاً صدقت نبوءة يحيى، فقد نكب الرشيد البرامكة^(١) وضرب عنق جعفر في ليلة السبت أول ليلة من صفر سنة سبع وثمانين ومائة، بعد أن قفلا من حجتهما في موضع يقال له العُمُر من أعمال الأنبار وهو ابن سبع وثلاثين سنة^(٢)، لتوضع بذلك نهاية حياة حافلة بالعمل الدؤوب.

وكان من عادة جعفر أن يقيم للرشيد وليمة كلما رجع من حجه، ولكن الرشيد اعتذر عن حضورها هذه السنة، وخرج معه للصيد، ولم يزل الرشيد يلاطفه ويداعبه ويمازحه وكان شيئاً لن يكون، إلى أن كان آخر ما دار بينهما أن قال له الرشيد: لولا أنني أريد الجلوس الليلية مع النساء لم أفارقك، وضمه إليه، وافترق الإثنان، وصار جعفر إلى منزله وجلس إلى ندمائه في مجلس لهو وغناء، وبينما جعفر في غمرة لهوه وسمره إذ وجه الرشيد إليه مسرور

(١) اختلف المؤرخون في السبب أو الأسباب التي لأجلها قتل الرشيد جعفر ونكب أسرته، وذلك لأن الرشيد نفسه لم يفصح عن السبب الحقيقي، فانبرى المؤرخون يجتهدون في معرفة السبب، وراح كل واحد منهم يبين رأيه مستنداً إلى حادثة أو مجموعة من الحوادث التي بنى عليها رأيه، فمنهم من رده إلى قصة العباسة أخت الرشيد مع جعفر البرمكي، وقد فُتد ابن خلدون هذه الحادثة وحاكمها محاكمة عقلية ورفضها رفضاً مطلقاً، انظر المقدمة، ج١، ص ٣٠٠-٣٠١ ومنهم من رده إلى أسباب سياسية وميول حزبية كإطلاق جعفر البرمكي ليحيى العلوي دون علم من الرشيد، ومنهم من رده إلى أسباب اقتصادية منها سيطرتهم على مقدرات الدولة وإنفاقها وفق أهوائهم واستئثارهم بالسلطان دون الخليفة، ومنهم من رده إلى بعض التهم التي وجهت إلى البرامكة كالشعبوية وتعصبهم لبني جنسهم من الفرس، واستدل هؤلاء بطائفة من الحوادث التي تؤكد شعوبية البرامكة، ومن التهم التي وجهت لهم الزندقة واعتناقهم المجوسية دين آبائهم والتستر بالإسلام واستدل هؤلاء أيضاً بطائفة من الأحداث التي تدعم رأيهم، ومنهم من رده إلى دور الوشاة والساعين وعلى رأسهم الفضل بن الربيع.

وهذه الأسباب مستوفاة باستفاضة في المصادر التاريخية القديمة. انظر مثلاً الطبري - تاريخ الطبري، ج٤، ص ٦٥٧-٦٦١ وابن خلكان - وفيات الأعيان، ج١، ص ٣٣٣-٣٣٦ وابن الأثير - الكامل، ج٥، ص ٣٢٧-٣٢٩ وغيرها من المصادر ومن المؤرخين المحدثين الذين حاكموا الموضوع محاكمة عقلية د. عبد الجبار الجومرد في كتابه هارون الرشيد، ج٢، ص ٤٣١-٥٠٥.

(٢) الطبري - تاريخ الطبري، ج٤، ص ٦٦١. وابن الأثير - الكامل، ج٥، ص ٣٢٩ والجيشياري - الوزراء والكتاب، ص ٢٣٤-٢٣٥ وابن خلكان - وفيات الأعيان، ج١، ص ٣٣٦ وابن كثير - البداية والنهاية، ج٩، ص ٢١٣ والخطيب البغدادي - تاريخ بغداد، ج٧، ص ١٦٠ وابن الجوزي - المنتظم، ج٩، ص ١٣٤ وابن العماد - شذرات الذهب، ج٢، ص ٣٩٤ وخليفة بن خياط - تاريخ خليفة، ص ٤٥٨ والصفدي - الوافي بالوفيات، ج١١، ص ١٦١ وابن تغري بردي - النجوم الزاهرة، ج٢، ص ١٤٤.

الخادم^(١)؛ فلما دخل عليه وجد عنده أبا زكار الأعمى المغني^(٢) وهو يغني بين يديه :
 عَدَايَ أَنْ أُرُوكَ غَيْرَ بُغْضٍ مَقَامَكَ بَيْنَ مُصَفَّحَةِ شِدَادِ
 فَلَا تَبْعُدْ فَكُلُّ فَتَى سَيَّاتِي عَلَيْهِ الْمَوْتُ يَطْرُقُ أَوْ يُغَادِي^(٣)

فقال مسرور : يا أبا الفضل، الذي جئت له قد والله طرقك، أحب أمير المؤمنين قال : فرجع يديه ووقع على رجلي يقبلهما، وقال : حتى أدخل فأوصي، فقال مسرور أما الدخول فلا سبيل إليه، ولكن أوص بما شئت، فتقدم في وصيته بما أراد وأعتق ممالئكه، ثم أتتني رسل أمير المؤمنين تستحثني به، قال مسرور : فمضيت به إليه، ثم توسل جعفر إلى مسرور أن يخبر الرشيد أنه قتله، لعله يغير رأيه، فراجع مسرور ثلاثاً ولكن الرشيد أصراً، فرجع مسرور وضرب عنق جعفر وأخذ رأسه إلى الرشيد، فنصب بمدينة السلام وقطعت جثته نصفين وصلبا على الجسرين ببغداد^(٤). فلما كان بعد سنة أمر الرشيد بجثة جعفر فأحرقت^(٥).

وفي الليلة نفسها التي أمر فيها الرشيد بضرب عنق جعفر وجه من أحاط بأبيه وإخوته وسائر أفراد أسرته ومواليهم وحشمهم وكل من له صلة بهم، وفرق الكتب من ليلته إلى جميع العمال في جميع الأمصار بقبض أموالهم وأخذ وكلائهم ورفيقهم وأسبابهم^(٦)، وأمر بالنداء في

(١) مسرور الخادم : أبو هاشم، من أشهر خدم الرشيد، وأخلصهم، كان الرشيد يعتمد عليه كثيراً ويندبه للمهمات الصعبة، مات في أيام المتوكل، انظر الجهشاري، الوزراء والكتاب، ص ٢٥٤. وقد اختلف المؤرخون فيمن ندبه الرشيد لقتل جعفر، فمنهم من ذهب إلى أنه مسرور الخادم كالطبري والجهشاري ومنهم من ذهب إلى أنه ياسر كالمسعودي في مروج الذهب، ج٣، ص ٣٨٧. وابن خلكان - وفيات الأعيان، ج١، ص ٣٣٨.

(٢) رجل من أهل بغداد من قداماء المغنين، كان منقطعاً للبرامكة، وكانوا يؤثرونه ويفضلون عليه إفضالاً، انظر الأصفهاني - الأغاني، ج٧، ص ٢٤٦-٢٤٧.

(٣) الجهشاري - الوزراء والكتاب، ص ٢٣٥ وقد اقتصر الطبري في تاريخه، ج٤، ص ٦٦١ على البيت الثاني في حين يضيف ابن خلكان في وفيات الأعيان، ج١، ص ٣٣٨ إلى ما عند الطبري البيتين التاليين:

وَكُلُّ دَخِيرَةٍ لَا بُدَّ يَوْمًا وَإِنْ بَقِيَتْ تَصِيرُ إِلَى نَفَادِ
 وَلَوْ فُودِيَتْ مِنْ حَذْبِ اللَّيَالِي فَذَيْتُكَ بِالطَّرِيقِ وَبِالتَّلَادِ

(٤) الطبري - تاريخ الطبري، ج٤، ص ٦٦١-٦٦٣ والجهشاري - الوزراء والكتاب، ص ٢٣٤-٢٣٦ وابن الأثير - الكامل، ج٥، ص ٣٢٩.

(٥) الطبري - تاريخ الطبري، ج٤، ص ٦٦٣.

(٦) المصدر نفسه، ج٤، ص ٦٦١-٦٦٢. وابن الأثير - الكامل، ج٥، ص ٣٢٩.

جميع البرامكة إلا أمان لمن أوامهم إلا محمد بن خالد^(١) وولده وأهله فإنه استثناهم لما ظهر له من نصيحة محمد له وعرف خروجه مما دخل فيه غيره من البرامكة^(٢).

وقد كان لهذه النكبة التي حلت بجعفر وأسرته صدى في الشعر، فقد انبرى الشعراء من صنائعهم يسحون عليهم الدمع ويرثونهم بقصائد تعد من عيون الرثاء في الشعر العربي، على الرغم مما يروى عن الرشيد أنه لما نكبهم حرم على الشعراء أن يرثوهم وأمر بالمواخذه على ذلك^(٣) ولكنه أمام هذا الفيض الهائل من المرثي التي تدفقت بها عواطف الذين أسره البرامكة بمكارمهم، عاد وأذن لجميع الناس في رثائهم^(٤).

ويعد الشاعر الرقاشي^(٥) في طليعة الشعراء الذين رثوا جعفر وأسرته وأسفوا عليهم،

من ذلك قوله يؤرخ لحادثة مقتل جعفر :

أَيَا سَيِّئُ يَا سَرَّ السُّبُوتِ صَبِيحَةَ وَيَا صَفْرُ الْمَشْوُومِ مَا جَنَّبَتْ أَشْأَمًا
أَتَى السَّيِّئُ بِالْأَمْرِ الَّذِي هَدَّ رُكُنَنَا وَقَى صَفْرَ جَاءَ الْبَلَاءُ مُصَمَّمًا^(٦)

وفيه يقول أيضاً :

أَمَّا وَاللَّهِ لَوْلَا خَوْفٌ وَاش وَعَيْنٌ لِلْخَلِيقَةِ لَا تَتَامُ
لَطَفْنَا حَوْلَ جَذَعِكَ وَأَسْتَلَمْنَا كَمَا لِلنَّاسِ بِالْحَجَرِ اسْتِيلَامُ
فَمَا أَبْصَرْنَا قَبْلَكَ يَا ابْنَ يَحْيَى حُسَامًا فَلَهُ السَّيْفُ الْخُسَامُ
عَلَى اللَّذَاتِ وَالذَّنِيَا جَمِيعًا لِذَوْلَةِ آلِ بَرْمَكٍ السَّلَامُ^(٧)

(١) محمد بن خالد بن برمك، أخو يحيى البرمكي، قلده الرشيد حجابته عام ١٧٢ هـ، ثم عزله عنها بالفضل ابن الربيع عام ١٧٩ هـ، وولاه اليمن، انظر الجهشاري - الوزراء والكتاب، ص ١٨٧، ص ٢٣٣. والطبري - تاريخ الطبري، ج٤، ص ٦٤١، وخليفة ابن خياط - تاريخ خليفة بن خياط، ص ٤٦١.

(٢) الطبري - تاريخ الطبري، ج٤، ص ٦٦٢.

(٣) ابن الطقطقي - الفخري، ص ١٩٩-٢٠٠.

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٠٠.

(٥) الفضل بن عبد الصمد مولى رقاش، وهو من ربيعة ويقال إنه من العجم من أهل الري، كان مطبوعاً سهل الألفاظ نقي الكلام، ويعد من فحول الشعراء في عصره، كان منقطعاً للبرامكة، مات الرقاشي في حدود عام ٢٠٠ هـ. انظر الأصفهاني - الأغاني، ج١٦، ص ٢٦٠-٢٦١.

(٦) الطبري - تاريخ الطبري، ج٤، ص ٦٦٤.

(٧) الخطيب البغدادي - تاريخ بغداد، ج٧، ص ١٥٨. والجهشاري - الوزراء والكتاب، ص ٢٣٦. وابن خلكان - وفيات الأعيان، ج١، ص ٣٤٠ وقد أورد الطبري هذه الأبيات منسوبة إلى أبي عبد الرحمن العطوي، انظر الطبري - تاريخ الطبري، ج٤، ص ٦٦٥.

ويروى أن جارية وقفت على الجسر الذي صلب عليه جعفر، وبكته بكاءً مُراً وقالت:
 "أما والله لئن أصبحت للناس آية لقد بلغت فيهم الغاية، ولئن زال ملكك وخانك دهرك ولم يطل
 عمرك، لقد كنت المغبوط خالاً، الناعم بالآ، يحسن بك الملك وينفس بك الهلك، أن تصير
 إلى خالك هذه، ولقد كنت الملك بحقه، في جلالته ونطقه، فاستعظم الناس فقدك، إذ لم
 يستخلفوا ملكاً بعدك، فنسأل الله الصبر على عظيم الفجعة وجليل الرزية التي تستعاض
 بغيرك، والسلام عليك وداع غير قال ولا ناس لذكرك" ... ثم أنشأت تقول :

العيش بعدك مُراً غير محبوب ومذ صليت ومقنا (١) كل مطلوب

أرجو لك الله ذا الإحسان إن له فضلا علينا وعفوا غير محسوب

ثم سكتت ساعة وتأملته ثم أنشأت تقول :

عليك من الأحياء كل يوم سلام الله ما ذكر السلام

لئن أمسى صدك برأى عين على خشب حباك بها الإمام

فمن ملك إلى ملك برغم من الأملاك أسلمك الهمام (١)

وكثيرة هي الأشعار التي دجبت في البرامكة مدحاً ورتاء، تعدد مناقبهم وتخلد مآثرهم.

كان جعفر يجمع حظاً وافراً من الثقافة الأعجمية ممثلة بالثقافة الفارسية التي كانت
 دماؤها تجري في عروقه، إضافة إلى الثقافات الأخرى من يونانية وهندية، ثقف نفسه بها عن
 طريق قراءة ما تُرجم منها إلى الفارسية أو العربية، فشكل من الثقافات الثلاث إلى جانب الثقافة
 العربية - التي جمع منها سهماً وافراً - مخزوناً ثقافياً غزيراً بدت آثاره واضحة جليلة في أدبه.

كان جعفر بن يحيى كاتباً بليغاً، وقد أشادت المصادر الأدبية ببلاغته وفصاحته،
 فالخطيب البغدادي يذكر أنه كان "من ذوي الفصاحة والمذكورين باللسن والبلاغة" (٢).

وكثيراً ما توقف ثمامة بن أشرس (٤) عند بلاغته إعجاباً بها، يقول مشيداً ببلاغته

(١) ومقنا : أحببنا، اللسان، مادة ومق.

(٢) الخطيب البغدادي - تاريخ بغداد، ج٧، ص ١٥٩.

(٣) المصدر نفسه، ج٧، ص ١٥٢. وانظر ابن خلكان - وفيات الأعيان، ج١، ص ٣٢٨.

(٤) ثمامة بن أشرس التميمي : من بني نمير، نبيه، كاتب بليغ، من جلة المتكلمين المعتزلة، غضب عليه
 الرشيد فحبسه لما نكب البرامكة لاختصاصه بهم ثم عفا عنه، كان ثمامة زعيم القدرية زمن المأمون والمعتمد
 والواثق، وهو الذي دعا المأمون إلى الاعتزال، أرادته المأمون للوزارة فامتنع وهو الذي أشار عليه أن يستوزر
 أحمد بن أبي خالد بدلاً منه، تروى عنه قصص كثيرة تشير إلى استخفافه بالدين، مات ثمامة في زمان الواثق
 الذي تولى الخلافة ٢٢٧هـ - ٢٣٢هـ. انظر الخطيب البغدادي - تاريخ بغداد، ج٧، ص ١٤٥-١٤٨ وابن
 النديم - الفهرست، ص ٢١٠-٢١١.

وفصاحته وحسن ديباجته : "كان جعفر بن يحيى أنطق الناس، قد جمع الهدوء والتمهل، والجزالة والحلاوة، وإفهاماً يغنيه عن الإعادة، ولو كان في الأرض ناطق يستغني عن الإشارة لاستغني جعفر عن الإشارة كما استغني عن الإعادة" (١). وقال فيه أيضاً : ما رأيت أحداً كان لا يتحبس، ولا يتوقف ولا يتلجلج ولا يتحنح ولا يرتقب لفظاً قد استدعاه من بعد، ولا يلتبس التلخص إلى معنى قد تعصى عليه طلبه، أشد اقتداراً ولا أقل تكلفاً من جعفر بن يحيى" (٢). وكان يقول : "لم أرَ أنطق من جعفر بن يحيى" (٣)

وفيه تقول عنان جارية الناطفي (٤) :

بَدِيهَتُهُ وَفِكْرَتُهُ سَوَاءٌ إِذَا التَّبَسَّتْ عَلَى النَّاسِ الْأُمُورُ
وَصَدْرٌ فِيهِ لِلَّهِمَّ اتِّسَاعٌ إِذَا ضَسَّقَتْ مِنَ الْهَمِّ الصُّدُورُ
وَأَحْزَمٌ مَا يَكُونُ الذَّهْرَ رَأْيَا إِذَا عَجَزَ الْمُشَاوِرُ وَالْمُشِيرُ (٥)

فإذا أضفنا إلى هذه الأقوال ما قاله سهل بن هارون في وصف بلاغته وبلاغة أبيه يحيى تبين لنا أنه جمع بين فصاحة اللسان وبلاغة القلم.

وعلى الرغم من إشادة الأدباء ببلاغة جعفر وفصاحته إلا أنه لم يصلنا من نتاجه إلا النزر اليسير وقد لا يتعدى بعض الرسائل والخطب وبعض إشارات في البلاغة والبيان (٦)، وبعض التوقيعات التي إذا ما قيست إلى ما ذكرته المصادر عن براعة جعفر وإفتانه في التوقيعات فإنها لا تعد شيئاً ذا بال.

ويبدو أن يد العبت قد امتدت إلى نتاجه - كما امتدت إلى نتاج غيره - فضاع منه الشيء الكثير، وقد أشرنا عند الحديث عن أبيه يحيى أن ذلك ربما يكون بسبب شعوبية البرامكة

(١) الجاحظ - البيان والتبيين، ج١، ص ١٠٥-١٠٦.

(٢) المصدر نفسه، ج١، ص ١٠٦ وأبو هلال العسكري - الصناعتين، ص ٤٣ مع اختلاف طفيف في النص.

(٣) الجاحظ - البيان والتبيين، ج١، ص ١١٥.

(٤) ولدت في اليعامة وبها نشأت وتأديت، اشتراها الناطفي ورباها، كانت صفراء جميلة الوجه، ذات غنج ودلال، مليحة الأدب والشعر، سريعة البديهة، وكان فحول الشعراء يساجلونها، فتتصف منهم، توفيت عنان في مصر سنة ٢٢٦هـ. انظر الأصفهاني - الأغاني، ج٢٣، ص ٩٢-١٠١.

(٥) الجهشياري - الوزراء والكتاب، ص ٢٠٤-٢٠٥.

(٦) انظر تعريف جعفر للبلاغة ورأيه فيها في العقد الفريد، ج٤، ص ٢٧٢ والصناعتين، ص ٤٢ وتعريفه للبيان في البيان والتبيين، ج١، ص ١٠٦.

وحرصهم على جمع الأعاجم من بني جنسهم حولهم، واستخدامهم في شتى مرافق الدولة فكثرت خصومتهم وحسادهم ومنافسواهم، وزينوا للرشيده القضاء عليهم فنكبتهم المشهورة في التاريخ وتولوا هم بعد نكبتهم القضاء على آثارهم الأدبية والعمرانية (١).

وبسبب هذه القلة فيما وصلنا من نتاج جعفر؛ فإنني أتلمس ما انماز به أسلوبه من خلال ما هو متوافر لدي من خطب ورسائل وتوقيعات، - وإن كانت الرسائل قليلة قياساً إلى الخطب والتوقيعات - علماً تعطي صورة واضحة عن أسلوبه الكتابي.

امتازت رسائل جعفر بالإيجاز بشكل واضح وجلي، فهو في رسائله يعبر بالقليل من اللفظ عن الكثير من المعنى، نلاحظ هذا الملمح الأسلوبي في رسالته إلى عامل مصر حول رجل قام بتزوير كتاب على لسان جعفر يسأله فيه الإحسان إليه، وقد كانت بين جعفر ووالي مصر عداوة ولم يكن هذا الرجل يعلم بها، فلما وصل الكتاب المزور إلى والي مصر، ارتاب من أمره فأمسك الرجل عنده وبعث إلى وكيله في بغداد يطلب منه أن يستطلع حقيقته؛ فلما علم جعفر بالأمر أراد أن يصلح ما بينه وبين والي، فكتب إليه:

"سُبْحَانَ اللَّهِ! كَيْفَ حَصَلَ لَكَ الشُّكُّ فِي خَطِّي، هَذَا خَطُّ يَدِي وَالرَّجُلُ مِنْ أَعَزِّ أُنْحَابِي، وَأُرِيدُ أَنْ تُحَسِّنَ إِلَيْهِ وَتُعِيدَهُ إِلَيَّ سَرِيعًا، فَإِنِّي مُسْتَأَقُّ إِلَيْهِ مُحْتَاجٌ إِلَى حُضُورِهِ" (٢).

يتضح مما سبق أن جعفر البرمكي كان يتوخى الإيجاز في رسائله وكتبه، وهو كما نرى إيجاز غير مخل، فقد لاءم في هذه الرسالة بين ألفاظها وعباراتها والموضوع المقصود بها، فالأمر لا يحتاج إلى إطباب في القول بقدر ما يحتاج إلى دقة في العبارة ووضوح في المعنى، وقد أتت هذه الرسالة ثمارها فقد أعادت الود والصفاء بين جعفر البرمكي ووالي مصر (٣).

ولم يكتف جعفر بذلك بل كان يوصي كتابه بتوخي الإيجاز في كتبهم ورسائلهم التي كانوا يكتبونها عنه؛ فكان يقول لهم: "إِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَكُونَ كُتُبُكُمْ كَالْتَوْقِيعَاتِ، فَافْعَلُوا" (٤). وقيل لجعفر ما البلاغة فقال: "التَّقَرُّبُ مِنَ الْمَعْنَى الْبَعِيدِ وَالذَّلَالَةُ بِالْقَلِيلِ عَلَى الْكَثِيرِ" (٥) وكان

(١) د. محمد نبيه حجاب - مظاهر الشعبية، ص ٣٧٤-٣٧٦.

(٢) ابن الطقطقي - الفخري، ص ٢٠٨.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٠٨.

(٤) الصولي - أدب الكتاب، ص ١٣٧، وانظر الجاحظ - البيان والتبيين وفيه "قال ثمامة: سمعت جعفر بن يحيى يقول لكتابه، إن استطعتم أن يكون كلامكم كله مثل التوقيع فافعلوا" البيان والتبيين، ج ١، ص ١١٥، وهذا القول في الجهشياري - الوزراء والكتاب، ص ٢٠١ منسوب إلى أبيه يحيى.

(٥) ابن عبد ربه - العقد الفريد، ج ٤، ص ٢٧٢.

يقول : "إِذَا كَانَ الْإِكْتَارُ أُتْلَغَ كَانَ الْإِيْجَازُ مُقْصَرًّا وَإِذَا كَانَ الْإِيْجَازُ كَافِيًّا كَانَ الْإِكْتَارُ عِيًّا" (١). والإيجاز بداسمة عامة في كتابات جعفر البرمكي، وخير دليل على ذلك توقيعاته البليغة الموجزة التي فتنت الكتاب وتلقفها المتأدبون، وكانت - كما يروي ابن خلدون - تباع كل قصة منها بدينار وكان الناس يتسابقون إلى شرائها، ويحرصون على اقتنائها للوقوف فيها على أساليب البلاغة وفنونها (٢).

ومن أمثلة توقيعاته، ما وقع به إلى الفضل بن الربيع في كتاب ورد عليه منه، غمّه : "كثْرَةُ مَلَاخَاةِ الْأَوْدَاءِ رُبَّمَا أَرَأَقَتْ الدِّمَاءَ" (٣). وتوقيعه إلى بعض عماله: "اجْعَلْ وَسِيَّتَكَ إِلَيْنَا مَا يَزِيدُكَ عِنْدَنَا" (٤) وإلى بعض صنائعه في أمر عاتبه فيه : "لَمْ نَزْرَعَكَ لِنَحْصُدَكَ" (٥) وفي قصة رجل تظلم من أحد عماله : "إِنَّا لَمِثْلُهُ حَتَّى نُنْصِفَكَ" (٦) ووقع إلى عامل مصر في رجل من بطانته يوصيه: "إِنَّهُ رَغِبَ إِلَى شِعْبِكَ فَأَرْغَبْ فِي اصْطِنَاعِهِ" (٧) وفي قصة متصّح : "بَعْضُ الصَّدَقِ قَبِيْحٌ" (٨) وفي قصة رجل شكّا بعض خدمه : "خُذْ بِأُذُنِهِ وَرَأْسِهِ فَهُوَ مَالِكٌ" (٩) وإلى عامل فارس في رجل كتب إليه بالوصاية : "كُنْ لَهُ كَأَبِيهِ لَوْ كَانَ مَكَانَكَ" (١٠) وكلها كما نرى على جانب سني من البلاغة.

وكثيرا ما كان يحلو له أن يوقع بأية من آيات الذكر الحكيم أو بحديث نبوي شريف أو بيت من الشعر، وقد مرت بنا أمثلة على هذه التوقيعات في الفصل الأول من هذه الدراسة (١١)، ومن توقيعاته بالشعر توقيعه لرجل سأله العون في أمر ما وكان جعفر يعرفه ويخبره فوقع في كتابه:

قَدْ رَأَيْتَكَ فَمَا أُعْجِبْنَا وَتَلَوْنَاكَ فَلَمْ نَرْضَ الْخَبْرَ (١٢)

(١) المصدر نفسه، ج٤، ص ٢٣٨ وابن قتيبة - عيون الأخبار، ج٢، ص ٥٧١.

(٢) ابن خلدون - المقدمة، ج٢، ص ٦٨١ والجهشياري - الوزراء والكتاب، ص ٢٠٤.

(٣) ابن عبد ربه - العقد الفريد، ج٤، ص ٣٠٢.

(٤) المصدر نفسه، ج٤، ص ٣٠٣.

(٥) المصدر نفسه، ج٤، ص ٣٠٣.

(٦) المصدر نفسه، ج٤، ص ٣٠٢.

(٧) المصدر نفسه، ج٤، ص ٣٠٢.

(٨) المصدر نفسه، ج٤، ص ٣٠٢.

(٩) المصدر نفسه، ج٤، ص ٣٠٢.

(١٠) المصدر نفسه، ج٤، ص ٣٠٢.

(١١) انظر ص ٨٠-٩١ من هذا البحث.

(١٢) الجهشياري - الوزراء والكتاب، ص ٢٠٥.

وتوقيعه على كتاب ورد عليه من علي بن عيسى بن ماهان، وقد كتب إليه معتذراً عن أشياء بلغته عنه :

كَأَنَّا وَقَدْ كُنَّا صَدِيقًا مُصَافِيًا تَبَاعَدَ بَيْنَانَا فَدَامَ إِلَى الْحَشْرِ (١)

يتضح من هذه التوقيعات أن جعفر البرمكي ذو مقدرة كبيرة، وبراعة فائقة في التوقيع، فهذه التوقيعات تتم عن ذكاء وقريحة وقادة؛ فهذا الفن بحاجة إلى سرعة بديهية وذكاء فائقين، وقد حاز جعفر هذه الصفات كلها فظهرت آثارها بادية للعيان في توقيعاته التي كانت تنساب على ظهور الكتب والقصص والرقاع فتفصل فيها.

والحق إن توقيعات جعفر كانت من الرقة في الأسلوب والعمق في المعنى والإعجاز في الإيجاز والإحاطة بالغرض، بحيث ضاهت الشعر فأصبحت تقرأ وتحفظ (٢) وهي في النهاية إن دلت على شيء فإنما تدل على البراعة العقلية والأدبية التي امتاز بها عقل جعفر وبيانه الرفيع.

وثمة ظاهرة أخرى تبرز في أسلوب جعفر وهي اعتماده على السجع، وهو في سجعته لا يلتزم حرفاً واحداً، لئلا يتسرب الملل إلى نفس قارئه، يقول في رسالة إلى أحد عماله يعفو عنه من ذنب اقترفه :

"عِنْدَنَا الْاِعْتِقَارُ لِمَا اقْتَرَفْتَ وَتَصَدِيقُ كُلِّ مَا قُلْتَ، وَاحْتَجَجْتَ بِذِكْرِهِ وَاعْتَذَرْتَ بِوَصْفِهِ، وَالاسْقَاطُ لِمَا جَدَدْتَهُ، وَالْاِكْذَابُ لِلْجَوْرِ الَّذِي اقْتَرَفْتَهُ، وَالرُّجُوعُ عَمَّا أَنْكَرْتَهُ، وَالزِّيَادَةُ فِيمَا اخْتَرْتَهُ، اسْتِدْعَاءُ لَكَ وَإِنْ انصَرَفْتَ، وَحِيَاظاً لِمَا قَدَّمْتَ وَإِنْ دُمِيتَ، وَإِنشَاراً لِلْاِغْضَاءِ وَالْاِحْتِمَالِ، فَإِنَّهُمَا أَبْلَغُ فِي الْاِصْلَاحِ وَأَنْجَعُ فِي الْاِسْتِنجَاحِ، وَأَسْرِعُ فِي التَّعْلِيمِ، وَأَكْبَرُ فِي التَّقْوِيمِ إِنْ احْتِيَجَ إِلَيْهِ فِي مِثْلِكَ مِمَّنْ تُوْمَنُ عَلَيْهِ قَرِيحَتُهُ، وَتَرُدُّهُ إِلَى الْاِسْتِقَامَةِ تَجْرِبَتُهُ" (٣).

فقد عقد سجعته بدايةً على حرف التاء ثم أدخل حرف الهاء ثم عاد إلى التاء مرة أخرى ثم انتقل إلى حرف الحاء ثم انحرف إلى الميم ثم عاد مرة أخرى إلى حرف الهاء وهذه التنويعات في السجع من شأنها أن تضيف نوعاً من الموسيقى على ألفاظ هذه الرسالة.

إننا نحس ونحن نقرأ هذه الرسالة أن جعفر قد امتلك ناصية السجع، فالرسالة من مبدئها إلى منتهاها مبنية على السجع، وما هذا إلا مبالغة منه في التألق والتتميق الذي كان يسعى إليه حتى في ثيابه (٤).

(١) نفسه، ص ٢٠٥.

(٢) د. مصطفى الشكعة - الأدب في موكب الحضارة الإسلامية، كتاب النثر، ص ٢٦٩-٢٧٠.

(٣) أحمد زكي صفوت - جمهرة رسائل العرب، ج٣، ص ١٦٤.

(٤) الجهشياري - الوزراء والكتاب، ص ٢١٥. والجاحظ - البيان والتبيين، ج٣، ص ٣٥٦.

وظاهرة أخرى في أسلوب جعفر وهي الموازنة بين الجمل، يعقدها مقرونة بالأسلوب المسجوع أحياناً، مبدئياً قدرة فائقة على امتلاك ناصية اللغة وتطويع ألفاظها، وتبدو هذه الظاهرة أكثر ما تبدو في توقيعاته الموجزة التي كان يوشى بها الرقاع التي كانت ترد إليه، ومثال ذلك توقيعه إلى رجل في وصف طاعة: "إِنْ صَدَقْتُ نَيْتُكَ فَاسْتَعِذْ عَلَانِيَتِكَ" (١) وتوقيعه إلى رجل كتب إليه يستبطئه: "أَحْتَجُّ عَلَيْكَ بِغَالِبِ الْقَضَاءِ وَأَعْتَذِرُ إِلَيْكَ بِصَادِقِ النِّيَّةِ" (٢) من ذلك يتبين لنا أن توقيعات جعفر قد جمعت الإيجاز في اللفظ والسجع والموازنة بين الجمل، وكل هذا يشهد ببلاغته وفصاحته وبراعته الأدبية، مما حدا بالكثير من الأدباء والكتاب إلى الإشادة بأسلوبه، وتوقيعاته.

ومع أن جعفر بن يحيى لم يبتكر فن التوقيعات، فقد سبقه إليه كثيرون منهم أبوه يحيى، إلا أنه فاقهم بكثرة توقيعاته وبلاغتها ونفاذها؛ فقد كان ذا مقدرة وذوق وبلاغة في كل ما صدر عنه من توقيعات (٣).

وكما كان جعفر البرمكي مجيداً في إيجازه فقد أبدع وأجاد في إطنابه وليس أدل على ذلك من خطبه التي تشهد ببراعته وإبداعه.

امتازت خطب جعفر البرمكي بالإطناب بشكل واضح وجلي، فهو يطيل في التحميدات كما يطيل في المقاطع الأخرى، يقول في خطبته في أهل الشام لما هاجت العصبية فيها عام ١٨٠هـ:

"الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَمْنَعَهُ غِنَاهُ عَنِ الْخَلْقِ مِنَ الْعَائِدَةِ عَلَيْهِمْ، وَلَمْ تَمْنَعُهُ إِسَاءَتُهُمْ مِنَ الرَّحْمَةِ لَهُمْ، دَعَاهُمْ مِنْ طَاعَتِهِ لِمَا يُنْجِيهِمْ، وَذَادَهُمْ مِنْ مَعْصِيَتِهِ عَمَّا يُرِيدُهُمْ، كَلَّفَهُمْ مِنَ الْعَمَلِ دُونَ طَائِقَتِهِمْ، وَأَعْطَاهُمْ مِنَ النِّعَمِ فَوْقَ كِفَايَتِهِمْ، فَهُمْ فِيمَا حُمِّلُوا مُخَفَّفَاتٌ عَنْهُمْ، وَفِيمَا خُوِّلُوا مُوسَّعٌ عَلَيْهِمْ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى نَبِيِّ الرَّحْمَةِ وَالْمَبْعُوثِ إِلَى كَافَّةِ الْأُمَّةِ، وَعَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ الطَّاهِرِينَ وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا..." (٤).

وإذا أضفنا إلى هذا التحميد تحميده في خطبته التي ألقاها بين يدي الرشيد عندما عاد من الشام بعد أن أصلح أحوالها وقضى على العصبية فيها، يقول في خطبته:

"الْحَمْدُ لِلَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِي أَنَسَ وَحَشَيْتِي، وَأَجَابَ دَعْوَتِي، وَرَجِمَ تَصْرُعِي وَأَنْسَأَ فِي أَجْلِي حَتَّى أَرَانِي وَجْهَ سَيِّدِي وَأَكْرَمَنِي بِقُرْبِهِ، وَأَمَّنَّ عَلَيَّ بِتَقْبِيلِ يَدِهِ وَرَدَّنِي إِلَى خِدْمَتِهِ، فَوَاللَّهِ

(١) الجاجري - نكت الوزراء، ص ٣٥.

(٢) أحمد زكي صفوت - جمهرة رسائل العرب، ج٤، ص ٣٨٦.

(٣) انظر د. مصطفى الشكعة - الأدب في موكب الحضارة الإسلامية، ص ٢٦٩.

(٤) الجهشياري - الوزراء والكتاب، ص ٢٠٨-٢٠٩.

إِنْ كُنْتُ لِأَذْكَرُ غَيْبِي عَنْهُ وَمَخْرَجِي وَالْمَقَادِيرَ الَّتِي أَرْعَجْتَنِي، فَأَعْلَمُ أَنَّهَا كَانَتْ بِمَعَاصِ لِحَقَّتِي
وَحَطَايَا أَحَاطَتْ بِي وَلَوْ طَالَ مَقَامِي عَنْكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ - لَخِفْتُ أَنْ يَذْهَبَ
عَقْلِي إِشْفَاقًا عَلَى قُرْبِكَ وَأَسْفَاً عَلَى فِرَاقِكَ، وَأَنْ يُعَجَّلَ بِي عَنْ إِذْنِكَ الْإِشْتِيَاقُ إِلَى رُؤْيَيْكَ،
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَصَمَنِي فِي خَالِ الْغَيْبَةِ وَمَتَّعَنِي بِالْعَافِيَةِ، وَعَرَّفَنِي الْإِجَابَةَ وَمَسَكَنِي بِالطَّاعَةَ
وَحَالَ بَيْنِي وَبَيْنَ اسْتِعْمَالِ الْمَعْصِيَةِ؛ فَلَمْ أَشْخَصْ إِلَّا عَنْ رَأْيِكَ، وَلَمْ أَقْدَمْ إِلَّا عَنْ إِذْنِكَ وَأَمْرِكَ،
وَلَمْ يَخْتَرِ مَنِّي أَجَلَ ذُنُوكَ ... " (١).

يتضح من التحميديين السابقين أن جعفر البرمكي ذو مقدرة كبيرة على الإطناب وما ينطوي عليه من لف ودوران حول الموضوع، وحشد كثير من الألفاظ للدلالة على معنى واحد تأكيداً للفكرة وتوضيحاً لها، كما نلاحظ في التحميد الثاني خلوه من السجع واعتماده الأسلوب المرسل على غير عادة جعفر الذي كان يؤثر السجع في كتاباته.

ولعل الإطناب الذي يبدو بجلاء في خطب جعفر البرمكي جاء بتأثير الثقافة الفارسية، فهو كما رأينا في الخطبة السابقة يحلها بألفاظ الملق والتعظيم والتزلف والخضوع، وهو أسلوب لم يعهده العربي الذي كان غالباً ما يخاطب الخليفة باسمه الصريح، وهذا الأسلوب أثر عن الفرس الذين عاشوا في ظل ملوك جبابرة، فاحتاجوا إلى مثل هذا الأسلوب يتملقون به القادة ويتقربون إليهم، وربما الذي دفعهم إلى ذلك أنهم كانوا يقدسون ملوكهم ويرفعونهم إلى مصاف الأئوهية، ولما دخل الفرس الحياة العربية في العصر العباسي جلبوا معهم نظرتهم إلى ملوكهم وفرضوا على الكتاب هذا الأسلوب المليء بألفاظ الملق والتعظيم (٢).

ويبرز الأثر الفارسي بجلاء في كتابات جعفر في طريقتة في عرض آرائه؛ فقد كان يسير على سنن آبائه وأجداده من الفرس الذين كانوا يعتمدون طريقة السؤال والجواب في عرض أفكارهم ومعانيهم (٣)، وتبدو هذه السمة واضحة عند جعفر بن يحيى عندما سئل عن البيان فقال: "أَنْ يَكُونَ الْأَسْمُ يُحِيظُ بِمَعْنَاكَ وَيَكْشِفُ عَنْ مَعْرَاكَ وَيُخْرِجُهُ مِنَ الشَّرِكَةِ وَلَا يُسْتَعَانُ عَلَيْهِ بِالْفِكْرَةِ، وَيَكُونُ سَلِيمًا مِنَ التَّكْلِيفِ بَعِيدًا مِنَ الصَّنْعَةِ، بَرِيئًا مِنَ التَّعْقِيدِ غَنِيًّا عَنِ التَّأْوِيلِ" (٤).

وقد تبدي في النص السابق سمة أخرى من سمات التأثر بالثقافة الفارسية وهي عمق المعاني واستقصاءها، فقط لاحظنا من خلاله أن جعفرأ تناول فكرة واحدة، وفصل فيها وأطال

(١) الطبري - تاريخ الطبري، ج٤، ص ٦٤٣.

(٢) انظر د. محمد نبيه حجاب - مظاهر الشعوبية، ص ٣٩٤-٣٩٥.

(٣) انظر د. عيسى العاكوب - تأثير الحكم الفارسية، ص ٣٠٦.

(٤) الجاحظ - البيان والتبيين، ج ١، ص ١٠٦، والعسكري - الصناعيتين، ص ٤٢.

وأحاط بكل جزئياتها (١).

ولم يقف الأمر بجعفر عند هذا الحد بل راح يستقي بعض توقعات ملوك الفرس ووزرائهم وقوادهم العظام، ونلاحظ هذا في توقعه الذي يقول فيه: "الخرأج عمود الملك وما استغزر بمثل العدل وما استغزر بمثل الجور" (٢)، وهذا قول مشهور لأردشير بن بابك (٣) استوحاه جعفر واستعاره. لقد كان جعفر البرمكي بحق كاتباً من الطراز الأول، وقد ساهم مع أبيه يحيى - بحكم عملهما في ديوان الرسائل وإشرافهما عليه - في إشاعة سمات معينة في الكتابة الديوانية، نشرت ظلالتها خاصة في كتابات الكتاب الذين تتلمذوا عليهما وكتبوا عنهما، ومن هذه السمات السجع الذي شاع في كتابات البرامكة، ومع أنه لا يطرد في كتاباتهم - كما رأينا عند يحيى وابنه جعفر - فإننا نحس ميلهم الواضح له، هم وبعض كتابهم (٤).

إسماعيل بن صبيح

إسماعيل بن صبيح الكاتب، ولا تضيف المصادر التي ترجمت له شيئاً بعد اسم والده، وتكاد هذه المصادر تقف به عند هذا الحد من النسب.

وقد اختلف في ضبط اسم والده "صبيح" فضبطه كل من الجهشياري (٥) وابن قتيبة (٦) وابن الأبار (٧) والدينوري (٨) بفتح الصاد "صبيح" وهو الأرجح في حين ضبطه الصفدي (٩) بضمها "صبيح"، أما الطبري فقد ضبطه بفتح الصاد تارة (١٠) وبضمها تارة أخرى (١١).

(١) انظر د. عيسى العاكوب - تأثير الحكم الفارسية، ص ٣٠٦.

(٢) الثعالبي - خاص الخاص، ص ٩٠، وانظر الطرطوشي - سراج الملوك، ج ٢، ص ٤٩٦.

(٣) عهد أردشير، ص ١٠١، وانظر د. عيسى العاكوب، تأثير الحكم الفارسية، ص ٣٠٦.

(٤) د. شوقي ضيف - العصر العباسي الأول، ص ٤٧٦.

(٥) الوزراء والكتاب، انظر مثلاً ص ٣٠١ ومواضع أخرى، راجع الفهرس.

(٦) عيون الأخبار، ج ١، ص ٩٩.

(٧) ابن الأبار - اعتاب الكتاب، ص ١٠٢.

(٨) الأخبار الطوال، ص ٣٩٣.

(٩) الوافي بالوفيات، الطبعة الثانية، ١٤١١هـ-١٩٩١م، ج ٩، ص ١٢٣.

(١٠) تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٦٥٦.

(١١) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٦٠٥.

وفيما يتعلق بنسبه الأديني فيحدثنا الجهشياري^(١) أن والد إسماعيل كان مولى عتاقة لسالم الأفتس^(٢)، وقد أعتقه سالم هذا وجعله قيماً لمسجد حران^(٣). لا نعلم تحديداً متى ولد إسماعيل، وكما ضنت علينا المصادر بذكر سلسلة نسبه فقد ضنت علينا بالحديث عن نشأته الأولى، ولكن يبدو أنه ولد في حران أثناء إقامة والده فيها وعمله قيماً لمسجدها إن صحت رواية الجهشياري^(٤).

نشأ إسماعيل في خدمة الدولة العباسية، فقد كتب في بداية حياته لأبي عبيد الله معاوية ابن يسار^(٥) وزير المهدي، ثم اتصل بعد ذلك بيحيى بن خالد البرمكي وكتب عنه^(٦)، ويبدو أنه كان واحداً من الكتاب العديدين الذين توافدوا إلى دواوين البرامكة وتعلموا على أيديهم وكتبوا عنهم.

وقد نال إسماعيل ثقة يحيى البرمكي وحاز على إعجابه، فاختره ليكون عيناً يستطلع له الأخبار أثناء المحنة التي قامت بين الهادي وأخيه الرشيد حول ولاية العهد، وتوسط له عند إبراهيم بن ذكوان الحراني^(٧) وزير الهادي فاستكتبه، ولما علم الهادي بخبر إسماعيل، أشار يحيى عليه بالشخوص إلى حران بعد أن قلده إبراهيم الحراني ديوان زمام الشام وما يليها بشفاعة يحيى بن خالد^(٨).

(١) الوزراء والكتاب، ص ٣٠١.

(٢) لم أقف على ترجمته.

(٣) حران : مدينة عظيمة من أشهر مدن الجزيرة الفراتية، كانت تعد قسبة ديار مضر قريبة من الرها، على طريق الموصل، فتحت زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، انظر الحموي - معجم البلدان، ج٢، ص٣٢٥-٣٢٦ "حران" وهي اليوم من مدن شمال شرق سوريا.

(٤) انظر الوزراء والكتاب، ص ٣٠١.

(٥) أشعري بالولاء، أصله من طبرية، اتصل بالعباسيين واتخذ المهدي وزيراً له وأفسد الربيع بن يونس علاقته مع المهدي، فعزله، توفي في بغداد ١٧٠هـ. انظر : الخطيب البغدادي- تاريخ بغداد، ج١٣، ص١٩٦-١٩٧ والذهبي - سير أعلام النبلاء، ج٧، ص ٣٩٨، وابن العماد - شذرات الذهب، ج٢، ص٣٢٦.

(٦) الجهشياري - الوزراء والكتاب، ص ١٥٠.

(٧) إبراهيم بن ذكوان الحراني - وزير الهادي، عينه المهدي مؤدباً لابنه الهادي وكتائباً له فغلب عليه، حتى خاف المهدي على ابنه منه، فغضب عليه وعزم على قتله، ولكن المهدي مات قبل أن ينفذ ما عزم عليه، وعندما تولى الهادي الخلافة، استوزره ومات الهادي وهو على وزارته، فلما تولى الرشيد الخلافة غضب عليه وحبسه ثم أطلقه بشفاعة يحيى بن خالد، انظر الطبري - تاريخ الطبري، ج٤، ص ٦٠٥-٦١٩ والجهشياري - الوزراء والكتاب، ص١٦٧، ١٧٨.

(٨) الجهشياري - الوزراء والكتاب، ص ١٦٨. والطبري - تاريخ الطبري، ج٤، ص ٦٠٥.

وفي عهد الرشيد وصل إسماعيل إلى أوج مجده، إذ ابتسم له الحظ، فقلده الرشيد ديوان الخراج ثم ديوان الرسائل^(١) في بغداد، ووضح ما لهذه المناصب من أهمية بالغة، فديوان الخراج يتولى الإشراف على جباية أموال الخراج من شتى أقاليم الدولة، في حين يتولى ديوان الرسائل إنشاء المكاتبات الرسمية التي تصدر عن الدولة في تصريف شؤونها الداخلية والخارجية.

ويتولى إسماعيل ديوان الرسائل أصبح معدوداً في حاشية الخليفة، ومن أوثق رجاله، إذ خول له هذا المنصب ملازمة الخليفة والاطلاع على أسرار دولته. ولعل السبب في تقرب الرشيد لإسماعيل وحظوته عنده أنه كان من أعوان البرامكة الذين أطلق الرشيد أيديهم في دولته، فكانوا يعينون من يشاؤون ويعزلون من يشاؤون، وكان إسماعيل أحد الرجال الذين فازوا بتزكية البرامكة وخاصة يحيى، فلا غرو إذاً أن يحظى بهذه المنزلة عند الرشيد الذي لم يكن يرفض له رأياً خاصة في أول عهده اعترافاً منه بفضلته في اعتلائه عرش الخلافة.

ولكن الأمور بين إسماعيل والبرامكة لم تدم على هذه الحال من الحظوة، فقد سجلت المصادر التاريخية انحرافهم عنه، وربما يعود السبب في ذلك إلى علاقته بالفضل بن الربيع عدوهم اللدود، والمصادر التاريخية تشير إلى هذه العلاقة وتطورها في مناسبات عديدة، من أشهرها أن الرشيد عام ١٧٣هـ لما توفيت أمه الخيزران، دعا الفضل بن الربيع وقال له: وحق المهدي إني لأهم لك من الليل بالشيء من التولية وغيرها، فتمنعني أمي فأطبع أمرها، فخذ الخاتم من جعفر" فاستعان الفضل بصديقه إسماعيل بن صبيح ليتوسط له في هذه المسألة ففعل، وتم أخذ الخاتم من جعفر وأعطى للفضل بن الربيع^(٢).

ومن ذلك أيضاً ما ذكره المؤرخون أن من جملة أسباب نكبة البرامكة تقصيرهم بالفضل ابن الربيع وسعيه بهم عند الرشيد فأوغر قلبه عليهم، ومالاه على ذلك إسماعيل بن صبيح حتى أوقع الرشيد بهم ونكبهم^(٣).

ولم يؤثر انحراف البرامكة عن إسماعيل على حظوته عند الرشيد؛ لأن الرشيد بدأ يتغير على البرامكة ويفكر في التخلص منهم؛ بل على العكس من ذلك فقد بقيت حاله عنده على ما هي عليه من الحظوة والجاه - إن لم يتقدم في ذلك خطوات - فقد أصبح الرشيد يفشي إليه بأسرار لم يكن ليطلع عليها أحداً؛ من ذلك ما رواه إسماعيل نفسه عن الرشيد، فقال:

(١) الجهيشاري - الوزراء والكتاب، ص ٢٥٧.

(٢) الطبري - تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٦٢٣-٦٢٤ وابن الأثير - الكامل، ج ٥، ص ٢٨٦ و د.

عبدالجبار الجومرد - هارون الرشيد، ج ١، ص ١٦٥.

(٣) ابن خلكان - وفيات الأعيان، ج ٤، ص ٣٧.

بَعَثَ إِلَى الرَّشِيدِ يَوْمًا وَهُوَ بِنِغَادَا، فَدَخَلْتُ، فَلَمْ أَرِ فِي الْمَقَاصِيرِ وَالْأَرْوَاقِ أَحَدًا حَتَّى انْتَهَيْتَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: يَا إِسْمَاعِيلُ، هَلْ رَأَيْتَ فِي الدَّارِ أَحَدًا؟ فَقُلْتُ: لَا وَاللَّهِ! قَالَ: فَطُفِ الْمَجَالِسِ وَالْأَرْوَاقَ وَالْمَقَاصِيرَ! فَطُفْتُ فَلَمْ أَجِدْ أَحَدًا فَقَالَ: عُدْ ثَلَاثَةَ؛ فَعُدْتُ ثُمَّ قَالَ: خُذْ ذَلِكَ الْكُرْسِيَّ؛ فَأَخَذْتُهُ، وَخَرَجَ وَفِي يَدِهِ عَمُودٌ حَتَّى صَارَ إِلَى وَسْطِ الصَّخْنِ، ثُمَّ قَالَ: ضَعِ الْكُرْسِيَّ فَوَضَعْتُهُ، فَجَلَسَ عَلَيْهِ وَالْعَمُودُ فِي يَدِهِ، ثُمَّ قَالَ: اجْلِسْ! فَأَوْجَسَتْ نَفْسِي خِيفَةً، وَجَلَسْتُ، فَقَالَ: إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَفْشِيَ إِلَيْكَ سِرًّا، وَاللَّهِ لَئِنْ سَمِعْتَهُ مِنْ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ لِأَضْرَبَنَّ عُنُقَكَ! فَتَرَجَعْتُ نَفْسِي، وَقُلْتُ: إِنْ كُنْتُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قُلْتَهُ لِأَحَدٍ أَوْ تَقُولُهُ، فَلَا حَاجَةَ بِي إِلَيْهِ. فَقَالَ: مَا قُلْتَهُ لِأَحَدٍ وَلَا أَقُولُهُ، إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَوْقِعَ بِأَلِّ بَرْمَكِ إِيقَاعًا مَّا أَوْقَعْتَهُ بِأَحَدٍ، وَأَجْعَلُهُمْ أَحَدُوثَةً وَتَكَالًا إِلَى آخِرِ الْأَبَدِ" (١). ولولا أن إسماعيل كان من أقرب الناس إلى قلب الرشيد وأشدهم خصومة للبرامكة لما أطلععه على هذا السر الخطير.

وبلغ من حظوة إسماعيل عند الرشيد أنه أصبح يصحبه معه في حله وترحاله؛ فعندما عقد الرشيد عزمه على توثيق العهود التي كتبها على أبنائه الثلاثة، خرج إلى مكة يريد الحج عام ١٨٦هـ، وصحب معه جمعاً غفيراً من الكتاب والوزراء والفقهاء وجملة بني هاشم، وكان فيمن صحب إسماعيل بن صبيح الذي تولى كتابة العهود بنفسه (٢).

وبعد نكبة البرامكة ازدادت حظوة إسماعيل عند الرشيد حتى اختص به وغاب عليه (٣). وله يقول محذراً من فعل البرامكة: "إِيَّاكَ وَالذَّالَّةَ، فَإِنَّهَا تَفْسِدُ الْجُرْمَةَ وَمِنْهَا أُتِيَ الْبَرَامِكَةُ" (٤). وقلده ديوان الرسائل وديوان السر وديوان الصوافي (٥). ولما توفي الرشيد كان إسماعيل بن صبيح يتقلد ديوان الرسائل (٦) وديوان التوقيع (٧) وديوان السر (٨) وديوان الضياع (٩) وديوان الخراج وديوان الجند (١٠).

وعندما تولى الأمين الخلافة بعد أبيه الرشيد، أقبل إسماعيل عليه يهنئه بالخلافة فقال له

- (١) اليعقوبي - تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص ٤٢٢.
- (٢) الطبري - تاريخ الطبري، ج٤، ص ٦٥١، ٦٥٦.
- (٣) اليعقوبي - تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص ٤٢٩ وابن الأبار - إعتاب الكتاب، ص ١٠٢.
- (٤) ابن الأبار - إعتاب الكتاب، ص ١٠٢-١٠٣.
- (٥) الجبشاري - الوزراء والكتاب، ص ٢٦٦.
- (٦) المصدر نفسه، ص ٢٧٧ وانظر الصفدي - الوافي بالوفيات، ج٩، ص ١٢٣.
- (٧) الصفدي - الوافي بالوفيات، ج٩، ص ١٢٣.
- (٨) الجبشاري - الوزراء والكتاب، ص ٢٧٧ والصفدي - الوافي بالوفيات، ج٩، ص ١٢٣.
- (٩) الجبشاري - الوزراء والكتاب، ص ٢٧٧.
- (١٠) خليفة بن خياط - تاريخ خليفة بن خياط، ص ٤٦٥.

الأمين : ما الذي ترى يا ابن صبيح ؟ قال أرى دولة مباركة وخلافة مستقيمة، وأمرأ مقبلاً، فتممَّ الله ذلك لأمير المؤمنين بأفضله وأجزله" (١). فأقره الأمين على ما كان يتقلد من أعمال في أيام أبيه الرشيد (٢).

ولكن الأمور لم تجر بما يهوى ابن صبيح ؛ فقد تناولته السنة الحساد والوشاة فسعوا به إلى الأمين وحملوه على القبض عليه، ومن هؤلاء أبو نواس الشاعر الذي كان مولعاً بهجائه والتشنيع عليه، يقول معرضاً بإسماعيل ومغرياً به الأمين :

السنة أمين الله ستيفك نعمة
فكيف بإسماعيل يسلم مثله
أعندك بالرحمن من شر كاتيب
أخيمر عاد إن للسيف وقعة
تجهز جهاز البرمكين وارتقب
إذا ماق يوماً في خلافك مائق (٣)
عليك ولم يسلم عليك منافق
له قلم زان وآخر سارق
برأسك فانظر بعدهما من توافق
بقية ليل صبحة بك لاحق (٤)

وقال مخاطباً الأمين ومعرضاً بابن صبيح :

أيا أمين الله كيف تحيننا
فما بال مولاهم لسيرك موضعاً
تبين أمين الله في لحظاته
بنيت بما خنت الأمير سقاية
قلوب بني مروان والأمر ما تدرى
وما باله أمسى يشارك في الأمر
شنان (٥) بني العاصي (٦) وحقد بني صخر (٧)
فلا شربوا إلا أمر من الصبر (٨)

(١) الديفوري - الأخبار الطوال، ص ٣٩٣.

(٢) الجهشيري - الوزراء والكتاب ن ص ٢٩٩-٣٠٠ والطبري - تاريخ الطبري، ج٥، ص ٤٧ وهذا خلافاً لرواية الجهشيري الذي يذهب في موضع آخر إلى أن الأمين قلد ديوان الرسائل كاتباً آخر هو يحيى بن سليم، وهو من كتاب إسماعيل، انظر تاريخ خليفة، ص ٤٦٥ وانظر الجهشيري - الوزراء والكتاب، ص ٢٨٩.

(٣) المائق : الهالك حمقاً وغباوة، انظر ابن منظور - لسان العرب، مادة، نوق.

(٤) أبو نواس - ديوان أبي نواس، ج٢، ص ١٧٩.

(٥) شنان : بنفس معنى شنان والمعنى هو الكرة والبعض، انظر ابن منظور - لسان العرب، ص ٣٦٥.

(٦) العاصي : جد مروان بن الحكم آخر خلفاء بني أمية.

(٧) صخر : هو اسم أبي سفيان بن حرب بن أمية.

(٨) ديوان أبي نواس، ج١، ص ٥٣٤ ويقال إن الأمين لما سمع البيت الأخير أمر بسجن ابن صبيح حتى يؤدي الذين بنى به السقاية لأهل المدينة من مال الخليفة على ما جاء في هذا البيت. انظر الديوان، ج١، ص ٥٣٤.

وقال أيضاً يتوعده :

أَلَا قُلْ لِإِسْمَاعِيلَ إِنِّكَ شَارِبٌ
أَيْسَمَنْ أَوْلَادُ الطَّرِيدِ وَرَهْطُهُ
وَإِنْ ذُكِرَ الْجَعْدِيُّ (١) أَذْرَيْتَ عَبْرَةً
وَتُخَيْرُ مَنْ لَأَقْبَيْتَ أَنَّكَ صَنَائِمُ
فَإِنْ يَسْرِ إِسْمَاعِيلُ فِي فَجْرَاتِهِ
بِكَأْسِ بَنِي مَرْوَانَ ضَرَّتْهُ لَازِمٌ
بِإِهْزَالِ آلِ اللَّهِ مِنْ آلِ هَاشِمٍ
وَقَلَّتْ أَدَالُ اللَّهِ مِنْ كُلِّ ظَالِمٍ
وَتَغْدُو بِحِجْرٍ مُقَطَّرٍ غَيْرُ صَائِمٍ
فَلَيْسَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِنَائِمٍ (٢)

ولكن الأمين لم يستمع لهذه الوشائيات ولم يُلْقِ لها بالأفلم يغير لإسماعيل حالاً ؛ لما ثبت له من نزاهته وإخلاصه وكفايته (٣). وبذلك نجا إسماعيل من أسنة هؤلاء الوشاة والحساد الذين حاولوا الإيقاع بينه وبين الأمين.

لم تسعفنا المصادر التي بين أيدينا عن إسماعيل منذ أواخر عهد الأمين إلا ما ذكره الجهيشاري والطبري من أن الأمين لما عزم على خلع أخيه المأمون والبيعة لابنه جمع وجوه القواد ورجال الدولة واستشارهم ؛ فأشار عليه الفضل بن الربيع بأن يطلب إلى أخيه أن ينزل عن بعض أعماله، ويكتب له بذلك كتاباً يستطيب به نفسه ويُسكِّنُ وحشته، ويسأله فيه الصفح له عما في يده، فدعا الأمين إسماعيل بن صبيح للكتابة إلى المأمون، فلما حضر إسماعيل قال: "يا أمير المؤمنين إن مسألتك الصَّفْحَ عَمَّا فِي يَدَيْهِ تَوْلِيدٌ لِلظَّنِّ وَتَقْوِيَةٌ لِلتَّهْمَةِ، وَمُدْعَاةٌ لِلحَذَرِ، وَلَكِنْ أَكْتُبُ إِلَيْهِ فَأَعْلَمُهُ حَاجَتَكَ إِلَيْهِ، وَمَا تَحِبُّ مِنْ قَرْبِهِ وَالِاسْتِعَانَةَ بِرَأْيِهِ وَسَلَهُ الْقُدُومَ إِلَيْكَ، فَإِنَّ ذَلِكَ أَبْلَغُ وَأَحْرَى أَنْ يَبْلُغَ فِيمَا يُوجِبُ طَاعَتَهُ وَإِجَابَتَهُ، فَقَالَ الْفَضْلُ: الْقَوْلُ مَا قَالَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَ: فَلْيَكْتُبْ بِمَا رَأَى؛ فَكُتِبَ إِسْمَاعِيلُ وَلَكِنْ الْمَأْمُونُ لَمْ يَسْتَجِبْ لِكِتَابِ أَخِي" (٤).

ومهما يكن من أمر فإن إسماعيل برأيه هذا قد برهن على مهارته السياسية بمشورته على الأمين بالكتابة لأخيه المأمون بهذه الصيغة، وعلى الرغم من عدم إجابة المأمون لأخيه الأمين فإن رأي إسماعيل يبقى رأياً ينم عن حنكة سياسية وبراعة في تسيير شؤون الحكم.

بعد ذلك لم تسعفنا هذه المصادر بأية معلومات عن إسماعيل، ويبدو أن حياته لم تطل كثيراً بعد هذه الحادثة، إذ يتوقف به كل من الطبري والجهيشاري عند هذا الحد مما يبقى

(١) الجعدي : هو لقب مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية.

(٢) ديوان أبي نواس، ج٢، ص ٣٨٢.

(٣) ابن الأبار - إعتاب الكتاب، ص ١٠٤. والطبري - تاريخ الطبري، ج٥، ص ٤٧. والجهيشاري - الوزراء والكتاب، ص ٢٩١-٢٩٢.

(٤) الطبري - تاريخ الطبري، ج٥، ص ٤٧. والجهيشاري - الوزراء والكتاب، ص ٢٩١-٢٩٢.

المجال مفتوحاً أمام الباحث لاستنتاج ما جرى لإسماعيل وما آل إليه أمره بعد ذلك.

ربما يكون قد حصل له ما حصل لسائر رجال الدولة بعد مقتل الأمين، فالفضل بن الربيع يختفي عن الأنظار بعد مقتله، وعلي بن عيسى بن ماهان يُقتل بسيوف رجال المأمون وربما يكون إسماعيل قد اعتزل السياسة بعد هذه الأحداث الجسيمة التي عصفت ببغداد بعد مقتل الأمين، وربما يكون قد قُتل فيمن قُتل بسيوف رجال المأمون وربما يكون المأمون قد عزله على عادة من يتسلمون الحكم فإنهم يصفون أعوان الخليفة السابق ويستبدلونهم بعناصر جديدة أكثر إخلاصاً.

ومما يسوغ هذه الاستنتاجات أن المصادر التي وقعت بين أيدينا لم تورد عنه شيئاً في خلافة المأمون مما يدل على أن حياته قد انتهت بعد مقتل الأمين بقليل^(١).

كان إسماعيل كاتباً حافظاً بليغاً^(٢) جامعاً لمحاسن الكتابة من نكاه وحسن خط وفطنة^(٣)، وتروى في حفظه قصص كثيرة، من ذلك ما رواه الجهشياري أن هارون الرشيد لما قدم الكوفة، أرسل إلى محدث من المحدثين ليسمع منه المأمون فحدثه نيقاً وأربعين حديثاً، فلما فرغ منها؛ قال له إسماعيل بن صبيح - وكان يحضر المجلس - أتحب أن أعيد لك ما حدثت به، فقال المحدث: نعم، فأعاده جميعه ما أسقط حرفاً، فقال المحدث لإسماعيل: القوم كانوا أعلم بك حيث وضعوك هذا الموضع^(٤).

وكان إسماعيل من أحسن الناس خطأ وأسرعهم يداً^(٥)؛ يروى أن أعرابياً دخل على الرشيد فأنشده أرجوزة مدحه فيها وإسماعيل بن صبيح يكتب بين يديه كتاباً، فقال الرشيد: صف هذا الكاتب؟ فقال: ما رأيت أطيش من قلمه ولا أثبت من حلمه^(٦) ثم قال:

رَقِيقٌ حَوَاشِي الْجَلْمِ حِينَ تَنْشُورُهُ يُرِيكَ الْهُوَيْنَا وَالْأُمُورُ تَنْظِيرُ
لَهُ قَلَمًا بُوَسَى وَنُعْمَى كِلَاهُمَا سَخَابَتُهُ فِي الْحَسَالَتَيْنِ دَرُورُ
يُنَاجِيكَ عَمَّا فِي ضَمِيرِكَ خَطُّهُ وَيَفْتَحُ بَابَ النُّجُحِ وَهُوَ عَسِيرُ

(١) الطبري - تاريخ الطبري، ج٦، ص ٤١ "الفهارس"، وانظر الجهشياري - الوزراء والكتاب، ص ٣٣٦ الفهرس.

(٢) الصفدي - الوافي بالوفيات، ج٩، ص ١٢٣.

(٣) الصولي - أخبار الشعراء المحدثين، ص ٢٠٧.

(٤) الجهشياري - الوزراء والكتاب، ص ٢٥٧.

(٥) ابن الأبار - إعقاب الكتاب، ص ١٠٣. والصفدي - الوافي بالوفيات، ج٩، ص ١٢٣.

فقال الرشيد : قد وجب لك يا أعرابي عليه حق كما وجب علينا، يا غلام : ادفع له دية الحر ؛ فقال إسماعيل : وعلى عبدك دية العبد" (١).

ويروى أن الرشيد قال لإسماعيل بن صبيح : وددت لو أن لي حسن خطك، فقال: يا أمير المؤمنين، لو كان حسن الخط مكرمة لكان أولى الناس بها رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢).

ولكنه مع كل هذه المحاسن كان بخيلاً محبباً للمال، وفي ذلك يقول أبو نواس يهجوّه ويشنع على بخله : (٣)

خُبْرُ إِسْمَاعِيلَ كَالْوَشْءِ	ي، إِذَا مَا أُنْشِقُّ يُرْقَا (٤)
عَجَبًا مِنْ أُنْزِ الصَّنْءِ	عَةِ فِيهِ كَيْفَ يَخْفَى
إِنَّ رَقَاءَكَ هَسْدًا	أُذِقُ الْأَمَّةَ كَفًّا
وَإِذَا قَابِلٌ بِالنُّصْنِ	فِ مِنَ الْجَرْدُقِ (٥) نَصْفَا
يُلْصِقُ النَّصْفَ بِنَصْفِ	فَإِذَا قَدْ صَارَ الْفَا
الطَّفِ الصَّنْعَةِ، حَتَّى	لَا تَرَى مِعْرَزَ إِشْفَى (٦)
مِثْلَمَا جَاءَ مِنَ التُّو	رِ مَا غَانَرَ حَرْقَا
وَأَلَهُ فِي الْمَاءِ أَيْضًا	عَمَلٌ أَنْبَدَعَ ظَرْقَا
مَزْجُهُ الْعَذْبَ بِمَاءِ السِّ	بِئْرٍ كَيْ يَزْدَادَ ضِعْفَا
فَهُوَ لَا يَسْتَقِيكَ مِنْهُ	مِثْلَمَا يَشْرَبُ صِرْقَا (٧)

ويضاف إلى صفة البخل التي تنسب إلى إسماعيل، أنه أول من كذب من الكتاب ومنى الناس بمواعيده الكاذبة (٨).

- (١) العسكري - ديوان المعاني، ج٢، ص ٧٧. وانظر ابن الأبار - إعتاب الكتاب، ص ١٠٣. والصولي - أدب الكتاب، ص ٦٧-٦٨ والصفدي - الوافي بالوفيات، ج٩، ص ١٢٣.
- (٢) ابن حمدون - التذكرة الحمدونية، ج٧، ص ١٨٢.
- (٣) ديوان أبي نواس، ج٢، ص ١٣٢-١٣٣.
- (٤) يُرْقَا : يجمع بعضه إلى بعض، ويُصلح ما وهى منه، انظر ابن منظور - لسان العرب، مادة رقا.
- (٥) الجردق : الرغيف، انظر ابن منظور - لسان العرب، مادة جرد.
- (٦) الإشفى : المخرز، انظر ابن منظور - لسان العرب، مادة شفى.
- (٧) صيرفا : خالصتا من كل شيء، انظر ابن منظور - لسان العرب، مادة صرّف.
- (٨) الصفدي - الوافي بالوفيات، ج٩، ص ١٢٤.

ومهما يكن من أمر هذه الصفات ومدى صحة نسبتها لإسماعيل، يبقى إسماعيل واحداً من كتاب هذا العهد المجيد الذين خدموا في دولة الرشيد، وأخلصوا في خدمتهم، وأبدوا كفاءة وبراعة عز نظيرهما.

أنشأ إسماعيل بن صبيح - أثناء خدمته في ديوان الرسائل - رسائل ديوانية كثيرة في شتى الأغراض، وقد سلكه ابن النديم مع الكتاب البلغاء المشهورين في العصر العباسي^(١).

وعلى الرغم من ذلك فإن ما وصلنا من نتاج إسماعيل النثري لا يتعدى بضع رسائل مبنوثة في بعض المصادر التي ترجمت له أو أوردت طرفاً من أخباره؛ ولذا فإنني سأعتمد على هذه الرسائل في إبراز ما انماز به أسلوب إسماعيل وطريقته في الكتابة.

أورد الطبري في تاريخه ثلاث رسائل لإسماعيل، إحداها عن الخليفة هارون الرشيد إلى سائر العمال في مختلف أقاليم الدولة وأمصارها بشأن ولاية العهد^(٢). والثانية جواب الرشيد إلى قائده هرثمة بن أعين رداً على رسالة منه بشأن الفتنة التي قامت في خراسان^(٣)، والثالثة عن الأمين إلى أخيه المأمون يسأله فيها القدوم عليه^(٤).

ورسالة رابعة قام بنشرها د. فاروق عمر فوزي في المجلة التاريخية العراقية تتضمن دعوة من الرشيد للثائر حمزة الخارجي بالفيئة إلى الجماعة، وعفواً عما اقترفه من جرائم هو وأتباعه إن استجاب لدعوه أمير المؤمنين^(٥).

تقوم الرسالة الديوانية عند إسماعيل على مقاطع عدة، تتكون عادة من المقدمة والموضوع والخاتمة، ففي المقدمة يذكر بعد البسملة اسم المرسل والمرسل إليه مع ذكر نعتيهما ثم الحمد لله والصلاة على الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه، وبعد ذلك يدخل إلى موضوع الرسالة والغاية التي أنشئت من أجلها، ثم يختم رسالته بالسلام، ويقول "وكتب إسماعيل بن صبيح" ويذكر تاريخ إصدار الرسالة ففي رسالته - عن الخليفة هارون الرشيد - إلى حمزة الخارجي بدأها بعد البسملة بذكر المرسل وهو الخليفة هارون الرشيد. "من هارون أمير المؤمنين" ثم ذكر المرسل إليه وهو حمزة بن عبد الله "إلى حمزة بن عبد الله" ثم يأتي بالحمدلة والصلاة على الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم: "سَلامٌ عَلَيتِكَ، إِنِّي أُحْمَدُ اللّهُ الَّذِي

(١) ابن النديم - الفهرست، ص ١٥٨.

(٢) الطبري - تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٦٥٥-٦٥٦.

(٣) المصدر نفسه، ج ٥، ص ٩-١٠.

(٤) المصدر نفسه، ج ٥، ص ٤٧-٤٨.

(٥) د. فاروق عمر فوزي، الرسائل المتبادلة بين الخليفة هارون الرشيد والثائر حمزة بن عبد الله الخارجي، ص ٢٦٤-٢٦٦.

لا إله إلا هو، وأسأله أن يُصَلِّيَ عَلَيَّ مُحَمَّدَ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ" ثم يَذْكُرُ بعثة النبي - صلى الله عليه وسلم - ودَعْوَتِهِ وثواب من أطاعه وأهتدى بهديه وعقاب من عصاه وأعرض عن دعوته.

ثم يدخل إلى موضوع الرسالة بقوله: "وأمرُ المؤمنين يذْعُوكَ ..." ثم يأتي بالعرض إلى آخره ويختم الرسالة بالسلام ويذكر تاريخ الرسالة بقوله: "وَكَتَبَ إِسْمَاعِيلُ بْنُ صَبِيحٍ مَوْلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ لَثْمَانَ بَقِيْنَ مِنْ صَفَرٍ سَنَةِ ثَلَاثٍ وَتَسْعِينَ وَمِائَةً".

وفي رسالته - عن الرشيد - إلى العمال قدم بمقدمة ملائمة لموضوع الرسالة متضمنة حمد الله على آلائه ونعمه التي أولاها أمير المؤمنين وابنيه الأمين والمأمون، ثم يدخل إلى موضوعه وفي ختام الرسالة يؤرخ لها بقوله: "وَكَتَبَ إِسْمَاعِيلُ بْنُ صَبِيحٍ يَوْمَ السَّبْتِ لِسَبْعِ لِيَالٍ بَقِيْنَ مِنَ الْمُحْرَمِ سَنَةِ سِتٍّ وَثَمَانِينَ وَمِائَةً"^(١) وجاءت رسالته - عن الأمين - إلى المأمون خالية من أي تحميد، فقد اكتفى بذكر المرسل وهو الأمين "مِنَ عِنْدِ الْأَمِينِ مُحَمَّدَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ" والمرسل إليه وهو المأمون "إلى عبد الله بن هارون أمير المؤمنين" ثم يلج إلى موضوعه مباشرة دون مقدمات بقوله: "أما بعد؛ فإن أمير المؤمنين ..." ويذكر حاجته إلى أخيه ثم يختم الرسالة بالسلام.

امتازت رسائل إسماعيل بالإطناب بشكل واضح وجلي، فهو يطيل في المقدمة كما يطيل في مقاطع الرسالة الأخرى، فهذه مقدمة رسالته عن الرشيد إلى حمزة الخارجي: "أما بعد، فإن الله - تبارك وتعالى - بعث محمداً نبياً - صلى الله عليه - إلى الناس كافةً بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، يبشّرُ بالجنة من أطاعه، ويُنذِرُ بالنار من عصاه، وأنزل عليه كتاباً عزيزاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيلاً من حكيم حميد، بين فيه حلاله وحرامه وفرائضه وحدوده وشرايع دينه، فبلغ محمداً رسالات ربه وتصح الأمة وبين لهم السنن الهادية لا اختلاف بين الأمة فيها في الصلوات وأوقاتها والحج والفرائض والحدود، وأوجب الله على عياده طاعة نبيه - صلى الله عليه وسلم - وجعل إطاعته مقرونة بطاعته، فمن أطاع الله وأطاع الله ومن عصاه عصى الله، فلما بلغ الله به عامّة الاختجاج على خلقه قبض الله رسوله - صلى الله عليه وسلم - واختار له ما عنده، وخلف بين ظهراني أمته كتاب الله وسنته التي فيها رضى ربه والفوز والنجاة لمن لزمها واعتصم بها والبوار والهلاك

(١) الطبري - تاريخ الطبري، ج٤، ص ٦٥٦ ويذكر الجهشياري أن الرشيد قد أمر إسماعيل بالكتابة إلى جميع العمال بما عقده بين أبنائه، وأن إسماعيل قد كتب بذلك كتاباً وكتب في آخره: "وكتب إسماعيل بن صبيح يوم السبت لسبع ليال بقين من المحرم سنة ثمان وثمانين ومائة"، انظر الوزراء والكتاب، ص ٢٦٥ وهذا خلافاً لما ذهب إليه الطبري.

لِمَنْ خَالَفَهَا وَعَمِلَ بِغَيْرِهَا"^(١).

يلاحظ من هذه المقدمة حذق إسماعيل وبراعته في اختيار مقدمات رسائله بما يوافق غرض الرسالة والموضوع الذي أنشئت من أجله، فالقطعة السابقة تتحدث عن رسالة النبي - صلى الله عليه وسلم - وأن الله تعالى بعثه لهداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور، فبلغ النبي - صلى الله عليه وسلم - ما أرسل به خير تبليغ وبيّن للناس شرائع الله، وأن الله تعالى لم يقبضه إليه حتى أتم دينه وأكمّله، وترك في الناس كتابه وسنة نبيه - صلى الله عليه وسلم - ليهدتوا بهديهما ويسيروا على نهجهما ففيهما الفوز والنجاة.

لذلك فالمتأمل لهذه المقدمة بوسعه أن يدرك موضوع الرسالة فهي له كالعنوان، كما يستطيع المرء أن يتبين الثقافة الدينية والكلامية الواسعة، التي يتمتع بها إسماعيل، من خلال اختياره لعدد من آي الذكر الحكيم التي تخدم موضوع الرسالة وإيرادها في مقدمتها تمهيداً لموضوعها والذي يتضمن دعوة لهذا التأثير الخارج بالهيئة إلى دين الله والرجوع إلى صفوف الجماعة الإسلامية.

والذي يطالع رسائل إسماعيل يلحظ أنه على الرغم من انصافها بالإطناب فإن هذا الإطناب لم يكن منفراً، فهو لم يكن يطيل في مقطع على حساب مقطع آخر من مقاطع الرسالة، كما يمكن أن يلحظ ميل إسماعيل إلى الجمل الطويلة غالباً، وهذا يعطي رسائله شيئاً من الرصانة والقوة، إضافة إلى الألفاظ الجزلة القوية ولكنها مع جزالتها سهلة بعيدة عن الغرابة والتعقيد. خاصة في رسائله الموجهة إلى عامة الشعب كالمنشور الذي كتبه على لسان الرشيد بشأن ولاية العهد بين أبنائه، يقول إسماعيل: "... وَقَدْ كَانَ مِنْ نِعْمَةِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - عِنْدَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَعِنْدَكَ وَعِنْدَ عَوَامِّ الْمُسْلِمِينَ، مَا تَوَلَّى اللَّهُ مِنْ مُحَمَّدٍ وَعَبْدِ اللَّهِ ابْنَيْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ تَبْلِيغِهِ بِهِمَا أَحْسَنَ مَا أَمَلْتَ الْأُمَّةَ وَمَدَّتْ إِلَيْهِ أَعْنَاقَهَا، وَقَدَفَ اللَّهُ لَهُمَا فِي قُلُوبِ الْعَامَّةِ مِنَ الْمَحَبَّةِ وَالْمَوَدَّةِ وَالسُّكُونِ إِلَيْهِمَا وَالنِّقَّةَ بِهِمَا لِعِمَادِ دِينِهِمْ وَقِيَامِ أُمُورِهِمْ وَجَمْعِ أَلْفَتِهِمْ وَصَلَاحِ ذَهْمَائِهِمْ وَدَفْعِ الْمَحْذُورِ وَالْمَكْرُوهِ مِنَ الشَّنَاتِ وَالْفُرْقَةِ عَنْهُمْ، حَتَّى أَلْقَوْا إِلَيْهَا أَرْزَمَتَهُمْ وَأَعْطَوْهُمَا بَيْنَعَنَهُمْ وَصَفَقَاتِ أَيْمَانِهِمْ بِالْعُهُودِ وَالْمَوَائِيقِ وَوَكَيْدِ الْأَيْمَانِ الْمُغْلَظَةِ عَلَيْهِمْ، أَرَادَ اللَّهُ فَلَمْ يَكُنْ لَهُ مَرَدٌّ، وَأَمْضَاهُ فَلَمْ يَقْدِرْ أَحَدٌ مِنَ الْعِبَادِ عَلَى نَقْضِهِ وَلَا إِزَالَتِهِ، وَلَا عَلَى صَرْقِ لَهْ عَنْ مَحَبَّتَيْهِ وَمُسْتَيْبَتَيْهِ وَمَا سَبَقَ فِي عِلْمِهِ مِنْهُ، وَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ يَرْجُو تَمَامَ النِّعْمَةِ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمَا فِي ذَلِكَ وَعَلَى الْأُمَّةِ كَافَّةً لَا عَاقِبَ لِأَمْرِ اللَّهِ وَلَا رَادَّ لِقَضَائِهِ وَلَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ"^(٢).

(١) د. فاروق عمر فوزي - الرسائل المتبادلة، ص ٢٦٤.

(٢) الطبري - تاريخ الطبري، ج٤، ص ٦٥٥.

إن المتأمل لهذه القطعة لا يجد بين ألفاظها لفظة نافرة، ولا عبارة مقحمة على النص، فكل لفظة جاءت في مكانها، وكل عبارة وردت في محلها، وهذا يثبت مقدرة إسماعيل وإجادته في الإطالة والإطناب، وما ينطوي عليه من لف ودوران من خلال حشد كثير من الألفاظ والعبارات للدلالة على مفهوم واحد، والإكثار من الفقرات المتباينة شرحاً للفكرة وتوضيحاً لها.

وهذا لا يعني أن إسماعيل في كل رسائله كان يعمد إلى الإطناب، ولكننا نلمح ميله إليه، فهناك رسالة له كتبها إلى يحيى البرمكي اعتمد فيها على الإيجاز في العبارة، يقول إسماعيل مخاطباً يحيى:

"في شكرٍ ما تقدّم من إحسانك شاغلٍ عن استيطاءٍ ما تأخر منه"^(١)، فهذه الرسالة بإيجازها أشبهت التوقيع المقتضب؛ ولذلك فقد استحقت ثناء الأدياء لأنه جمع فيها بين الشكر والاستزادة بأبلغ وأوجز عبارة^(٢).

وثمة ظاهرة أخرى في أسلوب إسماعيل وهي اعتماده الأسلوب المرسل الخالي من السجع؛ فهو في رسائله يترك الكلام يسير على سجيته دون أن يُجشم نفسه عناء التكلف والتصنع، يقول في رسالته عن الأمين إلى أخيه المأمون:

"أما بعد؛ فإن أمير المؤمنين روى^(٣) في أمرِك والموضع الذي أنت فيه من نَعْرِك، وما يؤمل فيه من قُرْبِك من المعاونة والمكافئة^(٤) على ما حملته الله وقلده من أمور عيادته وبلاده، وفكر فيما كان أمير المؤمنين الرشيد أوجب لك من الولاية وأمر به من إفرادك على ما يصير إليك منها، فرجاً أمير المؤمنين ألا يدخل عليه وكف^(٥) في بيته ولا نكث في يمينه، إذ كان إشتخاضه إليك فيما يعود على المسلمين نفعه، ويصل إلى عامتهم صلاحه وقضته، وعلم أمير المؤمنين أن مكانك بالقرب منه أسد للثغور وأصلح للجنود وأكد للفيء وأرد على العامة من مقامك ببلاد خراسان منقطعاً عن أهل بيته، منغيباً عن أمير المؤمنين ما يجب الاستمئاع به من رأيك وتكبيرك..."^(٦).

فقد جاءت هذه الرسالة على الأسلوب المرسل، بعبارات واضحة، وتراكيب سليمة خالية من التعسف، وأسلوب سهل وألفاظ قريبة واضحة لا تستعصي على الفهم؛ مما يدل على مهارة إسماعيل وحذقه وتمكنه من ناصية اللغة.

على أنه لا يقتصر في كل عباراته وتراكيبه على الأسلوب المرسل، فقد يرد السجع عنده عفو

(١) ابن حجة الحموي - ثمرات الأوراق، ص ٢١٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢١٨.

(٣) روى: فكر، ابن منظور - لسان العرب، مادة روى.

(٤) المكافئة: المساعدة والموازرة، انظر المصدر نفسه، مادة كف.

(٥) وكف: عيب ونقص وفساد، انظر المصدر نفسه، مادة وكف.

(٦) الطبري - تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٤٧.

الخطر في تضاعف كلامه دون أن يشعر هو بذلك، كما ورد في رسالته السابقة السجّع بين "دينه
ويمينه".

لقد استخدم إسماعيل بن صبيح أسلوباً سهلاً قريباً إلى الأفهام، يعقد جملته متضمنة
معنى واضحاً، ويختار عباراته وتراكيبه بدقة دون تكلف لألفاظ وعبارات قد تذهب عن كتابته
بريقها.

الفصل الثالث

الخصائص الفنية للرسائل الديوانية في عهد
الرشيد

الخصائص الفنية للرسائل الديوانية في عهد الرشيد

امتازت الرسائل الديوانية في عهد الرشيد بسمات فنية خاصة؛ ولعل ذلك يعود إلى تطور الحركة العلمية وازدهارها في هذا العهد الذي شكل عهد الاستقرار والأمن للدولة العباسية بغض النظر عن الثورات والفتن التي كانت تغلق الدولة بين الحين والآخر، ولكن هذه الثورات لم تحل دون تحقيق نهضة علمية على نطاق واسع.

وقد كان لديوان الرسائل وترتيبه وتنظيمه والكتاب الذين عملوا فيه الأثر الفاعل في اتسام هذه الرسائل بسمات فنية خاصة، من حيث ديباجة الرسالة وأسلوبها الفني.

مطالع الرسائل وخواتيمها

امتازت الرسائل الديوانية في هذه الحقبة من الزمن بعدد من العناصر البنائية من حيث مطالع الرسائل وخواتيمها، وهذه العناصر تشكل تقاليد راسخة اتكأ عليها الكتاب من عصور سابقة، وجاء كتاب هذا العهد وزادوا من ترسيخ هذه التقاليد وتثبيتها.

احتفل الكتاب في هذا العهد - كغيرهم من الكتاب في العصر العباسي - بمقدمات رسائلهم احتفالاً كبيراً، فكان الكاتب منهم قبل الدخول في الموضوع الذي يشكل صلب رسالته، يمهّد بمقدمة تلقي بعض الضوء على ما سيتم تناوله فيها، وتضع القارئ في صورة ما تحويه وما يسعى الكاتب إلى بيانه فيها؛ حتى لا يتفاجئ القارئ عند قراءة الرسالة والوقوف على مضمونها بأمر لم يكن يتوقعه، ومن هنا تأتي المقدمة لتهيئ القارئ لما سيعرض في الرسالة من مضامين.

وبنظرة فاحصة في الرسائل العائدة لهذا العهد يستطيع الدارس أن يحصر عدداً من العناصر البنائية التي كانت تشترك فيها مقدمات الرسائل، وإن خرج عدد منها عن هذا الإطار، فلم يلتزم بهذه العناصر، وإنما استغنى كتابها عن المقدمة وأثروا الدخول في صلب الرسالة مباشرة، ومن الرسائل التي حذت هذا الحذو رسالة عمر بن مهران إلى الرشيد في أمر رجل رفض أن يؤدي ما عليه من الخراج^(١) ورسالة يحيى البرمكي إلى ابنه الفضل عندما عزله

(١) الطبري - تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٦٣٤.

الرشيد عن ديوان الخاتم وعين جعفرأ بدلاً منه^(١). وكتابي قمامة بن زيد في السلامة إلى الرشيد^(٢).

ومن العناصر التي انبنت عليها مقدمة الرسالة في هذا العهد البسملة، وهي رسم جرى عليه الكتاب منذ عهد النبي - صلى الله عليه وسلم - الذي كان يستهل مراسلاته بها؛ وسار الكتاب من بعده على نهجه فكانوا يفتتحون رسائلهم بها اقتداءً بالنبي - صلى الله عليه وسلم - وتبركاً بما تنطوي عليه البسملة من بديع أسماء الله تعالى.

ويحرو بنا أن نشير في هذا المقام إلى خلو بعض الرسائل الواقعة في نطاق هذه المدة من البسملة، ويبدو أن ذلك عائد - فيما أرى - إلى عبث بعض النساخ الذين لم يكونوا يعيرون بإثبات البسملات والحمدلات والأدعية الواردة في صدور الرسائل تخففاً من النسخ وميلاً إلى الاختصار، وقد أدى هذا الأمر إلى ضياع عناصر مهمة من عناصر المقدمة في كثير من الرسائل حتى بات الدارسون يعتقدون أن الكتاب لم يُعْثَرْ بهذه العناصر^(٣).

ومن العناصر التي احتقل الكتاب بها في مقدمات رسائلهم العنوان، وهو ما يُعَبَّرُ به المرسل والمرسل إليه بذكر اسمهما أو لقبهما أو ما يشير إليهما، ويفسر الكلاعي سبب تسمية العنوان بهذا الإسم قائلاً: "لأنه يدل على الكتاب ممن هو وإلى من هو"^(٤). وما من ريب أن العنوان له أهميته، خاصة في الرسائل الديوانية الصادرة عن دواوين الدولة الرسمية؛ فهو يفصح عن طرفي المراسلة، وهو بذلك يضيف عليها صبغة رسمية لا تدع مجالاً للشك في انعقادها.

لم تجر عنوانات الرسائل في هذه الحقبة الزمنية على وتيرة واحدة؛ فقد شاعت في هذا العهد صيغتان من صيغ العنوان؛ جرى عليهما كتاب هذا العهد في رسائلهم؛ الصيغة الولي - وهي الصيغة التقليدية - التي يتقدم فيها المرسل على المرسل إليه، وصورتها: "من فلان بن فلان إلى فلان بن فلان"، وغالباً ما يكون المرسل في هذه الصيغة أعلى مرتبة وأرفع ذكراً من المرسل إليه^(٥)؛ ويمكننا أن نلمح هذه الصيغة في رسالة الرشيد إلى حمزة الخارجي^(٦)، إذ نلاحظ أن اسم المرسل و (الخليفة هارون الرشيد)، - وهو الأعلى - قد تقدم على اسم المرسل

(١) الحصري - زهر الآداب، ج ٢، ص ٤١٩، وانظر ابن الطقطقي - الفخري، ص ٢٠٥.

(٢) أحمد زكي صفوت - جمهرة رسائل العرب، ج ٣، ص ٢٨٥-٢٨٦.

(٣) د. محمد الدروبي - الرسائل الفنية في العصر العباسي، ص ٤٧٦-٤٧٧.

(٤) الكلاعي - إحكام صنعة الكلام، ص ٥٢.

(٥) وانظر د. محمد الدروبي - الرسائل الفنية في العصر العباسي، ص ٤٧٩.

(٦) د. فاروق عمر فوزي - الرسائل المتبادلة، ص ٢٦٤-٢٦٦.

إليه (حمزة الخارجي) - وهو الأدنى - ، وأن الذي دعا إلى التقديم هو جلال المرسل ورفعة شأنه.

ومن هنا فعندما رد هذا الثائر على رسالة الرشيد تَعَمَّدَ كسر هذا الرسم، فبدأ بنفسه غير عابئ بذكر اسم الخليفة المرسل إليه أو لقبه، يقول حمزة: "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ عَبْدِ اللَّهِ حَمَزَةَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، سَلَامٌ عَلَى أَوْلِيَاءِ اللَّهِ"^(١) وكأنه - كما أشرنا سابقاً في غير هذا الموضوع - لا يعترف بخلافة الرشيد، مما يدل على اتساع شقّة الخلاف بين الرشيد وبين هذا الثائر الخارج عليه.

أما الصيغة الثانية التي شاع استعمالها في هذا العهد؛ فهي التي يتقدم فيها المرسل إليه على المرسل، وصورتها: "فُلَانٌ بْنُ فُلَانٍ مِنْ فُلَانٍ بْنِ فُلَانٍ"، وغالباً ما كانت هذه الصورة تجرى في الرسائل التي توجه من الأدنى إلى الأعلى، على سبيل التتويه بجلال المرسل إليه ورفعة قدره^(٢)؛ فهي تبدأ باللام التي تفيد مخاطبة الجليل^(٣).

وتبدو هذه الصيغة واضحة في رسالة نقفور إلى الرشيد يستوهبه جارية من بنات هرقله، "لِعَبْدِ اللَّهِ هَارُونَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ نَقْفُورٍ مَلِكِ الرُّومِ"^(٤) ونلمح هذه الصيغة أيضاً في رسالة يحيى البرمكي إلى الرشيد من السجن^(٥).

ويظهر من تتبع رسائل هذا العهد أن عهود التعيين قد اتخذت صيغة محددة في العنوان تختلف بعض الشيء عن الصيغتين اللتين عرضنا لهما آنفاً^(٦)، نلاحظ ذلك في عهد الرشيد لهرثمة ابن أعين حين ولاة خراسان، الذي يقول فيه: "هَذَا مَا عَهْدَ هَارُونَ الرَّشِيدِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى هَرِثْمَةَ بْنِ أَعْيَنَ حِينَ وِلَاةِ نَعْرَ خُرَاسَانَ وَأَعْمَالَهُ وَخَرَاجَهُ..."^(٧).

في حين التزمت رسائل الشروط التي كان يكتبها ولاة العهد للخليفة بصيغة واحدة في العنوان^(٨)، كما يبدو في العهد الذي كتبه الأمين على نفسه لأبيه الرشيد، والذي يقول فيه بعد البسملة: "هَذَا كِتَابٌ لِعَبْدِ اللَّهِ هَارُونَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ كَتَبَهُ لَهُ مُحَمَّدُ بْنُ هَارُونَ أَمِيرِ

(١) د. فاروق عمر فوزي - الرسائل المتبادلة ، ص ٢٦٦ .

(٢) وانظر د. محمد الدروبي - الرسائل الفنية في العصر العباسي ، ص ٤٨٠-٤٨١ .

(٣) الصولي - أدب الكتاب ، ص ١٥٠ .

(٤) الطبري - تاريخ الطبري ، ج ٤ ، ص ٦٧٧ .

(٥) ابن عبد ربه - العقد الفريد ، ج ٥ ، ص ٣٢٧ .

(٦) وانظر د. محمد الدروبي - الرسائل الفنية في العصر العباسي ، ص ٤٨١-٤٨٢ .

(٧) الطبري - تاريخ الطبري ، ج ٥ ، ص ٥ .

(٨) وانظر د. محمد الدروبي - الرسائل الفنية في العصر العباسي ، ص ٤٨٢ .

المؤمنين...^(١)، والعهد الذي كتبه المأمون والذي يقول فيه: "هَذَا كِتَابٌ لِعَبْدِ اللَّهِ هَارُونَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ كَتَبَهُ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ ابْنُ هَارُونَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ.. " (٢).

ومن ناحية أخرى فقد اتسعت صيغ العنوان لتشمل عدداً من الألقاب والكنى والصفات والنعوت؛ فقد نأى كتاب هذا العهد عن الصيغة التقليدية التي يُذكر فيها المرسل والمرسل إليه مجردين، وراحوا يتفننون في عناوين رسائلهم، ويوشحونها بطائفة من الألقاب والكنى، وعبارات التبجيل، التي غدت سمناً لا يسعهم التخلص منه؛ من ذلك رسالة يحيى البرمكي التي بعثها إلى الرشيد من السجن؛ فقد افتتحها يحيى بقوله: "لَأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَخَلِيفَةِ الْمَهْدِيِّينَ، وَإِمَامِ الْمُسْلِمِينَ؛ وَخَلِيفَةِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، مِنْ عَبْدِ اسْلَمْتَهُ ذُنُوبُهُ، وَأَوْبَقْتَهُ عِيُوبُهُ، وَخَذَلْتَهُ شَقِيقَتَهُ، وَرَفَضْتَهُ صَدِيقَتَهُ، وَمَالَ بِهِ الزَّمَانُ، وَنَزَلَ بِهِ الْحَدَثَانُ.. " (٣).

ويظهر من العنوان السابق أن يحيى عدل عن التصريح بطرفي المراسلة في عنوان رسالته، وإنما اقتصر على ذكر ما يشير إلى جلال المرسل إليه - وهو الرشيد - ورفع شأنه، وضعة المرسل إليه وهوانه، في سبيل استدرار عطف الرشيد على يرأف لحالته ويرق له فيعفو عنه. ولعل يحيى في هذا العنوان كان يحطب في حبل أجداده الفرس الذين كانوا يؤثرون المبالغة في عبارات التعظيم والتبجيل جرياً على أساليبهم الكسروية المليئة بألفاظ الموق والزلقي والتعظيم، وهذا الأمر لم يعرفه الكتاب قبل العصر العباسي (٤).

وكثيراً ما كانت عنوانات الرسائل في هذا العهد توشح باللقب الذي جرى عليه الخليفة في الرسائل الصادرة عنه والواردة إليه^(٥)، ويظهر هذا المنحى في رسالة أبي الربيع محمد بن الليث على لسان الرشيد إلى قسطنطين، التي يقول فيها: "مِنْ عَبْدِ اللَّهِ هَارُونَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى قُسْطَنْطِينٍ عَظِيمِ الرُّومِ" (٦) وكتاب تعهد الأمين على نفسه لأبيه الرشيد، يقول الأمين في كتابه: "هَذَا كِتَابٌ لِعَبْدِ اللَّهِ هَارُونَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ كَتَبَهُ لَهُ مُحَمَّدُ بْنُ هَارُونَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ.. " (٧).

كما كانت هذه العنوانات تقرن اسم الخليفة بصفة العبودية لله عز وجل، وما هذا إلا إظهاراً لتأدب الخليفة مع الله عز وجل، وأن سلطته مستمدة من سلطة الله عز وجل، ولم

(١) الطبري - تاريخ الطبري ، ج ٤ ، ص ٦٥٢ .

(٢) الطبري - تاريخ الطبري ، ج ٤ ، ص ٦٥٤ .

(٣) ابن عبد ربه - العقد الفريد ، ج ٥ ، ص ٣٢٧ .

(٤) انظر د. محمد نبيه حجاب - مظاهر الشعوبية ، ص ٣٩٤-٣٩٦ .

(٥) وانظر د. محمد الدروبي - الرسائل الفنية في العصر العباسي ، ص ٤٨٤ .

(٦) أحمد زكي صفوت - جمهرة رسائل العرب ، ج ٣ ، ص ٢١٧ .

(٧) الطبري - تاريخ الطبري ، ج ٤ ، ص ٦٥٢ .

يكن هذا دأب الرشيد فقط، بل كان دأب خلفاء بني العباس حتى عصور متأخرة من الخلافة العباسية؛ ويظهر هذا المنحى بادياً للعيان في رسالة نقفور إلى الرشيد يستوهبه التي يقول فيها: "عَبْدُ اللَّهِ هَارُونَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ نَقْفُورٍ مَلِكِ الرُّومِ.."^(١) وعلى غرارها كتاب تعهد المأمون لأبيه وأخيه الأمين، فقد جرى فيه العنوان على هذه الشاكلة: "هَذَا كِتَابٌ لِعَبْدِ اللَّهِ هَارُونَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ كَتَبَهُ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ هَارُونَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ.."^(٢)، وعنصر آخر أخذ الكتاب أنفسهم به في مقدمات رسائلهم وهو التحية أو السلام على المخاطب بالرسالة وقد كان إزجاء التحية على المقصود بالرسالة من الرسوم التي لا يُستغنى عنها في عملية المراسلة؛ فكانت التحية تأخذ مكانها في مقدمة الرسالة، بعد البسملة والعنوان على هذه الشاكلة: "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ فُلَانٍ ابْنِ فُلَانٍ إِلَى فُلَانِ بْنِ فُلَانٍ، سَلَامٌ عَلَيْكَ..".

ولكن بعض كتاب هذا العهد تحرروا من قيود هذا الرسم؛ فمالوا إلى ترك السلام على المخاطب في فواتح رسائلهم؛ ولعل ذلك بسبب عدم ملاءمة السلام لمضامين بعض الرسائل كالرسائل الحربية التي عالجت العلاقة مع الروم، كما في رسالة الرشيد إلى نقفور يتهدده^(٣)، وبعض الرسائل التي عالجت الفتن والاضطرابات الداخلية كما في رسالة الرشيد إلى عاملة على خراسان علي بن عيسى بن ماهان يعزله^(٤)؛ فإن مضامين هذه الرسائل لا تتلاءم مع السلام الذي تتضمنه تحية البداية. وقد يكون ذلك بسبب ميل هؤلاء الكتاب إلى التحرر من ربة قيود المنهج الشكلي الذي اختطه الكتاب في عهود سالفه؛ ومن هنا فقد خلت رسائل المبايعات والعهود والمنشورات والبشارات وغيرها من أي تحية^(٥).

وفيما يتعلق بصيغ التحية التي شاعت في رسائل هذا العهد؛ فقد تنوعت وتعددت بما يناسب مضمون الرسالة والغرض منها، ولعل من أكثرها شيوعاً صيغة "سلام عليك" بتكرير اللفظ الأول وإفراد اللفظ الثاني^(٦)، ومن الرسائل التي حذت هذا الحذو، رسالة الرشيد إلى حمزة الخارجي؛ فقد بدأها كاتبها بعد البسملة بقوله: "مِنْ هَارُونَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى حَمَزَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، سَلَامٌ عَلَيْكَ.."^(٧) وقد يطرأ تغيير طفيف على هذه الصيغة بما يقتضيه المقام

(١) الطبري - تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٦٧٧.

(٢) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٦٥٤.

(٣) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٦٦٩.

(٤) المصدر نفسه، ج ٥، ص ٥.

(٥) انظر الطبري - تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٦٥٢، ٦٥٤، ٦٥٥، ج ٥، ص ٥، وأحمد زكي صفوت -

جمهرة رسائل العرب، ج ٢، ص ١٦٠، ٢٨٥، ٢٨٦.

(٦) انظر د. محمد الدروبي - الرسائل الفنية في العصر العباسي، ص ٤٩٢.

(٧) د. فاروق عمر فوزي - الرسائل المتبادلة، ص ٢٦٤.

وملابساته، ولنا أن نلاحظ هذا التغيير في رد حمزة على رسالة الرشيد السابقة، إذ يقول فيه بعد البسملة: "مِنْ عَبْدِ اللَّهِ حَمَزَةَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ سَلَامٌ عَلَى أَوْلِيَاءِ اللَّهِ" (١) ولعل عدم اعتراف حمزة بالرشيد خليفة هو الذي دعاه إلى السلام بهذه الصيغة المخصوصة التي لا نلاحظها في أي من الرسائل الواقعة في نطاق هذه المدة.

وفي مقابل هذه الصيغة ترد صيغة "السلام عليكم" بإفراد اللفظ الأول مع تعريفه، وجمع اللفظ الثاني (٢)، ولنا أن نطالع هذه الصيغة في رسالة تقفور إلى الرشيد يستوهبه جارية من بنات هرقل، التي يقول فيها: "لِعَبْدِ اللَّهِ هَارُونَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ يَقْقُورَ مَلِكِ الرُّومِ. السَّلَامُ عَلَيْكُمْ" (٣)، في حين نجد صيغة "سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى" تتردد في رسالة أبي الربيع محمد بن الليث عن الرشيد إلى قسطنطين يدعوها إلى الإسلام، التي يقول فيها: "مِنْ عَبْدِ اللَّهِ هَارُونَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى قُسْطَنْطِينَ عَظِيمِ الرُّومِ، سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى، .." (٤)، فقد جرت هذه التحية على غرار تحية غير المسلمين المعهودة في رسائل النبي - صلى الله عليه وسلم - وخلفائه الراشدين إلى ملوك غير المسلمين (٥) ورؤسائهم، من ذلك قول الرسول - صلى الله عليه وسلم - في رسالته إلى هرقل عظيم الروم "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ، سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى..". (٦).

وبعد السلام على المخاطب بالرسالة كان الكاتب يحمد الله عز وجل تيمناً وتبركاً، وهو رسم جرى عليه الكتاب في عصور سالفه، وهو مطلوب لاكتمال ديباجة الرسالة (٧)؛ ومن هنا فقد أخذت الحمدلة موقعها في مقدمة الرسالة بعد التحية وقبل البعديّة، على هذه الصورة: "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ فُلَانِ بْنِ فُلَانٍ إِلَى فُلَانِ بْنِ فُلَانٍ، سَلَامٌ عَلَيْكَ؛ فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكَ اللَّهُ، أَمَا بَعْدُ".

وإن كنا نجد في بعض الرسائل اختلافاً بيناً في ترتيب الحمدلة في مقدمة الرسالة عما ورد في الصورة السالفة.

وتجدر الإشارة إلى خلو بعض الرسائل الواقعة في نطاق هذا العهد من تحميد البدء ومن

(١) المصدر نفسه، ص ٢٦٦.

(٢) انظر د. محمد الدروبي - الرسائل الفنية في العصر العباسي، ص ٤٩٢.

(٣) الطبري - تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٦٧٧.

(٤) أحمد زكي صفوت - جمهرة رسائل العرب، ج ٣، ص ٢١٧.

(٥) وانظر د. محمد الدروبي - الرسائل الفنية في العصر العباسي، ص ٤٩٤.

(٦) أحمد زكي صفوت - جمهرة رسائل العرب، ج ١، ص ٣٨، وانظر ص ٤٠، ٤٢، ٤٤، ٤٨، ٥٠.

(٧) انظر د. محمد الدروبي - الرسائل الفنية في العصر العباسي، ص ٤٩٦.

الرسائل التي حذت هذا الحذو، رسالة الرشيد إلى نقفور^(١)، ورسالة الرشيد إلى واليه على خراسان يعزله^(٢)، ورسالته إلى يزيد بن يزيد لما تباطأ في حزب الوليد بن طريف الشاري^(٣)، ورسالته إلى السندي بن شاهك يأمره بالقبض على البرامكة^(٤).

ولعل الحالة الشعورية التي كانت تتناب الرشيد لحظة إملاء هذه الرسائل هي التي جعلته يخالف ما جرى عليه الكتاب من إثبات الحمدة في فواتح رسائلهم، وربما يكون ذلك بسبب اختصار النساخ.

أما عن صيغ الحمدة؛ فقد شاعت في هذا العهد صيغتان هما: صيغة الفعل التي تفيد تأكيد نسبة الحدث إلى قائله^(٥)، وهي تجري على هذا النحو "إني أحمد الله الذي.."، ونلاحظ هذه الصيغة في رسالة الرشيد إلى حمزة الخارجي التي يقول فيها: "سَلَامٌ عَلَيْكَ، إِنِّي أَحْمَدُ اللّٰهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ.."^(٦)، ورسالة أبي الربيع محمد بن الليث إلى قسطنطين ملك الروم يدعوه فيها إلى الإسلام، وقد جرى فيها تحميد البدء على هذا النسق: "... فَأَنِّي أَحْمَدُ اللّٰهَ الَّذِي لَا شَرِيكَ مَعَهُ، وَلَا وِلْدَانَهُ وَلَا إِلَهَ غَيْرَهُ.."^(٧).

وأما الثانية فهي صيغة الإسم التي تفيد الاستغراق والاستمرارية^(٨)، وهي تجري على هذه الصورة: "الحمد لله الذي..، المحمود..". ومن الرسائل التي وردت فيها هذه الصيغة منشور الرشيد إلى عماله بشأن ولاية العهد، يقول إسماعيل بن صبيح منشي هذا المنشور: "... فَإِنَّ اللّٰهَ وَوَلِيَّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَوَلِيَّ مَا وَلاَهُ، وَالْحَافِظُ لِمَا اسْتَرْعَاهُ وَأَكْرَمَهُ بِهِ مِنْ خِلَافَتِهِ وَسُلْطَانِيهِ، وَالصَّانِعُ لَهُ فِيمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ مِنْ أُمُورِهِ، وَالْمُنْعِمُ عَلَيْهِ بِالنَّصْرِ وَالتَّأْيِيدِ فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا، وَالْكَالِيُّ وَالْحَافِظُ وَالْكَافِي مِنْ جَمِيعِ خَلْقِهِ، وَهُوَ الْمَحْمُودُ عَلَى جَمِيعِ آيَاتِهِ الْمَسْئُولُ تَمَامَ حُسْنِ مَا أَمْضَى مِنْ قَضَائِهِ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَعَادَاتِهِ الْجَمِيلَةِ عِنْدَهُ وَإِلْهَامَ مَا يَرْضَى بِهِ وَيُوجِبُ لَهُ عَلَيْهِ أَحْسَنَ الْمَزِيدِ مِنْ فَضْلِهِ.."^(٩).

(١) الطبري - تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٦٦٩.

(٢) المصدر نفسه، ج ٥، ص ٥.

(٣) ابن خلكان - وفيات الأعيان، ج ٦، ص ٣١-٣٢.

(٤) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٢٧-٢٢٨.

(٥) انظر د. محمد الدروبي - الرسائل الفنية في العصر العباسي، ص ٤٩٩.

(٦) د. فاروق عمر فوزي - الرسائل المتبادلة، ص ٢٦٤.

(٧) أحمد زكي صفوت - جمهرة رسائل العرب، ج ٣، ص ٢١٧.

(٨) انظر د. محمد الدروبي - الرسائل الفنية في العصر العباسي، ص ٤٩٩.

(٩) الطبري - تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٦٥٥.

ومما يستحق التويه أن رسائل هذا العهد لم تلزم صورة واحدة من صور الحمللة بل على العكس؛ فقد تعددت صور الحمللة فيها على نحو لافت؛ ففي حين كانت بعض الرسائل تلزم الصورة التقليدية من صور الحمللة - التي تأتي فيها الحمللة بعد التحية وقبل البعديّة - على النحو الذي نلمسه في رسالة الرشيد إلى حمزة الخارجي^(١)؛ كانت بعض الرسائل تخرج عن هذه الصورة، فتأخر فيها الحمللة لتأتي بعد البعديّة كما في رسالة الرشيد إلى عماله بشأن ولاية العهد^(٢).

ومن هنا فقد مال بعض كتاب هذا العهد إلى الملاءمة بين التحميد وموضوع الرسالة والغرض منها^(٣)؛ وهو ما عبّر عنه الكلاعي بقوله: "الإشارة في الصدور إلى الغرض المذكور"^(٤)؛ ومن الرسائل التي جاء فيها لتحميد ملائماً لموضوع الرسالة، رسالة أبي الربيع محمد بن الليث عن الرشيد إلى قسطنطين يدعو فيه إلى الإسلام، ويجري فيها التحميد على هذا النسق: "...، فَإِنِّي أَحْمَدُ اللَّهَ الَّذِي لَا شَرِيكَ مَعَهُ، وَلَا وَدَّ لَهُ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُهُ، الَّذِي تَعَالَى عَنْ شَبِّهِ الْمَخْدُودِينَ بِعَظَمَتِهِ، وَاحْتَجَبَ دُونَ الْمَخْلُوقِينَ بِعَزَّتِهِ، فَلَيْسَتْ الْأَبْصَارُ بِمُذْرِكَةٍ لَهُ، وَلَا الْأَوْهَامُ بِوَاقِعَةٍ عَلَيْهِ، انْفِرَادًا عَنِ الْأَشْيَاءِ أَنْ يُشَبَّهَهَا، وَتَعَالِيًا أَنْ يُشَبَّهَ شَيْءٌ مِنْهَا، وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ، الَّذِي ارْتَفَعَ عَنِ مَبَالِغِ صِفَاتِ الْقَائِلِينَ، وَمَذَاهِبِ لُغَاتِ الْعَالَمِينَ، وَفَكَرِ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ، فَلَيْسَ كَمَثَلِهِ شَيْءٌ، وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ"^(٥).

فموضوع الرسالة هو دعوة الملك الرومي إلى الإسلام، ومن هنا سعى الكاتب في تحميده إلى بيان عقيدة المسلمين في الله تعالى المنافية لعقيدة النصارى القائمة على التثليث؛ ولذا فقد كان هذا التحميد مناسباً للغرض الذي أنشئت من أجله الرسالة.

وثمة عنصر آخر جرى عليه كتاب هذا العهد في صدور رسائلهم، وهو الصلاة على النبي - صلى الله عليه وسلم -، فبعد أن يحمّد الكاتب الله عز وجل في صدر رسالته، يصلي على النبي - صلى الله عليه وسلم - مناسبة منه بين حمد الله عز وجل أولاً، والصلاة على رسوله الكريم ثانياً، واحتذاءً منه لقوله تعالى: "إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا"^(٦) (٧).

(١) د. فاروق عمر فوزي - الرسائل المتبادلة، ص ٢٦٤ .

(٢) الطبري - تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٦٥٥ .

(٣) وانظر د. محمد الدروبي - الرسائل الفنية في العصر العباسي، ص ٥٠١-٥٠٢ .

(٤) الكلاعي - إحكام صنعة الكلام، ص ٦٦ .

(٥) أحمد زكي صفوت - جمهرة رسائل العرب، ج ٣، ص ٢١٧-٢١٨ .

(٦) الآية ٥٦ من سورة الأحزاب .

(٧) وانظر د. محمد الدروبي - الرسائل الفنية في العصر العباسي، ص ٥٠٦ .

ويشير عدد من المصادر التاريخية والأدبية القديمة إلى أن الرشيد هو الذي استحدث الصلاة على النبي - صلى الله عليه وسلم - في صدور الرسائل، وفي هذا الصدد يقول الطبري في حوادث سنة ١٨١ هـ: "وفيها أحدث الرشيد عند نزوله الرقة في صدور كتبه الصلاة على محمد - صلى الله عليه وسلم -" (١)، ويقول الصولي في هذا المقام: "... وَكَانَ التَّصْدِيرُ يَنْتَهِي إِلَى قَوْلِهِ: "فَأَنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ" إِلَى أَنْ أَفْضَنْتَ الْخَلَافَةَ إِلَى هَارُونَ الرَّشِيدِ؛ فَأَمَرَ أَنْ يُزَادَ فِيهِ: "وَأَسْأَلُهُ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَيَّ مُحَمَّدَ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"، فَكُتِبَ بِذَلِكَ إِلَى هَذَا الْوَقْتِ؛ فَكَانَتْ هَذِهِ أَفْضَلُ مَنَاقِبِ الرَّشِيدِ" (٢) ونجد هذه الإشارة تتردد في مصادر أخرى مثل الأوائل (٣) وصباح الأعشى الذي جاء فيه: "أَوَّلُ مَنْ زَادَ فِي أَوَائِلِ الْكُتُبِ بَعْدَ التَّحْمِيدِ: "وَأَسْأَلُهُ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَيَّ مُحَمَّدَ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ"، هَارُونَ الرَّشِيدُ" (٤)، كما جاءت الإشارة نفسها في النجوم الزاهرة (٥).

وعلى الرغم من هذه الإشارات؛ فإن الباحث يواجه بقلّة الرسائل التي احتذت هذا الرسم، في هذه الحقبة الزمنية، ويمكن أن ترد هذه القلة إلى أمور ثلاثة: أولها أن تكون الرسائل التي لم تلتزم بهذا الرسم واقعة في نطاق المدة التي سبقت أمر الرشيد، أي قبل عام ١٨١ هـ، وثانيها أن يكون العدد الأكبر من الرسائل التي أخذت نفسها بهذا الرسم قد امتدت إليه يد الضياع، ويمكن أن يضاف إلى ذلك عبث النساخ بنصوص الرسائل.

وربما يكون الرشيد قد سبق إلى هذا الأمر، يدلنا على ذلك وجود عدد من الرسائل التي اشتملت على الصلاة على النبي - صلى الله عليه وسلم - أو السلام عليه، والتي تعود إلى عصور سابقة لعصر الرشيد، من ذلك كتاب علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - إلى أهل مصر (٦)، ورسالة الحجاج بن يوسف الثقفي إلى قطري بن الفجاءة (٧)، ولكن الرشيد يؤثر عنه أنه أول من ألزم كتابه بإضافة الصلاة على النبي - صلى الله عليه وسلم - بعد الحمدلة في صدور رسائلهم.

وهناك رواية تدعو إلى الوقوف عندها، وهي ما رواه الجهشياري عن يحيى البرمكي،

(١) الطبري - تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٦٤٥.

(٢) الصولي - أدب الكتاب، ص ٥٩.

(٣) العسكري - الأوائل، ص ١٨٠.

(٤) القلقشندي - صباح الأعشى، ج ١، ص ٤٨٠.

(٥) ابن تغري بردي - النجوم الزاهرة، ج ٢، ص ١٢٣.

(٦) أحمد زكي صفوت - جمهرة رسائل العرب، ج ١، ص ٤٥٧-٤٥٨.

(٧) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٥٦.

من أنه أول من زاد الصلاة على النبي - صلى الله عليه وسلم - في صدور الرسائل، وأنه كتب بذلك كتاباً ذكر فيه فضل الأنبياء عليهم السلام^(١).

ويبدو واضحاً أن هذه الرواية تناقض ما جاء في المصادر الأخرى من أن الرشيد هو الذي أحدث هذا الأمر، ويمكن التوفيق بين هاتين الروايتين، إذا ما علمنا أن يحيى البرمكي، كان وزير الرشيد ومدبر أمره - على ما مر في فصل سابق - فيمكن أن يكون الأمر بذلك قد صدر من الرشيد بوصفه خليفة، وتنفيذ هذا الأمر وقع من يحيى البرمكي وزيره ومدبر أمره.

أما عن الرسائل التي التزم كتابها بالصلاة على النبي - صلى الله عليه وسلم - في صدورهما فقد حفظت لنا المصادر منها رسالتان عائدتان إلى هذا العهد هما رسالة محمد بن عبدالله بن حرب^(٢) التي يقول فيها: "أما بعد، فَإِنِّي أَحْمَدُ اللّٰهَ الَّذِي تَوَحَّدَ بِالْحَمْدِ لِنَفْسِهِ، وَجَعَلَهُ غَايَةَ شُكْرِ عِبَادِهِ، وَأَوَّلَ دَعْوَى أَهْلِ جَنَّتِهِ إِذْ أَذْهَبَ عَنْهُمْ الْحَزْنَ، وَأَصَارَهُمْ إِلَى مَغْفِرَتِهِ وَخُلُوقِ دَارِ الْمَقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ، وَأَتَّبِعُ ذَلِكَ الصَّلَاةَ عَلَى رَسُولِ اللّٰهِ - صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَثِيرًا..."^(٣)، ورسالة الرشيد إلى حمزة الخارجي، والتي يقول فيها: "بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ، مِنْ هَارُونَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى حَمْزَةَ بْنِ عَبْدِ اللّٰهِ، سَلَامٌ عَلَيْكَ، إِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكَ اللّٰهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَسْأَلُهُ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَيَّ مُحَمَّدِ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ"^(٤).

وقبل أن يدخل الكاتب في موضوع رسالته، ويشرح غرضه فيها، عليه أن يُشعر متلقي الرسالة، بانتهاء المقدمات التمهيدية لموضوع الرسالة؛ وهذا ما اصطاح على تسميته بالتخلص، وقد درج الكتاب على استعمال صيغة "أما بعد" لتكون العنصر الذي يمثل النقطة الفاصلة بين مقدمة الرسالة ومضمونها.

وقد شاع استعمال هذه الصيغة في رسائل كثيرة، حتى أنه يمكن القول: إن كتاب هذا العهد لم يلتزموا بعنصر من عناصر المقدمة التزامهم بـ "أما بعد"، وهذا لا ينفي إغفال بعض الرسائل لهذه الصيغة، فقد كان كتاب هذه الرسائل يلجئون إلى الموضوع ولو جاً مباشراً، دونما حاجة إلى صيغة يتخلصون بها إلى مقصود رسائلهم^(٥). ومن الرسائل التي حذت هذا الحذو،

(١) الجهشياري - الوزراء والكتاب، ص ١٧٧.

(٢) محمد بن عبد الله بن حرب: كتب للحسن بن قحطبة على أرمينية ثم لأسيد بن زيد، ثم للفضل بن يحيى، وله مجموعة رسائل، لم تصلنا، انظر ابن النديم - الفهرست، ص ١٥٩، وأحمد زكي صفوت - جمهرة رسائل العرب، ج ٣، ص ١٦١-١٦٣.

(٣) أحمد زكي صفوت - جمهرة رسائل العرب، ج ٣، ص ١٦١.

(٤) د. فاروق عمر فوزي - الرسائل المتبادلة، ص ٢٦٤.

(٥) وانظر د. محمد الدروبي - الرسائل الفنية في العصر العباسي، ص ٥١٠.

عهد الأمين على نفسه باحترام ما عقده أبوه من ولاية العهد له ولأخويه المأمون والقاسم من بعده^(١)، وعهد المأمون على نفسه لأبيه ولأخيه^(٢). ورسالة يحيى البرمكي إلى الرشيد من السجن^(٣)، ورسالة الرشيد إلى نقفور يتوعدده^(٤)، وعهد الرشيد لهرثمة بن أعين حين ولاه خراسان^(٥).

ويبدو جلياً من استقراء الرسائل التي أخذت نفسها بالتزام صيغة التلخيص "أما بعد" تعدد الصور التي وردت بها هذه الصيغة^(٦)؛ فتارة كانت هذه الصيغة تنصدر الرسالة فلا يتقدمها شيء من عناصر الرسالة، ومن الرسائل التي تحذو هذا الحذو رسالة أبي الربيع محمد بن الليث في السلامة التي يقول فيها: "أما بعد، فَإِنِّي كَتَبْتُ إِلَيْكَ.."^(٧) وعلى غرارها رسالة الرشيد إلى الأمصار من أجل عطاء من درس القرآن التي يقول فيها: "أما بعد؛ فَاَنْظُرُوا مَنْ التَّزَمَ..."^(٨) وعلى حذوها رسالة يحيى بن زياد الحارثي^(٩) في تقرّيب الرشيد، التي بدأها بقوله: "أما بعد؛ فَإِنِّي أَسْأَلُ اللَّهَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ.."^(١٠).

ويبدو أن البسمة وغيرها من عناصر المقدمة في هذه الرسائل وأمثالها قد حذفت من قبل النساخ الأمر الذي جعل صيغة التلخيص تنصدر هذه الرسائل فلم يتقدمها شيء من عناصر المقدمة.

وأحياناً كانت تستعمل بعد البسمة، ومن الرسائل التي تتحو هذا المنحى رسالة الرشيد إلى عماله بشأن ولاية العهد بين أبنائه التي يقول فيها: "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ؛ أَمَا بَعْدُ، فَإِنَّ اللَّهَ وَلِيُّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ.."^(١١) وعلى غرارها رسالة هرثمة إلى الرشيد يخبره فيها بصنيعه

(١) الطبري - تاريخ الطبري ، ج ٤ ، ص ٦٥٢-٦٥٣ .

(٢) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٦٥٤-٦٥٥ .

(٣) ابن عبد ربه - العقد الفريد ، ج ٥ ، ص ٣٢٧ .

(٤) الطبري - تاريخ الطبري ، ج ٤ ، ص ٦٦٩ .

(٥) المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ٦-٥ .

(٦) وانظر د. محمد الدروبي - الرسائل الفنية في العصر العباسي ، ص ٥١٠-٥١١ .

(٧) أحمد زكي صفوت - جمهرة رسائل العرب ، ج ٣ ، ص ١٦٠ .

(٨) ابن قتيبة - الإمامة والسياسة ، ج ١ ، ص ١٨٨ .

(٩) يحيى بن زياد الحارثي ، من ولد الحارث بن كعب ، شاعر مترسل ، بليغ ، له رسائل مجموعة ، انظر ابن النديم - الفهرست ، ص ١٤٩ .

(١٠) أحمد زكي صفوت - جمهرة رسائل العرب ، ج ٣ ، ص ٢٠٩-٢١٧ .

(١١) الطبري - تاريخ الطبري ، ج ٤ ، ص ٦٥٥-٦٥٦ .

في خراسان التي يقول فيها: "بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ اللّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَزَلْ..."^(١) ورد الرشيد عليه الذي بدأ بقوله: "بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، أَمَّا بَعْدُ؛ فَقَدْ بَلَغَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ كِتَابُكَ..."^(٢).

وأحياناً كانت ترد هذه الصيغة بعد العنوان، كما نلاحظ في رسالة نقفور إلى الرشيد يتوعده التي يقول فيها: "مِنْ نَقْفُورٍ مَلِكِ الرُّومِ إِلَى هَارُونَ مَلِكِ العَرَبِ، أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّ الْمَلِكَةَ..."^(٣) وأحياناً أخرى كانت تستعمل بعد العنوان والتحية، كما هو الحال في رسالة نقفور إلى الرشيد يستوهبه فتاة من بنات هرقله التي يقول فيها: "لِعَبْدِ اللّهِ هَارُونَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ نَقْفُورٍ مَلِكِ الرُّومِ، السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، أَمَّا بَعْدُ أَيُّهَا الْمَلِكُ..."^(٤) وأحياناً أخرى كانت تستعمل بعد العنوان والتحية والحمدلة كما في رسالة أبي الربيع محمد بن الليث إلى قسطنطين يدعو به إلى الإسلام التي افتتحها بقوله: "مِنْ عَبْدِ اللّهِ هَارُونَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى قُسْطَنْطِينَ عَظِيمِ الرُّومِ سَلَامٌ عَلَيَّ مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى، فَإِنِّي أَحْمَدُ اللّهَ الَّذِي لَا شَرِيكَ مَعَهُ، وَلَا وِلْدَانَهُ.. أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّ اللّهَ جَلَّ شَأْؤُهُ..."^(٥).

ويظهر من الاستقراء الفائق مدى التعدد في صور التخلص الذي شهدته الرسائل العائدة لهذه المدة، مما يدل على التطور اللافت الذي لحق بفن الرسائل الديوانية.

وكما تطورت صور التخلص وتعددت، فقد طرأ تطور على صيغة التخلص نفسها، إذ ابتدع الكتاب صيغة أخرى من صيغ التخلص وهي صيغة "كتبت" ^(٦) وتبدو هذه الصيغة بجلاء في رسالة قمامة بن زيد في السلامة إلى الخليفة الرشيد، يقول قمامة مخاطباً خليفته: "كَتَبْتُ إِلَيْكَ وَقَدْ اسْتَقَامَ كُلُّ مَا قَبِلِي وَاعْتَدَلْتُ، وَجَمَعَ اللّهُ أَيْدِي أَهْلِهِ وَقُلُوبَهُمْ عَلَيَّ إِمَامِهِمْ..."^(٧).

وبعد أن يفرغ الكاتب من بيان مقصوده في رسالته، يختم رسالته بخاتمة مناسبة تحقق المقصود من عملية المراسلة، وتحفز المرسل إليه على التفاعل مع ما جاء في الرسالة من مضامين ^(٨).

(١) المصدر نفسه، ج ٥، ص ٨.

(٢) المصدر نفسه، ج ٥، ص ٩.

(٣) الطبري - تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٦٦٨.

(٤) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٦٧٧.

(٥) أحمد زكي صفوت - جمهرة رسائل العرب، ج ٣، ص ٢٧٤-٢١٧.

(٦) وانظر د. محمد الدروبي - الرسائل الفنية في العصر العباسي، ص ٥١٠.

(٧) أحمد زكي صفوت - جمهرة رسائل العرب، ج ٣، ص ٢٨٥.

(٨) انظر د. محمد الدروبي - الرسائل الفنية في العصر العباسي، ص ٥٢٢-٥٢٣.

ومن عناصر الخاتمة البارزة طلب الجواب، فقد اتجه . عدد من كتاب هذا العهد نحو إدامة التواصل مع الطرف الآخر في عملية المراسلة، وذلك بطلب الجواب أو الرد على الرسالة، بوصفه نوعاً من التعبير عن التفاعل مع ما جاء في الرسالة^(١) .

ويظهر من استقراء نصوص الرسائل التي بين أيدينا أن صيغ طلب الجواب تتدرج في صيغتين رئيسيتين، تختلف إحداهما عن الأخرى باختلاف حالة المرسل إليه ومنزلته من المرسل، أو لاهما تميل إلى اللين واللفظ ويغلب على هذه الصيغة أن تكون موجهة من الأدنى إلى الأعلى، كالخليفة أو الوزير أو الأمير^(٢)، وترد هذه الصيغة في رسالة عمر بن مهران إلى الرشيد بشأن رجل ماطل في دفع الخراج من أهل مصر، يقول عمر مخاطباً خليفته:

"... فَإِنَّ رَأَى أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَكْتُبَ إِلَيَّ بِوُضُؤِيهِ، فَعَلَّ إِنَّ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى" ^(٣).

وقد تستعمل هذه الصيغة بين الأنداد على سبيل إظهار نوع من التلطف والموادعة بين طرفي المراسلة^(٤)، مثال ذلك طلب نقفور من الرشيد إجابته إلى طلبه، في رسالته التي بعث بها إليه يستوهبه جارية من بنات هرقله، يقول نقفور مخاطباً الرشيد: "... فَإِنَّ رَأَيْتَ أَنْ تُسْعِفَنِي بِحَاجَتِي، فَعَلَّتْ .. " ^(٥).

أما الصيغة الثانية، فتجري على ألسنة الأكابر إلى من دونهم، وتبدو اللهجة الأمرة الحازمة الصارمة واضحة جلية في هذه الصيغة، من ذلك طلب الرشيد في رسالته إلى عماله بشأن ولاية العهد، الكتابة إليه: "... وَأَكْتُبُ إِلَيَّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا يَكُونُ فِي ذَلِكَ إِنَّ شَاءَ اللَّهُ"^(٦) ويمكن أن تجري رسالة نقفور إلى الرشيد - التي يتهدده فيها ويتوعده - هذا المجري؛ إذ أن نقفور في هذه الرسالة يرى نفسه أعلى مرتبة من الرشيد، يقول نقفور مخاطباً الرشيد: "... فَإِذَا قَرَأْتَ كِتَابِي، فَارْذُ مَا حَصَلَ قَبْلَكَ مِنْ أَمْوَالِهَا، وَافْتَدِ نَفْسَكَ، بِمَا يَقَعُ بِهِ الْمُصَادَرَةُ لَكَ، وَإِلَّا فَالْسَيْفُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ"^(٧).

وإذا ما استثنينا رسالتي نقفور إلى الرشيد، أمكننا أن نلاحظ أن صيغ طلب الجواب

(١) المصدر نفسه ، ص ٥٢٤ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٥٢٥ .

(٣) الطبري - تاريخ الطبري ، ج ٤ ، ص ٦٣٤ .

(٤) انظر د. محمد الدروبي الرسائل الفنية في العصر العباسي ، ص ٥٢٥ .

(٥) الطبري - تاريخ الطبري ، ج ٤ ، ص ٦٧٧ .

(٦) المصدر نفسه، ج ٤ ، ص ٦٥٦ .

المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٦٦٨ .

كانت تعلق بمشيئة الله - عز وجل* -، وما هذا إلا تادباً مع الله - عز وجل -، وإقراراً بأن الأمور لا تجري إلا وفق إرادته، وهذا مصداقاً لقوله تعالى: "وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكُمْ غَدًا، إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ" (١).

وقد مال نفر من كتاب هذا العهد إلى اختتام رسائلهم بعبارات تدل على حمد الله - عز وجل -، واستمداد العون والقوة منه - تعالى -، ومن هذه العبارات "الحمد لله" كما في رسالة يحيى بن زياد الحارثي في تقرّيب الرشيد، فقد جرت فيها حمدة الخاتمة على هذا النسق: "... وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ هَذِهِ النَّعْمِ وَالْمَخْصُوصِينَ بِهِذِهِ الْفَضَائِلِ، وَتَسْأَلُهُ أَنْ يُبْقِيَهِمْ وَإِيَّاهُمْ لِلدِّينِ الَّذِي سَدَّ بِهِمْ عَوْرَتَهُ، وَالْحَقُّ الَّذِي أَقْرَبَ بِهِمْ جَادَتَهُ، وَالْعَدْلُ الَّذِي أَوْضَحَ بِهِمْ أَعْلَامَهُ حَتَّى يَكُونُوا وَرَثَةَ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَخَلَفَاءَهَا فِي غَابِرِ الدَّهْرِ، وَبَاقِيَاتِ الْأَيَّامِ، مُسْتَقْلِلِينَ (٢) بِالْعَدْلِ، مُوَفَّقِينَ لِلسَّدَادِ، مَعْصُومِينَ مِنَ الشُّبُهَاتِ، مُسْتَوْجِبِينَ مَعَ فَضَائِلِ الدُّنْيَا لِأَفْضَلِ كَرَامَاتِ الْمَعَادِ..." (٣).

ومن هذه العبارات "لله الحمد" بتقديم لفظ الجلالة على الحمد، كما في رسالة يحيى البرمكي رداً على رسالة من أحد أصدقائه يعزّيه بمقتل ابنه جعفر التي يقول فيها: "... وَمَا نَعْفُو اللَّهَ أَكْثَرَ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ" (٤) وهي صورة لم نعهدها في حمدلات البداءة.

وقد يضاف الشكر إلى الحمد، كما في رسالة قمامة بن زيد في السلامة إلى الخليفة التي يقول فيها: "... قَدْ كَفَى اللَّهَ بِهِ فِي الْهِدَايَةِ، وَأَعْطَى فِيهِ الْخَيْرَ وَالْمَنْ وَالسَّعَادَةَ، فَلَهُ الْحَمْدُ وَالشُّكْرُ" (٥) وربما يتوجه الكاتب إلى الله عز وجل فيسأله العون على شكره على النعمة المتحصلة، كما في رسالة أبي الربيع محمد بن الليث في السلامة التي يقول فيها: "... وَاللَّهِ نَسْأَلُ الْعَوْنَ عَلَى شُكْرِهِ وَتَأْدِيَةِ حَقِّهِ" (٦) وربما يمتد الأمر إلى حمد الله - عز وجل - والصلاة على النبي - صلى الله عليه وسلم - وعلى آله أجمعين، كما في رسالة الرشيد إلى حمزة الخارجي التي يقول فيها: "وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَصَلَوَاتُهُ عَلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ أَجْمَعِينَ" (٧).

وقد يختم الكاتب رسالته بالحسيلة، وقد ختمت بها عدة رسائل في هذا العهد منها؛

(١) الأيتان ٢٣-٢٤ من سورة الكيف .

(٢) مستقلين بالعدل : ناهضين به ، رافعين له ، انظر ابن منظور - لسان العرب ، مادة قَلَّلَ .

(٣) أحمد زكي صفوت - جمهرة رسائل العرب ، ج ٣ ، ص ٢١٧ .

(٤) الطبري ، تاريخ الطبري ، ج ٤ ، ص ٦٦٤ .

(٥) أحمد زكي صفوت - جمهرة رسائل العرب ، ج ٣ ، ص ٢٨٥ .

(٦) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ١٦٠ .

(٧) د. فاروق عمر فوزي - الرسائل المتبادلة ، ص ٢٦٦ .

رسالة الرشيد إلى عماله بشأن ولاية العهد التي يقول فيها: "... وَحَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ وَبِهِ الْحَوْلُ وَالْقُوَّةُ وَالطُّولُ .." (١) وربما ختم الكاتب رسالته بالحوقة ومن الرسائل التي حذت هذا الحذو رد الرشيد على رسالة هرثمة بن أعين لما بعثه إلى خراسان ليصلح أمورها، والتي يقول فيها: "... وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ، عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ وَإِلَيْهِ يُنِيبُ... " (٢).

وكما بدأ الكاتب رسالته بالسلام على مخاطبه؛ فإنه يودعه في ختامها بالسلام أيضاً. ومثلما كانت تحية البدء تشبه تحية الأصحاب عند اللقاء؛ فإن تحية الختام تمثل تحية الوداع، ففيها يشعر الكاتب مخاطبه بانتهاء رسالته (٣).

وقد تعددت صيغ تحية المخاطب في الخاتمة، تعدداً يوحي بتطور ملحوظ في هذه التحية (٤)، ولعل من أشهر هذه الصيغ صيغة "والسلام" بالتعريف على خلاف تحية البدء التي كان يرد فيها هذا اللفظ مُنكرًا، ومن الرسائل التي حذت هذا الحذو رسالة يحيى البرمكي إلى ابنه الفضل ينهاه عن التشاغل باللهو والصيد عن شؤون الحكم التي يقول فيها: "... فَإِنَّهُ مَنْ عَادَ إِلَى مَا يَزِينُهُ أَوْ يُشِينُهُ لَمْ يَعْرِفْهُ أَهْلُ ذَهْرِهِ إِلَّا بِهِ وَالسَّلَامُ" (٥) ورسالة الرشيد إلى نقفور يتوعده على رواية الطبري التي يقول فيها: "... قَدْ قَرَأْتُ كِتَابَكَ يَا ابْنَ الْكَافِرَةِ وَالْجَوَابُ مَا تَرَاهُ دُونَ مَا تَسْمَعُهُ، وَالسَّلَامُ " (٦).

وربما اكتملت صورة التحية في بعض الرسائل على هذه الصورة: "والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته"، ونلاحظ هذه الصورة في رسالة نقفور إلى الرشيد يستوهمه التي يقول فيها: "... فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تُسْعِفَنِي بِحَاجَتِي فَعَلَّتْ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ" (٧) وعلى غرارها رسالة الرشيد إلى حمزة الخارجي التي يقول فيها: "... وَاللَّهُ يَشْهَدُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، فَإِنَّهُ قَدْ أَعْذَرَ إِلَيْكَ وَاحْتَجَّ عَلَيْكَ، وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا. وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ... " (٨).

وقد تأتي التحية على غرار تحية غير المسلمين في بعض الرسائل التي تعالج العلاقة

(١) انظر الطبري - تاريخ الطبري ، ج ٤ ، ص ٦٥٦ .

(٢) الطبري - تاريخ الطبري ، ج ٥ ، ص ١٠ .

(٣) وانظر د. محمد الدروبي - الرسائل الفنية في العصر العباسي ، ص ٥٢٢-٥٢٣ .

(٤) انظر المصدر نفسه ، ص ٥٢٣ .

(٥) ابن خلكان - وفيات الأعيان ، ج ٤ ، ص ٢٨-٢٩ .

(٦) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٦٦٩ .

(٧) الطبري - تاريخ الطبري ، ج ٤ ، ص ٦٧٧ .

(٨) د. فاروق عمر فوزي - الرسائل المتبادلة ، ص ٢٦٦ .

مع الروم على هذه الشاكلة: "والسلام على مَنْ اتبع الهدى" ومن الرسائل التي تتحو هذا المنحى رسالة أبي الربيع محمد بن الليث إلى قسطنطين يدعوهُ إلى الإسلام، التي يقول فيها: "... وَلَا حَوْلَ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ وَبِهِ يَتَّقُ وَإِيَّاهُ يَسْتَعِينُ، وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى" (١) وعلى غرارها رسالة الرشيد إلى نقفور يتهدده على رواية القلقشندي التي يقول فيها: "... وَالْجَوَابُ مَا تَرَاهُ لَا مَا تَسْمَعُهُ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى" (٢).

وقد مال بعض كتاب هذا العهد إلى تذييل رسائلهم بذكر اسم كاتب الرسالة وتاريخ تحريرها والشهود الذين شهدوا على ما تضمنته من وقائع خاصة، إذا كانت صادرة في شأن من شؤون الدولة الهامة، كالمبايعات والمنشورات، وعهود التعيين، ولا شك أن الغاية من ذلك كانت توثيقية بحتة (٣).

والحقيقية أن إثبات اسم الكاتب له قيمته؛ فهو يؤكد ما جاء في الرسالة، وينفي عنها الشك والتزوير، إضافة إلى أن إثبات اسم الكاتب ضرب من الأمانة في نسبة الشيء إلى صاحبه، فلا يحتاج المرء بعد ذلك إلى إضافة هذه الرسالة إلى الخليفة أو الأمير أو الوزير الذي كتبت نيابة عنه (٤)، أو ربما يلجأ إلى التخمين في معرفة الكاتب الذي أنشأ هذه الرسالة من خلال تقليب النص والنظر فيه من عدة وجوه، إما عن طريق النظر في مضمون النص ومدى موافقته لأحداث الحقبة الزمنية التي يبحث فيها، أو النظر في أسلوبه، والمقارنة بينه وبين أسلوب رسالة أخرى للكاتب الذي يُعتقد أن الرسالة من إنشائه. ورغم ذلك فقد لا تسعف هذه السبل في الاهتداء إلى اسم الكاتب.

وقد أثر في هذا العهد ثلاثة أساليب في إثبات اسم الكاتب في ذيل الرسائل (٥)؛ أولها: أن يثبت الكاتب اسمه، فيقول: "وَكَتَبَ فُلَانٌ بِنَ فُلَانٍ" ومن أمثلة ذلك ذيل جواب الرشيد على رسالة هرثمة بن أعين: "وَكَتَبَ إِسْمَاعِيلُ بِنَ صَبِيحِ بَيْنَ يَدَيِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ" (٦)، ويجري هذا المجرى ذيل منشور الرشيد إلى عماله بشأن ولاية العهد (٧).

وثانيهما أن يذكر الكاتب اسمه وما يدل على وظيفته، ومثال ذلك ذيل رسالة الرشيد إلى

(١) أحمد زكي صفوت - جمهرة رسائل العرب، ج ٣، ص ٢٧٤.

(٢) صبح الأعشى، ج ١، ص ٢٣٢، ج ٦، ص ٤٤٦.

(٣) انظر د. محمد الدروبي - الرسائل الفنية في العصر العباسي، ص ٥٣٤ - ٥٣٥.

(٤) انظر المصدر نفسه، ص ٥٣٥.

(٥) انظر المصدر نفسه، ص ٥٣٦-٥٣٧.

(٦) الطبري - تاريخ الطبري، ج ٥، ص ١٠.

(٧) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٦٥٦.

حمزة: "وَكَتَبَ إِسْمَاعِيلُ بْنُ صَبِيحٍ مَوْلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ.. (١)".

أما الأسلوب الثالث فلا يصرح فيه الكاتب باسمه، وإنما يكتفي بنسبة كتابة الرسالة إلى نفسه، وتوكيد هذه النسبة، ومن شواهد هذا الأسلوب - وهي قليلة - ما جاء في ذيل عهد الرشيد إلى هريثة بن أعين حين ولاة خراسان "وَكَتَبَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِخَطِّ يَدِهِ، لَمْ يَحْضُرْهُ إِلَّا اللَّهُ وَمَلَائِكَتُهُ" (٢).

أما فيما يتعلق بتاريخ تحرير الرسالة، فله أهميته في الرسالة؛ خاصة إذا ما علمنا أن الرسالة الديوانية تمثل سجلاً تاريخياً لما يقع في عصرها من أحداث في حالتها السلم والحرب، إضافة إلى أنها شاهد عصر ينبض بالحياة ويعكس الأحداث السياسية والاقتصادية والاجتماعية والإدارية التي تمر بها الدولة في حقبة زمنية محددة؛ فالكاتب عندما يثبت تاريخ تحرير الرسالة، يؤرخ للأحداث التي تضمنتها هذه الرسالة، ويضعها في مكانها الصحيح على سلم الزمن.

ويبدو من استقراء نصوص الرسائل التي بين أيدينا أن للكاتب طرائق متفاوتة في إثبات التاريخ، ولكنهم كانوا يتفقون في إيراد التاريخ بعد اسم الكاتب دون فاصل بينهما، وفي الرسائل التي خلت من أسماء وكتابتها كان التاريخ يأتي بعد الإشارة إلى الكتابة (٣)، ومن الشواهد على هذا الاتجاه، العهد الذي أخذه المأمون على نفسه لأبيه وأخيه الأمين، إذ جاء في ذيله: "... وَكُتِبَ فِي ذِي الْحِجَّةِ سَنَةَ سِتِّ وَتَمَانِينَ وَمِائَةٍ" (٤).

ومن الطرائق التي احتذاها الكتاب في إثبات التاريخ، أن يكتفي الكاتب بذكر الشهر والسنة، كما في عهد المأمون على نفسه، الذي أشرنا إليه من قريب، وقد يضيف الكاتب إلى الشهر والسنة، تاريخ اليوم الذي حررت فيه الرسالة مع تسميته، كما في منشور الرشيد إلى عماله بشأن ولاية العهد: "وَكَتَبَ إِسْمَاعِيلُ بْنُ صَبِيحٍ يَوْمَ السَّبْتِ لِسَبْعِ لَيَالٍ بَقِيْنَ مِنَ الْمُحَرَّمِ سَنَةَ سِتِّ وَتَمَانِينَ وَمِائَةٍ" (٥) ويجري هذا المجرى ذيل رسالة الرشيد إلى حمزة الخارجي: "وَكُتِبَ إِسْمَاعِيلُ بْنُ صَبِيحٍ مَوْلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ لِثَمَانِ بَقِيْنَ مِنْ صَفَرِ سَنَةِ ثَلَاثٍ وَتِسْعِينَ وَمِائَةٍ" (٦).

(١) د. فاروق عمر فوزي - الرسائل المتبادلة، ص ٢٦٦.

(٢) الطبري - تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٦.

(٣) انظر د. محمد الدروبي - الرسائل الفنية في العصر العباسي، ص ٥٣٩ - ٥٤٠.

(٤) الطبري - تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٦٥٥.

(٥) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٦٥٦.

(٦) د. فاروق عمر فوزي - الرسائل المتبادلة، ص ٢٦٦.

وزيادة في التوثيق؛ فقد كان الكاتب في بعض الأحيان يلجأ إلى إثبات أسماء الشهود الذين شهدوا كتابة هذه الرسالة، وصادقوا على ما جاء فيها من وقائق وشروط، خاصة إذا كانت الرسالة تتعلق بقضية هامة على مستوى الدولة، كالمبايعة بالخلافة، والمبايعة بولاية العهد.

فعندما يثبت الكاتب أسماء الشهود، يزيد رسالته توثيقاً وتأكيداً وينفي عنها الشك والتزوير.

وأما عن موقع الشهود، فقد كان الكتاب يثبتونهم قبل اسم الكاتب وتاريخ إنشاء الرسالة^(١) كما في رواية اليعقوبي^(٢) والأرزقي^(٣) والقلقشندي^(٤) لأسماء الشهود الذين حضروا بيعة الأمين والمأمون بولاية العهد، ورواية الطبري لعهد المأمون على نفسه، "وَشَهِدَ سُلَيْمَانُ بْنُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَفُلَانٌ وَفُلَانٌ"^(٥).

وقد برز من الشهادات في هذا العهد نوعان^(٦):

أولهما الشهادة على النفس: وفي هذه الشهادة يأخذ الكاتب على نفسه موثقاً وعهداً بالوفاء بما جاء في الرسالة، ومثال ذلك شهادة الرشيد على نفسه حين ولي هريثمة بن أعين خراسان، وهي تجري على هذا النسق: "هَذَا عَهْدِي بِخَطِي، وَأَنَا أَشْهَدُ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ وَحَمَلَةَ عَرْشِهِ، وَسُكَّانَ سَمَاوَاتِهِ، وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا"^(٧).

وثانيهما الشهادة على الآخرين: وهي أن يأخذ الكاتب على غيره موثقاً بالوفاء بما جاء في الرسالة، ومثال هذه الشهادة في تسمية الشهود على بيعة الرشيد للأمين والمأمون بولاية العهد^(٨).

(١) انظر د. محمد الدروبي - الرسائل الفنية في العصر العباسي، ص ٥٤١ .

(٢) تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٤١٩ .

(٣) أخبار مكة، ج ١، ص ١٥٧-١٥٨ .

(٤) صبح الأعشى، ج ١٤، ص ١٠٢ .

(٥) الطبري - تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٦٥٥ .

(٦) وانظر د. محمد الدروبي - الرسائل الفنية في العصر العباسي، ص ٥٤١ - ٥٤٢ .

(٧) المصدر نفسه، ج ٥، ص ٦ .

(٨) اليعقوبي - تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٤١٩، والأرزقي - أخبار مكة، ج ١، ص ١٥٧-١٥٨،

والقلقشندي - صبح الأعشى، ج ١٤، ص ١٠٢ .

الألفاظ والعبارات

كان الطابع العام والسمة الغالبة على ألفاظ الرسائل الديوانية العائدة لهذه الحقبة الزمنية السهولة والوضوح والابتعاد عن الغرابة والتعقيد؛ يجد الباحث طابع السهولة والوضوح في رسائل المخاطبات الإعلامية؛ وهذا ليس غريباً؛ فهذه الرسائل موجهة إلى عامة الشعب، وهذا يقتضي من الكاتب أن يختار لرسالته ألفاظاً سهلة واضحة تتلاءم مع مستوى هؤلاء الناس، فهو في هذه الرسائل لا يبحث عن البلاغة والصور البيانية؛ ولكن جل اهتمامه التعبير عن المعنى وإيصاله إلى أفهام الناس بأوضح لفظ وأيسر عبارة؛ ومن الأمثلة على هذه الرسائل، تعهد المأمون لأبيه وأخيه الذي يقول فيه: "... إن أمير المؤمنين هارون ولاني العهد والخلافة وجميع أمور المسلمين في سلطانيه بعد أخي محمد بن هارون ولاني في حياته نعور خراسان وكورها وجميع أعمالها وشرط على محمد بن هارون الوفاء بما عقد لي من الخلافة وولاية أمور العباد والبلاد بعده، وولاية خراسان وجميع أعمالها، ولا يعرض لي في شيء مما أقطعني أمير المؤمنين وابتاع لي من الضياع والعقد والرباع، وابتعت منه من ذلك، وما أعطاني أمير المؤمنين من الأموال والجواهر والكساء والمناع والدواب والرقيق وغير ذلك..."^(١).

ونجد مثل هذه السهولة في الألفاظ والوضوح في المفردات في بعض الرسائل الإدارية كعهد الرشيد لهرثمة عندما ولاه خراسان، الذي يقول فيه: "هذا ما عهد هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى هرثمة بن أعين حين ولاه نجر خراسان وأعماله وخرأجه، أمره بتقوى الله وطاعته ورعاية أمر الله ومراقبته، وأن يجعل كتاب الله إماماً في جميع ما هو بسبيله فيحل حلاله، ويحرم حرامه، ويقف به عند منسأبيه، ويسأل عنه أولي الفقه في دين الله وأولي العلم بكتاب الله، أو يرده إلى إمامه، ليريه الله - عز وجل - فيه رأيه ويعزيم له على رسده..."^(٢) وعلى غرارها رسالة الرشيد إلى الأمصار بشأن عطاء طوائف المتعلمين التي يقول فيها: "أما بعد، فانظروا من التزم الأذان عندكم فاكتبوه في ألف من العطاء، ومن جمع القرآن وأقبل على طلب العلم وعمر مجالس العلم ومقاعد الأدب فاكتبوه في ألفي دينار من العطاء، ومن جمع القرآن وروى الحديث وتفق في العلم واستبحر، فاكتبوه في أربعة آلاف دينار من العطاء..."^(٣).

كذلك تتسم أغلب الرسائل التي عالجت الفتن والاضطرابات الداخلية بالسهولة والوضوح؛ كرسالة الفضل بن يحيى إلى يحيى بن عبد الله العلوي، التي يقول فيها: "إني أحبُّ

(١) الطبري - تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٦٥٤.

(٢) المصدر نفسه، ج ٥، ص ٦٠-٦٠.

(٣) ابن قتيبة - الإمامة والسياسة، ج ١، ص ١٨٨.

أَنْ أُحَدِّثَ بِكَ عَهْدًا وَأُخْشَى أَنْ تَبْتَلِيَ بِي وَابْتَلِيَ بِكَ، فَكَاتِبُ صَاحِبِ الدِّئَمِ؛ فَإِنِّي قَدْ كَاتَبْتُهُ لَكَ لِيَتَّخِلَ فِي بِلَادِهِ فَمَتَّعَ بِهِ" (١) وعلى غرارها رسالة الرشيد إلى قائده يزيد بن يزيد يوبخه لما تباطأ في حرب الوليد بن طريف الشاري التي يقول فيها: "لَوْ وَجَّهْتُ أَحَدَ الخَدَمِ لَقَامَ بِأَكْثَرِ مِمَّا نَقُومُ بِهِ، وَلَكِنَّكَ مُذَاهِنٌ مُتَّعِصِبٌ، وَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ يُقْسِمُ بِاللَّهِ، لَئِنْ أُخْرِتَ مُنَاجِرَةَ الْوَالِيدِ لَيَبْعَثَنَّ إِلَيْكَ مَنْ يَحْمِلُ رَأْسَكَ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ" (٢).

فألفاظ هذه الرسائل سهلة واضحة معبرة بعيدة عن الغرابة والتعقيد.

وعلى الرغم من أن طابع السهولة والوضوح في الألفاظ قد وسم معظم موضوعات الرسائل الديوانية، فإن بعض الرسائل اتسمت بالفاظها بالصعوبة والغرابة، ومن أمثلة هذه الرسائل رسالة عمر بن مهران إلى الرشيد بشأن رجل ماطل في دفع الخراج، يقول عمر: "... ثُمَّ دَعَوْتُهُ فَمَالَ إِلَى الْإِلْطَاطِ" (٣)، والإلطاط المماثلة والتأخر في الأداء (٤).

ومن الأمثلة على غرابة الألفاظ وصعوبتها، قول محمد بن الليث في رسالته إلى قسطنطين في معرض حديثه عن دلائل صدق نبوة النبي - صلى الله عليه وسلم -: "... أَرَأَيْتُمْ أَنْ لَوْ كَانَ فِيمَا قَالَ مِنَ الْكَاذِبِينَ، وَعَلَى مَا ادَّعَى مِنَ الْإِيمَانِ، ثُمَّ حَاوَلَ إِنْغَادَ الْقُلُوبِ، وَإِنْغَالَ (٥) الصُّدُورِ، وَإِنْفَارَ النُّفُوسِ، وَتَفَرُّقَ الْجُمُوعِ، أَكَانَ يَزِيدُ عَلَى ذَلِكَ؟! " (٦).

وقوله في السياق نفسه: "... وَمِنْهَا: أَنَّهُ إِذَا قَالَتِ الْفُقَهَاءُ وَالْحُكَمَاءُ: أَنَا مُحَمَّدٌ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِكَلَامٍ لَمْ تَسْمَعْ الْأَذَانُ بِمِثْلِهِ، وَلَمْ تَقَعِ الْقُلُوبُ عَلَى لُغَتِهِ، لَهُ رَوْنَقٌ كَحَبَابِ الْمَاءِ وَزَبْرَجٍ (٧) يَعْلو وَلَا يُعَلَى عَلَيْهِ، وَعَجَائِبُ لَا تَبْلَى وَلَا تَفْنَى، وَجِدَّةٌ لَا تَتَّعِيرُ" (٨).

وقوله في السياق ذاته: "... فَأَيُّ أَمْرِيهِ لَكَ أَدَلُّ، أَوْ أَيُّهُمَا عِنْدَكَ أَعْجَبُ؟ إِذَا كُنْتَ بِبِنُوءِهِ مُصَدِّقًا، وَلِرِسَالَتِهِ مُحَقِّقًا.. وَهُوَ يَذْكُرُ جُنُودَ كِسْرَى، وَجُمُوعَ الرُّومِ، وَمَلُوكَ التُّرْكِ وَمَلُوكَ الشُّرُكِ، وَقِيُولَ (٩) الْيَمَنِ وَصَنَائِدَ الْأُمَّمِ" (١٠).

(١) الأصفهاني - مقال الطالبين، ص ٤٦٧.

(٢) ابن خلكان - وفيات الأعيان، ج ٦، ص ٣١-٣٢.

(٣) الطبري - تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٦٣٤.

(٤) ابن منظور - لسان العرب، مادة لظط.

(٥) إنغال: إفساد، انظر المصدر نفسه، مادة نغل.

(٦) أحمد زكي صفوت - جمهرة رسائل العرب، ج ٣، ص ٢٢٩.

(٧) الزبرج: الزينة من وشي أو جوهر، انظر ابن منظور - لسان العرب، مادة زبرج.

(٨) أحمد زكي صفوت - جمهرة رسائل العرب، ج ٣، ص ٢٣٣.

(٩) قيلول: جمع قيل وهو الملك من ملوك حمير في الجاهلية، انظر ابن منظور - لسان العرب، مادة قول.

(١٠) أحمد زكي صفوت - جمهرة رسائل العرب، ج ٣، ص ٢٤٧-٢٤٨.

ومن ذلك أيضاً قول يحيى بن زياد الحارثي في تفریط الرشيد: "... فَأَوْلُ مَا أَنَا ذَاكِرُهُ مِنْ فَضْلِهِ: أَنَّ اللَّهَ قَدَّمَ لَهُ الصَّنْعَ فِي سَابِقِ عِلْمِهِ؛ فَجَعَلَ مَحْتَدَهُ (١) خَيْرَ الْمَحَايِدِ عُضْرًا، ثُمَّ اخْتَارَ لَهُ أَبًا فَأَبًا، لَا يَنْقُلُهُ مِنْ أَبِي إِلَى أَبِي إِلَّا نَقَلَ مَعَهُ وَإِلَيْهِ فَضِيلَةُ الْعُنْصُرِ الَّذِي هُوَ مِنْهُ، حَتَّى صَيَّرَهُ بَعْدَ فَضَائِلِ أَبِيهِ إِلَى أَفْضَلِ بَدَنِهِ (٢)، فَكَانَ خَيْرَ خَلْفٍ مِنْ خَيْرِ سَلْفٍ، وَأَفْضَلَ وَلَدٍ مِنْ أَفْضَلِ أُبُوَّةٍ، وَأَرْضَى إِمَامٍ مِنْ أَرْكَى أَيْمَةٍ، ثُمَّ اخْتَارَ لَهُ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ، وَالنَّبَسَةَ جَمَالَ الصُّورَةِ... ثُمَّ أَفْضَتَ إِلَيْهِ الْخِلَافَةَ، وَفِي الْحَالِ مَا فِيهِ مِنَ الْقَلَّةِ، وَفِي النَّاسِ مَا فِيهِمْ مِنَ الْإِسْتِجْرَاحِ (٣)، فَمَا دَفَعَ عَنْ مَالٍ يُعْطِيهِ عَنْ قَلْبِهِ، وَلَا قَطَعَ عَادَةَ تَوْسِيعَةِ عَلَيَّ رَعِيَّتِهِ، ثُمَّ اسْتَدْرَأَ الْحَلَبَ (٤) بِرِفْقِهِ، فَكَلَّمَا دَرَّ لَهُ مِنْهُ شُخْبٌ (٥) فَوْقَهُ (٦) طَائِفَةٌ مِنْ جُنْدِهِ، حَتَّى سَقَاهُمْ بَعْدَ التَّفْوِيقِ رِيًّا، وَبَعْدَ النَّهْلِ (٧) عَلَلًا (٨) " (٩).

واتسمت بعض الرسائل بجزالة الألفاظ ورسائنتها، ولا يقصد بجزالة اللفظ أن يكون وحشياً متوعراً، بل يقصد بها أن يكون اللفظ متيناً على عذوبته، يقول ابن الأثير: "ولست أعني بالجزل من الألفاظ أن يكون وحشياً متوعراً عليه عنجبية البداوة، بل أعني بالجزل أن يكون متيناً على عذوبته في الفم ولذاذته في السمع" (١٠).

ومن الأمثلة على ذلك رسالة الخيزران إلى كاتبها عمر بن مهران رداً على رسالة منه يمدح فيها نفسه، لما ولي مصر فضبط أمورها، فكتبت إليه تقول: "قَدْ وَصَلَتْ كِتَابُكَ تَذَكُّرٌ وَتَذَكُّرٌ، (و) لَا تَسْتَكْثِرَنَّ شَيْئًا يَكُونُ مِنْكَ، وَاسْتَكْبِرْ أَحْسَنُ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ، يَذْمُ أَحْسَنُ مَا عِنْدِي لَكَ، وَاعْلَمْ أَنَّهُ قَلَّ شَيْءٌ لَمْ يَزِدْ إِلَّا نَقَصَ، وَالنَّقْصَانُ يَمْحَقُ كَمَا يُنْمِي الزِّيَادَةُ الْقَلِيلَ" (١١).

فألفاظ هذه الرسالة تتميز بالجزالة والمتانة، على الرغم مما تتسم به من سهولة ووضوح ويُعَدُّ عن التعقيد والغرابية، ونجد مثل هذه الجزالة والمتانة في الألفاظ في رسالة

- (١) محتده: أصله، انظر ابن منظور - لسان العرب، مادة حَتَدَ.
- (٢) بدنه: نسبه وحسبه، انظر المصدر نفسه، مادة بَدَنَ.
- (٣) الاستجراح: النقصان والعيب والفساد، انظر المصدر نفسه، مادة جرح.
- (٤) الحلب: اللبن المحلوب، انظر المصدر نفسه، مادة حَلَبَ.
- (٥) الشُّخْبُ: ما خرج من الضرع من اللبن إذا احتلب.
- (٦) فوقه: أعطاه قليلاً قليلاً، انظر المصدر نفسه، مادة فَوْقَ.
- (٧) النَّهْلُ: الشرب الأول، انظر المصدر نفسه، مادة نَهَلَ.
- (٨) العَلَلُ: الشرب الثاني، انظر المصدر نفسه، مادة عَلَّلَ.
- (٩) أحمد زكي صفوت - جمهرة رسائل العرب، ج ٣، ص ٢١٠-٢١١.
- (١٠) ابن الأثير - المثل السائر، ج ١، ص ٢٤٠.
- (١١) الجهشياري - الوزراء والكتاب، ص ٢٢١.

يوسف بن القاسم عن الفضل بن يحيى في حاجة لرجل: "فَلَانَ قَدْ اسْتَعْنَى بِاصْطِنَاعِكَ إِيَّاهُ عَنْ تَحْرِيكِي لَكَ بِأَمْرِهِ، لِأَنَّ الصَّنِيعَةَ حُرْمَةَ الْمُصْطَنَعِ وَوَسِيلَتُهُ إِلَى مُصْطَنِعِهِ، سَيِّمَا عِنْدَ مَنْ يُحْسِنُ الصَّنِيعَةَ وَيَسْتَنْمُهَا مُسْتَنْبِتًا لِلشُّكْرِ عَلَيْهَا وَالثَّنَاءِ الْجَمِيلِ بِهَا، بَسَطَ اللَّهُ بِالْخَيْرِ يَدَيْكَ، وَوَصَلَ بِهِ أَسْبَابَكَ، وَأَعَانَكَ عَلَيْهِ، وَجَعَلَكَ مِنْ أَهْلِهِ" (١).

ومهما يكن من أمر فإن المرء يستطيع القول بأن ألفاظ الرسائل الديوانية في هذه الحقبة الزمنية كانت منسجمة مع موضوعاتها وأغراضها؛ فكانت تتسم بالسهولة والوضوح؛ ولم يكن بينها ما يجنح إلى الغرابة والتعقيد - إلا فيما ندر من الرسائل وفي مواضع محددة -، ولعل سمة السهولة والوضوح التي ظهرت بجلاء في ألفاظ هذه الرسائل أكسبتها سمة أخرى هي الجزالة والمتانة والرصانة.

أما الجمل والعبارات في هذه الرسائل؛ فكانت تراوح بين الطول والقصر؛ نلاحظ الجمل القصيرة الموجزة في التوقيعات التي كان الكتاب يسعون فيها إلى الجمل القصيرة ذات الرنين الموسيقي، ولا يعمدون فيها إلى تطويل الجمل وتعقيدها.

من مثل توقيع جعفر البرمكي إلى الفضل بن الربيع: "كَثْرَةُ مَلَاخَاةِ الْأَوْدَاءِ رُبَّمَا أَرَأَيْتَ الدَّمَاءَ" (٢) وتوقيعه إلى بعض ندمائه: "لَا تُبْعِدْ مَنْ ضَمَّكَ" (٣).

وقد تطول الجمل قليلاً، ويكون ذلك لهدف يهدف إليه الكاتب، وليس لمجرد التفاضح والتعقيد؛ ذلك أن معظم الكتاب كانوا يعبرون عن أفكارهم في وضوح وبدون تكلف، ومن الرسائل التي طالت فيها الجمل لغرض سعى إليه الكاتب، رسالة أبي الربيع محمد بن الليث إلى قسطنطين ملك الروم يدعو فيها إلى الإسلام (٤)؛ فهذه الرسالة تقوم على الجدل والمناقشة وهذا الأمر يتطلب من الكاتب إيراد الحجج والبراهين، ومثل هذه المواقف يحتاج إلى تطويل الجمل حتى يتسنى للكاتب التعبير عن أفكاره بوضوح وإيصالها للطرف الآخر وإقناعه بها، يقول ابن الليث: "... وَلَئِنْ زَعَمْتَ أَنَّهُ ادَّعَى أَمْرَ النُّجُومِ كَذِبًا وَانْتَحَلَهَا بَاطِلًا عَارِفًا كَانَ بِهَا أَمْ جَاهِلًا، لَقَدْ نَسَبْتَهُ مِنَ الْخَطِّ الَّذِي لَا يَعْمَى عَنْ بَصَرِهِ إِلَى مَا يُخْطِئُ فِيهِ بِشَرٍّ، فَأَكْذَبْتَ نَفْسَكَ، وَتَرَكْتَ قَوْلَكَ: إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ التَّأَلِيفُ لِقُلُوبِ الْعَرَبِ، وَالْجَمْعُ لِشَتَّى الْقَبَائِلِ، إِلَّا بِرَأْيِ سَيِّدٍ، وَعَقْلٍ أَصِيلٍ، وَرَفْقٍ بَالِغٍ، إِلَى أَحَدِ أَمْرَيْنِ، لَا تَجِدُ لِكَلَامِكَ وَجْهًا تَذْهَبُ إِلَيْهِ غَيْرُهُمَا، وَلَا مَحْمَلًا

(١) الصولي - أخبار الشعراء المحدثين ، ص ١٥٨ .

(٢) ابن عبد ربه - العقد الفريد ، ج ٤ ، ص ٣٠٢ .

(٣) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٣٠٣ .

(٤) انظر الرسالة في أحمد زكي صفوت - جمهرة رسائل العرب ، ج ٣ ، ص ٢١٧-٢٧٤ .

تَضَعُهُ عَلَيْهِ سِوَاهُمَا: إِمَّا أَنْ تَقُولَ: إِنَّهُ أَلْفَ قُلُوبِ الْعَرَبِ، وَفَرَّقَ جُمُوعَ الْأَمَمِ، بِتَنْزِيلِ الْوَحْيِ، فَتُؤْمِنُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، وَإِمَّا أَنْ تَقُولَ، فَعَلَّ ذَلِكَ بِجَهْلٍ، وَهَذَا قَوْلٌ لَا يَقْبَلُ، كَيْفَ يَصِفُهُ أَحَدٌ مِنَ الْجَاهِلِينَ بِهِ، الْمَكْذِبِينَ لَهُ بِغَاوَةِ، أَوْ يَرْمُونَهُ بِجَهَالَةٍ، وَهُمْ يَجُوزُونَ بِهِ خُدُودَ الْأَنْبِيَاءِ، وَيَرْفَعُونَهُ فَوْقَ أُمُورِ الْعُلَمَاءِ، وَيَتَخَطُّونَ بِهِ مَرَاتِبَ الْحُكَمَاءِ، وَمَنَازِلَ النَّاسِ، تَكْثِيرًا لِعِلْمِهِ، وَتَسْدِيدًا لِعَقْلِهِ، وَتَثْبِيثًا لِفَضْلِهِ، فِيمَا لَا يَقْدِرُ الْخَلْقُ عَلَيْهِ، وَلَا تَهْتَدِي الْأَنْسُ إِلَيْهِ، حَتَّى نَحْلُوهُ فَعَلَّ الرَّبُّ الَّذِي لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ الْخَلْقُ فِي وُجُوهِ كَثِيرَةٍ وَأَنْحَاءَ جَمَّةٍ.. (١).

ومن الرسائل التي اتسمت جملها بالطول إضافة إلى سهول الألفاظ ووضوحها وجزالتها رسالة الرشيد إلى عماله بشأن ولاية العهد يقول إسماعيل بن صبيح - منشى هذه الرسالة - :
 "... فَعَزَمَ اللَّهُ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ الشَّخُوصِ بِهِمَا إِلَى بَيْتِ اللَّهِ وَأَخَذِ الْبَيْعَةَ مِنْهُمَا لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَالْإِنْفَادِ لِأَمْرِهِ وَاكْتِتَابِ الشَّرْطِ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَلَهُمَا بِأَشَدِّ الْمَوَائِقِ وَالْعُهُودِ وَأَعْلَظِ الْأَيْمَانِ وَالتَّوَكِيدِ وَالْأَخْذِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَلَى صَاحِبِهِ بِمَا التَّمَسَّ بِهِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ اجْتِمَاعِ الْفَتْهَمَا وَمَوَدَّتَيْهِمَا وَتَوَاصُلَيْهِمَا وَمُؤَازَرَتَيْهِمَا وَمُكَانَفَتَيْهِمَا عَلَى حُسْنِ النَّظَرِ لِأَنْفُسَيْهِمَا وَلِرَعِيَّتَيْهِمَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الَّتِي اسْتَرَعَاهُمَا وَالْجَمَاعَةَ لِإِدِينِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ وَكُنَّابِهِ وَسُنَّ نَبِيِّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.. (٢).

الإيجاز والإطناب

تباينت أساليب الرسائل في هذه الحقبة الزمنية تبعاً لمضامينها، فتباين المضامين اقتضى تبايناً في أساليب عرضها؛ فما يلائمة الإيجاز يختلف عما يناسبه الإطناب؛ ومن هنا فقد كانت هذه الرسائل تقصر وتطول حسب موضوع الرسالة والغرض منها وهدف الكاتب ومستوى المخاطب ومنزلته.

وقد كان كتاب هذا العهد يعون هذه الحقيقة؛ فكانوا يلائمون بين موضوع الرسالة وطريقة عرضه، وكانوا يعون مواطن الإيجاز فيوجزون، ومواطن الإطناب فيطيلون ويطننون؛ يدلنا على ذلك قول جعفر البرمكي لأحد كتابه: "إِذَا كَانَ الْإِكْتَارُ أَتْلَعَ كَانَ الْإِجَازُ مَقْصَرًا وَإِذَا كَانَ الْإِجَازُ كَافِيًا كَانَ الْإِكْتَارُ عِيًّا" (٣).

(١) المرجع نفسه، ج ٣، ص ٢٣٠-٢٣١.

(٢) الطبري - تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٦٥٥-٦٥٦.

(٣) ابن عبد ربه - العقد الفريد، ج ٤، ص ٢٣٨، وابن قتيبة - عيون الأخبار، ج ٢، ص ٥٧١.

وحد الإيجاز أن يكون اللفظ دالاً على المعنى، من غير نقصان فيخل ولا زياد فيميل، وقد عرفه ابن الأثير بقوله: "هو حذف زيادات الألفاظ، وهذا نوع من الكلام شريف، لا يتعلق به إلا فرسان البلاغة.. والنظر فيه إنما هو إلى المعاني لا إلى الألفاظ، ولست أعني بذلك أن تهمل الألفاظ، بحيث تُعزَى عن أوصافها الحسنة، بل أعني أن مدار النظر في هذا النوع إنما يختص بالمعاني، فربّ لفظ قليل يدل على معنى كثير وربّ لفظ كثير يدل على معنى قليل" (١).

وأما الإطناب فحده زيادة اللفظ على المعنى لفائدة (٢)؛ وقد ذكر أبو هلال العسكري أن "الإطناب مشترك فيه الخاصة والعامة، والغبي والفظن، والرئىض والمرتاض، ولمعنى ما أطيلت الكتب السلطانية في إقحام الرعايا" (٣)، وذهب الكلاعي إلى أن موطن الإطناب "ما يكتب به إلى العامة وتقرع به آذان الجماعة" (٤).

نستنتج من ذلك أن لكل من الإيجاز والإطناب موضعه، فمن استعمل الإيجاز في موضع الإطناب أو العكس فقد أخطأ؛ روي عن يحيى البرمكي أنه أمر كاتبين أن يكتب له كتابين في معنى واحد؛ فأطال أحدهما واختصر الآخر؛ فلما نظر في كتابيهما قال للمختصر: ما أرى موضع مزيد، وقال للمطيل: ما أرى موضع نقصان (٥).

ولم تكن نصوص الرسائل التي بين أيدينا على مستوى واحد من حيث الإيجاز والإطناب، وبالنظر في نصوص هذه الرسائل يجد الباحث الإطناب واضحاً في كثير من الرسائل التي تعالج أموراً تهم قطاعاً عريضاً من الرعية، كرسائل المبايعات والمنشورات والبشارات؛ فكانت هذه الموضوعات مجالاً خصباً لبسط المعاني، فرسائل المبايعات كانت تتسع لبيان الهيئة التي تمت بها البيعة، والشروط والمحاذير والعهود والمواثيق، التي تؤخذ على المبايع، ومن الرسائل التي تهض شهاداً على هذه المناحي عهد الأمين على نفسه لأبيه الرشيد (٦)، وعهد المأمون على نفسه ولأبيه ولأخيه الأمين (٧).

وأما المنشورات، فإنها في هذا العهد لا تختلف كثيراً عن المبايعات، ذلك أنها تعالج أموراً يهم الرعية، ومن هنا فقد كانت مجالاً ثراً للكثير من الموضوعات، لعل في مقدمتها

(١) ابن الأثير - المثل السائر ، ج ٢ ، ص ٢٥٥ .

(٢) المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٤٤ .

(٣) العسكري - الصناعتين ، ص ١٩٠ .

(٤) الكلاعي - إحكام صنعة الكلام ، ص ٩٠ .

(٥) العسكري - الصناعتين ، ص ١٩٠ .

(٦) الطبري - تاريخ الطبري ، ج ٤ ، ص ٦٥٢-٦٥٣ ، وانظر ص ٢٥-٢٩ من هذا البحث .

(٧) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٦٥٤-٦٥٥ ، وانظر ص ٢٩-٣٢ من هذا البحث .

موضوع مبايعة الخليفة وولي عهده، وهو من الموضوعات التي تتيح المجال للكاتب أن يظهر مهارته وبراعته في بسط المعاني، لأنها تحوي مضامين كثيرة؛ ومن المنشورات التي تجلت فيها ظاهرة الإطناب منشور الرشيد إلى عماله بشأن ولاية العهد فقد توسع منشئ هذا المنشور - وهو إسماعيل بن صبيح - في الحديث عن صفات ولي العهد، وكيف انعقدت آمال الأمة عليهما، وكيف أن اختيار أمير المؤمنين لهما لم يأت نتيجة خاطر لاح له، وإنما جاء بعد طول تفكير وتدبر، وطويل استخارة لله تعالى في أمرهما، ثم فصل كيف هدى الله أمير المؤمنين للخروج بهما إلى الكعبة المشرفة وعقد البيعة لهما في هذه الرحاب الطاهرة، وكتابة كتابين أشهد عليهما كل من حضر الموسم، ثم بين حرص أمير المؤمنين على انتشار هذا الأمر بين عامة المسلمين في سائر أقاليم الدولة، وختم رسالته بطائفة من الأوامر لولاية الأمصار من شأنها أن تنتشر هذا الأمر وتدعيه بين أفراد الرعية^(١).

وقد تجلت ظاهرة الإطناب في بعض الرسائل الإدارية، وخاصة عهد التبعين؛ فقد اتسع هذا الضرب من الرسائل ليشمل كافة التوجيهات التي كان يوجهها الخليفة للوالي الذي وقع الاختيار عليه، ومن الأمثلة على ذلك عهد الرشيد لمولاه هرثمة بن أعين حين ولاه خراسان^(٢). ويبدو الإطناب واضحاً في بعض رسائل العزل كرسالة الرشيد إلى علي بن عيسى بن ماهان يعزله^(٣).

كما تظهر سمة الإطناب بجلاء في بعض الرسائل التي عبرت عن العلاقات الخارجية؛ كرسالة أبي الربيع محمد بن الليث التي بعثها على لسان الرشيد إلى قسطنطين يدعوه فيها إلى الإسلام^(٤)؛ فقد توسع ابن الليث في عرض مبادئ الإسلام، ونقض عقائد النصارى الباطلة؛ عن طريق المجادلة بالتي هي أحسن في سبيل دعوة قسطنطين إلى الدخول في الإسلام، يقول ابن الليث: "... قَدْ تَرَوْنَ بَعْيُونَكُمْ وَتَعَلَّمُونَ بِعُقُولِكُمْ، أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ لِلْأَنْبِيَاءِ الْأَرْضَ، وَجَعَلَهَا مَوْصُولَةً بِالْخَلْقِ، فَلَيْسَ يَذْخُوهَا^(٥) إِلَّا لَهُمْ، وَلَا يُدِيمُهَا إِلَّا مَعَهُمْ، وَجَعَلَ ذَلِكَ الْخَلْقَ مُتَّصِلًا بِالنَّبِيِّ، لَا يَقُومُ إِلَّا بِهِ وَلَا يَصْلُحُ إِلَّا عَلَيْهِ وَجَعَلَ ذَلِكَ النَّبِيَّ الَّذِي جَعَلَهُ مَتَاعًا لَكُمْ، وَمَعَاشًا لِأَنْعَامِكُمْ مُتَّصِلًا بِالْمَاءِ الَّذِي يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ، لِمَعَاشٍ مَقْسُومٍ، فَلَيْسَ

(١) انظر المنشور في الطبري - تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٦٥٥-٦٥٦.

(٢) المصدر نفسه، ج ٥، ص ٦-٥.

(٣) المصدر نفسه، ج ٥، ص ٥.

(٤) أحمد زكي صفوت - جمهرة رسائل العرب، ج ٢، ص ٢١٧-٢٧٤.

(٥) يذحوها: يبسطها، انظر ابن منظور - لسان العرب، مادة ذحو.

يَنجُمُ^(١) النَّبْتُ إِلَّا بِهِ، وَلَا يَحْيَا إِلَّا عَنْهُ، وَجَعَلَ السَّحَابَ الَّذِي يَنْسُطُهُ كَيْفَ يَشَاءُ، مَتَّصِلًا بِالرِّيحِ الْمُسَخَّرَةِ فِي جَوْ السَّمَاءِ تُبَيِّرُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَعْلَمُونَ، وَتَسْوِقُهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: "وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُبَيِّرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ"^(٢) "وَوَصَلَ الرِّيحَ الَّتِي يُصْرِفُهَا فِي جَوْ السَّمَاءِ بِمَا يُؤَثِّرُ فِي خَلْقِ الْهَوَاءِ، مِنَ الْأَرْضِيَّةِ الَّتِي لَا تَتَّبَعُ الْهَوَاجِرُ"^(٣) إِلَّا بِبَيِّنَاتِهَا، وَلَا يَزُولُ عَنْهُ بَرْدٌ إِلَّا بِزَوَالِهَا، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَطَلَّ رَاكِدًا بِالْحَرِّ الْمَيِّتِ، أَوْ مَائِلًا بِالْبَرْدِ الْقَاتِلِ، وَوَصَلَ الْأَرْضِيَّةَ الَّتِي جَعَلَهَا مُتَّصِرَةً مُتَوَلِّئَةً بِمَسِيرِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ الدَّائِبِينَ لَكُمْ الْمُخْتَلِفِينَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ عَلَيْكُمْ، وَجَعَلَ مَسِيرَهُمَا الَّذِي لَا تَعْرِفُونَ عَدَدَ السَّنِينَ إِلَّا بِهِ، وَلَا مَوَاقِعَ الْحِسَابِ إِلَّا مِنْ قِبَلِهِ مُتَّصِلًا بِدَوْرَانِ الْفَلَكَ الَّذِي فِيهِ يَسْبَحَانِ، وَبِهِ يَأْفَلَانُ، وَوَصَلَ مَسِيرَ الْفَلَكَ بِالسَّمَاءِ لِلنَّاطِرِينَ سَوَاءً، فَهَذَا خَلْقُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، مَا فِيهِ تَبَاطُحٌ وَلَا تَرَائِيلٌ وَلَا تَفَاوُتٌ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: "مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ"^(٤)، وَلَوْ كَانَ لِلَّهِ شَرِيكٌ، أَوْ مَعَهُ ظَهِيرٌ عَلَيْهِ، يُمْسِكُ مِنْهُ مَا يُرْسِلُ، وَيُرْسِلُ مِنْهُ مَا يُمْسِكُ أَوْ يُؤَخِّرُ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ عَنْ وَقْتِ زَمَانِهِ، أَوْ يُعَجِّلُهُ قَبْلَ مَجِيءِ آيَاتِهِ^(٥) لَتَفَاوَتَ الْخَلْقُ، وَلَتَبَاطُحَ الصَّنْعُ، وَلَتَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَلَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ - وَكَذَّبَ الْمُبْطِلِينَ: "بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ، مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ، إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ، وَلَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ"^(٦) (٧).

وهكذا فقد أطنب الكاتب في الحديث عن دلائل وحدانية الله تعالى، وفي بيان قدرة الله تعالى في خلقه، وبين من خلال ذلك عظمة الله عز وجل، وكيف أبدع هذا الكون بهذا النظام العجيب، الذي لا يملك من يتفكر فيه بعقله إلا أن يهديه تفكيره إلى الإقرار بأن مبدع هذا الكون إله واحد لا شريك له.

ولعل الذي دفع الكاتب إلى الإطناب، هو طبيعة الموضوع الذي يطرقه، فقد قاده هذا الموضوع إلى حشد كثير من التراكيب التي تقضي بمجموعها إلى غاية واحدة مفادها أن الذي خلق هذا الكون بهذا النظام البديع إله واحد لا شريك له، إضافة إلى الموقف الذي فرض عليه

(١) ينجم: يطلع ويظهر، انظر المصدر نفسه، مادة نجم.

(٢) الآية ٩ من سورة فاطر.

(٣) الهواجر: جمع هاجرة، وهي شدة الحر، انظر ابن منظور - لسان العرب، مادة هجر.

(٤) من الآية ٣ من سورة الملك.

(٥) آيات الشيء: وقته وأوانه، انظر ابن منظور - لسان العرب، مادة أب، ومادة آين.

(٦) الآياتان، ٩٠-٩١ من سورة المؤمنون.

(٧) أحمد زكي صفوت - جبهة رسائل العرب، ج ٣، ص ٢١٨-٢٢١.

الحديث بإسهاب، فهو في موقف جدل ومناقشة ودفاع، وغالباً ما تطول الجمل في مثل هذا الموقف لأنه يكون من جانبيين، الأول يعرض حجته، والثاني يرد عليها، ويحاول دحضها، ومع أن أبا الربيع لم يكن في مواجهة قسطنطين؛ فإن قارئ الرسالة يلاحظ بسهولة ويسر أن أبا الربيع، قد أدرك، بل تخيل أنه في مواجهته، وأن قسطنطين كان يعرض حججه، وأبو الربيع كان يتولى الرد عليها وتفنيدها.

وقد أتاحت له سمة الإطناب إظهار براعته ومهارته الفنية، وثروته الفكرية والثقافية، فأسرف في عرض القضايا والمسائل التي قصد إلى توضيحها، لا سيما أن الإطناب، يقوم على بسط المعاني وتكرارها بعبارات متعددة تهدف إلى تأكيد الفكرة وشرحها.

وهذا الأسلوب الذي نهجه ابن الليث في رسالته، والقائم على استقصاء المعاني والتعليل المنطقي للأفكار ونقسيماها وتفريعاها، يكشف عن براعة ومهارة فائقتين؛ وهذا الأسلوب بهذه الخصائص صار سمة بارزة في هذا العصر، جاء نتيجة اطلاع الكتاب على ثقافات الأمم الأخرى الفارسية والهندية واليونانية وحذقهم بها، ويبدو أن محمد بن الليث كان على صلة وثيقة بمجالس المتكلمين وحلقاتهم؛ فهو يبدي معرفة واسعة بأصول الكلام وقواعد الاحتجاج والجدل، وكل هذا جاء من أثر التمرس بالمنطق اليوناني الذي يقوم على عرض الفكرة والتدليل عليها بالحجج والبراهين العقلية؛ كما يظهر من الرسالة أنه كان على علم بعقائد النصارى وخرافاتهم المذهبية.

ويظهر الإطناب أيضاً في بعض الرسائل التي عالجت الفتن والاضطرابات الداخلية كرسالة هرثمة إلى الرشيد يخبره فيها بصنيعه في خراسان، يقول هرثمة مخاطباً خليفته: "وَلَمَّا صِرْتُ مِنْ مَدِينَةِ مَرَوْ عَلَى مَنْزِلٍ اخْتَرْتُ عِدَّةً مِنْ بَقَاتِ أَصْحَابِي وَكَتَبْتُ بِسْمِيَةِ وَتَدَّ عَلِيٌّ بْنُ عَيْسَى وَكُتَابِهِ وَأَهْلَ بَيْتِهِ وَغَيْرِهِمْ رِقَاعًا، وَدَفَعْتُ إِلَى كُلِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ رُقْعَةً بِاسْمِ مَنْ وَكَلْتُهُ بِحِفْظِهِ فِي دُخُولِي، وَلَمْ أَمَنْ، لَوْ قَعَدْتُ فِي ذَلِكَ وَآخَرْتُهُ، أَنْ يَصْبِرُوا عِنْدَ ظُهُورِ الْخَبَرِ وَأَنْبِشَارِهِ إِلَى التَّغْيِبِ وَالْإِنْتِشَارِ، فَعَمِلُوا بِذَلِكَ، وَرَحَلْتُ عَنْ مَوْضِعِي نَحْوَ مَدِينَةِ مَرَوْ، فَلَمَّا صِرْتُ مِنْهَا عَلَى مِيلَيْنِ تَلَقَانِي عَلِيُّ بْنُ عَيْسَى فِي وَدَيْهِ وَأَهْلَ بَيْتِهِ وَقَوَادِهِ فَلَقَيْتُهُ بِأَحْسَنِ لِقَاءٍ وَأَنْسَتُهُ وَبَلَّغْتُ مِنْ تَوْقِيرِهِ وَتَعْظِيمِهِ وَالْتِمَاسِ النَّزُولِ إِلَيْهِ أَوَّلَ مَا بَصُرْتُ بِهِ مَا أَزْدَادُ بِهِ أَنْسًا وَثِقَةً إِلَى مَا كَانَ إِلَيْهِ قَبْلَ ذَلِكَ مِمَّا كَانَ يَأْتِيهِ مِنْ كُتْبِي؛ فَإِنَّهَا لَمْ تَنْقَطِعْ عَنْهُ بِالْبَعْظِيمِ وَالْإِجْلَالِ مَنِي لَهُ وَالْإِلْتِمَاسِ لِأَنْفِي سَوْءِ الظَّنِّ عَنْهُ لِئَلَّا يَسْبِقَ إِلَى قَلْبِهِ أَمْرٌ يَنْتَقِضُ بِهِ مَا ذَبَرَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فِي أَمْرِهِ وَأَمْرَتِي بِهِ فِي ذَلِكَ.." (1) وعلى غرارها رد الرشيد على هذه الرسالة الذي

(1) الطبري - تاريخ الطبري، ج 5، ص 8-9.

يقول فيه: "... فَقَدْ بَلَغَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ كِتَابَكَ بِقُدُومِكَ مَرَّوً فِي الْيَوْمِ الَّذِي سَمَّيْتَ وَعَلَى الْحَالِ الَّذِي وَصَفْتَ وَمَا فَسَّرْتَ وَمَا كُنْتَ قَدَّمْتَ مِنَ الْحَيْلِ قَبْلَ وَرُودِكَ إِيَّاهَا، وَعَمِلْتَ بِهِ فِي أَمْرِ الْكُورِ الَّتِي سَمَّيْتَ، وَتَوَلِيَةِ مَنْ وُلِّيتَ عَلَيْهَا قَبْلَ نَفُورِكَ عَنْهَا، وَأَطَقْتَ لَهُ مِنَ الْأَمْرِ الَّذِي اسْتَجْمَعَ لَكَ بِهِ مَا أَرَدْتَ مِنْ أَمْرِ الْخَائِنِ عَلِيِّ بْنِ عَيْسَى وَوَلَدِهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ وَمَنْ صَارَ فِي يَدِكَ مِنْ عُمَّالِهِ وَاصْنَابِ عُمَّالِهِ وَاحْتِدَانِكَ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ مَا كَانَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَثَلًا لَكَ، وَوَقَفَكَ..."^(١).

كما يبدو الإطناب في بعض الرسائل التي عالجت نكبة البرامكة، كرسالة يحيى اليرمكي، إلى الرشيد من السجن^(٢). فقد حشد يحيى في هذه الرسالة ما وسعه أن يحشد من التراكيب والصور في سبيل استدرار عطف الرشيد وعفوه عنه.

ومن الرسائل التي بدت فيها سمة الإيجاز واضحة جلية بعض الرسائل الإدارية، مثل رسالة يحيى إلى ابنه الفضل يعزله عن ديوان الخاتم، يقول يحيى: "قَدْ أَمَرَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ - أَعْلَى اللَّهِ أَمْرَهُ - أَنْ تَحَوَّلَ الْخَاتَمُ مِنْ يَمِينِكَ إِلَى شِمَالِكَ"^(٣) يضاف إليها بعض الرسائل التي عالجت نكبة البرامكة كرسالة يحيى إلى ابنه جعفر ينهيه عن الإيغال في منادمة الرشيد والتي يقول فيها: "إِنِّي إِنَّمَا أَهْمَلْتُكَ لِتَعْتَرَّ بِكَ الزَّمَانُ عَثْرَةً تَعْرِفُ بِهَا أَمْرَكَ، وَإِنْ كُنْتُ لِأَخْشَى أَنْ تَكُونَ الَّتِي لَا شَوْىَ لَهَا"^(٤)، ورسالة يحيى إلى الرشيد في ابتداء النكبة يطلب عليه ألا يأخذه بجرائر ابنه جعفر والتي يقول فيها: "إِنْ كَانَ الذَّنْبُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ خَاصًّا، فَلَا تَعْمُ بِالْعُقُوبَةِ؛ فَإِنَّ لِي سَلَامَةَ الْبَرِيِّءِ وَمَوَدَّةَ الْوَلِيِّ"^(٥).

كما بدت سمة الإيجاز في الرسائل التي عبرت عن الفتن والاضطرابات الداخلية من مثل رسالة موسى الكاظم إلى الرشيد من السجن والتي يقول فيها: "إِنَّهُ لَنْ يَنْقُضِي عَنِّي يَوْمَ مِنَ الْبَلَاءِ إِلَّا يَنْقُضِي عَنكَ مَعَهُ يَوْمٌ مِنَ الرَّخَاءِ حَتَّى يَنْقُضِيَا جَمِيعًا إِلَى يَوْمٍ لَيْسَ لَهُ انْقِضَاءٌ يَخْسُرُ فِيهِ الْمُبْطِلُونَ"^(٦).

فهذه الرسائل تعنى بنقل المعنى بأوجز عبارة، دون الاحتفال بحشد كثير من الألفاظ والتراكيب، فهمُّ الكاتب فيها مصروف لأداء المعنى بأوجز عبارة.

(١) المصدر نفسه، ج ٥، ص ٩-١٠.

(٢) ابن عبد ربه - العقد الفريد، ج ٥، ص ٣٢٧.

(٣) الحصري - زهر الآداب، ج ٢، ص ٤١٩.

(٤) الطبري - تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٦٦٠.

(٥) الجهشياري - الوزراء والكتاب، ص ٢٥٣.

(٦) ابن الأثير - الكامل، ج ٥، ص ٣٢٠.

ويظهر الإيجاز في بعض الرسائل التي عبرت عن العلاقات الخرجية كرسالة الرشيد إلى نقفور يتهدده وتوعده^(١)، ولعل الحالة الشعورية الغاضبة التي كانت تنتاب الرشيد لحظة كتابة هذه الرسالة، هي التي قادته إلى التعبير - بهذا الأسلوب الموجز - عن غضبه، فقد كان نقفور متغطرساً متجبراً في رسالته التي بعث بها إلى الرشيد، ولم يكن أنسب من الرد عليه بهذه الصيغة المختصرة التي تعبر عن ثقة الرشيد وعزمه وتصميمه على اللقاء والتأثر لكرامته التي امتننت في رسالة نقفور السابقة.

وقد مال بعض كتاب هذا العهد إلى الإيجاز في رسائله أكثر من الإطناب خاصة البرامكة الذين فضلوه وحضوا كتابهم على احتدائه في كل ما يكتبون^(٢)؛ وقد تجلّى هذا الأمر في التوقيعات التي بلغت الذروة في الإيجاز، حتى أن بعضها لم يتعدّ بضع كلمات، ويضرب المثل في هذا المقام بتوقيعات جعفر البرمكي الذي امتلك ناصية هذا الفن في هذا العهد بلا منازع؛ فقد كانت توقيعاته على جانب رفيع من البلاغة والبيان^(٣).

ومهما يكن من أمر فإن كتاب الرسائل في هذا العهد كانوا يراعون ظروف إنشاء الرسائل، ومناسبة الإيجاز والإطناب فيها لمقتضى الحال؛ فكانوا يخاطبون كل طائفة بما يناسبها من الأساليب.

الصور البيانية

يعد التصوير من أبرز الوسائل التي استخدمها الكتاب للتعبير عن أفكارهم ومعانيهم في مظهر أدبي رفيع، وعلى الرغم من اهتمام كتاب الدواوين بنقل الحقائق بصورتها الواقعية؛ فإن القالب الذي رسم لهم ليصبوا كتبهم فيه لم يمنعهم من التلخص منه بين فترة وأخرى للاستعانة بالخيال والصور البيانية وتوظيفها لخدمة موضوعات رسائلهم.

وعلى الرغم من قلة الصور في الرسائل الديوانية كونها تميل إلى بسط الحقائق بصورتها الواقعية بعيداً عن الخيال؛ فإن المرء لا يعدم عدداً من الصور المؤثرة الموحية التي برزت بجلاء في رسائل هذه المدة.

(١) الطبري - تاريخ الطبري، ج٤، ص ٦٦٨-٦٦٩.

(٢) كان جعفر بن يحيى يقول لكتابه: "إن استطعتم أن تكون كتبكم كالتوقيعات فافعلوا"، انظر العسكري - الصناعتين، ص ١٧٣، والصولي - أدب الكتاب، ص ١٣٧.

(٣) انظر هذه التوقيعات في ابن عبد ربه - العقد الفريد، ج٤، ص ٣٠٢-٣٠٣، وأحمد زكي صفوت - جمهرة رسائل العرب، ج٤، ص ٣٨٤-٣٨٧.

ويظهر من استقراء النصوص التي بين أيدينا أن كتاب هذه الحقبة كانوا يستقون صورهم من مصادر عدة، كان على رأسها القرآن الكريم، ومن ذلك قول يحيى البرمكي في مقطوعته الشعرية التي ذيل بها رسالته التي بعثها إلى الرشيد من السجن واصفاً حاله وحال أسرته، وما يعانونه ويكابدونه من ذل السجن: "...

فَكَأَنَّهُمْ مِمَّا بِهِمْ أَعْجَازُ نَخْلِ خَاوِيَةٍ (١)

فقد استوحى يحيى هذه الصورة من القرآن الكريم من قوله تعالى واصفاً حال عاد - قوم سيدنا هود عليه السلام - بعد أن أرسل الله عليهم الريح التي دامت ثمانية أيام متتالية، فأصبحوا كجذوع النخل الخاوية التي فقدت الحياة؛ يقول الله تعالى: "وَأَمَّا عَادُ فَأَهْلِكُوهَا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ، سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ" (١).

ومن الموارد التي استقى منها الكتاب صورهم مظاهر الطبيعة المحيطة بالإنسان؛ فقد وجد الكتاب في عناصر هذه الطبيعة مورداً خصباً أمدهم بالكثير من الصور التي ابتدعوها في رسائلهم، وتختلف عناصر الطبيعة التي استمد الكتاب منها صورهم، من عناصر صامتة إلى عناصر حية (٢)، ومن بين الصور التي تمثل العناصر الصامتة: تصوير محمد بن الليث لانتشار الإسلام بطلوع الشمس وامتداد النهار في قوله مخاطباً قسطنطين: "وَلَيْنُ رَجَعْتَ إِلَى قَلْبِكَ، لَتَقُولَنَّ فِي نَفْسِكَ: لَعَمْرُ اللَّهِ لَوْ كَانَ هَذَا الْأَمْرُ الَّذِي طَلَعَ طُلُوعَ الشَّمْسِ وَامْتَدَّ امْتِدَادَ النَّهَارِ، فَبَلَغَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا، وَسُهُولَ الْأَفَاقِ وَحَزُونَهَا (٤) حَقًّا وَصِدْقًا وَعَدْلًا لَبَشَّرْتَ الْكُتُبَ بِهِ" (٥).

ومن العناصر الصامتة التي استلهمها الكتاب في صورهم منظر النار التي تلتهم كل ما تطاله ألسنتها، فقد انتزع يحيى بن زياد الحارثي هذا المنظر من الطبيعة وأسبغ على العصبية في قوله: "...فَتَحَرَّكَتْ نِيرَانُ الْعَصَبِيَّةِ" (٦) وهو بذلك يلبس العصبية صورة النيران المستعرة التي تأتي على كل ما جاورها.

(١) ابن عبد ربه - العقد الفريد، ج ٥، ص ٣٢٧.

(٢) الأيتان: ٦، ٧ من صورة الحاقة.

(٣) انظر د. محمد الدروبي - الرسائل الفنية في العصر العباسي، ص ٥٩٤-٥٩٥.

(٤) الحزون: جمع حَزَنَ بالفتح، وهو ما غلظ من الأرض، انظر ابن منظور - لسان العرب، مادة حزن.

(٥) أحمد زكي صفوت - جمهرة رسائل العرب، ج ٣، ص ٢٥٢.

(٦) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢١٢.

ومن الأمثلة على الصور المنتزعة من عناصر الطبيعة الحية، تصوير محمد بن الليث لرأس القلم بمنقار الحمامة في قوله مخاطباً جعفرأ البرمكي: "... فَأَبْرِهِ بَرِيًّا مُسْتَوِيًّا كَمِنْقَارِ الْحَمَامَةِ" (١)، وتصور يحيى البرمكي للزمان بالدابة التي تعثر في رسالته إلى ابنه جعفر ينهاه عن الإيغال في منادمة الرشيد، يقول مخاطباً جعفرأ: "... إِنِّي إِنَّمَا أَهْمَلْتُكَ لِيَعْتُرَ بِكَ الزَّمَانُ عَثْرَةَ تَعْرِفُ بِهَا أَمْرُكَ" (٢).

ويبدو من هذه الصور أن كتاب هذا العهد قد أولعوا بالإفادة من مناظر الطبيعة في تشكيل صورهم، ولعل ذلك نابع من رغبة هؤلاء الكتاب ألا يعيشوا بمعزل عن البيئة المحيطة بهم، وإصرارهم على التفاعل معها تأثراً وتأثيراً؛ الأمر الذي دفعهم إلى استلهاهم عناصر هذه البيئة في مراسلاتهم وكتبهم (٣).

وقد تكون الصورة مستوحاة من حياة الناس وعاداتهم الاجتماعية والأدوات الحضارية التي يستعملونها، ومن الأمثلة على ذلك تصوير محمد بن الليث خطأ العلماء بخطأ دائرة الرحي في قوله: "... فَإِنَّ قُلْتُمْ: إِنَّ مُحَمَّدًا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَانَ فِي قُوَّةِ عَقْلِهِ، وَبَيَانَ فَضْلِهِ، عَلَى مَا قُلْنَا وَقُلْتُمْ، وَصَدَقْنَا بِهِ نَحْنُ وَأَنْتُمْ، وَلَكِنْ هَفَّتِ الْعُلَمَاءُ، وَزَلَّتِ الْحُكَمَاءُ، وَأَخْطَأَتِ الْقُلُوبُ، فَقَدْ يَعْلَمُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ - وَأَنْتُمْ بِذَلِكَ مِنَ الْعَالَمِينَ - أَنَّ خَطَأَ قُلُوبِ الْعُلَمَاءِ كَخَطَأِ دَائِرَةِ الرَّحَى: لَيْسَتْ الْعُلَمَاءُ بِمُخْطِئَةٍ إِلَّا الْمَرَّةَ وَالثَّنَيْنِ، كَمَا لَا تُخْطِئُ الرَّحَى إِلَّا الْحَبَّةَ وَالْحَبَّيْنِ" (٤).

ومن الصور التي استوحت بعض الأدوات الحضارية، تصوير نقفور للرشيد في رسالته التي بعث بها إليه بقلعة الشطرنج، وتصور ملكة الروم بالجندي الرابض أمام هذه القلعة يحرسها، في قوله:

"... مِنْ نَقْفُورِ مَلِكِ الرُّومِ إِلَى هَارُونَ مَلِكِ الْعَرَبِ، أَمَا بَعْدُ؛ فَإِنَّ الْمَلِكَةَ الَّتِي كَانَتْ قَبْلِي أَقَامَتْكَ مَقَامَ الرُّخِّ وَأَقَامَتْ نَفْسَهَا مَقَامَ الْبَيْدِقِ، فَحَمَلَتْ إِلَيْكَ مِنْ أَمْوَالِهَا مَا كُنْتَ حَقِيقًا بِحَمْلِ أَمْثَالِهَا إِلَيْهَا. .." (٥).

(١) ابن عبد ربه - العقد الفريد ، ج ٤ ، ص ٢٧٧ .

(٢) الطبري - تاريخ الطبري ، ج ٤ ، ص ٦٦٠ .

(٣) انظر د. محمد الدروبي - الرسائل الفنية في العصر العباسي ، ص ٥٩٤ .

(٤) أحمد زكي صفوت - جمهرة رسائل العرب ، ج ٣ ، ص ٢٣٧ .

(٥) الطبري - تاريخ الطبري ، ج ٤ ، ص ٦٦٨ .

وواضح ما في هذه الصورة من استلهاهم لأحجار الشطرنج التي تمثل بعض الأدوات الحضارية التي كانت مستعملة في ذلك الزمان^(١).

أما عن الوسائل التي اعتمد عليها الكتاب في رسم صورهم فهي عديدة، لعل من أهمها التشخيص والتجسيم، وغالباً ما يتم ذلك بإلباس المعاني صوراً حية وإسباغ الصفات الإنسانية على المنعوتات، وبحث الحياة والحركة والنشاط فيها. معتمدين في ذلك على التشبيهات والاستعارات، ومن الأمثلة على هذا الاتجاه تصوير حمزة الخارجي في رسالته إلى الرشيد للفواحش بالبهيمة التي تُركب يقول حمزة:

"... ولا ابتدأتُ أحدًا منهم ببغي عليهم مع ما ظهرَ للعامَّة من سوءِ سائرهم فيمن ولوا عليهم وما تعاطوا من سفكِ الدماءِ وإباحةِ الأموالِ وركوبِ الفواحشِ وما لم يُجلِّهُ اللهُ العبادَ"^(٢)، ومن ذلك أيضاً تصوير محمد بن الليث البدع في الدين بالنار التي تتأجج لتكوي ماحولها بلظاها في قوله: "اشتعلتِ البدعُ في الدين"^(٣).

وتصوير يحيى البرمكي للسخط بالفراش في قوله: "افتترش السُّخْطُ"^(٤) وتصويره للسهاد بالكحل الذي يوضع في العين في قوله: "اكتحل السُّهادَ بعدَ الهُجُودِ"^(٥).

وقد ظهر الجانب الحسي للصور البيانية على هيئات متعددة كان من أبرزها الصورة الحركية؛ وقد استعان الكتاب في هذا المجال بالحركة لرسم صورهم البيانية من ذلك تصوير يحيى بن زياد الحارثي العامل الشره الذي يأكل أموال الناس بالوحش الضاري، يقول: "... فلماً رأى ضرأوةَ العمالِ بها، ومُصانعتَهُم دُونَهَا، وأن قَدْ صارتِ كَالسُّنَّةِ اللَّازِمَةِ، لا يدَعُهَا عَقْفُهُمْ تَوْرَعاً ولا شَرِيفُهُمْ تَنَزُّهاً، أَحَبَّ مَعَ تَوَفِيرِهِ لِلْمُسْلِمِينَ فَيُنْهَمُ أَنْ يُحْدِثَ لَهُمْ أَدْباً يَقْطِمُ بِهِ عَنْهُمْ أَهْلَ الضَّرْأَوَةِ..."^(٦).

فقد استلهم الكاتب في هذا النص صورة الوحش الضاري الذي ينقض بسرعة نحو فريسته وأسقطها على العامل الشره ضعيف الإيمان الذي لا يمنعه إيمانه وأمانته من الانقضاض نحو أموال المسلمين والتهاهما، وهي كما نرى صورة مليئة بالحركة.

(١) وانظر د. محمد الدروبي - الرسائل الفنية في العصر العباسي، ص ٥٩٦.

(٢) د. فاروق عمر فوزي - الرسائل التبادلية، ص ٢٦٨.

(٣) أحمد زكي صفوت - جمهرة رسائل العرب، ج ٢، ص ٢٢٣.

(٤) ابن عبد ربه - العقد الفريد، ج ٤، ص ٣٢٧.

(٥) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٣٢٧.

(٦) المرجع نفسه، ج ٣، ص ٢١٥.

وعلى عكس الحركة نلمح بعض الصور الساكنة الخالية من الحياة، ومن الأمثلة على ذلك قول محمد بن الليث مصوراً ضياع الحق: "... وصَارَ الْحَقُّ رَسْمًا عَافِيًا، وَخَلَقًا بَالِيًا مَيِّتًا وَسَطَ أَمْوَاتٍ" (١).

وتبدو الصورة اللونية في تصوير محمد بن الليث لرونق القرآن وحلاوته بفقاقيع الماء الصافية التي تعلق صفحته وتزينها، وهو كما نرى منظر مليئ بالألوان الزاهية، يقول محمد بن الليث: "... أَتَانَا مُحَمَّدٌ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِكَلَامٍ لَمْ تَسْمَعْ الْأَذَانَ بِمِثْلِهِ، وَلَمْ تَقَعِ الْقُلُوبُ عَلَى لُغْتِهِ لَهُ رَوْنَقٌ كَحَبَابِ الْمَاءِ وَزَبْرَجٍ يَغْلُو وَلَا يُعْلَى.." (٢).

ويظهر من خلال الصور السابقة أن الكتاب كانوا يميلون إلى تصوير المعنوي "غير المحسوس" بالمحسوس، فانتشار الإسلام وخطأ العلماء والعصبية والزمان والفواحش والبدع كلها غير محسوسة، ومن هنا جاء التعبير عنها بالمحسوس كالنار والداابة ودائرة الرحي وطلوع الشمس وامتداد النهار لتقريبها إلى ذهن السامع وجعله يشعر بأثرها ويحس به.

أما تصوير المحسوس بالمحسوس فلا نجد عليه سوى مثال واحد، هو تصوير محمد بن الليث لرأس القلم بمنقار الحمامة، مما يؤكد صحة ما ذهبنا إليه من ميل هؤلاء الكتاب نحو تصوير غير المحسوس بالمحسوس (٣).

المحسنات البديعية

أخذ كتاب الدواوين في هذا العهد أنفسهم بالكتابة المتأنقة؛ فوشحوا رسائلهم بمحسنات بديعية عديدة، لعل من أكثرها دوراناً في رسائل هذه المدة: الطباق والمقابلة والسجع.

الطباق:

هو الجمع بين متضادين، أي معنيين متقابلين في الجملة، بأن يكون بينهما تقابل وتناف، ولو في بعض الصور، سواء أكان التقابل حقيقياً، كتقابل القدم والحدوث، أو اعتبارياً كتقابل الإحياء والإماتة (٤).

(١) ابن عبد ربه - العقد الفريد، ج ٢، ص ٢٢٣ .

(٢) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٢٣ .

(٣) وانظر د. محمد الدروبي - الرسائل الفنية في العصر العباسي، ص ٥٩٧-٥٩٨ .

(٤) د. أحمد مطلوب - معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، ج ٢، ص ٢٥١-٢٥٩ .

وقد اشترط بعض البلاغيين في اللفظتين المتطابقتين التقابل، فلا يجيء اسم مع فعل، وإنما ينبغي أن تكون اللفظتان من جنس واحد (١).

ومن ذلك ما ورد في منشور الرشيد إلى عماله، "... أَمَا بَعْدُ؛ فَإِنَّ اللَّهَ وَلِيُّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَوَلِيُّ مَا وَلَاهُ، وَالْحَافِظُ لِمَا اسْتَرَعَاهُ وَأَكْرَمَهُ بِهِ مِنْ خِلَافَتِهِ وَسُلْطَانِهِ، وَالصَّانِعُ لَهُ فِيمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ مِنْ أُمُورِهِ، وَالْمُنْعِمُ عَلَيْهِ بِالنَّصْرِ وَالتَّأْيِيدِ فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا" (٢). فقد طابق بين قَدَّمَ وَأَخَّرَ مُطَابَقَةً للفعل للفعل، وبين مشارق ومغارب مطابقة الاسم للاسم.

وهو نوعان: طابق إيجاب بأن تكون اللفظتان مختلفتين لفظاً ومعنى، وطابق سلب: إذا تحقق التضاد بوجود اللفظ مثبتاً مرة ومنفياً مرة أخرى في السياق نفسه (٣).

ومن أمثلة الطباق قول يحيى البرمكي في رسالته إلى ابنه الفضل لما طلب الرشيد إليه أن ينقل الخاتم من الفضل إلى جعفر: "قَدْ أَمَرَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ - أَعْلَى اللَّهِ أَمْرُهُ - أَنْ تَحْوَلَ الخَاتَمَ مِنْ يَمِينِكَ إِلَى شِمَالِكِ" (٤) إذ نلاحظ الطباق بين "يمينك" و "شمالك" ومن ذلك ما ورد في رسالة الفضل الجوابية التي رد بها على رسالة أبيه السابقة: "قَدْ سَمِعْتُ مَقَالََةَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِي أُخْي، وَقَدْ أَطَعْتُ أَمْرَهُ، وَمَا انْقَلَبْتُ عَنِّي نِعْمَةً صَارَتْ إِلَيْهِ وَلَا غَرَبْتُ عَنِّي رُبَّةً طَلَعَتْ عَلَيْهِ" (٥) فقد طابق بين "انقلبت عني" و "صارت إليه" و "غربت وطلعت". ومن الطباق قول موسى الكاظم في رسالته إلى الرشيد من السجن: "إِنَّهُ لَنْ يَنْقُضِي عَنِّي يَوْمَ مِنَ الْبَلَاءِ إِلَّا يَنْقُضِي عَنكَ مَعَهُ يَوْمَ مِنَ الرَّخَاءِ" (٦) قد ورد فيه الطباق بين "البلاء والرخاء".

ومن أمثلة الطباق قول يحيى البرمكي في رسالته إلى ابنه الفضل: "... فَعَاوِذُ مَا هُوَ أَرْزِينُ بِكَ، فَإِنَّهُ مَنْ عَادَ إِلَى مَا يَزِينُهُ أَوْ يُشِينُهُ، لَمْ يَعْرِفْهُ أَهْلُ ذَهْرِهِ إِلَّا بِهِ" (٧) فقد طابق بين يزينه ويشينه.

ومن ذلك ما ورد في رسالة أبي الربيع محمد بن الليث إلى قسطنطين: "... أَكُنْتَ تَقُولُ فِيمَا تَجْرِي الْأَقَاوِيلُ بِهِ، وَتَقَعُ الْأَرَاءُ عَلَيْهِ، إِلَّا أَنَّهُ أَحَدُ رَجُلَيْنِ: إِمَّا كَاذِبٌ يَجْهَلُ مَا يَفْعَلُ وَيَعْمَى

(١) الحلبي - حسن التوسل، ص ٢٠٠.

(٢) الطبري - تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٦٥٥.

(٣) العسكري - الصناعتين، ص ٣٠٧-٣٢٠، وابن الأثير - المثل السائر، ج ٢، ص ١٤٣-١٥٢، والحلي - حسن التوسل، ص ١٩٩ - ٢٠٢.

(٤) الحصري - زهر الآداب، ج ٢، ص ٤١٩.

(٥) ابن الطقطقي - الفخري، ص ٢٠٥.

(٦) ابن الأثير - الكامل، ج ٥، ص ٣٢٠.

(٧) ابن خلكان - وفيات الأعيان، ج ٤، ص ٢٧.

عَمَّا يَقُولُ. .. وَإِمَّا صَادِقٌ بِصَيِّرٍ بِمَوْضِعِ قَدَمِهِ وَمَرْمَى نَبْلِهِ. .. ثُمَّ مَا رَأَيْكُمْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ، لَوْ قِيلَ لَكُمْ: إِنَّ الرَّجُلَ الَّذِي يَدْعِي الْعِصْمَةَ، وَيَنْتَحِلُ الْمَنَعَةَ، قَدْ نَجَحْتَ الْأُمُورَ بِهِ عَلَى مَا قَالُوا، وَسَلِمْتَ الْحَالَ لَهُ فِيمَا ادَّعَى، حَتَّى نَصَبَ لِعِمَارَاتٍ (١) الْعَرَبِ، وَجَمَاعَاتِ الْأُمَّمِ، يُقَاتِلُ بِمَنْ طَاوَعَهُ مَنْ خَالَفَهُ، وَيَمَنْ تَابَعَهُ مَنْ عَانَدَهُ" (٢).

نستخلص من هذا النص عدداً من المطابقات، فقد طابق الكاتب بدءاً بين صادق وكاذب أولاً، ثم بين طاووعه وخالفه تالياً ثم تابعه وعانده ثالثاً.

ومن الطبايق قول هرثمة بن أعين مخاطباً الرشيد: "... أَمَا بَعْدُ؛ فَإِنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - لَمْ يَزَلْ يُعَلِّي أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فِي كُلِّ مَا قَلَّدَهُ مِنْ خِلَافَتِهِ وَاسْتَرْعَاهُ مِنْ أُمُورِ عِبَادِهِ وَبِلَادِهِ أَجْمَلِ الْبِلَاءِ وَأَكْمَلَهُ، وَيُعْرِفُهُ فِي كُلِّ مَا حَضَرَهُ وَتَأَى عَنْهُ مِنْ خَاصِّ أُمُورِهِ وَعَامَّهَا، وَلَطِيقِهَا وَجَلِيلِهَا..." (٣).

فقد ظهر الطبايق واضحاً بين "حضره ونأى عنه" وخاص وعام ولطيف وجليل.

ويبدو من النصوص والشواهد التي أوردناها أن أكثر صور الطبايق التي عمد إليها الكتاب، كانت من نوع الإيجاب الذي يقوم على اختلاف الكلمة لفظاً ومعنى؛ إذ لا يرد طبايق السلب عند كتاب هذا العهد - إلا فيما ندر - ومن الأمثلة عليه قول جعفر البرمكي في أحد توقيعاته: "... فَلْيُمَدِّدْ مِنَ الْمَالِ بِمَا يَسْتَصْلِحُ بِهِ مَنْ مَعَهُ، لِيُدْفَعَ بِهِ عَدُوَّهُ؛ فَإِنَّ نَفَقَاتِ الْحُرُوبِ يُسْتَظْهَرُ لَهَا وَلَا يُسْتَظْهَرُ عَلَيْهَا" (٤) فقد طابق طبايق سلب بين "يستظهر لها" و "لا يستظهر عليها" بأن أثبت اللفظ الأول ونفى اللفظ الثاني.

ولعل نزوع الكتاب إلى طبايق الإيجاب مرده إلى سهولة هذا النوع التي تتسجم مع السهولة والوضوح التي أخذ الكتاب أنفسهم بها، أضف إلى ذلك أن هذا اللون من الطبايق ادعى إلى تزيين الكلام وتنميقه، لأن فيه تنوعاً في الألفاظ، مما يجلب انتباه المتلقي - سامعاً أو قارئاً- ويدفع السأم والملل عنه.

(١) العمارات : جمع عمارة وهو الحي العظيم ، انظر ابن منظور - لسان العرب ، مادة عَمَرَ.

(٢) أحمد زكي صفوت - جمهرة رسائل العرب ، ج ٣ ، ص ٢٢٤-٢٢٥ .

(٣) الطبري - تاريخ الطبري ، ج ٥ ، ص ٩ .

(٤) المبرد - الكامل ، ج ١ ، ص ٣٠١ .

المقابلة:

ونعني بها المقابلة في اللفظ والمعنى، وهي أشمل وأعم من الطباق؛ فيؤتى بالكلام وما يخالفه^(١).

من ذلك قول يحيى البرمكي في رسالته إلى الرشيد من السجن، واصفاً نفسه: "... فَحَلَّ فِي الضِّيْقِ بَعْدَ السَّعَةِ، وَعَالَجَ الْبُؤْسَ بَعْدَ الدَّعَةِ، وَافْتَرَشَ السُّخْطَ بَعْدَ الرِّضَا، وَاکْتَحَلَ السَّهَادَ بَعْدَ الْهُجُودِ، سَاعَتُهُ شَهْرٌ وَلَيْلَتُهُ دَهْرٌ..".^(٢) فقد قابل يحيى في هذه الرسالة بين حاله قبل نكبته ونكبة أسرته من سعة العيش ودعته، ورضا الخليفة عنهم، وبين ما حلَّ به بعد نكبتهم من الضيق والبؤس وسخط الخليفة عليهم وأثار ذلك عليه؛ فبعد أن كان ينام ليلاً هنيئاً هادئ البال، دون أن يشعر بطول الليل، أصبحت نفسه الآن تضيق بجدران السجن، فأصبح يحس بطول الليل، فساعته تمر وكأنها شهر وليلته تتقضي وكأنها سنة كاملة، وقد لجأ يحيى إلى هذه المقابلة للتأثير على عواطف الرشيد، علّه يرق لحاله ويصفح عنه ويعيده إلى سابق عهده.

ومن ذلك قول الإمام مالك في رسالته يعظ الرشيد: "... فَإِنَّكَ لَوْ رَأَيْتَ أَهْلَ سُخْطِ اللَّهِ تَعَالَى، وَمَا صَارُوا إِلَيْهِ مِنْ أَلْوَانِ الْعَذَابِ، وَشِدَّةِ نَقْمَتِهِ عَلَيْهِمْ وَسَمِعْتَ زَفِيرَهُمْ فِي النَّارِ وَشَهيقَهُمْ، مَعَ كَلْوَحِ وُجُوهِهِمْ، وَطُولِ غَمِّهِمْ وَتَقَلُّبِهِمْ فِي ذَرَكَاتِهَا عَلَى وُجُوهِهِمْ، لَا يَسْمَعُونَ وَلَا يُبْصِرُونَ، وَيُدْعَوْنَ بِالْوَيْلِ وَالتُّبُورِ^(٣) وَأَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ حَسْرَةٌ إِعْرَاضُ اللَّهِ تَعَالَى عَنْهُمْ، وَانْقِطَاعُ رَجَائِهِمْ، وَإِجَابَتُهُ إِيَّاهُمْ بَعْدَ طُولِ الْغَمِّ بِقَوْلِهِ: "اخْسَوْهَا فِيهَا وَلَا تَكَلِّمُون"^(٤) لَمْ يَتَعَاطَمَكَ شَيْءٌ مِنَ الدُّنْيَا إِنْ أَرَدْتَ النِّجَاةَ مِنْ ذَلِكَ.. وَلَوْ رَأَيْتَ أَهْلَ طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَمَا صَارُوا إِلَيْهِ مِنْ كَرَمِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَمَنْزِلَتِهِمْ مَعَ قُرْبِهِمْ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَنُضْرَةِ وُجُوهِهِمْ وَتَوَرُّ أَلْوَانِهِمْ وَسُرُورِهِمْ بِالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ، وَالنُّظُرِ إِلَيْهِ وَالْمَكَانَةِ مِنْهُ"^(٥).

فقد أورد الإمام مالك في النص السابق صورة أهل سخط الله، وما يكابدونه من ألوان العذاب، وشدة نقمة الله عليهم، وأصواتهم التي تخرج معبرة عن معاناتهم، والعذاب المحقق بهم من كل ناحية، وفي الصورة المقابلة أورد صورة أهل طاعة الله، وحالاتهم وهيئاتهم،

(١) الحلبي - حسن التوصل، ص ٢٠٢-٢٠٣، وانظر د. أحمد مطلوب - معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، ج ٣، ص ٢٨٧.

(٢) ابن عبد ربه - العقد الفريد، ج ٥، ص ٣٢٧.

(٣) الثبور: الهلاك، انظر ابن منظور - لسان العرب، مادة "تبر".

(٤) من الآية ١٠٨ من سورة المؤمنون.

(٥) أحمد زكي صفوت - جمهرة رسائل العرب، ج ٤، ص ٤٠٣-٤٠٤.

وما هم فيه من نعيم مقيم لا ينقطع.

ولعل طبيعة الموضوع الذي يطرقه، وما يقتضيه من الترغيب والترهيب، هو الذي حدا به إلى مثل هذا النوع من المقابلة.

السجع:

هو سمة زخرافية لفظية تعني تواطؤ الفواصل في الكلام المنثور على حرف واحد^(١)؛ إلا أنها ساكنة الأعجاز موقوف عليها^(٢). وقد قسمه البلاغيون إلى عدة أقسام وتكلموا في فضيلته وعيوبه، ووقفوا منه مواقف متباينة^(٣).

وقد تفاوت الكتاب في استعمال السجع في رسائلهم، ففي حين نجده يشيع في كتابات كتاب كالبرامكة ومن لف لفيهم، ودار في فلهم، نجده يختفي - أو يكاد - في كتابات كتاب كإسماعيل بن صبيح ومحمد بن الليث وقمامة بن زيد.

وقد مرت بنا شواهد كثيرة على السجع في الفصل الثاني من هذه الدراسة، فقد برز بجلاء في أساليب الكتاب الذين ترجمت لهم خاصة يحيى وابنه جعفر.

ومن أمثله السجع قول حميد بن مهران^(٤) في رسالة له إلى عامل معزول:

بَلَّغْنِي - أَعَزَّكَ اللَّهُ - أَنْصِرَافَكَ عَنْ عَمَلِكَ، وَرَجُوعَكَ إِلَى مَنْزِلِكَ، فَسُرِرْتُ بِذَلِكَ، وَلَمْ أَسْتَظْغِعْهُ، وَأَجْرَعُ لَهُ، لِعَلَّمِي بِأَنْ قَدْرَكَ أَجْلٌ وَأَعْلَى مِنْ أَنْ يَرْفَعَكَ عَمَلٌ تَتَوَلَّاهُ، أَوْ يَضَعَكَ عَزَلٌ مِنْهُ، وَاللَّهِ لَوْ لَمْ تَخْتَرْ الْإِنْصِرَافَ وَتُرِدَّ الْإِعْتِرَالَ، لَكَانَ فِي لُطْفِ تَذْبِيرِكَ وَتَقْوَابِ رُؤْيَيْكَ، وَحُسْنِ تَأْتِيكَ، مَا تُزِيلُ بِهِ السَّبَبَ الدَّاعِي إِلَى عَزْلِكَ وَالْبَاعِثَ عَلَى صَرْفِكَ، وَنَحْنُ إِلَى تَهْنِئَتِكَ بِهَذِهِ الْحَالِ أَوْلَى بِنَا مِنْ أَنْ نَعَزِّيكَ، إِذْ أَرَدْنَا الْإِنْصِرَافَ فَأَوْتَيْتَهُ، وَأَحْبَبْنَا الْإِعْتِرَالَ فَأَعْطَيْتَهُ...^(٥).

(١) ابن الأثير - المثل السائر، ج ١، ص ٢٧١، والكلاعي - إحكام صنعة الكلام، ص ٢٣٥، وابن منظور - لسان العرب، مادة سجع، والزمخشري - أساس البلاغة، ص ٢٠٣.

(٢) الحلبي - حسن التوسل، ص ٢٠٦.

(٣) العسكري - الصناعتين، ص ١٥٩، ٢٦٠-٢٦٥ وابن الأثير - المثل السائر، ج ١، ص ٢٧٠-٢٧١.

(٤) حميد بن مهران الكاتب: من أصفهان، كان يكتب للبرامكة مدة حياتهم، وله كتاب رسائل، انظر ابن النديم - الفهرست، ص ١٥٦، وأحمد زكي صفوت - جمهرة رسائل العرب، ج ٣، ص ١٦٤-١٦٥.

(٥) أحمد زكي صفوت - جمهرة رسائل العرب، ج ٣، ص ١٦٤-١٦٥.

ولا يعزبن عن البال ما يوفره السجع للنص الأدبي من نغم موسيقي مؤثر، ولنا أن نمثل في هذا المقام برسالة يحيى اليرمكي التي بعثها إلى الرشيد من السجن يستعطفه، يقول يحيى: "الأمير المؤمنين، وخليفة المهديين، وإمام المسلمين؛ وخليفة رب العالمين، من عبد أسلمته ذنوبه، وأوتفته عيوبه، وخذله شقيقه، ورفضه صديقه، ومال به الزمان، ونزل به الحدان...^(١)".

فقد عمد يحيى إلى حشد عدد من السجعات التي أضفت على رسالته نغماً موسيقياً مؤثراً؛ وذلك حتى يؤثر على عواطف الرشيد، فيرق له ويرأف لحاله، فيعفو عنه ويصفح.

كما يكشف السجع عن براعة ومهارة وقدرة فائقة تتم عن ثقافة لغوية واسعة، وتمكن من ناصية اللغة، يظهر لنا ذلك في رسالة بشر البلوي^(٢) إلى والي صنعاء، يستمنحه، يقول بشر: "... فإن الله - وله الحمد - قد كان عرَضني وجوهاً كثيرة، وخيرني في مكاسبٍ حلال، وكنت بتوفيق الله - عز وجل وإحسانه - قد اخترت من ناحية الأمير - حفظه الله تعالى - ورضيت به من كل مطلب، واقتصرت على رجائه من كل مكسب. .. ثم إنني لم أتحرف - بحمد الله - بعد الهجرة، ولم أنفق بعد النصر، .. بل أقمت على مكائتي، واصطبرت على عسرتي، لا أردد الجوع إلا بالبلغة^(٣) أحياناً، ولا أوارى العوزة إلا بالغنية^(٤) زماناً، حتى جاء الفتح من عند الله، وطلع الأمير - حفظه الله - فلما ظهر وتمكن، رجونا الغنى من حيث أيسر وأتخن، والعز تماماً على الذي أحسن، وأن يشفي صدور قوم مؤمنين، ويذهب غيظ قلوبهم، ركن إلى الظالمين، وأصغى إلى المذاهبين، واستمع من المنافقين، وعفا عن المرجفين، وتجاوز عن المستهزئين، وحفص جناحه للمتكبرين، وصعر خده للمستضعفين، وعبس في وجوه المقلين وجفا عشيرته الأقربين، وأقصى شيعته الأولين والآخرين، وحرّم إخوانه الأقدمين، فما تنفعهم شفاعت الشافعين، ثم تأول الكتاب، فتعدى الصواب، وقرب الأخراب، وآوى المخلفين من الأعراب، وأثر بالفيء من ليم يوجف عليه بخيل ولا ركاب، فأصبحت أياديه عند المؤلف قلوبهم، ومن كان يسر النفاق فيهم، ويلمرك في الصدقات منهم، وصنائعه عند المعذرين من الأعراب، والذين جاؤوا من بعدهم ظاهرة في الأفاق وفي

(١) ابن عبد ربه - العقد الفريد، ج ٥، ص ٣٢٧.

(٢) بشر بن أبي كبار البلوي: أصله من بلي من اليمن، من الكتاب البلغاء، كان مشهوراً بحسن الاقتباس من القرآن الكريم، انظر الهمداني - صفة جزيرة العرب، ص ٨٧ - ٩٥، وانظر د. محسن غياض بشر بن أبي كبار البلوي، مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، العدد الثالث عشر، ١٩٧٠، ص ٤٧٤-٤٨٦.

(٣) البلغة: ما يكفي لسد الحاجة ولا يفضل عنها، انظر: ابن منظور - لسان العرب، مادة بلغ.

(٤) الغنية: اسم من الاستغناء، انظر المصدر نفسه، مادة غني.

فقد حفل هذا النص بعدد من السجعات، التي أكسبته نغماً مؤثراً، وأضفت عليه إيقاعاً موسيقياً بليغاً، يدل على براعة الكاتب وقدرته على تأليف المفردات المناسبة، وتحقق الانسجام بينها، مما يخدم المعنى المقصود، ويبرزه في ثوب من الرقة والجمال وقوة التأثير، وقد ساعد على هذا استيحاءه لعدد من آيات الذكر الحكيم التي تخدم غرضه.

التأثر بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف

لقد كان القرآن الكريم منهلاً عذياً استعذبه كتاب هذا العهد، وقد عده هؤلاء الكتاب المثل الأعلى الذي يحتذى في البلاغة والبيان؛ لذلك بدا الأثر القرآني واضحاً جلياً في رسائل هذا العهد، وقد اتخذ الكتاب مناحي عدة للإفادة من النص القرآني، وابتدعوا وسائل وأساليب فنية عديدة في توظيفه للتعبير عن المعاني التي يقصدون إليها.

وأول هذه الأساليب التي احتذاها الكتاب اقتباس الآية القرآنية بنصها مع الإشارة إلى وجود الآية والتنبيه عليها بما يشعر باقتباسها، من ذلك ما جاء في رسالة أبي الربيع محمد بن الليث إلى قسطنطين: "... أمّا بعدُ، فإنَّ اللهَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ وَتَبَارَكَتْ أَسْمَاؤُهُ، قَالَ لِنَبِيِّهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِيمَا أُنزِلَ مِنْ آيَاتِ الْوَحْيِ إِلَيْهِ: "ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ" (١)، فرأى أمير المؤمنين من أحسن قولي وأفضل فعليه أن يكون إلى سبيل ربه داعياً، وبرسوله - صلى الله عليه وسلم - متأسياً، ولقوله: "ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً، وقال إنني من المسلمين" (٢) موافقاً (٣).

ومن ذلك ما ورد في رسالة الإمام مالك إلى الرشيد ووزيره يحيى البرمكي يعظهما: "إذا غضبت من شيء من أمر الله، فاذكر ثواب الله على كظم الغيظ، قال عز وجل: "والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس، والله يحب المحسنين" (٤) (٥).

(١) الهمداني - صفة جزيرة العرب، ص ٩١-٩٢، وانظر أحمد زكي صفوت - جمهرة رسائل العرب، ج ٣، ص ١٦٨-١٧١.

(٢) سورة النحل، الآية ١٢٥.

(٣) سورة فصلت، الآية ٣٣.

(٤) أحمد زكي صفوت - جمهرة رسائل العرب، ج ٣، ص ٢١٨.

(٥) من الآية ١٣٤ من سورة آل عمران.

(٦) أحمد زكي صفوت - جمهرة رسائل العرب، ج ٤، ص ٤١٣.

ويلاحظ من خلال النصوص المقتبسة من الرسائل أن الكاتب كان يسعى إلى أن يكون هناك تلاؤم بين الآية القرآنية والسياق الذي ترد فيه؛ ففي النص الأول وردت الآيات في سياق دعوة الملك الرومي إلى الإسلام؛ فجاء الكاتب بآيات تتحدث عن طرق الدعوة الإسلامية من حيث احتذاء الحكمة والتزام الموعدة الحسنة والمجادلة والتي هي أحسن والعمل الصالح، وفي النص الثاني جاءت الآية الكريمة لتؤكد الموعدة التي أسداها الإمام مالك إلى الرشيد ووزيره. ولعله يتضح من الشاهدين الأنفين مدى الفائدة المعنوية التي أضافتها النصوص القرآنية المقتبسة إلى المواقف التي اقتبست من أجلها.

وفي الإتجاه المقابل، كان بعض الكتاب يلجأ إلى اقتباس الآية الكريمة دون الإشارة إليها، وإنما كان يضعها في درج الكلام سواءً أكانت الآية بنصها الكامل أم جزء منها، ومن شواهد هذا المنحى ما ورد في رسالة الرشيد إلى حمزة الخارجي: "... أَمَا بَعْدُ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بَعَثَ مُحَمَّدًا نَبِيَّهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِلَى النَّاسِ كَافَّةً بَشِيرًا وَنَذِيرًا [وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا^(١)]".^(٢) وعلى غرار ذلك ما جاء في رد حمزة على الرسالة السابقة:

"... رَضِينَا بِاللَّهِ رَبًّا وَبِالإِسْلَامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا وَبِالْقُرْآنِ إِمَامًا وَحَكَمًا، رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، [لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطْنَا]^(٣)، [هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي]^(٤)، [وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ]^(٥) لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، لَا حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ، [فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ، وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ]^(٦)، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ، وَعَلَى جَمِيعِ الْمُرْسَلِينَ"^(٧).

وواضح من خلال النصوص السابقة براعة الكاتب في إدراج الآيات القرآنية في نص رسالته، وتتجلى هذه البراعة من خلال تحقيق التلاؤم بين الآية القرآنية، والنص الذي وردت فيه، بحيث تأخذ الآية مكانها بين جمل الرسالة، وربما يمر من ليس له علم بالقرآن وخبرة بأساليبه، بتلك الآيات فيتوهمها من كلام الكاتب وبديع إنشائه.

(١) الآية ٤٦ من سورة الأحزاب .

(٢) د. فاروق عمر فوزي - الرسائل المتبادلة ، ص ٢٦٤ .

(٣) من الآية ١٤ من سورة الكهف .

(٤) من الآية ١٠٨ من سورة يوسف .

(٥) من الآية نفسها .

(٦) الآية ١٢٩ من سورة التوبة .

(٧) د. فاروق عمر فوزي - الرسائل المتبادلة ، ص ٢٧٠ .

والوجه الآخر في تمثل القرآن الكريم هو استغلال بعض ألفاظ الآيات القرآنية في التعبير عن المعاني التي يقصد إليها الكاتب بما يخدم الغرض من رسالته؛ ومن الشواهد التي تمثل هذا المنحى قول إسماعيل بن صبيح في رسالته على لسان الرشيد إلى حمزة الخارجي.

"... يُبَشِّرُ بِالْجَنَّةِ مَنْ أَطَاعَهُ، وَيُنذِرُ بِالنَّارِ مَنْ عَصَاهُ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابًا عَزِيزًا لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلًا مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ، بَيَّنَّ فِيهِ حَلَالَهَ وَحَرَامَهَ وَفَرَائِضَهَ وَحُدُودَهَ وَشَرَائِعَ دِينِهِ"^(١)؛ فقد أشار إلى قوله تعالى: "... وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ"^(٢).

ومن ذلك قول محمد بن الليث في رسالته إلى قسطنطين يدعو إلى الإسلام:

"... وَكُنْتُ مِنْ كُتُبِ اللَّهِ وَآيَاتِهِ الْمَفْسُورَةِ وَخَلْقِهِ الْكَثِيرِ، بِحَيْثُ رَجَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ اسْتِمَاعَكَ لِمَوْعِظَتِي، وَانْتِفَاعَكَ بِمُجَادَلَتِي، انْتِفَاعَ بَشَرٍ كَثِيرٍ وَخَلْقٍ عَظِيمٍ قَدْ بَوَّتْ بِأَوْزَارِهِمْ مَعَ وَزْرِكَ، وَاحْتَمَلْتَ مِنْ أَثَامِهِمْ إِلَى إِثْمِكَ، فَأَحَبُّ أَنْ يَدْعُوكَ وَمَنْ رَجَا أَنْ يَنْتَفِعَ بِدَعْوَتِي مَعَكَ إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ، وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ عَنْ ذَلِكَ رَغْبَةً عَنْهُ، أَوْ تَرَكْتُمُوهُ زَاهِدَةً فِيهِ، فَاشْهَدُوا بِأَنَا مُسْلِمُونَ"^(٣)، ففيه إشارة إلى قوله تعالى: "قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ؛ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَا مُسْلِمُونَ"^(٤).

ومن ذلك ما ورد في عهد الرشيد لمولاه هرثمة بن أعين لما ولاه خراسان: "... فَإِنْ تَبَيَّنَتْ قِيَلُهُمْ حُقُوقَ لَأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَحُقُوقَ لِلْمُسْلِمِينَ، فَدَافَعُوا بِهَا وَجَحَدُوا بِهَا، أَنْ يَصُبَّ عَلَيْهِمْ سَوْطَ عَذَابِ اللَّهِ وَالْيَمِّ نَقْمِيَّةٍ، حَتَّى يَبْلُغَ بِهِمُ الْحَالُ الَّذِي إِنْ تَخَطَّاهَا بِأَذْنِي أَدَبٍ تَلَفْتِ أَنْفُسَهُمْ وَيَطْلُتْ أَرْوَاحَهُمْ"^(٥) فقد أشار إلى قوله تعالى: "قَصَبٌ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطٌ عَذَابٍ"^(٦).

وربما عمد الكاتب إلى استيحاء معاني القرآن الكريم وصياغتها صياغة جديدة لا تخرج

(١) د. فاروق عمر فوزي - الرسائل المتبادلة، ص ٢٦٤.

(٢) الأيتان ٤١-٤٢ من سورة فصلت.

(٣) أحمد زكي صفوت - جمهرة رسائل العرب، ج ٣، ص ٢١٨.

(٤) الآية ٦٤ من سورة آل عمران.

(٥) الطبري - تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٥.

(٦) الآية ١٣ من سورة النجر.

بها عن الإطار العام المرسوم في الآية القرآنية^(١)، ومن شواهد هذا المنحى قول محمد بن الليث: "... حَقًّا مَا كَرَّرَ هَؤُلَاءِ الْجَاهِلُونَ بِرَبِّهِمْ، الضَّالُّونَ عَن أَنْفُسِهِمْ فِي خَلْقِ اللَّهِ النَّظَرَ، وَلَا رَجَعُوا - كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ - الْفِكْرَ، وَلَوْ أَعْمَلُوا فِكْرَهُمْ وَأَجْهَدُوا نَظْرَهُمْ، فِيمَا تَسْمَعُ آذَانَهُمْ، وَتَرَى أَبْصَارَهُمْ، مِنْ حَوَائِثِ حَالَاتِ الْخَلْقِ، وَعَجَائِبِ طَبَقَاتِ الصَّنْعِ، لَوَجَدُوا فِي أَقْرَبِ مَا يَرَوْنَ بِأَعْيُنِهِمْ، مِنَ التَّالِيفِ لِتَرْكِيبِ خَلْقِهِمْ، وَالْأَثَرِ فِي التَّدْبِيرِ بِصُنْعِهِمْ مَا يَدُلُّهُمْ عَلَى تَوْحِيدِ رَبِّهِمْ، وَيَقِفُ بِهِمْ عَلَى انْفِرَادِهِ بِخَلْقِهِمْ، فَإِنَّهُمْ يَرَوْنَ فِي أَنْفُسِهِمْ بِأَعْيُنِهِمْ، وَيَجِدُونَ بِقُلُوبِهِمْ، أَنَّهَا مَخْلُوقَةٌ صَنَعَةً بَعْدَ صَنَعَةٍ وَمَحْوَلَةٌ طَبَقَةً عَنِ طَبَقَةٍ، وَمَنْقُولَةٌ حَالًا إِلَى حَالٍ، سَلَالَةً مِنْ طِينٍ، ثُمَّ نُطْفَةٌ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ، ثُمَّ عَلَقَةٌ ثُمَّ مُضْغَةٌ ثُمَّ عِظْمًا وَكَسَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَحْمًا وَنَفَخَ فِيهِ رُوحًا فَإِذَا هُوَ خَلْقٌ آخَرٌ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ"^(٢).

وواضح أن الكاتب نظر إلى قوله تعالى مصوراً مراحل خلق الإنسان: "وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سَلَالَةٍ مِنْ طِينٍ، ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ، ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً، فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ"^(٣).

وقد يعمد الكاتب إلى استحضار بعض شخصيات السيرة النبوية التي نزلت الآيات القرآنية تشرح مواقفها، من ذلك استحضار بشر البلوي لشخصية حاطب بن أبي بلتعة الذي رام أن يفشي سر حشود النبي - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه ضد قريش قبيل فتح مكة، واستحضاره لقصة وفد تميم الذين رفعوا أصواتهم فوق صوت النبي صلى الله عليه وسلم من وراء الحجرات. يقول بشر واصفاً نفسه في رسالته إلى والي اليمن إبراهيم الحجيبي^(٤) يستمنحه: "... ثُمَّ إِنِّي لَمْ أَنْحَرْفْ - بِحَمْدِ اللَّهِ - بَعْدَ الْهَجْرَةِ، وَلَمْ أَنْأْفِقْ بَعْدَ النَّصْرَةِ، وَلَمْ أَكُنْ كَخَاطِبِ حَيْثُ أَلْقَى بِالْمُودَّةِ، وَلَا كَتَمِيمٍ يَوْمَ نَادَوْا مِنْ وَرَاءِ الْحُجْرَاتِ"^(٥).

(١) وانظر د. محمد الدروبي - الرسائل الفنية في العصر العباسي ، ص ٥٥٣ .

(٢) أحمد زكي صفوت - جمهرة رسائل العرب ، ج ٣ ، ص ٢٢١ .

(٣) الآيات ١٢-١٤ من سورة المؤمنون .

(٤) إبراهيم بن عبد الله الحجيبي ، تولى اليمن للرشيد عام ١٨٢ هـ ، ولقب بالحجيبي لنسبه في بني عبد الدار القرشيين الذين كانت لهم حجابة الكعبة المشرفة ، انظر الهمداني - صفة جزيرة العرب ، ص ٨٨ ، و د. محسن غياض بشر بن أبي كبار البلوي ، مجلة كلية الآداب ، جامعة بغداد ، العدد الثالث عشر ، ١٩٧٠ ، ص ٤٧٧ .

(٥) الهمداني - صفة جزيرة العرب ، ص ٩١ وأحمد زكي صفوت - جمهرة رسائل العرب ، ج ٣ ، ص ١٦٨-١٦٩ .

فقد أخذ قوله: "ولم أكن كحاطب حين ألقى بالمودة" من الآية الكريمة: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ، وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ" (١)، وقد نزلت هذه الآية في حاطب بن أبي بلتعة للسبب المتقدم ذكره، وأما قوله: "ولا كتميم يوم نادوا من وراء الحجرات" فقد أشار به إلى قوله تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ، وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ" (٢) وربما يستوحي الكاتب بعض ظلال القصص القرآني، ولنا أن نمثل على هذا المنحى بتوقيع جعفر البرمكي لرجل سأل أن يُفقل ابنه بعد طول غياب: "غَيِّبَةُ يُوسُفَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَتْ أَطْوَلَ" (٣) وتوقيع الرشيد إلى عاملة على مصر: "أَخَذَرُ أَنْ تُخْرَبَ خِزَانَتِي وَخِزَانَةَ أَخِي يُوسُفَ، فَيَأْتِيكَ مِنِّي مَا لَا قَبِيلَ لَكَ بِهِ وَمِنَ اللَّهِ أَكْثَرُ مِنِّي" (٤)؛ فقد استلهم كل من الرشيد وجعفر البرمكي بعض إحياءات قصة يوسف عليه السلام ووظفها في توقيعيهما الموجزين.

وقد تفاوت الأثر القرآني في موضوعات الرسائل الديوانية العائدة لهذا العهد؛ فقد بدا جلياً من خلال النصوص المستقلة من هذه الرسائل أن الأثر القرآني بدا واضحاً في رسالة أبي الربيع محمد بن الليث إلى قسطنطين ملك الروم يدعوها فيها إلى الإسلام (٥) كما بدا هذا الأثر بالقدر نفسه في رسالة الإمام مالك إلى الرشيد ووزيره يحيى البرمكي يعظهما فيها ويبين لهما بعض أحكام الدين (٦)، ولعل طبيعة الموضوع المطروق هي التي ألقّت بظلالها على هذه الرسائل وفرضت هذا القدر من التأثير.

في حين نجد هذا الأثر أقل درجة في الرسائل التي طرقت موضوعات أخرى، وإن كنا نلاحظ الأثر الإسلامي فيها عن طريق الإفادة من ألفاظ القرآن الكريم معزولة عن نصوصها في إبراز مواهب الكتاب ومهاراتهم الكتابية.

ويظهر من استقراء الرسائل والنصوص العائدة لهذه الحقبة الزمنية أن كتاب هذا العهد لم يتركوا فرصة للاستفادة من القرآن الكريم إلا اغتنموا وأفادوا منها في معانيهم التي عالجوها في نصوصهم ورسائلهم، ويبدو هذا الأثر في تحميد أنس بن أبي شيخ الذي يقول فيه: "الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بِالْقُلُوبِ مَعْرِفَتُهُ، وَبِالْعُقُولِ حُجَّتُهُ، الَّذِي بَعَثَ مُحَمَّدًا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَمِينًا

(١) الآية (١) من سورة الممتحنة .

(٢) الأيتان ٤-٥ من سورة الحجرات .

(٣) ابن عبد ربه - العقد الفريد ، ج ٤ ، ص ٣٠٢ .

(٤) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٢٩٦ .

(٥) أحمد زكي صفوت - جمهرة رسائل العرب ، ج ٣ ، ص ٢١٧-٢٧٤ .

(٦) المصدر نفسه ، ص ٤ ، ص ٤٠٣-٤٢٨ .

فَوَفَّى لَهُ، وَمُبْلَغًا فَأَدَّى عَنْهُ، فَحَجَّ بِهِ الْمُنْكَرُ، وَتَأَلَّفَ بِهِ الْمُدْبِرَ، وَتَبَيَّنَتْ بِهِ الْمُسْتَنْبِرَ إِلَى أَنْ تَوَفَّاهُ عَلَى مِنْهَاجِ طَاعَتِهِ، وَشَرِيْعَةِ دِيْنِهِ، ثُمَّ أَوْرَثَكُمْ عَهْدَهُ، وَخَصَّكُمْ بِكَلِمَةِ التَّقْوَى، وَجَعَلَكُمْ الْأُمَّةَ الْوَسْطَى»^(١).

فقد استفاد أنس في تحميده هذا من ألفاظ الوعاظ والدعاة والخطباء وأساليبهم التي كثر دورانها في القرآن الكريم.

أما الأحاديث النبوية الشريفة؛ فقد كانت أقل أثراً في الرسائل الديوانية إذا ما قيست بآيات القرآن الكريم، وربما يكون ذلك بسبب نظرة الكتاب إلى القرآن الكريم على أنه قمة سامقة لا تطاول بلاغة وفصاحة؛ فكانوا يحتذون أساليبه، وطرائقه التعبيرية في كتاباتهم.

وقد كان للكتاب في احتذاء الحديث النبوي الشريف أساليب فنية عديدة منها أن يضمن الكاتب الحديث في ثنايا رسالته، مع ذكر ما يشير إلى أنه منقول عن النبي - صلى الله عليه وسلم -؛ وغالباً ما يرد الحديث في هذا المقام شاهداً على قضية أو فكرة يطرحها الكاتب فيدل عليها ويدعمها بحديث للرسول صلى الله عليه وسلم؛ من ذلك قول الإمام مالك واعظاً الرشيد:

"... لا تأمر بخير إلا بدأت بفعله، ولا تنه عن سوء إلا بدأت بتركه، فإنه بلغني عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: "... من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه"^(٢) (٣).

وقد غلب هذا المنحى على الرسائل التي تأثرت بالحديث النبوي وأساليبه، وليس أدل على ذلك من رسالة الإمام مالك التي ملأها بطائفة من أحاديث النبي - صلى الله عليه وسلم -، مستندلاً بها على ما أورده من مواعظ ووصايا للرشيد.

وإلى جانب هذا المنحى كان هناك من يعمد إلى نثر ألفاظ الحديث النبوي في ثنايا رسائلهم من ذلك ما ورد في رسالة الإمام مالك يعظ الرشيد:

"... إذا حلفت على يمينٍ ثم رأيت غيرَها خيراً منها، فأنت الذي هو خيرٌ وكفرٌ عن يمينك؛ فإنه بلغني عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال ذلك" (٤).

(١) المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٦٥.

(٢) الإمام مالك بن أنس الأصبجي - الموطأ، باب ما جاء في حسن الخلق، حديث رقم ٦٥٠، ج ٧، ص ٤٧٢. وانظر ابن ماجه - سنن ابن ماجه، كتاب الفتن، باب كف اللسان في الفتنة، حديث رقم ٣٩٧٦.

(٣) أحمد زكي صفوت - جمهرة رسائل العرب، ج ٤، ص ٤٠٧.

(٤) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٤١٣، وانظر الترمذي - سنن الترمذي، كتاب الأيمان والنذور، حديث رقم ١٥٢٩ و ١٥٣٠، ج ٤، ص ٩٠. والحديث هو قوله صلى الله عليه وسلم: "إذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها فأنت الذي هو خير وتكفر عن يمينك".

ومن ذلك توقيع جعفر البرمكي لرجل شكا عزوبة: "الصَّوْمُ لَكَ وَجَاءَ"^(١)؛ فقد أشار إلى قوله النبي - صلى الله عليه وسلم -: "يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ؛ فَإِنَّهُ أَغْضُ لِلْبَصَرِ وَأَحْقَطُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وَجَاءٌ"^(٢).
 وواضح من النصوص الأنفة مدى ملاءمة الأحاديث النبوية للسياق الذي أدرجت فيه، فقد جاء بها الكاتب لخدمة النص وزيادة توضيح الفكرة وتأكيدھا.

التنوع بين الشعر والنثر

كما استفاد الكتاب من التراث الإسلامي - ممثلاً بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف- وعملوا على توظيفه في رسائلهم؛ فقد عمد نفر منهم إلى المزج بين الشعر والنثر، والاستفادة من التراث الشعري والموهبة الشعرية لدى بعضهم، مما ظهر أثره بادياً للعيان في نتاجهم الأدبي.

وقد اتخذ الكتاب طرائق عدة وأساليب فنية متنوعة في توظيف الشعر في رسائلهم، منها أن يقتبس الكاتب بيتاً شعرياً أو أبياتاً من عيون أبيات الشعر العربي لتوضيح فكرته وبيانها، من ذلك ما جاء في جواب محمد بن يحيى البرمكي على رسالة محمد بن علي^(٣) الذي بعث إليه يسعى ضد قوم: "إِذَا قَرَأْتَ كِتَابِي هَذَا فَاحْمِلِ النَّاسَ عَلَى قَاتُونِكَ، وَخَذُهُمْ بِمَا فِي دِيْوَانِكَ، فَإِنَّا لَمْ نُؤَلِّكَ النَّاحِيَةَ لِيَتَّبِعَ الرُّسُومَ الْعَافِيَةَ، وَلَا لِإِحْيَاءِ الْأَعْلَامِ الدَّائِرَةَ وَجَنَّتِنِي وَتَجَنَّبُ بَيْتَ جَرِيرٍ يُخَاطِبُ الْفَرَزْدَقَ:

وَكُنْتُ إِذَا حَلَلْتُ بِدَارِ قَوْمٍ رَحَلْتُ بِخِزْيَةٍ وَتَرَكْتُ عَارًا^(٤) (٥)

وقد مال بعض كتاب هذا العصر إلى التنوع بين الشعر والنثر في رسائلهم؛ فأصبحنا نرى عدداً من الكتاب يذيلون رسائلهم النثرية بأبيات شعرية وقد مر بنا في الفصل الثاني من هذه الدراسة كيف اشتهر يحيى البرمكي من بين كتاب هذا العهد بتزيين رسائله وتذييلها بأبيات شعرية؛ من ذلك ما ورد في رسالته إلى ابنه الفضل ينهاه عن التساغل باللغو والصيد عن شؤون

(١) ابن عبد ربه - العقد الفريد ، ج ٤ ، ص ٣٠٢ .

(٢) البخاري - صحيح البخاري ، كتاب النكاح ، باب رقم ٢ ، ص ٣ .

(٣) لم أتمكن من تحديد ترجمته .

(٤) جرير بن عطية - ديوان جرير ، ص ٣٤٢ ، والبيت من قصيدة مطلعها

أَحِبُّ لِحُبِّ فَاطِمَةَ الدِّيَارِ أَلَا حَيَّ الدِّيَارَ بِسَعْدِ ابْنِي

(٥) الحصري - زهر الآداب ، ج ٢ ، ص ٣٥٥ .

الحكم (١). وما جاء في رسالته إلى الرشيد من السجن (٢).

ولعل من أسباب الميل إلى هذا الأسلوب دفع الملل وطرده السأم عن المتلقي، ومن ثم دفعه إلى متابعة قراءة النص، وبالتالي يكون ميل هؤلاء الكتاب إلى مثل هذا الأسلوب وسيلة من وسائل التتميق والتزيين التي كان يتبعها الكتاب في تزيين نصوصهم وتتميقها (٣).

ولم يقتصر كتاب هذا العهد على التتويج بين الشعر والنثر في رسائلهم، بل تجاوزه إلى نظم ما يسمى بالرسائل الشعرية، بحيث جاءت بعض الرسائل شعرية بكاملها، من ذلك رسالة عبد الملك بن صالح إلى الرشيد لما تغيّر عليه، يقول عبد الملك مخاطباً الرشيد:

أَخْلَايَ لِي شَجْوٌ وَلَيْسَ لَكُمْ شَجْوٌ	وَكُلُّ أَمْرٍ مِنْ شَجْوِ صَاحِبِهِ خَلْوٌ
مِنْ أَيِّ نَوَاجِي الْأَرْضِ أُبْغِي رِضَاكُمْ	وَأَنْتُمْ أَنْاسٌ مَا لِمَرْضَايَكُمْ نَخْوٌ
فَلَا حَسَبَ نَأْتِي بِهِ فَتَقْبَلُونَهُ	وَلَا إِنْ أَسَانَا كَانِ عِنْدَكُمْ عَقْوٌ (٤)

ومن ذلك رسالة أخرى لعبد الملك بن صالح بعث بها من السجن إلى الرشيد يستعطفه ليعفو عنه:

قُلْ لَأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِي	يَتَذَكَّرُهُ الصَّادِرُ وَالْوَارِدُ
بِأَوَّاحِدِ الْأَمْلَاكِ فِي فَضْلِهِ	مَالِكٌ مِثْلِي فِي الْوَرَى وَأَجْدُ
إِنْ كَانَ لِي ذَنْبٌ وَلَا ذَنْبَ لِي	حَقًّا كَمَا قَدْ زَعَمَ الْخَاسِدُ
فَلَا يَضِيقُ عَفْوَكَ عَنِّي فَقَدْ	فَازَ بِهِ الْمُسْلِمُ وَالْجَاحِدُ (٥)

من كل ذلك نلاحظ أن الكاتب في هذا العهد كان يحاول الإفادة من كل ما يقع تحت يديه سواء أكان من المخزون الثقافي الإسلامي قرآناً وحديثاً، أم من المخزون الثقافي التراثي ممثلاً بالشعر، كما أنه سعى إلى خوض تجارب شعرية أثبتت مقدرة هذا الكاتب وبراعته ليس في النثر فحسب بل في الشعر أيضاً.

(١) ابن خلكان - وفيات الأعيان، ج ٤، ص ٢٧-٢٨.

(٢) ابن عبد ربه - العقد الفرید، ج ٥، ص ٢٢٧-٢٢٨.

(٣) د. محمد الدروبي - الرسائل الفنية، ص ٥٨٨.

(٤) الكتبي - فوات الوفيات، ج ٢، ص ٤٠١.

(٥) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٠١.

الخاتمة

سعت هذه الدراسة سعياً جاداً في محاولة رسم صورة واضحة لفن الرسائل الديوانية في عهد الرشيد ، فقد أظهرت هذه الدراسة مدى عناية الدولة بديوان الرسائل الذي صدرت عنه هذه الرسائل ، من اختيار كتابه وترتيب الوظائف فيه على نحو لافت ، ويبرز دور البرامكة في هذا المجال ، فقد كانوا يختارون له من الكتاب من بلغ الغاية في هذا الفن وملك زمام الكتابة وناصيته البلاغة والبيان . وقد عمل في هذا الديوان كتاب كانت لهم إسهامات عظيمة في فن الكتابة الديوانية في الأدب العربي عامة ، وفي أدب هذه الحقبة على وجه الخصوص حتى أصبحت لهم مدرستهم الكتابية الخاصة بهم أمثال يحيى البرمكي وابنه جعفر .

وكشفت هذه الدراسة عن أهمية الكتابة ومنزلتها في هذا العهد وكيف كانت طريقاً إلى الوزارة والمناصب المرموقة في الدولة .

وقد عكست الرسائل العائدة لهذه الحقبة صورة حية للحياة السياسية والاجتماعية والادارية في عهد الرشيد .

واستبان من عرض موضوعات الرسائل لهذه الحقبة أنها عبرت عن أهم الموضوعات التي تهم الرعية من مبايعة للخليفة أو ولي العهد أو منشور في أمر عام يهم قطاعاً عريضاً من الرعية أو بشارة في مناسبة تجلب الفرح والسرور إلى نفوس الرعية. وقد بدا من هذه الرسائل حرص الدولة على التواصل مع رعيتهما .

كما كانت هذه الرسائل صدى لكثير من الأحداث السياسية الخطيرة التي عاشتها الحاضرة العباسية في هذا العهد ، فقد عبرت هذه الرسائل تعبيراً شافياً عن الصراعات والفتن الداخلية التي عصفت بدولة الرشيد وعلى رأسها الصراع مع الخوارج والصراع مع العلويين وفتنة خراسان ونكبة البرامكة التي تعتبر أهم حدث تاريخي في دولة الرشيد ، فقد أجلت هذه الرسائل مقدمات هذه النكبة وبعض أسبابها وأحداثها وما آل إليه أمر البرامكة بعد النكبة كما كشفت هذه الرسائل عن محاور العلاقة بين دولة الرشيد والدول الأخرى سلماً وحرباً . وقد عنيت هذه الرسائل ببحث العلاقة مع دولة الروم من بين هذه الدول .

واستوعبت هذه الرسائل جوانب متعددة من الشؤون الادارية وعلى رأسها التعيين والعزل والاستعفاء والخراج والقضاء والعطاء ، ولكن ما وصل إلينا من هذه الرسائل يعد قليلاً إزاء ما هو متوقع منها .

وأما التوقيعات فقد نمت نمواً واضحاً في هذا العهد وعبرت عن موضوعات شتى ، وقد أخذت سمة الإطناب تتسلل إليها .

وقد احتفل كتاب هذا العهد بمقدمات رسائلهم وخواتيمها ، وكان بعضهم - زيادة في التوثيق - يذيل رسالته باسم الكاتب وتاريخ تحرير الرسالة والشهود الذين وقفوا على ما في الرسالة من وقائع ومضامين .

أما ألفاظ هذه الرسائل فقد غلب عليها طابع السهولة والوضوح الذي أكسبها سمة أخرى هي الجزالة والرصانة .

وأما عباراتها فقد راوحت بين الطول والقصر ، وقد كانت التوقيعات خير شاهد على الجمل القصيرة ، وأما الجمل الطويلة فتبرز في الرسائل التي عبرت عن مواقف الجدل والمناقشة والاحتجاج .

وقد تنوعت أساليب الرسائل وتباينت حسب موضوع الرسالة والغرض منها وهدف الكاتب ومستوى المخاطب ومنزلته فكان هناك مواطن للإيجاز وأخرى للإطناب .

كما اتكأ الكتاب - في كثير من الأحيان - في كتبهم على المنوروث الثقافي العربي الإسلامي ممثلاً بالقرآن الكريم - الذي نال حظاً وافراً من التأثر - والحديث النبوي الشريف والشعر العربي .

وكل هذا يكشف عن مهارة هؤلاء الكتاب وحرصهم على نسج نصوصهم نسجاً فنياً رائعاً.

قائمة المصادر والمراجع

المصادر المخطوطة

- طيفور، أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر (ت ٢٨٠ هـ) - الفصول والرسائل والمنثور والمنظوم وبلاغات النساء وجواباتهن ونوادرهن، مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الأردنية، رقم ١١٠٠.
- القرطبي، أبو علي الحسين بن خلف بن محسن الأموي - روضة الأزهار وبهجة الأسمار ونزهة الأبصار الجامعة لفنون الآداب وسحر الأبواب، مركز الوثائق والمخطوطات في مكتبة الجامعة الأردنية، شريط رقم ١٥١٥.
- الميلوي، يوسف بن محمد بن الوكيل (ت بعد ١١٤٤ هـ) - أحسن المسالك لأخبار البرامك، المكتبة الوطنية، باريس، قسم المخطوطات العربية، رقم ٢١٠٧، نسخة مصورة في مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الأردنية، رقم ٤٢٠.

المصادر المطبوعة

- ابن الأبار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي (ت ٦٥٨ هـ) - إعتاب الكتاب، ط١، تحقيق: د. صالح الاشر، منشورات مؤسسة المعارف، بيروت، ١٣٨٠ هـ - ١٩٦١ م.
- الإبيشي، شهاب الدين بن محمد - المستطرف في كل مستظرف، ط١، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، عمان، ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م.
- الإيتيدي، محمد دياب (ت ١٦٨٨ م) - إعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بني العباس، ط١، دار صادر، بيروت، ١٤١٠ هـ - ١٩٦٠ م.
- ابن الأثير، ضياء الدين أبو الفتح نصر الله بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري (ت ٦٣٧ هـ) - المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ط١، تحقيق د. أحمد الحوفي و د. بدوي طبانة، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها، ١٣٧٩ هـ - ١٩٥٩ م.
- ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري (ت ٦٣٠ هـ) - الكامل في التاريخ، ط١، راجعه وصححه د. محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.

- ابن الأثير، نجم الدين أحمد بن إسماعيل الحلبي (ت ٧٣٧ هـ) - جوهر الكنز، (تلخيص كنز البراعة في أدوات ذوي البراعة)، تحقيق : د. محمد زغلول سلام، منشأة المعارف، الاسكندرية د.ت.
- الإربلي، عبد الرحمن بن سنبط بن قنيتو (ت ٧١٧ هـ) - خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سير الملوك، تصحيح : مكي السيد جاسم، مكتبة المثني، بغداد، د.ت.
- أردشير بن بابك - عهد أردشير، تحقيق وتقديم إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٧م.
- الأزدي، أبو زكريا يزيد بن محمد بن إياس بن القاسم (ت ٣٢٤ هـ) - تاريخ الموصل، تحقيق د. علي حبيبة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧م.
- الأزرق، أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد (ت نحو ٢٥٠ هـ) - أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، صححها وعلق على حواشيتها ووضع فهرسها : رشدي الصالح ملحس، المطبعة الماجدية، مكة المكرمة، ١٣٥٢ هـ.
- الأسعد بن مئاني (ت ٦٠٦ هـ) - قوانين الدواوين، ط، تحقيق عزيز سوريال عطية، الجمعية الزراعية الملكية، مطبعة مصر، ١٩٤٣م.
- الأشعري، أبو الحسن علي بن إسماعيل (ت ٣٠٣ هـ) - مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، ط٢، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩م.
- الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين (ت ٣٥٦ هـ) - الأغاني، ط٢، شرحه وكتب هوامشه الأستاذ عبد الأمير علي مهنا، دار الفكر، بيروت، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥م.
- نفسه - مقالات الطالبين، شرح وتحقيق : السيد أحمد صقر، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٤٩م.
- ابن أعثم، أبو محمد أحمد الكوفي (ت ٣١٤ هـ) - الفتوح، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م.
- البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة (ت ٢٥٦ هـ) - صحيح البخاري، دار إحياء التراث العربي، د.ت.
- البطلوسي، أبو محمد عبد الله بن محمد (ت ٥٢١ هـ) - الاقتضاب في شرح أدب الكتاب، ط١، دراسة وتحقيق : مصطفى السقا، حامد عبد المجيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١م.
- البغدادي، أبو منصور عبد القاهرة بن طاهر (ت ٤٢٩ هـ) - الفرق بين الفرق وبيان الفرق الناجية منهم، تحقيق : طه عبد الرؤوف سعد، مؤسسة الحلبي وشركاه، القاهرة، د.ت.

- البيهقي، إبراهيم بن محمد (ت ٣٢٠ هـ) - المحاسن والمساوي، دار صادر، دار بيروت، بيروت، ١٣٨٠هـ - ١٩٦٠م.
- الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة (ت ٢٩٧ هـ) - الجامع الصحيح المعروف بسنن الترمذي، ط١، تحقيق: كمال يوسف الحوت، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م.
- ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف الأتابكي (ت ٨٧٤هـ) - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ط١، قدم له وعلق عليه محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.
- التتوخي، أبو علي المحسن بن علي (ت ٣٨٤ هـ) - الفرج بعد الشدة، تحقيق: عبود الشالجي، دار صادر، بيروت، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.
- الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد، (ت ٤٢٩ هـ) - الإعجاز والإيجاز، ط١، شرح اسكندر أصف، المطبعة العمومية، مصر، ١٨٩٨م.
- نفسه - تحفة الوزراء (منسوب)، تحقيق: حبيب الراوي وابتسام الصفار، مطبعة العاني، بغداد، ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م.
- نفسه - خاص الخاص، قدم له حسن الأمين، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت.
- الجاجرمي، أبو المعالي المؤيد بن محمد - نكت الوزراء، دراسة وتحقيق نبيلة عبد المنعم داود، جامعة بغداد، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.
- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني (ت ٢٥٥ هـ) - البيان والتبيين، ط٢، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل، دار الفكر، بيروت، د.ت.
- جرير بن عطية بن حذيفة الخطفي (ت ١١٤ هـ) - ديوان جرير، ط١، شرح: د. يوسف عيد، دار الجيل، بيروت، د.ت.
- الجهشياري، أبو عبد الله محمد بن عبدوس (ت ٣٣١ هـ) - الوزراء والكتاب، ط١، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، ١٣٥٧هـ - ١٩٣٨م.
- ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد، (ت ٥٩٧هـ) - المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ط١، دراسة وتحقيق: محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، راجعه وصححه: د. نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.
- نفسه - الشفاء في مواعظ الملوك والخلفاء، تحقيق ودراسة: د. فؤاد عبد المنعم أحمد، د.ت.
- ابن أبي حجلة، شهاب الدين أحمد بن يحيى المغربي التلمساني (ت ٧٧٦هـ) - انموذج القتال في نقل العوالم، تحقيق زهير أحمد القيسي، دار الرشيد، بغداد، ١٩٨٠م.

- ابن حجة، نقي الدين أبو بكر علي بن محمد الحموي الفاردي الحنفي - ثمرات الأوراق في المحاضرات، ط ١، شرحه وضبطه : د. مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣م.
- الحصري، أبو إسحاق إبراهيم بن علي القيرواني (ت ٤٥٣ هـ) - زهر الآداب وثمر الألباب، ط ٤، شرح وضبط : د. زكي مبارك، تحقيق : محمد مجيب الدين عبد الحميد، دار الجبل، بيروت، ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢م.
- الحلبي، شهاب الدين محمود (ت ٧٢٥ هـ) - حسن التوسل إلى صناعة الترس، تحقيق : ودراسة أكرم عثمان يوسف، دار الرشيد للنشر، بغداد، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.
- ابن حمدون، محمد بن الحسن بن محمد بن علي (ت ٥٦٢ هـ) - التذكرة الحمدونية، ط ١، تحقيق : د. احسان عباس وبكر عباس، دار صادر، بيروت ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.
- الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي البغدادي (ت ٦٢٦ هـ) - معجم الأدباء "إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب"، ط ١، تحقيق د. إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.
- نفسه - معجم البلدان، دار صادر، دار الفكر، بيروت، د.ت.
- الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي (ت ٤٦٣ هـ) - تاريخ بغداد، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ت.
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ) - المقدمة، ط ٣، تحقيق د. علي عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر، القاهرة، د.ت .
- نفسه - تاريخ العلامة ابن خلدون، وهو كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٥٧م.
- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد (ت ٦٨١ هـ) - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، حققه د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، د.ت .
- خليفة بن خياط - تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق : د. أكرم ضياء العمري، مطبعة محمد هاشم الكتبي، ١٩٦٨م.
- الدواداري، أبو بكر بن عبد الله بن أيك - كنز الدرر وجامع الغرر، الجزء الخامس: الدررة السننية في أخبار الدولة العباسية، تحقيق : دوروثيا كرافولسكي، بيروت، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.
- الدينوري، أبو حنيفة أحمد بن داود (ت ٢٨٢ هـ) - الأخبار الطوال، مراجعة د. جمال الدين الشيال، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة، ١٩٦٠م.

- الذهبي ، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان ، (ت ٧٤٨ هـ) - العبر في خبر من غير ،
حققه وضبطه : محمد السعيد بن بسونى زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.
- نفسه - تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري، دار
الكتاب العربي، بيروت، د.ت.
- نفسه - سير أعلام النبلاء، ط١، ج٩، أشرف على تحقيق الكتاب وخرج أحاديثه: شعيب
الأرنؤوط، تحقيق : كامل الخراط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.
- الرازي، فخر الدين - اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، تحقيق د. محمد زينهم محمد
عزب، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.
- الزمخشري جار الله أبو القاسم محمود بن عمر (ت ٥٢٨ هـ) - أساس البلاغة، تحقيق
الأستاذ عبد الرحيم محمود، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩م.
- السمعاني، أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي، (ت ٥٦٢ هـ) - الأنساب، ط١،
تقديم وتعليق عبد الله عمر البارودي، دار الجنان، بيروت، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد (ت ٩١١ هـ) - تاريخ الخلفاء
أمرء المؤمنين القائمين بأمر الأمة من عهد أبي بكر الصديق إلى عهد المؤلف، تحقيق محمد
محيي الدين عبد الحميد، مكتبة الثقافة الدينية، د.ت.
- ابن شيث القرشي، عبد الرحيم بن علي (ت ٦٢٥ هـ) - معالم الكتابة ومغانم الإصابة،
تحقيق: قسطنطين الباشا المخلصي، المطبعة الأدبية، بيروت، ١٩١٣م.
- الصفدي صلاح الدين خليل بن أيبك - الوافي بالوفيات، ط٢، ج١٣، باعثناء: محمد
الحجيري، دار فرانز شتاينر بفيسبادن، شتوتجارت، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.
- نفسه - الوافي بالوفيات، ج١١، باعثناء : شكري فيصل، دار النشر فرانس شتاينر،
شتوتجارت، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.
- نفسه - الوافي بالوفيات، ط٣، ج٩، باعثناء : يوسف فان إس، دار النشر فرانس شتاينر
شتوتجارت، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.
- نفسه - الوافي بالوفيات، ج٢٤ ، باعثناء : محمد عدنان البخيت ومصطفى الحياي، دار
فرانز شتاينر، بفيسبادن، شتوتجارت، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.
- نفسه - الوافي بالوفيات، ط٢، ج١٥، باعثناء : بيراند راتكه، دار فرانز شتاينر للنشر
بفيسبادن، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.
- نفسه - الوافي بالوفيات ، ج١٦ ، باعثناء : وداد القاضي ، دار فرانس شتاينر، شتوتجارت ،
١٤١١هـ ، ١٩٩١م .

- الصولي، أبو بكر محمد بن يحيى بن عبد الله (ت ٣٣٥ هـ) - أخبار الشعراء المحدثين من كتاب الأوراق، ط٢، عني بنشره ج. هيورث، دن، دار المسيرة، بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
- نفسه - أدب الكتاب، ط١، شرح وتعليق أحمد حسن بسّج، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.
- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ) - تاريخ الطبري، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- الطرطوشي، أبو بكر محمد بن الوليد الفهري (ت ٥٢٠ هـ) - سراج الملوك، ط١، تحقيق: محمد فتحي أبو بكر، تقديم د. شوقي ضيف، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.
- ابن الطقطقي، محمد بن علي بن طباطبا (ت ٧٠٩ هـ) - الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، دار صادر، بيروت، ١٣٨٠هـ - ١٩٦٠م.
- ابن عبد ربه، أحمد بن محمد الأندلسي (ت ٣٢٨) - العقد الفريد، ط١، تحقيق: د. عبد المجيد الترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
- أبو العرب، محمد بن أحمد بن تميم القيرواني (ت ٣٢٣هـ) - طبقات علماء إفريقية وتونس، ط١، تقديم وتحقيق: علي الشابي ونعيم اليافي، الدار التونسية للنشر، ١٩٦٨م.
- العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل (ت ٣٩٥هـ) - الأوائل، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- نفسه - ديوان المعاني، نسخة مصورة عن نسختي الشيخ محمد عبده والشيخ محمد محمود الشنقيطي، دار الجيل، بيروت، د.ت.
- نفسه - كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر، ط١، تحقيق: علي البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركائه، القاهرة، ١٣٧١هـ - ١٩٥٢م.
- علي بن خلف الكاتب (ت أواخر القرن الرابع الهجري) - مواد البيان، تحقيق: د. حسين عبد اللطيف، منشورات جامعة الفاتح، طرابلس الغرب، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.
- ابن العماد، شهاب الدين أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد الحنبلي الدمشقي، (ت ١٠٨٩ هـ) - شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ط١، أشرف على تحقيقه وخرّج أحاديثه: عبد القادر أرناؤوط، حققه وعلّق عليه محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ١٤١٢م.

- ابن العمراني ، محمد بن علي بن محمد ، (ت في حدود ٥٨٠ هـ) - الإنشاء في تاريخ الخلفاء، تحقيق وتقديم ودراسة : د. قاسم السامرائي ، المعهد الهولندي للأثار المصرية والبحوث العربية ، القاهرة ، لايدن ، ١٩٧٣ م .
- أبو الفداء، الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل صاحب حماة، (ت ٧٢٢ هـ) - المختصر في أخبار البشر، ط١، المطبعة الحسينية المصرية، القاهرة، د.ت.
- ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم الدينوري (ت ٢٧٦ هـ) - الإمامة والسياسة (منسوب)، ط٢، مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، ١٣٧٧ هـ - ١٩٥٧ م.
- نفسه - عيون الأخبار، ط١، تحقيق : د. محمد الاسكندراني، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م.
- قدامة بن جعفر بن زياد البغدادي الكاتب (ت ٣٢٧ هـ) - الخراج وصناعة الكتابة، شرح وتحقيق : د. محمد حسين الزبيدي، دار الرشيد، بغداد، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م.
- القرماني، أحمد بن يوسف (ت ١٠١٩ هـ) - أخبار الدول وأثار الأول في تاريخ، ط١، تحقيق ودراسة : د. أحمد حطيظ و د. فهمي سعد، دار عالم الكتب، بيروت، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م.
- القلقشندي، أحمد بن علي (ت ٨٢١ هـ) - صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ط١، شرحه وعلق عليه وقابل نصوصه : محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.
- الكتبي، محمد بن شاکر (ت ٧٦٤ هـ) - فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، د.ت.
- ابن كثير، أبو الفداء الحافظ الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ) - البداية والنهاية، ط١، تحقيق أحمد عبد الوهاب فتيح، دار الحديث ، القاهرة، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م.
- الكلاعي، ابن عبد الغفور - إحكام صنعة الكلام، تحقيق : د. محمد رضوان الداية، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٦ م.
- الكندي، أبو عمر محمد بن يوسف المضري، (ت ٣٥٠ هـ)، تصحيح رفرن كست، مطبعة الآباء البسوعيين، بيروت، ١٩٠٨ م .
- ابن ماجة - سنن ابن ماجة، بشرح الإمام أبي الحسن الحنفي، (ت ١١٣٨ هـ)، ط١، تحقيق : الشيخ خليل مأمون شيحة، دار المعرفة، بيروت، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م.
- مالك ، الإمام مالك بن أنس الأصبحي (ت ١٧٩ هـ) - الموطأ، رواية سويد بن سعيد الحدثاني، ط١، تحقيق ودراسة : عبد المجيد تركي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م.

- المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد الأزدي (ت ٢٨٦ هـ) - الكامل، عارضه بأصوله وعلق عليه محمد أبو الفضل إبراهيم والسيد شحاته، دار نهضة مصر، د.ت.
- مجهول - العيون والحدائق في أخبار الحقائق، تحقيق: نبيله عبد المنعم داود، مطبعة النعمان، النجف الأشرف، ١٩٧٩م.
- المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت ٣٤٦ هـ) - التنبيه والإشراف، تصحيح ومراجعة: عبد الله إسماعيل الصاوي، المكتبة العصرية، بغداد، ١٣٥٧ هـ - ١٩٣٨م.
- نفسه - مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م.
- المقدسي، مطهر بن طاهر - البدء والتاريخ، اعتنى بنشره وترجمته كلمان هوار، باريس، ١٩١٦م.
- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي المصري (ت ٧١١ هـ) - لسان العرب، ط٢، دار إحياء التراث العربي، بيروت، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣م.
- ابن النديم - الفهرست، ط١، اعتنى بها وعلق عليها الشيخ إبراهيم رمضان، دار المعرفة، بيروت، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤م.
- أبو نواس، الحسن بن هانئ (ت ١٩٨ هـ) - ديوان أبي نواس، ط١، ضبط معانيه وشروحه وأكملها: إيليا الحاوي، دار الكتاب اللبناني، مكتبة المدرسة، بيروت، ١٩٨٣م.
- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٣ هـ) - نهاية الأرب في فنون الأدب، تصحيح أحمد الزين، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة، د.ت.
- الهمداني، لسان اليمن الحسن بن أحمد بن يعقوب (ت في حدود ٣٤٤ هـ) - صفة جزيرة العرب، ط١، تحقيق محمد بن علي الأكوح الحوالي، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض، ١٣٩٤ - ١٩٧٤م.
- الوطواط، أبو إسحاق برهان الدين الكتبي (ت ٧١٨ هـ) - غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائص الفاضحة، دار صعب، بيروت، د.ت.
- وكيع، محمد بن خلف بن حيان (ت ٣٠٦ هـ) - أخبار القضاة، دار عالم الكتب، بيروت، د.ت.
- ابن وهب، أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم بن سليمان الكاتب - البرهان في وجوه البيان، ط١، تحقيق: د. أحمد مطلوب و د. خديجة الحديثي، جامعة بغداد، ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧م.

- اليافعي، عفيف الدين عبد الله بن أسعد اليمني (ت ٧٦٨ هـ) - مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان، ط١، تحقيق عبد الله الجبوري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٤ م.
- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح (ت ٢٨٤ هـ)، دار صادر، ودار بيروت، بيروت، ١٣٧٩ هـ - ١٩٦٠ م.
- اليماني، يحيى بن أبي بكر محمد بن يحيى بن حسين العامري الحرصي (ت ٨٩٣ هـ) - غربال الزمان في وفيات الأعيان، صححه وعلق عليه، محمد ناجي زعبي العمر، إشراف القاضي عبد الرحمن بن يحيى الأرياني، دمشق، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.

المراجع الحديثة

- د. ابراهيم سلمان الكروي - نظام الوزارة في العصر العباسي الأول، ط١، شركة كاظمة للنشر والترجمة، الكويت، ١٩٨٣ م.
- د. أحمد أمين - ضحى الإسلام، ط١٠، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ت.
- أحمد زكي صفوت - جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة، المكتبة العلمية، بيروت، د.ت.
- د. أحمد فريد الرفاعي - عصر المأمون، ط٢، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٤٦ هـ - ١٩٢٧ م.
- د. أحمد مطلوب - معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.
- أسعد لطفي حسن - رسالة أبي الربيع محمد بن الليث إلى قسطنطين ملك الروم، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، ١٣٥٥ هـ - ١٩٣٦ م.
- د. توفيق سلطان اليوزبكي - الوزارة نشأتها وتطورها في الدولة العباسية، ط٢، مؤسسة دار الكتب، الموصل، ١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦ م.
- د. حربي أمين سليمان - المؤرخ الإيراني الكبير غياث الدين خواندمير كما يبدو في كتابه دستور الوزراء، تقديم: فؤاد عبد المعطي الصياد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م.
- د. حسني ناعسة - الكتابة الفنية في مشرق الدولة الإسلامية في القرن الثالث الهجري، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م.

- د. حسين فلاح الكساسبة - المؤسسات الإدارية في مركز الخلافة العباسية "الدواوين"، جامعة مؤتة، عمادة البحث العلمي والدراسات العليا، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.
- خير الدين الزركلي - الأعلام، ط١٠، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٢م.
- د. شوقي ضيف - العصر العباسي الأول، ط١٣، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٧م.
- د. عبد الجبار الجومرد - هارون الرشيد، دراسة تاريخية اجتماعية سياسية، ط١، المكتبة العمومية، بيروت، ١٩٥٦م.
- د. عبد العزيز الدوري - العصر العباسي الأول، دراسة في التاريخ السياسي والإداري والمالي، ط٢، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨٨م.
- د. عبد العزيز عتيق - في البلاغة العربية (علم المعاني، علم البيان، علم البديع)، دار النهضة العربية، بيروت، د.ت.
- د. عزيزة فوال بابتي - الإطار الأدبي في مطلع العصر العباسي، دار الشمال للطباعة والنشر والتوزيع، طرابلس، د.ت.
- د. عصمة غوشة - الشعر في ظلال البرامكة، ط١، مركز كتب الشرق الأوسط، القاهرة ن ١٩٧٥م.
- د. علي عبد الرحمن العمرو - أثر الفرس السياسي في العصر العباسي الأول، ط١، مطابع الدجوي، القاهرة، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
- عمر رضا كحالة - أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام، ط٥، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.
- د. عيسى العاكوب - تأثير الحكم الفارسية في الأدب العربي في العصر العباسي الأول، ط١، قدم له د. محمد حموية، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ١٩٨٩م.
- د. فاروق عمر فوزي - الخليفة المجاهد هارون الرشيد، ط١، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٩م.
- لسترانج كي - بلدان الخلافة الشرقية، ط٢، نقله إلى العربية: بشير فرنسيس وكوركيس عواد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٥.
- محمد الخضري - محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية (الدولة العباسية)، دار الفكر العربي، د.ت.
- د. محمد عبد المنعم خفاجي - تاريخ الأدب في العصر العباسي الأول، ط٢، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ١٩٨١.
- محمد كرد علي - رسائل البلغاء، ط٣، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٦م.

- د. محمد ماهر حمادة - الوثائق السياسية والإدارية العائدة للجزيرة العربية خلال العصور الإسلامية المتتابعة، ط ١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- نفسه - الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر العباسي الأول، دراسة ونصوص، ط ١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٥م.
- د. محمد نبيه حجاب - بلاغة الكتاب في العصر العباسي، ط ١، المطبعة الفنية الحديثة، ١٩٦٥.
- نفسه - مظاهر الشعوبية في الأدب العربي حتى نهاية القرن الثالث الهجري، ط ١، مطبعة نهضة مصر، ١٣٨١هـ - ١٩٦١م.
- د. محمود عبد الرحيم صالح - فنون النثر في الأدب العباسي، ط ١، وزارة الثقافة، عمان، ١٩٩٤م.
- د. مصطفى الشكعة - الأدب في موكب الحضارة الإسلامية (كتاب النثر)، ط ١، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.
- د. ناجي معروف - التوقعات التدريسية، مطبعة العاني، بغداد، ١٣٨٣هـ - ١٩٦٣م.
- د. هولو جودت فرج - البرامكة سلبياتهم وإيجابياتهم، ط ١، دار الفكر اللبناني، بيروت، ١٩٩٠م.

دوائر المعارف

- دائرة المعارف الإسلامية - هوتسما ورفاقه، التوقيع، نقلها إلى العربية إبراهيم زكي خورشيد ورفاقه، راجعها محمد أحمد جاد المولى، العدد الأول، المجلد السادس.
- نفسه، مادة برامكة

الدوريات

- د. فاروق عمر فوزي - الرسائل المتبادلة بين الخليفة هارون الرشيد والثائر حمزة بن عبد الله الخارجي، المجلة التاريخية العراقية، ١٩٧٤م، ص ٢٦٠-٢٧٤.
- د. قحطان عبد الستار الحديثي - حركات الخوارج في خراسان، مجلة كلية الآداب، جامعة البصرة، العدد السادس، السنة الخامسة، ١٩٧٢م.
- د. محسن غياض - بشر بن أبي كبار البلوي، مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، العدد الثالث عشر، بغداد، ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م، ص ٤٧٤-٤٨٧.

الرسائل الجامعية

- عبد الحلیم الهروط - الرسائل الديوانية في مملكة غرناطة في عصر بني الأحمر، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن، ١٩٩٤م.
- قويدر بشار - دور أسرة البرامكة في الخلافة العباسية، رسالة ماجستير، معهد التاريخ، الجزائر، ١٩٨٥.
- د. محمد الدروبي - الرسائل الفنية في العصر العباسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري، رسالة دكتوراه، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن، ١٩٩٦م.

Abstract

The Diwani Epistles in the Reign of Khalif Haroun Al Rashid

Prepared by:

Raed Hussein Hassan Al Nabtiti

Supervised by :

Dr. Esmat Ghosheh

This study deals with the administrative message during Haroun Al-Rashid reign. The importance of this study was represented through the messages themselves. In fact, these message expressed the political, administrative and social life of the Abbasi Community during Al-Rashid reign and give a clear idea about this life.

The Administrative messages and other administration offices played a great role in forming these messages. This study shows how writing messages was used as a bridge used by writers to promote into distinguished positions in the state, in the sense that some of them obtained prominens positions as ministers.

During Al-Rashid reign, these messages accompanied and represented the historical events of the Islamic State such as the conflict with Al-Khawarij and Al-Ala'wyin and Al-Baramika defeat.

The messages represented the peaceful and warlike relationship between the Islamic State and the Roman state.

During this era, some of the informational messages appeared.

The most important of them were homage, circulars and good news which exposed the state determination on lasting communication with its people.

These messages contained several administrative subjects such as appointment, termination, kharaj, judgment and donations.

This study shows three prominent writers of this era specially in Daiwaniyeh writing. It translated their bibliography described their styles and technical methods for expressing the discussed issues in their messages.

The study investigates some of technical characteristics of these letters. It talks about beginnings, endings, expressions methods, images and the range that authors benefit from and how they were affected by the Arab Islamic inheritance represented by the Holy Koran, the prophet's traditions and the Arabic Poetry.

٤٩٤٨٥٨